حكم ابن عطاء الله

شرح

العارف بالله الشيخ أحمد زرّوق

تحقيق

الدكتور عبد الحليم محمود

الدكتور محمود بن الشريف

الناشر

مكتبة النجاح

١١٩ سوق الترك - طرابلس - ليبيا

أشرف على الطباعة
مكتبة القاهرة بالصنادقية بالأزهر الشريف

دار النصر للطباعة
١٣ شارع سعد الله بالدرب الأحمر القاهرة

حكم ابن عطاء الله

تحقيق

الدكتور عبد الحليم محمود — محمود بن الشريف

تزيد في باب الطاعة وغيرها فقال أنس رضي الله عنه ما نفضنا التراب عن أيدينا بعد دفن رسول الله
صلى الله عليه وسلم حتى وجدنا النقص في قلوبنا الحديث فحصلة ما ولياء الله تعالى أبواب الله ومعرفتهم
مفتاح تلك الأبواب واستنان ذلك المفتاح حفظ الحرمة وحسن الخدمة ودوام الحشمة واتساع
الرحمة بعين أنها ملهم بذلك فتح له وإلا فهو على خطر مما نبه عليه المؤلف إذ قال ربما
اطلعك على غيب ملكوته وحجب عنك الاستشراف على أسرار العباد قلت يقول ربما
أكرمك المولى سبحانه بالاطلاع على غيب الملكوت الذي هو الاطلاع على مكنون العلم ودقائق
المعارف حتى يكون الأمر عندك في ذلك كأنه رأي عين إن عمل لك منه ما لا عين رأت ولا أذن سمعت
ولا خطر على قلب بشر ومع ذلك لم يطلعك على شيء من أسرار العباد فتعرف أمورهم رحمة بك
وبهم إبقاء عليك وعليهم وإلا فما فتح لك خير مما حجب عنك وهذا ما نبه عليه المؤلف
إذ قال من اطلع على أسرار العباد ولم يتخلق بالرحمة الإلهية كان اطلاعه فتنة عليه
وسببا لجر الوبال إليه ولـ[illegible] التخلق بالرحمة الإلهية هو أن يكون واسع الرحمة
لعباد الله قد وسع الناس بنفسه وخلقه بحيث يكون لهم أبا وكما قال [illegible] في المؤمنين فيما جاء في
وصفه عليه السلام وكان بالمؤمنين رحيما يرحم المذنبين ويعطف على الضعفاء ويحلم
عن الجاهلين ويحسن للمسيئين إذ كان خلقه القرآن كما قالت أم المؤمنين رضي الله عنها قلت قوله تعالى
خذ العفو وأمر بالمعروف وأعرض عن الجاهلين ومن هنا كان متخلقا بهذا الخلق كان اطلاعه
إكراما له ورحمة لعباد الله وإلا فكما قال المؤلف فتنة في الحال وسببا لجر إليه المكروه
وسوء العقبى في المآل والوبال لأنه يقرر نفسه بثلاث تزكية نفسه برؤية الفضل وتضييق
رحمة الله عن عباده وإذاية عباد الله بهتك أستارهم وهو أخو إبليس لا يرحم الله إلا قد
يا راحم بني جميع الخلق كلهم ۞ وانظر إليهم بعين اللطف والشفقة
ووقر كبيرهم وارحم صغيرهم ۞ ثم ارع في كل خلق حق من خلقه
ثم اطلع أما أن يكون على معصية أو على طاعة لكون [illegible] النفس فيها حظا [illegible] عمل
بعينها وهذا ما أشار إليه المؤلف إذ قال حظ النفس في المعصية ظاهر جلي وحظها
في الطاعة باطن خفي فلذلك يعسر حظ النفس في المعصية ظاهر وأما ظاهر جلي لأنها
من صفات الطاعة وهو أمر النفس الربية [illegible] بفسادها ولولا ما تصور وجودها
لا زاجر [illegible] تحت الشريعة على أمر [illegible] عن النفس والاطلاع على المعصية
[illegible] النفس وما يستشعر معه من التزين وما يجده من لذة الاطلاع من نعم الغيب
[illegible] الموجه

صفحة من مخطوط الشيخ « زرّوق » ذات الخط المغربي التي اعتُمد عليها في التحقيق

وهو بعيد ومن كان مقصوده بث [illegible] وفقره لمولاه فهو في محل القرب فإن الطالب لذلك فهو
المناجاة بين يديه فهو أحسن وقد [illegible] الشيخ أبو الحسن رضي الله عنه لا يكون حظك من الدعاء
الفرح بقضاء حاجتك دون الفرح بمناجاة مولاك فتكون من المحجوبين انتهى ثم ذكر
رحمه الله ما ذكرناه بأن قال كيف يكون طلبك اللاحق سببا في عطائه السابق قلت
كيف يكون طلبك اللاحق سببا لا يزال مسببا في عطائه السابق في الأزل ذلك لا يصح أبدا
لاستحالة تقديم المتأخر وتأخير المتقدم وقد جف القلم بما أنت لاق وفرغ ربك من أربع
خلق وخلق ورزق وأجل قال الواسطي رحمه الله أقسام سبقت ونعوت أجريت فكيف
تنال بأعمال أو تكتسب بسعايات انتهى ثم زاد المؤلف قوة في إبرازها وإيضاحا للمعنى بأن
قال جل حكم الأزل أن يضاف إلى العلل قلت وذلك لأن العلل حادثة مسبوقة
وحكم الأزل سابق غير مسبوق وقد سئل ذو النون رضي الله عنه عن التوحيد فقال
أن تعلم أن قدرة الله في الأشياء بلا مزاج وصنعه لها بلا علاج وعلة كل شيء صنعه
ولا علة لصنعه وليس في السموات العلى ولا في الأرضين السفلى مدبر غير الله وكل ما خطر ببالك
فالله بخلاف ذلك انتهى ومن شواهد نفي العلة ما جرى في وجودك إيجادا وإمدادا إذ لا يصح
أن يكون شيء من ذلك عن سبب منك وهذا ما توجه بيانه بأن قال عنايته
فيك لا لشيء منك قلت أراد بعنايته فيك ما أظهر من اعتنائه بشأنك
إذ أوجدك من العدم وأمدك بالنعم وخصك بالكرم وعرفك بانفراده بالوحدانية
واتصافه بالصفات العلية مع البقاء والقدم إلى غير ذلك مما أنت محتاج إليه وهو غني
عنه بك وغيره وذلك كله جاد لك من غير استحقاق ولا وسيلة سابقة إذ كنت عدما
محضا ونفيا صرفا كما أشار إليه إذ قال وأين كنت حين واجهتك عنايته وقابلتك
رعايته قلت لم تكن شيئا مذكورا أولا ولا آخرا وقد خلقك ولم تك شيئا ولولا
نعمة ربك لكنت من المحضرين [illegible] وبلغتك عنايته بإيجادك وإمدادك ما أنت محتاج إليه بل
هو أعم من ذلك وواجهتك رعايته في ذلك حتى جعله عليك وجعلا وجودك مع ذلك أن
ملكه الأعمال بالجسم حتى يعمل وإن خلقك بالأحوال بالقلب حتى ينشأ عنه الحال قلت
لما [illegible] أن يخفى من ذلك بأنك فقير إليه وحقيقة هو غني عنك فلم يبق إلا بفضله وكرمه
كما ينبه المؤلف إذ قال لم يكن في أزليته إخلاص أعمال ولا وجود أحوال بل لم يكن هناك
إلا محض الإفضال وعظيم النوال قلت يعني الثواب يتعلق بالأعمال والأحوال بما

. . . وصفحة أخرى



الحمد لله ربّ العالمين . والصلاة والسلام على أشرف المرسلين سيدنا محمد ، وعلى آله وصحبه ، ومن اتبع هديه إلى يوم الدين

وربّنا آتنا من لدنك رحمة وهيء لنا من أمرنا رشدا . .

مقدمة

بسم الله ، والصلاة والسلام على الرحمة المهداة ، محمد بن عبد الله ، عليه وعلى من والاه أفضل صلاة وأزكى تسليم .

وبعد :

فقد ذلّل الله الكون لعباده ، ووجههم إلى تعميره والسيطرة على الطبيعة بالعلم والمعرفة، وعبّر سبحانه عن ذلك كله بعديد من الأساليب منها : ـ

أنه أخبرنا ـ مُمتنًّا علينا ـ بأنه سخَّر لنا الشمس ، والقمر ، والنجوم ، والكواكب . . وسخّر لنا الأرض ، والسماء ، وما بين الأرض والسماء . .

لقد سخَّر لنا الكون كلّه ؛ لنستخدمه : نغوص بحاره ، ونجوب فضاءه ونجوس خلال دياره ، ونجول في أرجائه .

﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ ، وَسَخَّرَ لَكُمُ الْأَنْهَارَ ، وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ﴾

[آية ٣٣ : ابراهيم]

ويقول سبحانه :

﴿هُوَ الَّذِى أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ يُنْبِتُ لَكُمْ بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالأَعْنَابَ وَمِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ إِنَّ فِى ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ، وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ ، إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَومٍ يَعْقِلُونَ ، وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُخْتَلِفاً أَلْوَانُهُ ، إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ، وَهُوَ الَّذِى سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرى الْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ ، وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ، وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَاراً وَسُبُلاً لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ، وَعَلَامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ ﴾

[الآيات : من ١٠ — ١٦ سورة النحل]

لقد هيّأ الله لنا عالم الطبيعة ، ووضع فيه من القوانين والأسرار ما يفيدنا لوسرنا بها إلى الخير الذى أحبه الله سبحانه ، وتركنا وجهاً لوجه أمام الكون دون أن يقيّدنا فيما يتعلق بالبحث فيه بقيد ، اللهمّ إلاّ قيد إرادة الخير فى كلّ ما نأتى وما ندع .

وإذا كان الله ، عزّ وجلّ ، قد جعلنا خلفاء فى الأرض مصداقاً لقوله ﴿ إنّى جاعل فى الأرض خليفة ﴾ . . .

وإذا كان سبحانه ، قد ترك لعقولنا مجال البحث . . فإنه سبحانه أنزل دستوراً هادياً لعقولنا ، مبيناً النهج الذى عليه يقوم تعاملنا فى المجتمع . .

لقد بيَّن سبحانه ، المبادئ التى تقوم عليها صلة الأفراد بعضهم ببعض ، فيما يُسمى فى الفقه بـ « الأحوال الشخصية »

وبيَّن الأُصول التى تقوم عليها صلة الأفراد بعضهم ببعض فى مجتمعهم ، كالتجارة والرهن ، وكتابة الدَّين ، وغير ذلك .

وأفاض ، تبارك وتعالى ، فيما يتعلّق بالُخلق الشخصى ، من : صدق ، وورع ، وتقوى ، وحلم ، وحياء ، وغيرها .

ولقد حدّث رسول الله صلى الله عليه وسلم بأنه إنما بُعث ليتمم مكارم الأخلاق . ثم بيّن الشارع الحكيم فى استفاضة قواعد الإيمان التى تتبلور فى : شهادة أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله ، مع إقامة الدين على الوضع الذى بيّنه الله فى كتابه الحكيم ، وعلى لسان رسوله الكريم .

وحدّثنا ، جلّ وعلا ، بأن قانونه الذى لا يتخلّف : أنه كاف عبده . . الذى حقّق له العبودية كما أحب سبحانه .

ولقد عقل قوم عن الله ذلك . . وتأملوه . . وتدبّروه . . ورأوا ببصيرتهم المستنيرة ، وببصرهم النافذ أن الخير كل الخير فى أن يستجيبوا لله ورسولهِ حتى يستجيب لهم الله ورسوله . .

وأن يكونوا لله ، فيكون الله لهم ، يقول سبحانه : أليس الله بكاف عبده . ويقول سبحانه ﴿ وكفى بربك هادياً ونصيراً ﴾ . .

ويقول عزّ من قائل : ﴿ إِنْ تَنْصُرُوا اللهَ يَنْصُرْكُم ﴾ . .

ويقول تبارك وتعالى :

﴿ وَمَنْ يَتَّقِ اللهَ يَجْعَل لَهُ مَخْرجاً وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لاَ يَحْتَسِبُ، وَمَن يَتَوكَّل عَلَى اللهِ فَهُو حَسبُهُ ﴾

ويقول ، جل وعلا :

﴿ أَلا إِن أَوْلِيَاءَ اللهِ لاَ خَوْفٌ عَلَيْهِم وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ ، الَّذِين آمَنُوا ، وَكَانُوا يَتَّقُونَ ، لَهُمْ الْبُشْرى فِي الْحَيَاةِ الدُّنيا وَفِي الآخِرَةِ ، لاَ تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللهِ ، ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْعَظِيمُ ﴾

وفى حديث قدسىّ يقول سبحانه :

﴿ عبدى اعبدنى اجعلك ربانياً تقول للشىء كن فيكون ﴾

وفى حديث قدسى آخر يقول :

﴿ من عادى لى وليًا فقد آذنته بالحرب ، وما تقرّب إلىّ عبدى بشىء أحبَّ إلىّ من أداء ما افترضته عليه . . وما يزال عبدى يتقرّب إلىّ بالنوافل حتى أُحبَّه . . فإذا أحببته كنت سمعه الذى يسمع به ، وبصره الذى يبصر به ، ويده التى يبطش بها ، ورجله التى يمشى بها ، ولئن سألنى لأعطينّه ، ولئن استعاذ بى لأعيذنّه ﴾ .

هذه الأنباء ، وكثير غيرها عن الله سبحـــانه وتعالى ، تبيّن أنه تكفّل بمنح الحياة الطيّبة لمن استجاب له . .

والمؤمنون موقنون بأن وعد الله لا يتخلّف .

فلما رأى ذلك أصحابُ القلوب المشرقة ، استجابوا لله ورسوله ، وشمّروا عن ساعد الجدّ في العمل على ما يُرضي الله ورسوله . . وطبقوا قوانين الله في الكون ، وفي المجتمع ، فسعدوا السعادة الكاملة وأعلنوا أنهم في لذّة لو عرفها الملوك لجالدوهم عليها بسيوفهم .

لقد رضوا عن الله ، فرضي الله عنهم ، ومنحهم الرضى . .

ولقد آمنوا ، واتقوا ، ففتح الله عليهم بركات من السماء والأرض . .

ولقد آمنوا ، وعملوا الصالحات ، فأحياهم الله حياة طيبة . .

ومع ذلك فإنّ العاملين لله تتفاوت درجاتهم ، ومنازلهم بتفاوت هممهم في العمل لله . فمنهم :

أصحاب اليمين :

﴿ وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ مَآ أَصْحَابُ الْيَمِينِ ، فِي سِدْرٍ مَّخْضُودٍ ، وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ ، وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ ، وَمَاءٍ مَّسْكُوبٍ وَفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ لاَّمَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ ، وَفُرُشٍ مَّرْفُوعَةٍ ، إِنَّآ أَنشَأْنَاهُنَّ إِنشَاءً ، فَجَعَلْنَاهُنَّ أَبْكَارًا ، عُرُبًا أَتْرَابًا ، لِّأَصْحَابِ الْيَمِينِ ، ثُلَّةٌ مِّنَ الْأَوَّلِينَ وَثُلَّةٌ مِّنَ الْآخِرِينَ ﴾

[الواقعة : ٢٧ ـ ٤٠]

ومنهم : الأبرار :

﴿ إِنَّ الْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا ، عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيراً ، يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيراً ، وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ ، مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيراً ، إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا ، إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا ، فَوَقَاهُمُ اللَّهُ شَرَّ ذَلِكَ الْيَوْمِ وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا ، وَجَزَاهُم بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيراً ، مُّتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْساً وَلَا زَمْهَرِيراً . وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَالُهَا وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلاً . وَيُطَافُ عَلَيْهِم بِآنِيَةٍ مِّن فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرَا . قَوَارِيرَا مِن فِضَّةٍ قَدَّرُوهَا تَقْدِيراً . وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْساً كَانَ مِزَاجُهَا زَنجَبِيلًا عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّى سَلْسَبِيلاً . وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤاً مَنثُوراً . وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكاً كَبِيراً . عَالِيَهُمْ ثِيَابُ سُندُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ وَحُلُّوا أَسَاوِرَ مِنْ فِضَّةٍ وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَاباً طَهُوراً . إِنَّ هَذَا كَانَ لَكُمْ جَزَاءً وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُوراً ﴾ .

[الآيات ٥ — ٢٢ من سورة الانسان]

ومنهم : السابقون أو المقربون وهم فى الذروة من الولاية لله :

﴿ وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ . أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ . فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ . ثُلَّةٌ مِّنَ الْأَوَّلِينَ . وَقَلِيلٌ مِّنَ الْآخِرِينَ . عَلَى سُرُرٍ مَّوْضُونَةٍ . مُّتَّكِئِينَ عَلَيْهَا مُتَقَابِلِينَ . يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ . بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ لَّا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنزِفُونَ . وَفَاكِهَةٍ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ . وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ . وَحُورٌ عِينٌ . كَأَمْثَالِ اللُّؤْلُؤِ الْمَكْنُونِ . جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ . لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا . إِلَّا قِيلًا سَلَامًا سَلَامًا ﴾

[من سورة الواقعة الآيات من ١٠ — ٢٦]

إنَّ هذه الدرجات التى أعدّها الله لهم فى الآخرة لهم ما يتناسب معها فى الدنيا من الرضى ، والسكينة ، وطمأنينة النفس ، والحفظ ، والسعادة .

لقد تدبّر هؤلاء المقرّبون الغايات والأهداف ، ووازنوا ، وقارنوا واستقرت بهم الآمال عند قوله تعالى :

﴿ وأنَّ إلى ربك المنتهى ﴾

وليس دون الله منتهى للمسلم الصادق . .

إنَّ إليه المنتهى فى الأسباب والعلل . .

وإليه المنتهى فى الحكم والتصريف . .

وإليه المنتهى فى الغايات والأهداف . .

وإليه المنتهى فى الآمال والمقاصد . .

وسمت الهمم بقوم فأحبوا أن يحققوا هذا « المنتهى » شهادة ، كما حققوه إيمانا واعتقاداً ، لقد أرادوا أن يحققوا :

﴿ أَشهدُ أَنّ لا إله إلاّ الله ﴾

أرادوا أن يحققوها فى صورة صادقة ، يحققوها « واقعاً » كما حققوها « إيماناً » . لقد أرادوا أن « يشهدوا » شهادة صادقة فأخذوا فى الطريق إليها .

لقد أخذوا يجتازون منازل الأرواح ، مدارج السالكين . . منازل السائرين ، معارج القدس ، لقد ساروا فى المقامات مبتدئين بالتوبة الخالصة النصوح ، تتفجر فى قلوبهم أنوار الأحوال متدرجة بهم من مقام إلى مقام ، ومن منزلة سامية إلى منزلة أسمى ، ومن مقام شريف إلى مقام أشرف ؛ حتى أصبحوا بقلوبهم وبأرواحهم فى رحاب الحبيب ، مع الحبيب .

وكان منهم الصدِّيق . .

وكان منهم المحدَّث . .

وكان منهم ذو النورين . .

وكان منهم باب مدينة العلم . .

وكان منهم من قيل له : عَرفتَ فالزم .

وكان منهم القادة فى القديم وفى الحديث ، والهداة فى الماضى والحاضر ، والأسوة الحسنة ، على مرّ العصور والأجيال .

وكلما مكّنهم الله فى الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ، ونهوا عن المنكر .

وكلما رفعهم الله ازدادوا له تواضعاً ، وازدادوا له خشية . .

ودانت لهم الدنيا سيطرة وامتلاكاً ؛ لأنهم دانوا الله خضوعاً وطاعة . .

لقد دانت لهم : قادةللحرب والنضال ، ودانت لهم:دعاة مبشرّين ومنذرين ، ودانت لهم فى جميع مجالاتها ؛ لما اكتفوا باللهعنها .

* * *

وباب الله مفتوح ، ورحابه لم يضق يوماً بطارق ، ومغفرته تنتظر اللاجىء إلى فضله ، ورحمته وسعت كل شيء :

إنه ـ سبحانه ـ ينادى كل ليلة : ألا هل من مستغفر فأغفر له .. ألاَ هل من تائب فأتوب عليه . . ألاَ هل من سائل فأعطيه .

ويده سبحانه مبسوطة بالليل ليتوب مسىء النهار ، ومبسوطة بالنهار ليتوب مسىء الليل .

وكما يقول سبحانه: ﴿ياعِبَادى كلكم ضالّ إلاّ من هديته فاستهدونى أهدكم﴾ فإنه يقول : ﴿ ياعبادى ، إنكم تخطئون بالليل والنهار،وأنا أغفر الذنوب جميعاً فاستغفرونى أغفر لكم﴾

وإذا ماتخطّى الإنسان مرحلة التوبة الخالصة الصادقة النصوح التى تخرج من القلب فتفتح لها أبواب السماء فإن الله سبحانه يتجلى عليه بالرعاية ، بالحنان ، وهو الحنّان ، ويمنُّ عليه بالفضل ، وهو المنّان ، ويوفقه ، وهو صاحب الفضل والتوفيق ، ويمدّه ومدده دائم لا ينيض . . حتى يصبح من أوليائه . . ومن أصفيائه . . ومن أحبائه .

والطريق مفتوح . .

وهذا الطريق رسمه أولياؤه عن تجربة ، ووصفوه عن خبرة . . لقد ساروا فيه ، واستقاموا على جادته ، ونعموا برياضة ، وسعدوا فى جناته ، واستقروا عند الحبيب . . ثم وصفوه .

ووصفوه للحيارى . . ولطالبى الحق والخير . . وللبعيدين عن الله الذين تتطلع نفوسهم إلى القرب منه . . ؛ لقد وصفوه لكل مستهدٍ . . لكل مستشرف . . للنفوس التى لا يزال فيها بقية من خير وشعاع من نور .

* * *

وآثار الهداة المهديين الذين رسموا الطريق عن خبرة ودعوا إليه على بصيرة ، كثيرة ، ومن أنفسها كتاب « الحكم العطائية » ألّفه الإمام الجليل « ابن عطاء الله السكندرى » الذى جمع بين رئاسة علوم

الشريعة وعلماء الشريعة ، ورئاسة علوم الحقيقة وعلماء الحقيقة فكان عالماً ، متشرعاً ، متحققاً .. بل رأس علماء التشريع وعلماء التحقيق . أخذ العهد على الإمام الكبير أبي العباس المرسي الذي قال عنه القطب الشاذلي:

« إنه أعلم بطرق السماء منه بطرق الأرض » .

وقال فيه :

« هذا أبو العباس ، منذ أن عرف الله لم يُحْجب عنه ، ولو طلب الحجاب لم يجده »

ويقصّ ابن عطاء الله في كتابه اللطيف الشيّق « لطائف المنن » قصة صلته بأبي العباس فيقول :

« كنت لأمره (أي لأمر الشيخ أبي العباس) من المنكرين ، وعليه من المعترضين ، لالشيء سمعته منه ، ولالشيء صح نقله ؛ ولكن جرت المخاصمة بيني وبين أصحابه فقلت فيهم قولاً عظيما ، ثم قلت في نفسي : دعني أذهب أنظر هذا الرجل ؛ فصاحب الحق له أمارات لايخفى شأنه ، فأتيت إلى مجلسه فوجدته يتكلم في الأنفاس ومسألة درجات السالكين إلى الله ، ومدى معرفتهم به وقُربهم منه ، فقال : الأول إسلام ، وهو : درجة الانقياد والطاعة والقيام برسم الشريعة. وثانيها الإيمان ، وهو : مقام معرفة حقيقة الشرع بمعرفة لوازم العبودية ، وثالثها : الإحسان ، وهو مقام شهود الحق تعالى في القلب . وإن شئت قلت : الأول عبادة ، والثاني : عبودية ، والثالث : عبودة . وإن شئت

قلت : الأول شريعة ، والثانى : حقيقة ، والثالث : تحقق ، فما زال يقول : وإن شئت قلت وإن شئت قلت وإن شئت قلت ، إلى أن بهر عقلى وسلب لبى ، فعلمت أن الرجل إنما يغترف من فيض بحر إلهى ومدد ربانى ، فأذهب الله ما كان عندى .

ثم أتيتُ تلك الليلة إلى المنزل فلم أجد فىّ شيئاً يقبل الاجتماع بالأهل على عادتى ، ووجدت معنى غريباً لا أدرى ماهو ؟ فانفردت فى مكان أنظر إلى السماء وكواكبها ، وماخلق الله فيها من عجائب قدرته ، فلمس قلبى أشياء لم أعرفها من قبل . . فحملنى ذلك على العودة إليه مرة أخرى فأتيت إليه ، فاستؤذن لى عليه ، فلما دخلت إليه قام قائماً ، وتلقانى ببشاشة وإقبال حتى دهشت خجلاً ، واستصغرت نفسى أن أكون أهلاً لذلك ، فكان أول ماقلت له : أيا سيدى ، أنا والله أحبُّك . فقال : أحبَّك الله كما أحببتنى ، ثم شكوت له ماأجده من هموم وأحزان فقال : أحوال العبد أربع لا خامس لها : النعمة ، والبلية ، والطاعة ، والمعصية ؛ فإن كنت فى النعمة فمقتضى الحق منك الشكر ، وإن كنت فى البلية فمقتضى الحق منك الصبر ، وإن كنت بالطاعة فمقتضى الحق منك شهود منّته عليك ، وإن كنت بالمعصية فمقتضى الحق منك وجود الاستغفار .

فقمت من عنده وكأنما كانت الهموم والأحزان ثوباً نزعته ،

ثم سألني بعد ذلك بمدة : كيف حالك ؟ فقلت : أفتش عن الهم فما أجده . فقال :

ليلى بوجهك مشرق وظلامه فى الناس سارى
والناس فى سدف الظلا م ، ونحن فى ضوء النهار

إلزم ، فوالله لئن لزمت لتكونن مفتياً فى المذهبين : فى علوم الظاهر ، وحقائق الباطن »

ولازم ابن عطاء الله أستاذه ، ثم كان من بعده شيخ الطريقة الشاذلية . إلى أن توفى فى جمادى الآخرة سنة ٧٠٩ هـ .

وابن عطاء الله هو الذى كان له الفضل الكبير فى بيان ما نعرفه الآن من آثار أبى العباس المرسى ، وفى بيان الكثير أيضاً مما نعرفه عن القطب الكبير الحجة أبى الحسن الشاذلى ، وابن عطاء الله هو الذى جند قامه للدعوة إلى طريق الله . . فكتب هذه الدرر التى تركها مصابيح وأنجماً تهدى السائرين إلى الله . .

وكتابه « الحكم » مجموعة من الحكم صُفِّيت من ناحية التعبير والأسلوب فكانت مثالا عالياً للأدب الرفيع ، يضع ابن عطاء الله فى مصاف أهل الأدب الفصيح البليغ . .

وصُفّيت من حيث الفكرة فكانت مثلا رائعاً للفكر الصوفى ، أو للنور الصوفى ، أو المعراج الروحى فى مستوى يضع ابن عطاء الله فى الصف الأول من صفوف المقربين .

* * *

وأغرم بالحكم كثيرون .. أغرموا بها تدريساً .. وأغرموا بها شرحاً ..

لقد شرحها « ابن عبّاد » العالم الصوفى الكبير ..

وشرحها « ابن عجيبة » شرحاً كلّه نور ..

وشرحها الشيخ الشرقاوى ، والشيخ الشرنوبى ..

أما الشيخ أحمد زرّوق فإنه قد افتتن بالحكم افتتاناً ؛ لقد استولت عليه جاذبيتها ، فكانت لا تفارقه فى سفر ، ولا فى إقامة ..

وكان يشرحها ، فإذا ما انتهى من شرحها ، بدأ يشرحها شرحاً جديداً آخر ..

وتفاوتت شروحه بين الإيجاز والتطويل ..

أما عدد هذه الشروح فلم يتيسر إحصاؤها فى دقة دقيقة، والمؤكد أنها وصلت إلى ثلاثين شرحاً .

وهذا الشرح الذى بين أيدينا هو شرحها « السابع عشر »

لقد أعلن ذلك الشيخ أحمد زروق نفسه فى مقدمة هذا الشرح ، وعدّ الشروح التى سبقته ، مبيناً الأمكنة التى كتبت فيها على الترتيب

يقول الشيخ زروق :

« وقد كنا كتبنا عليه مراراً عديدة ، كمل منها سبعة عشر ،

فكان الأول منها بمدينة « فاس » سنة سبعين (يقصد سبعين وثمانمائة) ، ثم سُرق ، فكتب الثانى بها وكملته بتونس ، ثم الثالث . . .

ويستمر يعد شروحه ، ثم يقول فى النهاية :

ثم هذا هو السابع عشر »

ويتحدث الشيخ زروق عن شروح الأئمة الآخرين ، ويبين ماامتاز به شرحه وتعليقاته . ولا نريد أن نثبت هنا ماسيقرؤه القارىء فى مطلع هذا الشرح بقلم الشارح .

* * *

أما عن الشيخ زرُّوق نفسه ؛

فهو : أحمد بن أحمد بن محمد الفاسى المعروف بـ « زروق » .

وهو قمة من قمم التصوف ، وهو حينما يكتب عن « الحِكم » فإنما يكتب كتابة عالم ، ويكتب كتابة مؤرخ . .

ولكنه من قبل ذلك ومن بعد ذلك ، يكتب كتابة « متذوّق » .

لقد سار فى الطريق الذى سار فيه ابن عطاء . .

وعنه ، يقول « المناوى » فى كتابه « طبقات الشاذلية » :

« عابد من بحر العبر يغترف . .

وعالم بالولاية متَّصف . .

تحلّى بعقود القناعة والعفاف . .

وبرع فى معرفة الفقه ، والتصوف ، والأصول ، والخلاف . .

خطبته الدنيا فخاطب سواها . .

وعرضت عليه المناصب فردَّها وأباها . . »

ويذكر السخاوى فى كتابه « الضوء اللامع » عن الشيخ زروق :

أنه ولد فى يوم الخميس الثامن عشر من المحرم سنة : ست وأربعين وثمان مائة ، ومات أبوه قبل تمامه إسبوعاً ، فنشأ يتيما »

ولد فى « فاس » ، وحفظ بها القرآن وتعلم بها ما يتعلمه أترابه من المبادىء الأولى للعلوم الدينية والعربية .

ثم كانت حياته بعد ذلك : دراسة ، وسياحة ، وتجرُّداً .

يقول عنه « السخاوى » : « . . وقد تجرَّد وساح »

أما السياحة ، فإنها تعنى فى لغة ذلك العصر : الأسفار المتلاحقة فى طلب العلم ، والخلوة فى العبادة ،

وقد كانت حياته : طلباً للعلم ، وكانت عبادة .

لقد أخذ التصوف عن أئمة عصره ومنهم « النورى »

وأخذ الحديث عن « السخاوى » .

وأخذ العربية على يد « الجوجرى » .

وعن كتبه وتواليفه يتحدث صاحب كتاب « شذرات الذهب » فيذكر أنه :

كتب على « الحكم » نيفا وثلاثين شرحاً .

وعلى «القرطبية» وعلى «رسالة ابن زيدون القيروانى» عدة شروح كلها مفيدة نافعة . وشرح « حزب البحر » للامام الشاذلى ، وألّف كتاب « قواعد التصوف ، وأجاده جداً .. »

وكانت وفاته ، سنة : ٨٩٩ هـ » .

* * *

وهذا الشرح الذى بين أيدينا يرجع الفضل فى التوجيه إليه ، وفى نشره إلى السيد الفاضل صاحب مكتبة النجاح بطرابلس الغرب الأستاذ محمد نور الدين بربوره

إنه رجل صالح ، يحب الخير ، ويحب نشر العلم ..

وهو الذى قدّم لنا مخطوطة للكتاب كانت عنده بخط مغربىّ قديم .

ولقد وجدنا مخطوطتين بدار الكتب المصرية ، إحداهما بالمكتبة التيمورية ، ذات خط جميل وتنسيق وتنميق ، والأخرى بالدار بخط قديم أقرب إلى الخط الكوفىّ منه إلى الخط الحديث ولمّا توفّرت لدينا المخطوطات الثلاث بدأنا ـ بعون من الله ـ التحقيق راجعين إليها جميعاً ..

ولم نرد أن نثبت كل الاختلافات ؛ فالكثير منها كان يبدو فى بعضه الخطأ الصريح ، وما أثبتنا إلاّ ما كان له احتمال من الصحّة .

وأحياناً أشرنا فى الهامش إلى المخطوطة التيمورية بحرف : ت .

ولقد كنا نرجع كثيراً إلى شرح « ابن عبّاد » فأفادنا فى تصحيح بعض النصوص .

* * *

وإنّا فى النهاية إذ نقدّم الشكر لصاحب مكتبة النجاح الأستاذ محمد نور الدين بريون راجين له من الله التوفيق والنجاح لنردد ذلك الرجاء الذى سجَّله الشيخ زرّوق فى مقدمة الكتاب عندما توجَّه إلى الله مبتهلاً راجياً ، قائلاً :

« أرجو الله أن يكون نفعه عاماً ، وأن يجعله حيثما حلّ رحمة لعباده ، وبركة فى بلاده ، وأن يحميه من كل جاهل يتجاهل ، أو حاسد يعرف الحق ويتجاهل ، إنه ولىّ ذلك والقادر عليه .

وحسبنا الله ونعم الوكيل »

الدكتور عبد الحليم محمود ، محمود بن الشريف

مقـــدمة الكتاب

بسم الله الرحمن الرحيم

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلّم تسليما .

يقول العبد الفقير ، المعترف بذنبه ، الراجى بكل حال فضل ربّه الشيخ الفقيه العارف المحقق ، فريدعصره ، ونسيج وحده ، أحمدبن أحمد ابن محمد بن عيسى البرنسى الفاسى ، عرف بـ « زرّوق » أصلح الله حاله ، وبلّغة فيما لديه آماله بمنّه وسعته إنه على مايشاء قدير :

الحمد لله ، الذى فجّر ينابيع الحكمة من قلوب الصادقين فَجَرت ، وفتح لها أسماع المحبّين والراغبين فسرت ، ونور بها بصائر المتوجهين والطالبين فأبصرت . أحمده حمد معترف بمنّته فى حمده[1] ، وأشكره شكر عارف بإحسانه ورفده[2]، واستغفره من كل ذنب فى هزل العمل وجدّه ، وأستعينه إستعانة من علم أن كل شيء من عنده ، وأصلى على سيدنا محمد نبيه الكريم وعبده ، وعلى آله وأصحابه وذريته وكافة أهل ودّه ، صلاة نؤدى بها ماوجب من تعظيم قدره ومجده ، وأسلم عليه وعليهم تسليماً كثيراً . والحمد لله على ذلك .

---

(١) إن الله سبحانه وتعالى هو الذى يوفق العبد للحمد ؛ فقيام العبد بالحمد منة من الله سبحانه تستدعى شكره وحمده من جديد . . وهكذا .

(٢) رفده : عطائه .

أمَّا قبل كل شيء ، ومعه ، وبعده ، فليس على الحقيقة إلا الله وحده[١]
من وقف ببابه الكريم أنجح وملك ، ومن استند لجنابه العظيم أفلح وسلك ، ومن حاد عن منهجه القويم خسر وهلك .

وخير العباد من وقف بكنه همَّته عليه ، وأفضلهم حالاً من توجَّه في كل أموره إليه ، وأعلاهم قصداً من طرح نفسه دائماً بين يديه ؛ فقام للحق على بساط التحقيق ، وجمع بين ظاهر الشرع وباطن الطريق ، ووقف للخدمة وغيرها موقف أهل الصدق والتصديق ، مقتدياً بأئمة الهدى والتوفيق ؛ كالسادة الشاذلية ، ومن في معناهم ، والجماعة الوفائية[٢] ومن جرى مجراهم ؛ إذ كانت لهم أعمال صحيحة مرضية ، وأحوال عظيمة سنية ، وأخلاق حسنة زكية ، وهمم رفيعة علية ، وحقائق ظاهرة جليَّة . وقد قربوا الطريقة أتمَّ تقريب ، وهذَّبوا الحقيقة أحسن تهذيب فوصلوا الإيمان بالإسلام ، وأجْروا الإحسان في الأعمال والأحكام ؛ ولذلك لا يصح إنكارها من فقيه محقق ، ولا اعتراضها من أصولي مدقق ، بل يكاد يرى سلوكها واجباً ، ومُجانبها خائباً ، وسالكها طالباً بل كما قيل :

---

(١) ليس إلا الله وحده مقصداً للطالبين وهدفاً للسائرين ، ويقول في ذلك الإمام أبو سعيد الخراز : « كل ما فاتك من الله ، سوى الله ، يسير ، وكل حظ لك ، سوى الله ، قليل » .

(٢) وعلى رأسهم سيدى : محمد وفا ، وسيدى على وفا ، وقد أفرد لهما الشيخ الشعراني دراسات مستفيضة مستقلة في طبقاته .

على مثل ليلى يقتل المرء نفسه ويحلو له مرُّ الغرام ويعذبُ

وإن من أجل كتاب وقع لهم فى ذلك . . وأنفعه لكل مريد صادق سالك ، كتاب « الحكم العطائية الشاذلية التوحيدية العرفانية الوهبية » . عباراته رائقة جامعة ، وإشاراته فائقة نافعة ، تثلج الصدر وتبهج الخاطر ، وتحرك السامع لها والناظر ، مع تداخل علومه وحكمه وتناسب حروفه وكلمه ؛ إذ كلُّه داخل فى كله ، وأوّله مرتبط بالأخير من قوله ، بل كل مسألة منه تكملة لما قبلها وتوطئة لما بعدها ، وكلٌّ باب منه كالشرح للذى قبله ، والذى قبله أيضاً كأنه شرح له ، فكل حكمة أو كلمة إنما هى كالتكملة ، أو كالمقدمة ، فأوسطه طرفاه[1] ، وآخره مبتداه ،وأوّله منتهاه ، يعرف ذلك من اعتنى بتحصيله ،وسنشير له فى جمله وتفاصيله ؛ إذ قصدُنا بهذا المسطور المختصر ، وضع شيء عليه يشبه الحواشى والطرَر ، وعلى الله المعتمد فى بلوغ التكميل ، وهو حسبنا ونعم الوكيل .

---

(١) يريد الشيخ رحمه الله أن يقول : إن الحكم وحدة واحدة ، وذلك على خلاف ما يظن بعض الناس من أنها متناثرات لا رابط بينها ، ولا تجمعها وحدة ولا تربطها رابطة التكامل ، وقد خفيت هذه الوحدة مثلا على الدكتور زكى مبارك فقال : « وليس بين الحكم العطائية رباط وثيق ، فهى مجموعة من الأقول نظمت فى أوقات مختلفة . . . » ولا شك أن أمر هذه الوحدة هو من الدقة بحيث ينبه على ذلك الشيخ فيقول : « يعرف ذلك من اعتنى بتحصيله » .

تنبيه :

قد تكلم الناس على هذا الكتاب وراموه بالشرح كثيراً ؛ فلم يتفق لأحد ممن رأينا إكمال شيء إلا ما لسيدنا الفقيه العارف المحقق الخطيب البليغ ، نسيج وحده ، ومقدَّم من أتى من بعده ، سيدى أبى عبد الله محمد بن إبراهيم بن مالك بن إبراهيم بن يحيى بن عباد النِّفْزِيِّ[(1)] نسباً ، المالكي مذهباً ، فإنه أكمل كتابه واعتمد فيه على النقل وتحصيل الفوائد المحتاج إليها ، فأتى بالعجب العجاب من ذلك ، وآثر السلامة فاقتصر على التقرير .

وقد كان رحمه الله ورضى عنه ذا سمة وهمّة[(2)] ، وتجمُّل وزهد وعفاف وصيانة ، وعظيم علم وكبير ديانة[(3)]

مولده بـ « رندة » سنة : سبع مائة وثلاثة وثلاثين .

وبها نشأ على أحسن حال وأكمله .

حفظ القرآن وهو ابن سبع سنين ، ثم ارتحل لفاس وتلمسان فقرأ

---

(١) النفزى : بكسر النون وسكون الفاء . نسبة إلى « نفزة » وهى قبيلة من القبائل الإفريقية ، كما جاء فى كتاب « تحرير الأنساب » للامام السيوطى .

(٢) وفى النسخة التيمورية : ذا صمت وسمت .

(٣) شرح ابن عباد على الحكم معروف مشهور . طبع فى القاهرة ، يقول فى أوله : « ولا قدرة لنا على استيفاء جميع ما اشتمل عليه الكتاب ، وما تضمنه من لباب اللباب ، لأن كلام الأولياء والعلماء بالله منطو على أسرار مصونة ، وجواهر حكم مكنونة ، لا يكشفها إلا هم ... » .

بها العربية والأصول والفقه ، ككتاب « الإرشاد » و « مختصر ابن الحاجب الأصلى والفرعى » وتسهيل ابن مالك .

ومن مشايخه «الأبلى» ، والشريف أبو عبدالله التلمسانى، والأستاذ المجاصى وآخرون .

سكن مدينة « سلا » وصحب بها أوحد أهل زمانه علما وعبادة ، وأفضلهم ورعاً وزهادة ، سيدى الحاج أحمد بن عمر بن عاشر المرسى ، فانتفع به كثيرا ، ثم انتقل بعد وفاته ، فجعل خطيباً بجامع القرويين — من مدينة فاس — وبقى بها خمس عشرة سنة على ذلك ، ثم توفى يوم الجمعة الرابع لشهر رجب الفرد سنة : اثنين وتسعين وسبع مائة[١] عن ثلاث وستين سنة ، أو نحوها . ودفن بـ « كيدة البراطل »[٢] داخل باب الفتوح . وقبره الآن بها مشهور ، ومزيته معروفة شرقاً وغرباً .

وقد كتب رسائل معروفة أكثرها كان لسيدى «يحيى السراج»

وله كتاب الشرح مع سيدى سليمان بن عمر الذى قال فيه إنه ولى لاشك بطلبهما لذلك[٣]

ورأيت كتاباً فى الإمامة قد سماه «تحقيق العلامة فى أحكام الإمامة»

---

(١) فى التيمورية : سنة : خمس وتسعين وسبع مائة .
(٢) وفى التيمورية : كدية البراعل .
(٣) فى التيمورية : فطلبهما لذلك .

فذكرته لشيخنا « أبي عبد الله القوري »(١) رحمه الله ، وكان معتنياً بكتبه معولا عليها في غالب حاله ، فقال : أظنه لوالده سيدي إبراهيم ، وقد كان خطيباً بالقصبة ؛ إذ كانت عامرة . وله خطب عظيمة الفصاحة حسنة الموقع . والله أعلم .

فصل

وممن علّق على هذا الكتاب سيدي « أبو القاسم الرمّاح » أحد عدول « طرابلس » رحمة الله عليه ؛ إذ كان رجلا صالحاً ، حسن النية ، جميل الحالة . وحاصل كتابه : أنه أوقع لكل حكمة خطبة ، وجمع كثيراً من كلام ابن الفارض والحاتمي وغيرهما على غير مناسبة ، فالله ينفعه بنيّته .

وممن علّق عليه أيضاً الشيخ أبو المواهب محمد المعروف بـ « ابن زغوان » قديماً ، تونسي الدار ، توطّن مصر ، وأخذ عن بيت الوفائية ، وبشّر به بعضهم قبل قدومه ، ولقبه بـ « أبي المواهب » . وكان حسن الأخلاق متجملا جداً ، ذا لسان عظيم في كلام القوم ، يرى أن ليس في المغاربة من يفهم الطريقة .

وقد نحا بشرحه نحو شقا شق الفلاسفة ودقائقهم والله أعلم بمراده . ولم يكمل كتابه هذا ، بل انتهى لنحو ربعه ، والله أعلم .

---

(١) في التيمورية : القروي .

وممن علّق عليه أيضا «الشيخ أبو عبد الله القرّا »،وصنف فما قام ، ولا قعد ، ولا كمل ، ولا وصل . وكان يدّعى[1] مرآى خارجة عن الأخبار بنبينا النبي صلى الله عليه وسلم ؛ فامتحن لذلك . ومات مرفوضا والعياذ بالله فى سنة ثمان مائة واثنين وثمانين ، وكذا الشيخ أبو المواهب مات فى هذه السنة. أما الرماح فمات فى وباء سنة ثمان مائة وسبع وثمانين عن نحو مائة سنة وزيادة .

وذكر لى أن رجلا بالشام يقال له « ابن الصابونى » علق عليه شيئا مال فيه لعلم الكلام ونحوه، وهي طريقة غير مفيدة ، ولا مخلّصة فى ذلك . والله أعلم .

فصل

وقد كنا كتبنا عليه مراراً عديدة ، كمل منها سبعة عشر ؛ فكان الأول منها بمدينة « فاس » سنة : سبعين[2] ، ثم سرق ، فكتبت

---

(١) فى بعض النسخ « كان يدعى مرآى خارجة عن الإضمار فى جنب النبى » وفى نسخ أخرى سقطت هذه العبارة من أول قوله [وكان يدعى . . . إلى . . . وكذا الشيخ أبو المواهب] وسجلت العبارة هكذا [فاقام ولاقعد ولا كمل ولا وصل. مات هو وأبو المواهب كلاهما سنة : اثنين وثمانين وثمانمائة . ومات الرماح سنة : سبع وثمانين وثمانمائة . . الخ] ويبدو أن مراد الكاتب أن أبا عبد الله كان يدعى ويزعم أنه تلقى أشياء عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ليست فى الأخبار وليست فى الأحاديث المروية عنه صلى الله عليه وسلم فى كتب السنة .

(٢) يقصد : سنة سبعين وثمان مائة .

الثانى بها وكملته بتونس، ثم الثالث بتونس، ثم الرابع بالقاهرة، ثم الخامس بالمدينة المشرفة ، ثم السادس بالقاهرة أيضا ، ثم السابع بطرابلس ، ثم الثامن بتونس أيضا ، ثم التاسع ببجاية ؛ ثم العاشر والحادى عشر والثانى عشر بمدينة فاس ؛ ثم الثالث عشر كذلك ؛ وكذلك الرابع عشر ، ثم الخامس عشر ببجاية أيضا ، ثم السادس عشر بالقاهرة . أيضاً ، ثم هذا هو السابع عشر . وأرجو الله أن يكون نفعه عاماً ، وأن يجعله ، حيث ماحلّ ، رحمة لعباده وبركة فى بلاده ، وأن يحميه من كل جاهل يتحامل ، أو حاسد يعرف الحق ويتجاهل ، إنه ولىُّ ذلك ، والقادر عليه ، وحسبنا الله ، ونعم الوكيل .

فصـل

وقد اختصت هذه التعاليق بثلاث خصال :

إظهار المناسبة فى الكلام ، والاختصار فى التقرير ، والتسهيل فى البيان .

مع زيادات أخر تخصُّ بعضها وتَعُمُّ كلها ، من ذلك : أن الكتاب محتو على أربعة أنواع :

التذكير والوعظ : وهو حظُّ العوام وللخواص منه نصيب .

والكلامُ على الأحكام : وهو حقُّ المتوجهين من كل فريق ولكل طريق .

والكلام على الأحوال : وهو نصيب المريدين، وربما كان تنبيها أو تشويقاً لغيرهم .

والكلام على الحقائق : وهو نصيب العارفين والمحققين .

وقد علم كلُّ أناس مشربهم ،وما يجرى به حالهم وما يليق بهم . وبالله التوفيق .

فصــل

وقدذكرنا في بعضهامقدمة تحتوى على تعريف الطريقة وماتبنى (١) عليه من حقٍّ وحقيقة . وذكرنا فيها عشرة أشياء :

أحدها :أن حقيقة التصوف ترجع لصدق التوجُّه إلى الله تعالى من حيث يرضى بما يرضى (٢) .

---

(١) وفى النسخة التيمورية « وما يبنى عليها » وكلا النسختين صحيح .

(٢) يريد بهذا أن التصوف مبنى أساساً وغاية على التعاليم الآلهية ، وهذا رأى جميع الصوفية الصادقين قال أبو اليزيد البسطامى لأحد جلسائه : « قم بناحتى ننظر إلى هذا الرجل الذى قد شهد نفسه بالولاية — وكان رجلا مشهوراً بالزهد — فمضينا إليه ، فلما خرج من بيته ودخل المسجد رمى ببصاقه تجاه القبلة ، فانصرف أبو يزيد ولم يسلم عليه ، وقال : «هذا غير مأمون على أدب من آداب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فكيف يكون مأمونا على مايدعيه ؟ !!

« ومن كلام أبى يزيد : لو نظرتم إلى رجل أعطى من الكرامات حتى يرقى فى الهواء فلا تغتروا به حتى تنظروا كيف تجدونه عند الأمر والنهى ، وحفظ الحدود وأداء الشريعة » .

ويقول سهل التسترى معبراً عن أصول التصوف : « أصول طريقنا سبعة : التمسك بالكتاب ، والاقتداء بالسنة ، وأكل الحلال ، وكف الأذى ، وتجنب المعاصى ، ولزوم التوبة ، وأداء الحقوق » . =

الثانى : أن مداره[1] على إفراد القلب والقالب لله وحده .

الثالث : أنه من الدين بمنزلة الروح من الجسد ، والفقه جسده ؛ إذ لاظهور له إلا فيه ، كما لاقيام له إلا به .

الرابع : أن نظر الصوفىّ فى وجوه الكمال والنقص . والفقيه فيما يسقط به الحرج . والأصولى[2] فيما يصح به الإيمان ويثبت .

الخامس : أن نظر الصوفىّ أخصُّ من نظر الفقيه والأصولى؛فلذلك صح إنكارهما عليه ،ولا يصحُّ إنكاره على واحد منهما ، وصوفىُّ الفقهاء خير من فقيه الصوفية .

السادس : إظهار شرف التصوف ودليله برهاناً ونصّاً .

السابع : أن الفقه شرط فى صحة التصوف ، فلذلك قدّم عليه ، والعمل ليس شرط صحة ، بل كمال لايترك لأجل فقده[3] .

= ويقول الجنيد، سيد هذه الطريقة وإمامهم على حد تعبير القشيرى : « من لم يحفظ القرآن ، ولم يكتب الحديث لا يقتدى به فى هذا الأمر ، لأن علمنا هذا مقيد بأصول الكتاب والسنة » .

وقال : « علمنا هذا مشيد بحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم » .

وقال : « الطريق كلها مسدودة على الخلق ، إلا على من اقتفى أثر الرسول عليه الصلاة والسلام واتبع سنته ولزم طريقته » .

(١) مدار التصوف .

(٢) الأصولى : الناظر فى أصول الدين ، أى : عقائده الأساسية .

(٣) يقول السادة الصوفية : « من دلك على العمل فقد أتعبك ، ومن دلك على الله فقد أراحك وأوصلك» ويقول ابن عطاء الله : من علامات الاعتماد على =

الثامن : ذكر الاصطلاح واختصاصه بكل فن على حسبه .

التاسع : مفاتيح الفتح فيه أربعة : إحكام العبادة[١]، وصدق الرغبة في الوصول ، والتشوف للحقائق ، وعدم التقيد بالتقوُّل مع التحقيق.[٢]

العاشر : أنه طريق غريب عجيب ، ومبناه : على اتِّباع الأحسن أبداً ، فمن العقائد على اتباع السلف ، ومن الأحكام على الفقه ، ومن الفضائل على مذهب المحدثين ، ومن الآداب على ما به صلاح قلوبهم عزيمة أو رخصة ، مباحاً أو صريحاً أو شبهة ، مالم تقو جداً ، أو تكون مائلة لجانب الظلمة ، ولذا قالوا بأشياء أنكرها عليهم من لم يعرف مقصدهم ، وآثرها من دخل الطريقة بالجهل فهلك فيها . فنسأل الله العافية منه .

فصل

ومما قدَّمناه أيضاً التعريف بالمؤلف والكتاب ، وإسناده الموصِّل للصواب .

= العمل فقدان الرجاء عند الزلل ، والعمل الذى يتحدثون عنه هو كثرة العبادة النافلة ، لا تترك حتى ولو لم ير الإنسان بارقة الوصول إلى الله ، وذلك حسبما يرى الشيخ زروق الذى يقول عن العمل إنه لا يترك لأجل فقد التصوف ، أى لا يترك على أية حالة ، لأنه فى جميع الأحوال كال يحسن أن يستمر .

(١) فى التيمورية : إحكام المبادىء .

(٢) يريد أن يقول : إن التقول لا يغنى من الحق شيئاً ، والتقول هو الظن ، وطريق الله لا ظن فيه ، بل كله تحقيق .

فأما المؤلف ، فهو الشيخ الإمام العالم العامل العارف المحقق الكامل أبو الفضل تاج الدين وترجمان العارفين أبو الفضل أحمد بن محمد بن عبد الكريم بن عبد الرحمن بن عبد الله بن أحمد بن عيسى بن الحسينى ابن عطاء الله الجذامى نسباً ، المالكى مذهباً ، الاسكندرى داراً ، القاهرى مزاراً . توفى بالقاهرة سنة : سبعمائة وتسعة ، فى جمادى الآخرة . وكان أعجوبة زمانه فى التصوف وغيره ، كما قيل :

حلف الزمان ليأتينَّ بمثله حنثت يمينك يازمان فكفِّرِ

وأمَّا كتابه فقد مرَّ تعريفه .

وأما الإسناد فقد أخبرنا به إجازة شفاهاً الشيخ شمس الدين السخاوى سنة : ثمان مائة وستة وسبعين بداره بالقاهرة ، قال : أخبرنا به إجازة من بيت المقدس الشيخ أبو زيد عبد الرحمن بن عمر القبابى ، قال : أخبرنا به فى جملة كتب ابن عطاء الله شيخ الإسلام تقى الدين (١) أبو الحسن على بن عبد الكافى السبكى عن مؤلفها ، وهى : « التنوير فى إسقاط التدبير » ، و « لطائف المنن » ، و « تاج العروس » ، و « مفتاح الفلاح » ، و « القول المجرد فى الاسم المفرد » .

وهذه الحِكم التى افتتحها بأن قال :

---

(١) تولى التدريس فى المنصورية ، وجامع الحاكم ، وجامع ابن طولون ، وكانت له مواقف مشهورة فى الرد على ابن تيمية خصوصاً فى زيارة قبر النبى صلى الله عليه وسلم ، وكانت شهرته وكفايته سببا فى أن وقع عليه الاختيار سنة ٧٣٩ هـ ليكون قاضى القضاة فى الشام . ولقد ألف عشرات الكتب . وهو والد تاج الدين السبكى مؤلف طبقات الشافعية .

الباب الأول

من علامات الاعتماد على العمل نقصان الرجاء عند وجود الزلل

قلت : الاعتماد : حصر القوة في الشيء ، وهو باعث النفس لما تريد في تحصيل المقصود منه .

وعلامة حصوله إيثار المعتَمد والنظر إليه في الإقبال والإدبار .

والناس ثلاثة : معتمد على عمله ، وموقفه التقصير ، وغايته التشمير ، ومقامه الإسلام : لدورانه مع العمل رجاء أو خوفاً ، وبساطه قوله تعالى ﴿ولْتَنْظُرْ نفسٌ ماقدَّمت لغد﴾(١) ، وعلامته : ماذكر في النص.

ومعتمدٌ على فضل الله تعالى ، وموقفه شهود المنَّة ، وغايته التبرِّى من الحول والقوة ، ومقامه الإيمان : لدورانه مع القدرة في إقباله وإدباره ، وبساطه قوله تعالى ﴿ومَا بكم من نعْمة فَمِنَ الله ثم إذا مسَّكم الضرُّ فإليه تجأرون﴾(٢) وعلامته : الرجوع إلى مولاه في السراء بالحمد والشكر ، وفي الضراء بإظهار الفاقة والفقر .

ومعتمدٌ على سابق القسمة وماضي الحكم ، وموقفه شهود التصريف ، وغايتُه الفَناء في التوحيد ، ومقامه الإحسان ؛ لما شهد به حاله من

---

(١) آية ١٨ من سورة الحشر .
(٢) آية ٥٣ من سورة النحل .

المشاهدة والعيان ، وبساطه قوله تعالى ﴿قُلِ اللهُ ثُمَّ ذَرْهُم فى خَوْضِهِم يلعبون﴾[١] وعلامته: الاستسلام والسكوت تحت جريان الأحكام ، فلا يزيد رجاؤه لعلة ولا ينقص لسبب ، فلو وزنا لتعادلا فى كل حال من أحواله ، بل هو دائم البشر متواصل الأحزان ، كما جاء فى صفة نبينا محمد عليه الصلاة والسلام .

وقد قال بعض المحققين رضى الله عنهم : من بلغ إلى حقيقة الإسلام لم يقدر أن يفتر عن العمل ، ومن بلغ إلى حقيقة الإيمان لم يقدر أن يلتفت إلى العمل ، ومن بلغ إلى حقيقة الإحسان لم يقدر أن يلتفت إلى أحد سوى الله تعالى » انتهى .

وإنما كان الأمر على ماذكر ؛ لأن الاعتماد على الشيء فى حصول قصده يوجب استشعار فواته لوجود ضده ، ويوجب الحرص عليه اعتباراً بقصده . ومن مظاهر ذلك ماذكره فى التجريد والأسباب إذ قال :

ارادتك التجريد مع اقامة الله اياك فى الاسباب من الشهوة الخفية وارادتك الاسباب مع اقامة الله اياك فى التجريد انحطاط عن الهمة العلية

قلت : وإيثار كل واحد منهما بدلا من مقابله المقام فيه من الإعتماد عليه فى حصول مقصوده ؛ إذ لولم يعتمد ما آثره بدلا من مقابله . فافهم.

---

(١) آية ٩١ من سورة الأنعام .

وللناس ثلاثة :

مُقام في الأسباب ، وحكمه : الرضى والصبر والاستسلام ، وعلامته: استقامتها له بحصول فوائدها العادية ، واستقامته فيها بالقيام بالحقوق الشرعية .

ومُقام في التجريد، وحكمه : الشكر والتشمير وعدم الفترة والتقصير.

وعلامته: القيام بالحقوق والإعراض عن كل مخلوق .

ومن خرج[1] عما هو فيه من أحدهما ، وحكمه : التثبت في الأمور بالانتقال للمثل[2] حتى لا يستقيم بوجه فيصح انتقاله للمقابل والضد؛لأن الإقامة علامتها الاستقامة ، وتخلّفها إذن في الانتقال إذْ حُكْمُ العبد أن يقيم حيث أقامه مولاه ، ولا يختار شيئاً غير ما به تولاّه .

قال في التنوير : « والذي يقتضيه الحق منك أن تمكث حيث أقامك ، حتى يكون الحق سبحانه هو الذي يتولّى إخراجك كما تولّى إدخالك ، وليس الشأن أن تترك السبب ، بل الشأن أن يتركك السبب » .

قال بعضهم : تركت السبب كذا كذا مرّة فعدتُ إليه فتركني السبب فلم أعد إليه . اهـ .

---

(١) وفي نسخة « من عرج به عما هو فيه » والتعبير هنا أصح .

(٢) أي بالانتقال مثلا من سبب إلى سبب حتى إذا رأى أن الأسباب لا تستقيم معه بوجه من الوجوه صح انتقاله إلى التجريد .

فترك السبب إياه عدم إستقامته له أو استقامته فيه ، كما تقدم.

والتجريد : ترك الأسباب .

والسبب : العمل فيما يتوصَّل به إلى غرض دنيوى .

والشهوة : انبعاث النفس لطلب الملائم طبعاً من حيث هو : وإنما كانت هنا خفية ، لأن صورة المطلوب ، وهو التجريد ، مؤلم بظاهره ، إذ هو مفارقة المعتاد ومخالفة المراد ، لـكن فى طيِّه إستعجال الراحة والشهوة والفرار من الـكلفة والتـكاليف .

والانحطاط : النزول من علوّ إلى أسفل .

والهمَّة : قوة إنبعاث فى النفس إلى مقصودٍ ما تعلو بعلوِّه وتسفل بتسفُّله .

وإنما كان تسبب المتجرد إنحطاطاً ؛ لاستبداله الراحة بالتعب ، والسلوة بالشغب ، وتعرُّضه لأسباب العطب ؛ بمخالطته للأغيار ، ومفارقته الأنوار ، ولذلك قيل :

« من لم يأبق[1] من مشاركة الأضداد فى الأسباب فهو خسيس الهمَّة » .

ثم إرادة العبد لا تسـاوى شيئاً لتوقفها على إرادة الحق ، فاشتغاله

---

(١) وفى نسخة .. يأنف . ومعنى يأبق : يفر ويهرب .

بإرادة غير ما أقيم فيه إساءة أدب بدون فائده ، وبيان ذلك فيما بيَّنه المؤلف إذ قال :

سوابق الهمم لا تخرق أسوار الأقدار :

قلت : بل تدور مع القدر كيفما دار ، حسبما دلت عليه المعقول وقضايا الشرع والنقول ، فقد قال الله تعالى «وكَانَ اللهُ عَلَى كُلِّ شَىءٍ مُقْتَدِراً» وقال صلى الله عليه وسلم :

« كلُّ شىء بقضاء وقدر حتى العجز والكَيْس[١] » .

وأنواع الهمم ثلاثة : الهمم القواصر : وهى التى تقتضى العزم والحزم[٢] من غير فعل ولا انفعال .

والهمم المتوسطة : وهى التى توجب مع العزم فعلا ومع الحزم كمالا[٣] ، سواء وقع انفعال أم لا .

والهمم السوابق[٤] : وهى قوى النفس الفعَّالة[٥] فى الوجود بلا توقف كما يكون من العائن[٦] عن خبثه ، ومن الساحر عن عُقده ونفثه ، ومن المتريِّض عن تجريد قوى نفسه ، ومن الولىِّ عن تحققه فى

---

(١) رواه الإمام مسلم فى صحيحه ، والإمام احمد فى مسنده ، عن ابن عمر رضى الله عنهما وذلك بلفظ « كل شىء بقدر حتى العجز والكيس » .

(٢) وفى نسخة « الجزم »   (٣) وفى نسخة « ومع الجزم إقبالا »

(٤) خيرة أو شريرة   (٥) فى نسخة « الفاعلة »

(٦) يقول صاحب المختار : (عانه) من باب باع : أصاب بعينه ، فهو عائن

يقينه ؛ إذ لا يتوقف الإنفعال فى كل عن حركة ، وذلك بقضاء الله وقدره ، كما مر، وقد قال فى حقِّ السحرة : (وماهم بِضَارِّين به مِن أحَدٍ إلاَّ بإذن الله[1]) .

ثم سبق هذه الهمم إنما هو فى الرتبة باعتبار جلالتها ، لا فى المرتبة باعتبار تقدم أزمنتها ، وجلالتُها بسرعة نفوذها وقوة تأثيرها وعدم احتياجها فى نفوذها لسبب مُعين . وإذا كانت مع ذلك لا تخرق أسوار الأقدار فكيف بالتدبير والاختيار ، ومالا فائدة فيه : فيه تعب عاجل يتعيَّن تركه على كل عاقل ؛ فلذلك عقّب المسألة بأن قال :

أرح نفسك من التدبير .

قلت : أفاد ذكره للإراحة وجود التعب فيما تطلب الاستراحة منه وهو التدبير ، وذلك لما تضمنه من وجود التكدير ، ومنازعته الحكم والتقدير ، فقد قال سهل بن عبد الله رضى الله عنه : « ذَروا التدبير والاختيار فإنهما يكدران على الناس عيشهم » .

وقال عليه السلام : « إن الله جعل الروح والراحة فى الرضا واليقين... » الحديث.

وقال عليه السلام : « التدبير نصف العيش » قيل : فتركُ التدبير العيشُ كلُّه ؛ لأن من لم يدبِّر دُبِّر له ،

---

(١) آية ١٠٢ من سورة البقرة .

وهذا وإن كان بعيداً عن السياق بالقوّة فهو حسن في المعنى ، إذ التدبير تقدير شئون تكون عليها في المستقبل مما يخاف أو يرجى ، بالحكم لا بالتفويض ، فإذا كان مصحوباً بالتفويض لم يكن تدبيراً عند التحقيق ، وإن أُطلق عليه فمجاز للتقريب . والله أعلم .

ثم ذكر ما يعين على ترك التدبير وهو النظر لسابق الحكم والتقدير . فقال :

فما قام به غيرك عنك لا تقم به لنفسك .

قلت : لأن ذلك تكلُّف في غير فائدة ، وعمل في غير معمل ، وتعب في غير حاصل .

وفي مفهوم الكلام بالقوة : أن ما وُكل إلى قيامك به لا يصحُّ أن تتركه لغيرك ، فهما إذن أمران أشار إليهما إبراهيم الخواص(١) رضي الله عنه حيث قال :

« العلم كله في كلمتين : لا تتكلَّف ما كفيت ، ولا تضيع ما استكفيت » .

---

(١) هو : أبو اسحق إبراهيم بن احمد الخواص ، من أقران الجنيد ، والنوري . مات بالري سنة : إحدى وتسعين ومائتين هجرية . [انظر الرسالة القشيرية جـ ١]

وقال سهل بن عبد الله[1] رضى الله عنه :

«للعباد على الله ثلاثة أشياء : تكليفهم ، وآجالهم ، والقيام بأمرهم ، ولله على العباد ثلاثة أشياء : اتّباع نبيه ، والتوكُّل عليه ، والصبر على ذلك إلى الموت » انتهى وبه يتفسر قوله: ماقام بهغيركعنكوماوُكل إلى قيامك به .

ومعنى كون الأولى على الله هو أنه لاسبب للعبد فيها ، إذ لايجب عليه تعالى شيء .

ومعنى كون الثانية على العباد هو أنهم مأمورون بها ، فمن لم يتّبع فمبتدع ، ومن لم يتوكَّل فهو مدبر ، ومن لم يصبرفمنازع ، ومن قام بكلٍّ فى محله كان سالم البصيرة منوّر السريرة ، وإلا فعلى العكس ، كما نبّه عليه المؤلف وبيّنه بأن قال :

اجتهادك فيما ضمن لك وتقصيرك فيما طلب منك دليل على انطماس البصيرة منك

قلت : لأنك أتيت بالشيء على غير وجهه ، ووضعته فى غير محلّه ، إذ عكست ما حقك أن لا تعكسه ، فتركت ما أُمرتَ بالقيام به ،وقمت بما كفيت أمره ، وهو المضمون .

قال فى التنوير : « فكيف يثبت لك عقل أو بصيرة واهتمامك فيما

(١) هو : ابو محمد سهل بن عبد الله التسترى ، أحد أئمة الصوفية وعلمائهم ، حفظ القرآن وهو ابن سبع سنين وكان يسأله السائلون عن دقائق الزهد والورع والفقه وهو ابن عشر سنين فيحسن الإجابة . له كتاب فى تفسير القرآن الكريم. توفى سنة : ثلاث وثمانين ومائتين من الهجرة . انظر كتاب الإعلام للزركلى .

ضمن لك اقتطعك عن اهتمامك فيما طُلب منك ، حتى قال بعضهم: «إن الله ضمن لنا الدنيا وطلب منا الآخرة ، فليته ضمن لنا الآخرة وطلب منا الدنيا » انتهى .

وعبَّر بالاجتهاد لأن الطلب دونه لا يقدح بل ربما كان مطلوباً ، وبالضمان ليشعر بسبق القسمة ، وبالتقصير لأن الترك أعظم ، وبالطلب ليشمل الواجب والمندوب .

ولو كان بدل الاجتهاد إستغراقاً ، وبدلُ التقصير تركاً لكان بدل الطمس عمى ، لأن الدنيا كنهر « طالوت » لا ينجو منه شاربٌ إلا من اغترف غرفة بيده .

والبصيرة : ناظر القلب ، كما أن البصر ناظر العين .

ثم علامة الاجتهاد فى المضمون ثلاثة : التأسف على الفائت[1]، وفقد التقوى فى التحصيل ، والغفلة عن الحقوق المتأكدة فى التسبب .

وعلامة العكس ثلاثة : الرضا بالواقع ، والتقوى فى الطلب ، وحفظ الآداب فى الأسباب .

ومن الاجتهاد فى المضمون : اليأس من العطاء عند تأخر إجابة الدعاء؛ فلذلك أتبعه المؤلف ناهياً عنه ، فقال :

لا يكن تأخر أمد العطاء مع الالحاح فى الدعاء موجبا ليأسك

قلت : الإلحاح : التكرر[2] فى الدعاء لحاجة من وجه واحد

(١) وفى نسخة : التلهف على الفائت .

(٢) وفى نسخة : التكرار فى طلب الحاجة من وجه واحد .

على سبيل الطلب، وهـو مطلوب فى الدعاء ، والإجابة مضمونة بمطلق الدعاء .

فإذا قمت بما طلب منك من الدعاء والإلحاح فيه فلا تيأس من الإجابة ، لأن يأسك ناشىء عن رؤية السببية بدعائك واجتهادك منك فى حاجتك : إذ صَرَفك تأخرها عن باب مولاك، فقصَّرت فى المطلوب بالدعاء الذى هو إظهار الفاقة ودوام الحضور بالمناجاة . فافهم .

والناس ثلاثة :

رجل قصد مولاه بالتفويض فحصل له الرضا عنه ودوامُ التعلق به فى الوجود والعدم ، فهذا لا ينصرف لطول تأخر ولا لغيره .

ورجل وقف بباب مولاه واثقاً بوعده وناظراً لحكمه ، فهو يرجع على نفسه برؤية التقصير وفقد الشروط عند التأخر ، فيؤديه ذلك إلى اليأس تارة وإلى الرجاء أخرى ، وإن تيسر مراده عظمت الشريعة فى قلبه .

ورجل وقف بالباب مصحوباً بالعلل منوطاً بالتعذّر[1] ملفوفاً بالغفله[2] طالباً للغرض دون تعريج على حكم ولا حكمة . وهذا ربما تشكك فى الوعد أو وقع فى الحيرة أو دان باليأس ، لا لسبب . نسأل الله العافية .

---

(١) أى : متعلقا بالاعتذار لنفسه والاحتجاج لها . وفى نسخة « متوطارر بالتغرر » . (٢) وفى نسخة : مكفونا بالغفلة .

وقد قال الشيخ أبو محمد عبد العزيز المهدوى رضى الله عنه : « من لم يكن فى دعائه تاركا لاختياره ، راضياً باختيار الحق تعالى له فهو مُسْتَدْرَج ، وهو ممن قيل فيه : اقضوا حاجته فإنى أكره أن أسمع صوته ، فإن كان مع اختيار الله تعالى لامع اختياره لنفسه كان مجاباً وإن لم يُعط . والاعمال بخواتيمها » انتهى.

وإنما ينفى[1] الجهل المؤدى لليأس بالعلم باتساع الوعد وأن وقوعه غير محصور ، وهذا ما بيّنه المؤلف إذ قال :

فهوضمن لك الاجابة فيما يختار لك لافيما تختار لنفسك ، وفى الوقت الذى يريد لافى الوقت الذى تريد .

قلت : وذلك كله مضمّن فى قوله تعالى ﴿ادعونى أسْتَجب لكم﴾[2] فضّمن الإجابة بوعده ، وجعلها مطلقة إذ لم يقل بعين ماطلبتم ، ولامتى شئتم ، ولا كيف شئتم .

وأكدّ ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم بقوله : « مامن داع إلاّ وهو بين إحدى ثلاث :

إما أن تعجّل له طلبته ، أو يؤخر له ثوابها ، أو يصرف عنه السوء بمثلها »[3] .

---

(١) فى نسخة « وإنما ينتفى » وفى نسخة ثالثة : فإنما يتقى .

(٢) من آية ٦٠ من سورة غافر.

(٣) روى الإمام أحمد باسناد جيد ، والحاكم ، وقال صحيح الإسناد ، عن =

وقال عليه السلام : « يستجاب لأحدكم مالم يعجّل : يقول دعوت فلم يُستجب لى »[1] .

وروى أنه كان بين إجابة موسى وهارون عليهما السلام بقوله تعالى ﴿ قد أُجيبت دعوتـكُما ﴾ أربعون سنة . قال الشيخ أبو الحسن الشاذلى رضى الله عنه فى قوله تعالى ﴿فاستقيما﴾ أى : على عدم الاستعجال ﴿ ولا تتبعان سبيل الذين لا يعلمون ﴾ أى : الذين يستعجلون فى الدعاء .

وإنما جعل الإجابة فيما اختاره تعالى عيناً ووقتا لوجوه ثلاثة :

أحدها : رفقا بعبده وعناية ، لأنه كريم ، رحيم عليم ، والـكريم إذا سأله من يعز عليه أعطاه أفضل ماعامه له . والعبد جاهل بالصلاح والأصلح ، فقد يحب الشيء وهو شرّ له ويكره الشيء وهو خير له . فافهم .

الثانى : لأن ذلك أبقى لأحكام العبودية فى نظر العبد وأقوى فى ظهور سطوة الربوبية ؛ إذ لو كانت الإجابة بالدعاء على وفق المراد حتما لـكان نفس دعائه تحـكما على الله، وذلك باطل ، فافهم .

= أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه : أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « ما من مسلم يدعو بدعوة ليس فيها إثم ولا قطيعة رحم إلا أعطاه الله بها إحدى ثلاث : أن يعجل له دعوته ، وإما أن يدخرها له فى الآخرة ، وإما أن يصرف عنه من السوء مثلها قالوا : إذن نـكثر ؟ قال : الله أكثر » وقد وردت أحاديث أخرى بهذا المعنى.

(١) رواه الشيخان وغيرهما .

الثالث : لأن الدعاء عبودية سرّها إظهار الفاقة ، ولو كانت الإجابة بعين المراد حتمًا لما صحّت فاقه فى عين الطلب ، فبطل سر التكليف به ومعنى الاضطرار المطلوب فيه ، فافهم .

وقد قال بعضهم : فائدة الدعاء إظهار الفاقة بين يديه ، وإلاّ فالرب يفعل مايشاء .

ثم ذكر مسأله هي أبلغ من التى قبلها فى نفى اليأس والثقة بالوعد وإن تعيّن الزمان ، فقال :

لا يشككنك فى الوعد عدم وقوع الموعود وان تعين زمنه .

قلت : التشكك : التردد بين إيقاع الشك ونفيه لاضطراب النفس فى موجبه بحيث يقول الوعد صدق والزمان متعيّن والموعود مفقود فيتحيرّ فى ذلك ويشكّ وهذا من ضيق المعرفة ، والوقوف مع ظاهر الوعد دون نظر إلى باطن الأوصاف ؛ إذ لو اتسعت دائرته علم أن ظاهر الوعد لايقضى على باطن الصفة فجزم بالوعد وراعى باطن الوصف بتقدير تعلّق الأمر بشرط ستره الحق عنه ؛ إذ لايجب عليه بيان مايريد اشتراطه ، بل يصح فى الحكمة ستره إبقاء لسمو(١) الربوبية فى نظر العبد واستبقاء(٢) لأحكام العبودية عليه ، فقد وعد الحق سبحانه نبيه عليه السلام بالنصر فى « أحد » و « الأحزاب »

---

(١) فى نسخة : لسطوة .

(٢) وفى نسخة : واستيفاء .

ودخول مكة وستر شرط ذلك وهو «الذلّة» التى اقتضت حكمتُه ترتب النصر عليها دائماً حتى أظهرها فى معرض المنة والتنبيه ؛ إذ قال عزّ من قائل ﴿ ولَقد نَصركم اللهُ بِبَدرٍ وأنتم أذلّة ﴾ وقال عزّ وعلا ﴿ويوم حنين إذ أعجبتكم كثرتكم . . .[1] الآية ﴾ .

قال عليه الصلاة والسلام لابن عباس فى وصيته : « واعلم أن النصر مع الذل ، وهو سر الاضطرار المشروط فى الإجابة بعين المقصد[2] إذ قال ﴿ ويكشف السوء ويجعلكم خلفاء الأرض ﴾[3] فافهم.

وإنما ذكر تعيين الزمان مبالغة ، أو فى حق من يصح التعيين فى حقه[4] .

ثم ذكر علة نهيه عن التشكك « لما ذكر كيف ذكر »[5] فقال :

لئلا يكون ذلك قدحا فى بصيرتك واخمادا لنور سريرتك

قلت : أما كونه قدحاً فى البصيرة فلرؤيتها الأمر على غير الوجه

---

(١) التوبة : ٢٥ والآية الكريمة هى : « ولقد نصركم الله فى مواطن كثيرة ويوم حنين إذ أعجبتكم كثرتكم فلم تغن عنكم شيئا ، وضاقت عليكم الأرض بما رحبت ثم وليتم مدبرين»

(٢) وفى نسخة : بعين القصد

(٣) والآية الكريمة تبتدىء بقوله تعالى «أمن يجيب المضطر إذا دعاه ويكشف السوء» فنبهت على الاضطرار مقصوداً بعينه

(٤) وفى نسخة : من يصلح اليقين فى حقه .

(٥) لعل ما بين الاقواس زيادة من الناسخ ، إذ المعنى يستقيم بدونه .

المطلوب فيه ، من النظر لاتساع العلم ، واعتياد ذلك حتى تقوى دائرة الوهم فينتفى التحقق ، وأما كونه إخماداً لنور السريرة فلان نور السريرة مستفاد من اتساع النظر ، والوقوف مع ظاهر الوعد مناف لذلك .

والبصيرة كالبصر أدنى شيء يقع فيه يمنع النظر ويشوّش الفكر وإن كان لا يفضى إلى العمى ، فالخطرة من الشر تشوّش النظر وتكدّر الفكر والإرادة تذهب بالخير رأساً ، والعمل به يذهب عن صاحبه سهماً من الإسلام فيما هو فيه ويأتى بضده ، فإن استمر على الشر تفلّت منه الإسلام سهماً سهماً ، فإذا انتهى إلى الوقيعة فى الائمة وموالاة الظلمة حباً فى الجاه والمنزلة وحبّاً للدنيا على الآخرة فقد تفلّت منه الإسلام كلّه ، ولايغرنك ماتُوسم به ظاهراً فإنه لاروح له ، وروح الإسلام : حبّ الله ورسوله وحب الآخرة ، وحب الصالحين من عباده. وقال بعضهم : « ادفع[1] ردىء الخواطر قبل أن يتمكن الهم[2] لئلا يصيبك »

وقيل : « إن أول الذنب الخطرة ، كما أن أول الغيث القطرة » .

وكما وجب أن لا يتوهَّم[3] فى وعده وجب أن لا يتوهم[3] فى فعله ، بل يظن به الجميل فى هذا كله . وهذا ما توجَّه له المؤلف وذكر بأن قال :

---

(١) فى نسخة : ارفع رداء الخواطر

(٢) الهم بالشر (٣) وفى نسخة : يتهم .

اذا فتح لك وجهة من التعرف فلا تبال معها وان قل عملك

قلت: بها حقك أن تفرح بها لِما تضمنه من التعرف الموجه فيها، الذى لا يكاد يتحصَّل بغيرها ، ثم وجهة التعريف هي ما يعرفك بجلالة مولاك وحقارة نفسك وتعرف بها الدنيا وما فيها ، والخلق بحقيقة ماهم عليه على وجه ينطبع فى سويداء قلبك انطباعاً ينصبغ به حتى يكون الإقدام والإحجام على حكمه دون توقف ، وليس ذلك إلاَّ لأمور قهرية، وغاية أمرها أنها مانعة من إكثار العمل ، فإذا قلَّ لأجلها وجب أن لا تبالى ؛ لأن الذى أمرك هو الذى قهرك ، والكل منه وإليه فكما وجب امتثال أمره وجب الاستسلام لقهره ، إنما على العبد أن لا يعزم على محظور ، ولا يفرط فى مأمور فإن قصر به الحال فلا يبالى ، وبذلك جرى أمر السنَّة، ألا تراه عليه السلام فى حديث الوادى حيث ناموا عن الصلاة بعد توكيل بلال الذى شأنه عدم النوم فى ذلك الوقت قال : « لن تراعوا إن الله قبض أرواحنا » فأحالهم على القدر لمَّا لم يتنهوا(١)

ولما سأل عليا وفاطمة : مالكما لم تصلّيا الليل ؟ أجابه علىّ : بأن الله قبض أرواحنا . فضرب فخذه وقال : وكان الإنسان أكثر شيء جدلا .

قال علماؤنا : وإنما كان هذا جدلاً ؛ لأنهم تسببوا بوجود الجنابة

---

(١) وفى نسخة : لما لم يتسببوا .

وأجابوا بالقدَر فى محل السبب[1] ، وإنما حملهم على ذلك وجود الحياء فافهم . ثم قال :

فانه مافتحها لك الا وهو يريد أن يتعرف اليك

قلت : وذلك مشاهد من حالها إذلم تأت إلا بالتعريف وهو بساط المعرفة التى لاتصل[2] إليها إلاّ به ولاتبلغها إلا بعنته قال :

ألم تعلم ان التعريف هو مورده عليك

قلت : يقول أليس فى علمك أن التعريف من عنده ، هو أورده والوجهة بساطه فإذا وجهها لك فقد وجه لك التعريف الذى تتضمنه وبه تصل للمعرفة التى هي غاية المطالب ونهاية الآمال والمآرب .

والأعمال أنت مهديها اليه: من أفعالك المدخولة،وصفاتك الناقصة المعلولة **وأين ماتهديه اليه مما هو مورده عليك :**

من معارفه الجليلة وأفعاله الجميلة وعطاياه الجزيلة ، بينهما فى الحكم ما بينكما فى الوصف : ربٌ وعَبْد ، كيف يشتبهان ﴿أَفمن يَخْلُق كَمَنْ لاَ يَخْلُق أَفَلا تَذَكَّرون﴾[3]

وفى تلك الحكاية مقابلة فضله وكرمه بأفعالنا من قلة المعرفة بالكريم المتفضل . وفى الحكاية الأخرى ، فشتان بين مافعله بك لتنجو وبين فعلك لتنجو .

---

(١) وفى نسخة : التسبب .

(٢) لاتصل إلى المعرفة إلا بالله .

(٣) آية ١٧ من سورة النحل .

قلت : فملك يحتاج إلى التخليص والإخلاص ، وفعله بك لا يلحقه شرك ولا انتقاص، ويرحم الله « خير النسَّاج »(١) حيث قال : «ميراث أعمالك ما يليق بأفعالك ، فاطلب ميراث فضله وكرمه فهو أولى بك » انتهى.

ثم أخذ المؤلف في تقوية ماطلبه من عدم المبالاة فقال :

تنوعت أجناس الاعمال لتنوع واردات الاحوال .

قلت : التنوع التلون ، والاعمال : عبارة عن الحركات الجسمانية . والأحوال: عبارة عن الحركات القلبية ، فحركات الأجسام تبع لأحوال القلوب ،وإذا كانت كذلك فينبغي ألا نبالى بفقد الفرع لوجود أصله عند تعذر الفرع . هذا مقتضى مافي التنبيه .

والذى أفهمه أن الاعمال عبارة عن : الحركات الجسمانية والقلبية ، والاحوال عبارة عن: التقلبات الوجودية كالغنى والفقر ، والعز والذل ، والعافية والبلية . . إلى غير ذلك مما ترتب عليه الاحكام فتختلف باختلافه ، فلكل حالٍ عمل يخصُّه ويختص به ، فيكون عوضا عن مقابله ، فإ فات مثلاً بالشكر على العافية استدرك بالصبر على البلية ، وبالعكس ، وما نقص من الاعمال البدنية تحصَّل بالأعمال القلبية ،

(٢) وهو : محمد بن اسماعيل من أهل « سامرة » ثم سكن بغداد وصحب أبا حمزة البغدادى ، وكان من أقران أبى الحسن النورى ، وعمر عمراً طويلا ، حتى عاش — كما قيل — مائة وعشرين سنة . [انظر الرسالة القشيرية ج ١]

ولذلك قال الفاروق رضى الله عنه : « الصبر والشكر مطيتان ما باليت أيهما أركب » .

وأثنى الحق سبحانه وتعالى على الصابر والشاكر ثناء واحداً ؛ فقال عزَّ من قائل فى كلٍّ من سليمان وأيوب ﴿نِعم العبد إنه أوَّاب﴾(١)

ولمَّا خُيِّرَ النبى صلى الله عليه وسلم بين أن يكون نبيا ملكاً أو نبياً عبدا قال : يارب أجوع يوماً وأشبع يوماً ، فإذا جعت تضرَّعت إليك وإذا شبعت حمدتك وشكرتك ، فلم يُؤْثر واحداً منهما على الآخر ، بل ينظر إلى العبودية فى الجميع ، لأنها المقصود ، وبالله التوفيق .

ثم كمال الأعمال إنما هو بالإخلاص ، وهو قلبى ، وذلك يقتضى عدم المبالاة بها إذا عدمت لأجله ، وهو ما أشار إليه المؤلف إذ قال :

الاعمال صور قائمة وأرواحها وجود سر الاخلاص فيها

قلت : ولاعبرة بصورة لاروح فيها ، كما أنه لاقيام لروح دون صورتها .

ويحتمل قوله « سرُّ الإخلاص » أن يكون من إضافة الشىء إلى نفسه ؛ فالمراد ؛ السرُّ الذى هو الإخلاص ، ويحتمل أن يكون ماهو أخص منه ، وهو الصدق المعبَّر عنه بالتبرِّى من الحول والقوة وكلاهما مطلوب : الإخلاصُ لنفى الرياء ، والصدق لنفى العجب ، وكلاهما لا كمال

---

(١) آية ٤٤ من سورة ص .

للعمل إلاّ به ، فلذلك قال بعض المشايخ رحمـه الله : « صحِّح عملك بالإخلاص ، وصحِّح إخلاصك بالتبرِّى من الحول والقـوة » .

قال الشيخ أبو طالب المكىّ رضى الله عنه : « والإخلاص عند المخلصين[١] : إخراج الخلق من معاملة الحق ، وأول الخلق النفس .

والإخلاص عند المحبين : أن لا يعمل عملاً لأجل النفس[٢] ، وإلا دخل عليه مطالعة[٣] عوض أو ميل إلى حظ نفس .

والإخلاص عند الموحِّدين : خروج الخلق من معاملة[٤] الحق من النظر إليهم فى الأفعال وعـدم السكون إليهم والاستراحة بهم فى الأحوال » انتهى.

وكما أن الإخلاص حصن الأعمال فالخمـول حصن الإخلاص ، وهو طرح النفس فيما يليق بها من النقص والدناءة . وبحسب هذا فهو دفن لها ، كما نبَّه عليه إذ قال:

ادفن وجودك فى أرض الخمول

قلت : يقول : غيِّب ما تُذكر به من علم وعمل وحال وغيره فيما ينفى عنك شهوة الرفعة عن عيوبك الأصلية ، والفرعية ، والعارضة .

(١) وفى نسخة : عند المحققين .

(٢) وفى نسخة : وأن لا تدخل على مطالعة غرض .

(٣) وتختلف النسخ هنا بين : مطالبة عوض ، ومطالعة غرض ، ومطالعة عرض وكلها متقاربة المعنى .

(٤) وفى نسخة : خروج الخلق من النظر إليهم فى الأفعال وعدم ... وفى نسخة أخرى . « اخراج » بدل خروج .

والناس ثلاثة :

رجل غلب عليه التحقيق فغاب عن رفعته برؤيته نقصه في الأصل ، اعتباراً بأن الكمال كله للحق سبحانه وتعالى ، وأن العبد لا يليق به من حيث ذاته إلا النقص فرجع بالكل لمولاه ، عملاً بقوله تعالى : (وَلَوْلاَ فَضْلُ ٱللهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَازَكَىٰ مِنْكُمْ مَنْ أَحَدٍ أَبَداً)[1]

الثاني : رجل ســـاعده التوفيق فغاب عن محاسن نفسه بعيوبها المنطوية فيها بحيث شاهد محاسنه مساوىء ورأى حقائقه دعاوى ، فسقطت نفسه من عينه بوجه لا يرجع فيه لنظر غيره .

الثالث : رجل اتسعت عليه نفسه فغلبه الوهم عن الفهم حتى رأى حظها وشاهد لحظها ، فاحتاج لنفي ذلك بما ينافيه من مباح مستبشع ، أو مكروه لم يمنع دفعا لدعواها وفراراً من بلواها ، لا تستراً من الخلق ؛ لان التستر منهم تعظيم لهم ، وهو يكر على أصله بالنقص ، وقد قال الشيخ أبو العباس المرسى رضى عنه : «من أراد الظهور فهو عبد الظهور ، ومن أراد الخفاء فهو عبد الخفاء ، وعبد الله سواء عليه أظهره أو أخفاه » انتهى . ثم أبان المؤلف عن فائدة الدفن المذكوره فقال :

فما نبت مما لم يدفن لا يتم نتاجه

قلت : هذا هو المشاهد فى الزرع وما فى معناه ، فإنه لا ينتـج منه

---

(١) آية ٢١ من سورة النور .

لاَّ مـادفن ، ومالم يدفن لا ينبت ، وإن نبت فلا ينتج ، وأن نتج فلا يتم نتـاجه وإن ظهر نوره وابتهاجه . .

وكذا ما ظهر من الأعمال وما بطن منهـا ؛ فالتغيرّ هوى[١] مسرع لكل ظاهرٍ حسًّا فى الحسيات ومعنى فى المعنــويات ، ولذلك أشار شيخنا أبو العباس احمد بن عقبة الحضرمى حيث أنشد — لا أدرى له أو لغيره — فقال :

عش خامل الذكر بين الناس وارضَ به
فذاك أسلم للدنيـــــا وللدين
من عاشر النـــاس لم تسلم ديانتـــه
ولم يزل بـين تحريك وتسكين

وكما لا يصحُّ دفن الزرع فى أرض رديئة لا يصحُّ الخمول بحالة غير مرضية وهو ما كان محرَّما متفقاً عليه ؛ لان ما كان ظلمةً بالذات لا يصح أن يكون نوراً بالعرض ، فقياس الخمول بالمحرم بمن غُصَّ بلقمة لا يجد لها مساغاً إلاّ بجرعة خمر لا يصح : لأن المحرم لا يباح لنفى مكروه ، وقوله إن هذا[٢] تقوية حياة فانية ، وذلك[٣] حياة باقية مردود[٤] ؛ فإن ذلك[٥] مُعين على قتل نفسه : فالحياة الباقية تفوته

(١) وفى نسخة : فالتغيير الهوائى .
(٢) الضمير يرجع إلى من شرب جرعة من خمر إزالة للغصة .
(٣) من اتخذ إلى الخمول وسيلة محرمة كالمنحرفين من الملامتية .
(٤) أى قول من قال ذلك مردود . (٥) فعل المحرم كوسيلة للخمول .

بفعله ، والأخرى إنما يفوته كمالها[١] فافهم .

ثم إن الموصّل للإخلاص وتحقيق الخمول إنما هو العلم الوافى عن الفكر الصافى ، ومقدمته إنما هى العزلة ، ثم الخلوة ، فلذلك اتبعها به فقال :

ما ينفع القلب شىء مثل عزلة يدخل بها ميدان فكرة .

قلت : لأنه بالعزلة يسلم من الاغيار ، وبالفكرة يستجلى الأنوار ، وكل وعزلة لاتصحبها فكرة فإلى المحق[٢] مآلها ، والفكرة لاتصحّ بدون العزلة ، فالعزلة منزل الفكرة « وفى بيته يؤتى الحكم »

ثم العزلة بالأنفراد بالحال حقيقة ، وبالانفراد بالشخص مجاز . والله أعلم .

والناس ثلاثة :

منفرد بقلبه لا بشخصه ، وهذا كائن بائن ، راحل قاطن ، وحاله حال الاقوياء وأهل الكمال[٣] .

ومنفرد بالشخص دون القلب ، وهذا سالم إن توفرت شروطه ، متعرض لنفحات الرحمة وإن كان لاعبرة فيه فى الحال[٤] .

---

(١) الحياة بدون ان يدفن نفسه فى أرض الخمول .
(٢) وفى نسخة : المحق .
(٣) وهؤلاء هم الذين يقال عنهم : خلوتهم فى جلوتهم ، فيكونون مع الناس فى الظاهر ومع الله فى الباطن .
(٤) أى فى الوقت .

ومنفرد بهما وهو المتخلّي [١] ، وأنواعه ثلاثة :

معتزل ليسلم ، ومعتزلٌ ليغنم ، ومعتزل ليتنعم .

فشرط الأول بعد علم حاله : القيام بواجبات وقتـه وسلامة الناس من سوء ظنه .

وشرط الثاني: التحفظ في السنّة مع الجدّ في العمل .

وشرط الثالث : تحقيق الأحوال والتبري من المقال . والله أعلم .

والميدان في الأصل : المجال للخيل ، فشبّه جولان الخيل في ميادينها بجولان الفكر في مجاريه .

ومجاري الفكر أربعة :

وجود الأكوان لتحقيق مادلت عليه والتحقيق به «فينفي ويثبت» [٢] .

ووجود الشهوات المانعة من المقصد حتى ترجع فلا تعوق [٣] .

ووقوع الغفلات الصارفة عن المراد حتى تنتفي فلا تدفع عن بساط الحق .

وحصول الهفوات في التصرف حتى لا تصرف عن الفهم .

وأول ذلك أن يعلم أن الأربعة حائلة دون المقصود وقاطعة دونه على مراتبها . وهذا ما توجّه المؤلف لبيانه فقال :

كيف يشرق قلب صور الاكوان منطبعة في مراته

قلت : حتى منعه انطباعها عن شهود [٤] تجلياته .

وذلك على ثلاثه أوجه :

---

(١) وفي نسخة : المختلي . (٢) وهذه العبارة ساقطة في بعض النسخ .

(٣) وفي بعض النسخ : المانعة عن المقصود حتى تدفع فلا تفوت .

(٤) وفي نسخة : من وجود .

الأول : انطباع وجودها من حيث النفع والضرّ ، وذلك يوجب[١] الإعتماد عليها والاستناد إليها .

الثانى : انطباعها من حيث الجمال والاستحسان الموجب للحب ، وذلك يقتضى العبودية لها .

الثالث : انطباعها من حيث الشهوة وذلك يقتضى الغفلة بها .

ومعنى انطباعها فى مرآة القلب ارتسامها فيه على وجه لا يقبل غيرها .

وصور الأكوان : أعيان الموجودات . ومرآة القلب : بصيرته .

وإنما لا يشرق القلب مع ما ذكر ؛ لأن القلب ليس له إلا وجه واحد إذا توجَّه لشىء انقطع عما سواه ، وعلامة انطباع الكون فى المرآة إيثاره من غير توقف . والميلُ إليه ولو مع التأمل . وشغل النفس بالأعراض والعوارض ردًّا وقبولا ، وهذا دليل الشهوة وهى من موانع النهوض ، كما قال :

أم كيف يرحل الى الله وهو مكبل بشهواته .

قلت : كلما أراد النهوض أخلدته[٢] ، وإن نهض له أمسكته عن السير ، وإن سار منعته من الإسراع ، وإن أسرع ثبَّطته فى الطريق ،

---

(١) وفى نسخة : بوجود .

(٢) أخلدته : أى مالت به إلى الأرض ، يقال : أخلد الرجل بالمكان وإلى المكان : دام فيه وبقى .

فكلما اجتمعت له رغبة بُكرةً فرّقتها جنود الشهوة عشية ، فلا يصحُّ رحيله عن عوالم طبعه إلى بساط الحق . وإن أشرق نوره حتى رأى الحقيقة وعرف الحق ، ولكونها مثبطة مانعة من الإسراع فى السير لزم تركها لذوى الإرادة لا لذاتها إن كان حكمها الإباحة . ومن هنا قالوا : لذع الزنابير على الأجسام المقرحة أيسر من لذغ الشهوات على القلوب المتوجهة . ويذكر أن الله تعالى أوحى إلى داود عليه السلام : أَنْ حذِّر قومك كلّ الشهوات، فإن القلوب المتعلقة بشهوات الدنيا عقولها محجوبة عنى . انتهى .

ثم الشهوات داعية الغفلة ، وقد تكون بدونها (١) ، وهى مانعة بعد الرحلة من الدخول كما قال :

أم كيف يطمع أن يدخل حضرة الله وهو لم يتطهر من جنابة غفلاته .

قلت : حضرة الله : دائرة ولايته ومقام اختصاصه بخواص عباده ، وهو مقام مطهّر لا يدخله إلا مطهّر من جنابة الغفلة ، كما لا يدخل المسجد إلا طاهر منها ، بل سرُّ وجوب الطهارة من الجنابة الحسية ليكون العبد لمولاه بالكل كما كان لنفسه بالكل ، وليشمله الحضور بالغسل كما شملته الغيبة باللذة وجوداً وقصداً .

---

(١) قد تكون الغفلات بدون الشهوات .

والتطهُّر من هذه الجنابة المعنوية يكون بالطهارة المعنوية : الذكر والفكر ، وهما عبارة عن الغيب المذكور فى قول القائل :

تطهَّر بماء الغيب إن كنت ذا سرّ وإلاّ تيمم بالصعيد أو الصخر

والصعيد إشارة للعبادة ، لأن أثرها يظهر على وجه العبد كالتراب عند استعماله .

والصخر إشارة للزهد والتبرّى ، لأنه لا يظهر أثره ، وهما بدل من الأصل[١] ، فطهارتهما بالعرض لا بالأصل ، ثم قال :

وقدّم إماماً كنت أنت إمامه .

يعنى : اتّبع الشرع ، لأنه إمام كنت أنت إمامه فى إثباته حتى إذا أثبتّه وجب عزلك باتباعه[٢] . فافهم ثم قال :

وصلّ صلاة الظهر فى أول العصر .

يعنى : إجمع ظُهر الشريعة بعصر الحقيقة[٣] لتجدّ فى سيرك ولتقف بعرفات المعرفة ، وبالله التوفيق .

ثم من لوازم الغفلة وجود الهفوة . وهو الوقوع فى الزلل من غير

---

(١) والأصل هو : الذكر والفكر .

(٢) وفى نسخة : وجب عزلك باتباعك .

(٣) ظهر الشريعة هو ازدهارها وبلوغ أوجها فإذا بلغ الإنسان فى الشريعة مرحلة السنام التى عبر عنها بالظهر أسلمته إلى الحقيقة . ونهاية أوان الظهر هو أول أوان العصر .

قصد ، وهى مانعة من فهم الأسرار بعد دخول الحضرة لوجود الران الناشىء عنها . وهذا ما نبّه عليه المؤلف إذ قال :

أم كيف يرجو أن يفهم دقائق الاسرار وهو لم يتب من هفواته .

قلت : التى غمره رانها فأعمى قلبه عن مفهوماته . قال تعالى (كلاَّ بل رآن عَلَى قُلُوبِهِم مَا كانوا يكْسبون)[١] وقال تعالى (واتقوا الله ويُعلّمكُم الله)[٢] فجعل التقوى بساط العلم .

قال أبو سليمان الدارانى[*] رضى الله عنه : « إذا عقدت النفوس على ترك الآثام جالت فى الملكوت ورجعت إلى صاحبها بطرائف الحكمة من غير أن يؤدى إليها عالمٌ علما » .

فبلغ ذلك الإمام أحمد بن حنبل فصدَّقه وذكر الحديث : «من عمل بما علم ورَّثه الله علم مالم يعلم »[٣] وفى وصية مالك للشافعى ـ رحمهما الله ـ «إتق الله ولا تطفىء هذا النور الذى آتاك الله بالمعاصى» .

وأنشدوا فى ذلك المعنى :

---

(١) آية ١٤ من سورة المطففين . (٢) من آية ٢٨٢ من سورة البقرة .

(٣) رواه أبو نعيم فى الحلية من حديث أنس ، بإسناد ضعيف ، ولكن شواهد الشرع وتجارب الصالحين تؤيده .

(*) هو أبو سليمان عبد الرحمن بن عطية الدارانى . من أهل «داران» قرية من قرى دمشق . كان من كبار الزهاد المتصوفين . توفى سنة ٢١٥ هـ [٨٣٠ ميلادية] . انظر : طبقات الصوفيه ووفيات الأعيان . والجزء الثانى من كتاب الأعلام للزركلى ص ٤٨٤ . والرسالة القشيرية الجزء الأول ص ٨٦ تحقيق : الدكتور عبد الحليم محمود ومحمود بن الشريف .

وما رُمت الدخولَ عليه حتى حللت محلَّة العبد الذليل
وأغضيت الجفون على قذاها وصنت النفس عن قال وقيل

وإنما تنتفى هذه الأربع بشهود الحق سبحانه ، فمن شهده فى الأكوان فاعلا ومدبِّراً نسيها به فلم تنطبع فى مرآته ، ومن شهده عندها قائماً لها بما يجب وقائماً عليها بما يجب لم يتعلق بشهواته. ومن شهده قبلها مقدِّراً لها ومخصِّصاً لم يتعلق بغفلاته ، ومن شهده بعدها رجع منها إليه فتاب من هفواته . ومن شهد الكون كلّه ظلمة وأن الحقَّ هو الذى أناره فقد فتحت له أبواب تجلياته ؛ لأنه يصير بقلب مفرِّد[1] فيه توحيد مجرَّد .

وقد قيل للجنيد[2] رحمه الله : « كيف السبيل إلى الانقطاع إلى الله تعالى؟

قال: بتوبة تزيل الإصرار، وخوف يزيل التسويف ، ورجاء يبعث

---

(١) عن أبى هريرة رضى الله عنه . فيما رواه الإمام مسلم . قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يسير فى طريق مكة ، فمر على جبل يقال له : جمدان ، فقال سيروا ، هذا جمدان ، سبق المفردون . قالوا : وما المفردون يا رسول الله ؟ قال : الذاكرون الله كثيراً والذاكرات .

(٢) هو أبو القاسم الجنيد بن محمد بن الجنيد البغدادى الخزاز ، مولده ووفاته ببغداد سنة ٢٩٧ هـ ٩١٠ م قال أحد معاصريه : ما رأت عينى مثله ؛ الكتبة يحضرون مجلسه لألفاظه ، والشعراء لفصاحته والمتكلمون لمعانيه . وقال ابن الأثير فى وصفه « إمام الدنيا فى زمانه » وعده العلماء شيخ مذهب التصوف لضبط مذهبه بقواعد الكتاب والسنة . ولكونه مصونا من العقائد الذميمة ، محمى الأساس من شبه الغلاة . انظر فى ترجمته : كتاب الكامل لابن الأثير ، وطبقات الصوفية ، والأعلام للزركلى جـ١ ص ١٩٥ ، والرسالة القشيرية جـ ١ .

على مسالك العمل، وإهانة النفس بقربها من الأجل وبُعدها من الأمل.

قيل له : فبماذا يصل العبد إلى هذا ؟

قال : « بقلب مفرّد فيه توحيد مجرّد » انتهى .

وهذه الأربع المذكورة هي التي تنفى الأربع التى ذكرها المؤلف وأصلها الأخير .

وأصل ذلك النظر إلى الوجود بعين العدم والظلمة ، كما نبّه عليه المؤلف إذ قال :

الكون كله ظلمة :

قلت : والظلمة لاتهدى إلى شيء ، بل تكشف عنه ، فوجب رفضه فضلا عن أن ينطبع فى مرآة القلب، وبذلك ينتفى الاعتماد على العمل[1] وغيره ، وإنما كان ظلمة لأنه عدم فى جميع أحواله : فى الماضى بحقيقة حاله ، وفى الحال بعدم استقلاله ، وفى المستقبل على حكم ذلك : فإن كان باقياً فله حكم الحال، وإن كان فانيا فله حكم الماضى ، ثم ماهو به فى الوجود الذى هو نوره إنما هو من الحق سبحانه كما بينه إذ قال :

وإنما أناره ظهور الحق فيه .

قلت : أناره بالوجود الجائز بدلاً من العدم المجوّز فظهر فيه بعامه من

(١) وروى الإمام أحمد عن أبى سعيد ، والبزاز عن شريك ، والطبرانى فى الكبير عن أبى موسى رضى الله عنهم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : لن يدخل الجنة أحد إلا برحمة الله ، ولا أنا إلا أن يتغمدنى الله برحمته .

حيث اتقانه ، وإرادته من حيث تخصيصه ، وقدرتُه من حيث إبرازه ظهورَ دلالة وتعريف ، لاظهور حلول وتكييف ، فعُرفت به ذاته وصفاته وأسماؤه إذ هو فعله ، وبهذا يفهم قوله تعالى (الله نور السموات والأرض) وأن الكون مشكاة فيها زجاجة الأفعال الجامعة لزيت النسب المعتصر من زيتونة الأوصاف الكمالية ، لاشرقية جمالية ولا غربية جلالية ، يكاد زيتها يضىء ولو لم تمسسه نار التأثير الظاهر من مصباح الصفات ، نور على نور الأفعال على نور النسب على نور الأسماء على نور الصفات ، وهي التى ظهر بها الكل ، يهدى الله لنوره من يشاء فى أى مقام كان ، فيشهد الحقَّ على قدر ماحصل له من الهداية . . فافهم ووجوه الشهود مختلفة ، من حصل على شىء منها كان كالآله، ومن لم يحصلُ على شىء فهو فى دائرة النقص كما نبه عليه المؤلف إذ قال :

فمن رأى الكون ولم يشهده فيه أو عنده أو قبله أو بعده فقد أعوزه وجود الانوار .

قلت : ومن شهده فيه أو عنده أو قبله أو بعده فهو الكامل الأنوار المظهر الأسرار وإن تفاوتت الرتب .

والمراد برؤية الكون: اعتبار وجوده من حيث ماظهر فيه وبه من التصرفات العادية وغيرها .

وشهود الحق فيه : النظر لوجود تصريف الحق له بوجه لاينفك وتجرى الأفعال على حكمه بأن لا يبقى للعبد على غيره اعتماد ، ولا لمن سواه استناد ، بل يبقى شاخص القلب لما يرِد منه فى كل دقيقة وحقيقة

رجوعاً لقوله تعالى (الله خالق كل شىء) ، وعملا بخالص التوحيد فى بساط التجريد[1] فافهم .

وعدم ذلك بالرجوع إلى الأسباب والعمل على أن النيل والمنع[2] بالاكتساب ، وشهوده عنده : هو النظر إلى أنه القائم له بما يجب والقائم عليه بما يجب ، فيقع بذلك ظل فى الصدور يقتضى مراقبته بالشكر على ما أسدى من محبوب ، وبالقيام بما وجب من مطلوب ، فتنتفى شهواته إذ يشغله الثناء على الله عن أن يكون لنفسه شاكراً ، وتشغله حقوق الله عزّ وجل عن أن يكون لحظوظه ذاكراً ، عملاً بقوله تعالى (وهو على كل شىء وكيل[3]) وقوله سبحانه (إنَّ ربَّك لبالمرصاد)[4] وقوله عز وجل (ووجد الله عنده فوفَّاه حسابه)[5] وقوله جل وعلا فيما يرويه الصادق المصدوق صلى الله عليه وسلم : « أنا عند ظن عبدى بى[6] . . إن الله عند كل عمل وعامل حتى يوفيه . . أنا عند المنكسرة قلوبهم من أجلى) فافهم . وعدم ذلك بالغفلة وترك الحقوق . والله أعلم .

---

(١) وفى نسخة : التفريد .

(٢) وفى نسخة : والعمل على النيل والدفع ، وفى أخرى : والعمل على النيل والمنع .

(٣) من آية ٦٢ من سورة الزمر . (٤) آية ١٤ من سورة الفجر .

(٥) من آية ٣٩ من سورة النور .

(٦) روى الشيخان عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : يقول الله تعالى : أنا عند ظن عبدى بى وأنا معه إذا ذكرنى ، فإن ذكرنى فى نفسه ذكرته فى نفسى ، وإن ذكرنى فى ملأ ذكرته فى ملأ خير منهم ، وإن تقرب إلى شبراً تقربت إليه ذراعاً وإن تقرب إلى ذراعاً تقربت إليه باعاً وإن أتانى يمشى أتيته هرولة » .

وشهوده قبله: أن يسبق إلى قلبه أن مراده لا يكون إلا بإرادة الحق وقدرته، فينتج له ذلك التوكل عليه فيه علماً منه أن وجود كل شيء منه سبحانه (له مقاليد السموات والأرض) أى : مفاتيحها التى يفتح بها وجودها وموجدها، فينتفى عنه الغفلة بهذه الرؤية لاشتغاله بالشكر عن المساعدة، وعدمُ ذلك برؤية النفس فى التحصيل وعدمه . فافهم.

وشهوده بعده هو أن يغفل عن التصريف والقيام بالأمور والإبرام للأحكام حتى يقع فى أمر يريده فيذكر مِنَّة الحق تعالى بتيسيره، أو فى ضده فيذكر قهره سبحانه فى تعسيره . وهذا حال عـوام الخلق من المتوجهين ونحوهم ، وإليه الإشارة بحديث (أذنب عبدى ذنبا فعلم أن له ربًّا يغفر الذنب ويأخذ به[1] . .) الحديث

---

(١) هذا الحديث رواه الإمام مسلم رضى الله عنه : أذنب عبدى ذنبا فقال : اللهم اغفر لى ذنبى . فقال تبارك وتعالى : أذنب عبدى ذنبا فعلم أن له رباً يغفر الذنب ويأخذ بالذنب ، ثم عاد فأذنب ، فقال : أى ربى اغفر لى ذنبى ، فقال تعالى عبدى أذنب ذنبا فعلم أن له ربا يغفر الذنب ويأخذ بالذنب ، ثم عاد فأذنب فقال : أى ربى اغفر لى ذنبى ، فقال تبارك وتعالى : أذنب عبدى ذنبا فعلم أن له ربا يغفر الذنب ويأخذ بالذنب أعمل ما شئت فقد غفرت لك . قال عبد الأعلى : لا أدرى أقال فى الثالثة أو الرابعة أعمل ما شئت .

ورواه الإمام البخارى على النحو التالى : « إن عبدا أصاب ذنبا ، فقال : رب أذنبت ذنبا فاغفره لى . فقال ربه : علم عبدى أن له رباً يغفر الذنب ويأخذ به ، غفرت لعبدى . ثم مكث ما شاء الله ، ثم أصاب ذنبا فقال : رب أذنبت ذنبا آخر فاغفر لى . فقال : علم عبدى أن له رباً يغفر الذنب ويأخذ به غفرت لعبدى ، ثم مكث ماشاء الله ثم أصاب ذنبا فقال : رب أذنبت آخر فاغفر لى فقال : علم =

وليس وراء هذه المرتبة إلاَّ الاسترسال فى الغفلة المؤدى لوقـوع الهفوة ، وإليه الإشارة بقوله تعالى (وَالَّذِينَ ءَامَنُوا بالباطل وَكَفَرُوا بِاللهِ أولئك هُمُ الْخَسِرُونَ) [آية ٥٢ من سورة العنكبوت] وذلك لأنهم غفلوا واسترسلوا ، ولو رجعوا ما خسروا . فافهم .

ثم من حصل على الشهود الأول كان بالله ، أو على الثانى كان لله ، أو على الثالث رأى الأمر من الله ، أو على الرابع رجـع فيه إلى الله . ومن فاته ذلك كله فهو مُعْوز أى: محتاج لوجود الأنوار؛ إذ غلبه النظر إلى الاغيار .

وحجبت عنه شموس المعارف بسحب الاثار .

قلت : شبَّه المعارف بالشموس ؛ لأنها تذهب بكل ظلمـه ونور ، وتكشف عن حقائق الأمور مع علوها وارتفاعها وعموم النفع بها ، وأخْذِ كل أحد منها على قدره .

واستعار السحب للآثار ؛ لأنها تغطِّى الحقيقة ولا تذهب بها ، وتُضعف النور ولاتذهبه ، وتعرض له ولاتدوم عليه .

وبالجملة فمعرفة الحق أصل لكل أصل ، وماسوى الحق حجاب عنه، ولا يخرجك عن الوصف إلا شهود الموصوف ، ومن ذكر الحق نسى

= عبدى أن له رباً يغفر الذنب ويأخذ به غفرت لعبدى ثلاثاً فليعمل ما شاء » . رواه البخارى ، ومسلم ، والنسائى .

نفسه ، ومن ذكر نفسه نسي الحق، وأعظم باب في معرفته شهودُ قهره من بساط توحيده ؛ لأنه يشعر بعظيم عظمته، وقد توجَّه المؤلف للكلام في ذلك إذ قال :

مما يدلك على وجود قهره ، سبحانه ، أن قد حجبك عنه بالليس بموجود معه .

قلت : استدلال القوم مراد لتمكين الحقيقة من النفس ، لا لمطلق الإثبات ؛ لأن مقاصدهم دائرة على طلب الكمال بعد إثبات الأصل الذى هو شأن الأصولى ، وقد تقرر فى النقول[1] أن الله خالق كل شىء فالكل منه وإليه ، فوجود كل شىء به وله لا معه ؛ لأن الكل عدم لوجوده ، كما مرّ .

ثم الخلائق محجوبون عنه بهم ، وهم عدم ، فالعدم حجب العدم ، وذلك عجيب من الصنع .

ثم احتجاب العدم بالعدم دليل على ظهور الوجود بالموجود [2] بلا حجب ألبتة . وذلك من أكبر شواهد العظمة .

وإنما قلنا إن احتجاب الخلق بهم ؛ لأن الحق — سبحانه — لا يصح أن يكون حجابا ولا محجوباً ، وقد ذكر المؤلف فى ذلك عشرة أوجه فقال فى أولها :

---

(١) وفى نسخة : المعقول .

(٢) وفى نسخة : بالوجود .

١ – كيف يتصور ان يحجبه شيء وهو الذى أظهر كل شيء .

قلت : أظهره من العدم إلى الوجود فكان دليلاً عليه لكل موجود ؛ إذ خصصه بإرادته وأبرزه بقدرته ، وأتقنه بحكمته ، وتجلَّى فيه برحمته .

٢ – كيف يتصور أن يحجبه شيء وهو الذى ظهر بكل شيء

قلت : ظهر به من حيث التعريف؛ إذ أظهره من العدم فدلَّ على أنه المنفرد بالكمال والبقاء والقدم :

وفى كل شـــىء له آيةٌ تدلُّ على أنه الواحـــــد

٣ – كيف يتصور أن يحجبه شيء وهو الذى ظهر فى كل شيء

قلت : ظهر فيه بما أظهر عليه من آثار قدرته وتخصيص إرادته ودلائل حكمته وشواهد رحمته ؛ فكان مرآة لمعرفته .

٤ – كيف يتصور أن يحجبه شيء وهو الذى ظهر لكل شيء .

قلت : ظهر له بما ظهر فيه فكان عارفاً به على قدره حسب تعريفه ، ولذا قيل : «ماثمَّ إلا عارف به على قدره» ، فلذلك لا يعذر الكافر بجحده .

٥ – كيف يتصور أن يحجبه شيء وهو الظاهر قبل وجود كل شيء .

لأنه أظهر الأشياء فكان قبل وجودها ، إذ هو الأول الذى لا مُفتتح لوجوده ، ولا ظهور لشيء إلاَّ بإظهاره إياه . فافهم .

٦ – كيف يتصور أن يحجبه شيء وهو أظهر من كل شيء .

قلت : لأنه الواجب الوجود لذاته ، وكل شيء إنما وجد بإيجاده وواجب الوجود أظهر للمناط العقلى أبدا ، ولا عبرة بوهم فيه . فافهم.

٧ – كيف يتصور أن يحجبه شيء وهو الواحد الذى ليس معه شيء .

قلت : ليس معه شيء أبداً كما لم يكن معه شيء أزلا ، لأن الكل فعله وهو المنفرد بالكمال . وكان الله ولا شيء معه[١] وهو الآن على ماعليه كان .

٨ – كيف يتصور أن يحجبه شيء وهو أقرب اليك من كل شيء .

قلت : لأنه المتصرف فيك بكل شيء ، وتصريفه سابق لك قبل وجود ذلك الشيء ، فهو أقرب اليك حتى من نفْسك و نفَسك قال الله تعالى (ونحنُ أقرب إليه منكم)[٢] .

---

(١) روى الإمام البخارى فى بدء الخلق : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : كان الله ولم يكن شيء غيره ، وكان عرشه على الماء ، وكتب فى الذكر كل شيء ، وخلق السموات والأرض . ويقول الإمام ابن حجر فى « الفتح » شرحاً وتعليقا على الحديث الشريف فى الراوية الآتية فى التوحيد : « ولم يكن شيء قبله » وفى رواية غير البخارى « ولم يكن شيء معه » والقصة متحدة ، فاقتضى ذلك أن الراوية وقعت بالمعنى ، ولعل راويها آخذها من قوله صلى الله عليه وسلم فى دعائه فى صلاة الليل كما تقدم من حديث ابن عباس « أنت الأول فليس قبلك شيء » لكن رواية البخارى أصرح فى العدم ، وفيه دلالة على أنه لم يكن شيء غيره لا الماء ولا العرش ولا غيرهما : لأن كل ذلك غير الله تعالى . ويكون قوله : وكان عرشه على الماء أنه خلق الماء سابقاً ثم خلق العرش على الماء . وقد وقع فى قصة نافع ابن زيد الحميرى بلفظ : كان عرشه على الماء ثم خلق القلم فقال : اكتب ماهو كائن ، ثم خلق السموات والأرض وما فيهن . فصرح بترتيب المخلوقات بعد الماء والعرش .

(٢) يقول الله تعالى « ونحن أقرب إليه منكم ولكن لاتبصرون » سورة الواقعة آية ٨٥ ، وفى آية ١٦ من سورة : ق : يقول الله سبحانه : (ولقد خلقنا الإنسان ونعلم ما توسوس به نفسه ونحن أقرب إليه من حبل الوريد) .

٩ – كيف يتصور أن يحجبه شيء ولولاه ما كان وجود كل شيء .

قلت : وذلك لافتقار كل شيء له ، وغناه عن كل شيء ، وعلّة كلّ شيء صَنَعه ، ولا علة لصنعه ، ماشاء الله كان ومالم يشأ لم يكن .

١٠ – ياعجبا ، كيف يظهر الوجود فى العدم .

مع أن العدم ظلمة والوجود نور . وقد كان ذلك .

أم كيف يثبت الحادث مع من له وصف القدم .

قلت : مع أن الحادث لاوجود له من ذاته ولا فى صفاته ، والقديم لاثبوت لشيء مع ظهور صفاته ، وقد كان ذلك ، فدلّ على أن الظاهر والثابت إنما هو القديم وحده ، وتلاشى الحادث وفناؤه فيه[١]

يحكي أن رجلا كان بين يدى الجنيد ، فقال : الحمد لله ، ولم يقل رب العالمين .

فقال الجنيد رحمه الله : كمّله يا أخى .

فقال الرجل : وأىّ قدر للعالمين حتى يُذكروا معه !!

فقال الجنيد : قله ياأخى ، فإن الحادث إذا قُرن بالقديم تلاشى الحادث وبقى القديم .

---

(١) وفى نسخة : « وفنى به فيه » . وكل ذلك لايقصد به أكثر من أن ماليس له الوجود من ذاته فهو عدم ، وهو مع ذلك موجود بإيجاد الله إياه ، ومستمر فى الوجود لأن الله يمسكه (إن الله يمسك السموات والأرض أن تزولا) ، وإذا لم يمسكه الله رجع إلى أصله وهو العدم .

قال فى « التنوير » : فما سوى الحق – تعالى – لا يوصف بفقد ولا وجود ؛ لأنه لا يوجد معه غيره ، ولأنه لا يُفقد إلا ما وُجد، ولو انتهك حجاب الوهم لوقع العيان على فقد الأعيان ، ولأشرف نور الإيمان فغطى وجود الأكوان » . انتهى ، وسيأتى من نوعه كثير ، وهو نخبة الكتاب ولبّ اللباب[1] ، كم من[2] خانه الجهل به فضلّ ، وأنكر على أهله فزلّ ، فهو معدن غرور الجهال ، ومزلَّة أقدام الرجال ، ولا أجهل ممن يتعصب بالباطل ، وأنكر لما هو به جاهل ، فإن عرفت فاتَّبع ، وإن جهلت فسلِّم ، فعليكم بكمال التنزيه ونفى التشبيه والتمسك بقوله تعالى (ليس كمثله شىء وهو السميع البصير)[3] .

تنبيه :

تكلَّم فى هذا الباب على بداية البدايات ، وأشار فى آخره إلى نهاية النهايات ، وجمع فى ذلك بين الشريعة والحقيقة ، والإشارة والبيان ، وكذا فى كلّ كلامه .

---

(١) وفى نسخة : ولباب الألباب .
(٢) فى نسخة : كم من خانه فضل أو أنكر على أصله بغير الحق فزل .
(٣) آية ١١ من سورة الشورى .

الباب الثانى

ثم افتتح بالمعاملات[1] والكلام فيها بأن قال :

وقال رضى الله عنه .

قلت : جعل هذه الترجمة فى كل فصل من كتابه ، وفيها نوعٌ من التعظيم : فيحتمل أن يكون مُلغى فى نظره حين وضعها ، ويحتمل أن الواضع لذلك غيره بإشارته أو بغير اشارته، ويحتمل أن يكون أملاه إملاء على الكاتب فترجمه لنفسه بحسب المجالس والفصول ، والله أعلم.

ماترك من الجهل شيئا من اراد أن يحدث فى الوقت غير ما أظهره الله فيه .

قلت : الوقت هنا الزمان الذى لا يقبل غير ما أظهره الله فيه بحكم التصريف ، وإرادة غير ما أظهره الله فيه بالتلهف على عدم موافقته للغرض النفسانى ونحوه .

والسلامة من ذلك بوجود الاستسلام .

وقال الأستاذ[2] أبو القاسم القشيرى رضى الله عنه : « ومن كلامهم

---

(١) المعاملات مع الله ، أو المعاملات فى المجال الروحى .

(٢) هو أبو القاسم عبد الكريم القشيرى النيسابورى ولد سنة : ٣٧٦ هـ ، وتوفى سنة ٤٦٥ هـ بمدينة نيسابور التى كانت إقامته فيها ، وهو من رواد الصوفية ، وله تواليف كثيرة فى التصوف والتفسير والأدب . [انظر ترجمته مفصلة فى مقدمة الجزء الأول لكتاب « الرسالة القشيرية » تحقيق الدكتور عبد الحليم محمود ، ومحمود ابن الشريف . وانظر كذلك كتاب « وفيات الأعيان » و « طبقات السبكى » ج ٣ وكتاب الأعلام للزركلى ج ٢] .

« الوقت سيف » . أي : كما أن السيف قاطع فالوقت بما يقتضيه الحق تعالى ويجريه : حاكم .

وقيل : « السيف ليّن مسّه قاطع حدّه ، فمن لاينه سلم ، ومن خاشنة اصْطَلَمَ[1] » كذلك الوقت من استسلم لحكمه نجا ، ومن عارضه بترك الرضا انتكس وتردى . كما قيل :

وكالسيف إن لاينته لان مسُّه　　وحدّاه إن خاشنته خشنان

وقد يراد بالوقت غير هذا ، مثل : طيبة القلب ، ومنه قولهم : فلان صاحب وقته وطاب وقته .

ومثل الاجتماع للسماع ، ومنه قولهم : صنع فلان وقتاً ، وحضرنا وقتاً ، ونحو ذلك .

فأما قولهم « فلان بحكم الوقت »[2] فمعناه ما تقدم أولاً ، أي : أنه يجرى مع التصريف بغير اختيار من نفسه .

وإنما كانت معاندة الوقت غاية الجهل لانسداد أبواب العلم وطرقه فى حق صاحب هذه الحالة .

وطرق العلم ثلاثة : العقليات ، والشرعيات ، والعاديات .

---

(١) المراد : انقطع . جاء فى الصباح المنير : صلمت الأذن صلما — من باب ضرب — استأصلها قطعا . واصطلمتها كذلك . وصلم الرجل صلما — من باب تعب — استؤصلت أذنه فهو أصلم .

(٢) وفى نسخة : يحكم بالوقت .

فدليل جهله بالمعقولات إرادته رفع الواقع وإيقاع الممتنع .

ودليل جهله بالشرعيات إعتراضه على مولاه وإساءة أدبه معه فيما قضاه له ، وإرادته غير ما أقامه فيه من تجريد وأسباب وغيرهما .

ودليل جهله بالعاديات عدم مراعاته لحكمة الله فى خلقه وسنة الله فى عباده ، وأن من أراد موافقة أغراضه أبداً أتعب نفسه بغير فائدة ، إذ لا يكون غالباً إلاَّ غير ما يريده الإنسان .

وقد قيل : من طلب مالم يُخلَق أتعب نفسه ولم يُرزق . يعنى : الراحة فى الدنيا . وكما أمرتَ بالاستسلام فى الواقع حيث لا يمكن غيره أمرتَ بالحقوق حسب الإمكان وإن كانت بمضايقه فترك الاستسلام فى مجاله جهل وترك العمل فى وقته حمق . كما بيّنه المؤلف إذ قال :

احالتك الاعمال على وجود الفراغ من رعونات النفوس .

قلت : الرعونات : جمع رعونة ، بضم الراء والمهملة ، وهى ضرب من الحماقة فَيُظَنُّ بصاحبها العقل وليس بعاقل فى نفس الأمر . والعبد فى هذه الحالة كذلك ، لأن صورة فعله تقتضى عقله ، وفى حقيقة الأمر هو أحمق من ثلاثة وجوه :

أحدها : إحالته ما وجب عليه شرعا وهو العمل ، على محال عادة وهو الفراغ فى هذه الدار فهو يقول لا أعمل حتى أتفرَّغ ، ولسان الحال يقول له : لا تتفرَّغ إلا بالعمل .

الثانى : أنه وثوق بغير موثوق به ، وهي النفس فى عزماتها[١] التى غالبُ الأمر أنها لاتفى بها[٢]

الثالث : إنه إهمال للحزم والعزم المقدمين[٣] عند العقلاء خوفاً من تقلبات الدهر .

ولـكن إيثار الدنيا على الآخرة واجتهادُه فيما ضُمن له دون ماطلب منه هو الموجب لذلك : وقدقال رسول اللهصلى اللهعليهوسلم :«الـكيِّس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت ،والأحمق مناتبع نفسه هواهاوتمنّى على الله الأمانى .. الحديث » .

والناس ثلاثة :

رجل ساعده القدر فعمل فى فراغه وشغله . وهذا من الموفَّقين المغبوطين .

ورجل وجد الفراغ ولم يعمل. وهذا من البطّالين المغبونين ؛ إذجاء: « خصلتان مغبون فيهما كثير من الناس : الصحة، والفراغ »

ورجل لم يجد الفراغ وجعله علّة فى التسويف فأَحال عليه العمل ، وهذا من المغترين ؛ إذ لاحقيقة له فى وقته ، ولا فيما يؤول إليه أمره

---

(١) وفى نسخة : نزعاتها .
(٢) وفى نسخة : لا تنفذها .
(٣) وفى نسخة : المرادين عند العقلاء وفى أخرى « المؤثر » .

ويرحم الله ابن الفارض [1] حيث قال :

وعُدمن قريب واستجب واجتنب «غدا»
وشمّر عن ساق اجتهاد بنهضة
وسِر زمِنا وانهض كسيراً فحسبك [2]
البطالة ما أخرت عزماً لصحة
وكن صارماً كالوقت فالمقت فى «عسى»
وإياك « علّ » فهى أخطر علة
وجذّ بسيف العزم « سوف » فإن تجُد
نفَسا فالنفْس إن جُدت جدّت

ثم إذا قمت بالإستسلام فى محل القهر ، وبالامتثال فى محل الأمر فلا تختر حالة تكون بها من تجريد أو أسباب ، عجز أو اكتساب : تشوقا لما يرجى فى ذلك ، بل كن بحكم الوقت كما بيّنه المؤلف إذ قال :

لاتطلب منه أن يخرجك من حالة ليستعملك فيما سواها

قلت : بل قم فيما أقامك الله فيه طالباً الاستقامة معه من غير زائدعلى ذلك : وإنما أمرت بذلك لثلاثة أوجه :

---

(١) هو : أبو حفص عمر بن على بن مرشد ، أشعر المتصوفين ، ويلقب بسلطان العاشقين . أصله من «حماه» ولد فى القاهره سنة ٥٧٦ هـ ١١٨١ م وتوفى بها سنة ٦٣٢ هـ ١٢٣٥ م . انظر وفيات الأعيان وص ٧١٩ جـ٢ من كتاب الأعلام للزركلى .

(٢) وفى نسخة : فحظك .

أحدها : القيام بحق العبودية فيما أنت فيه بالرضا به .

الثاني : لتجد الراحة بالاستسلام فتسلم من نكد التدبير وأكدار التغيير[١] .

الثالث : لئلا تُعَطى ما طلبت وتُمنع الراحة فيه ؛ فقد حكي أن رجلا كان يسأل الله تعالى كل يوم رغيفين ويتفرغ للعبادة ، فسُجن ، وكان يؤتى كل يوم برغيفين ففكّر في أمره ، فقيل له: إنك سألت الرغيفين والعبادة ولم تسأل العافية ، فاستغفَر ، وأُخرج لوقته .

قال في « التنوير » : فتأدَّب بها أيها المؤمن ولا تطلب منه أن يخرجك من أمر ويستعملك فيما سواه إذا كان ما أقمت فيه مما يوافق لسان العلم[٢] ؛ فإن ذلك من سوء الأدب مع الله تعالى ، فاصبر لئلا تطلب[٣] الخروجَ نفسُك فتُعطى ما طلبت وتمنع الراحة فيه . فربَّ تارك شيئًا وداخل في غيره ليجد[٤] الراحة فتعب ، وقوبل بوجود التسيير عقوبة لوجود الاختيار » انتهى .

ثم ما يريده العبد من الأسباب وغيرها يتحول إلى ضده . ووجودُ

---

(١) وفي نسخة : التقدير .

(٢) وفي نسخة : موافقاً للسان العلم ، وفي أخرى لشأن العلم .

(٣) وفي نسخة : فاصبر ولا تطلب الخروج لنفسك .

(٤) وفي نسخة : فرب تارك شيء ودخل في غيره ليجد الراحة فتعب وقوبل بوجود النفس عقوبة لوجود الاختيار .

الجمع غير ممتنع[١] فإرادة الانتقال من عدم اتساع دائرة الفهم ، وإلاّ فالأمر كما بينه المؤلف إذ قال :

فلو أرادك لاستعملك من غير اخراج

قلت : وذلك بأن يحصل لك فوائد التجريد مع الأسباب وفوائد الأسباب مع التجريد ،وذلك عليه ـ سبحانه ـ يسير لا امتناع فيه ولا عسر ، فكم من متجرد أَوْسع عليه الرزق حتى أسعف وأوسعَ ، وكم من متسبب بسط له الزمان ووسع عليه وقته حتى جمع بين العبادة والتسبب ، فقد روى أن سهل بن عبد الله التسترى رضى الله عنه قال : لمَّا أسلمونى إلى المكتب كنت إذا اشتغلت بمراقبة قلبى ضاعت وظيفتى فى اللوح وإن اشتغلت باللوح ضاع قلبى ، فسألت الله فجمع لى بينهما ، ولذلك قال الشيخ أبو العباس المرسى ، رضى الله عنه ، للمؤلف[٢] لمَّا رام الخروج مما هو فيه من الاشتغال بالعلم الظاهر قائلا إن الوصول مع ذلك بعيد إذ قال له : اقعد فيما أنت فيه وما قُدِّر لك على أيدينا يصلك . ثم نظر إليه وقال : هذا شأن الصدِّيقين لا يخرجون من شيء حتى يكون الحق سبحانه هو الذى يتولى إخراجهم كما تولى إدخالهم ، فإذن أنت بين إحدى ثلاث :

(١) بأن يريد بالأسباب وجه الله فيكون متسببا متجرداً فى آن واحد مادامت نيته قد أصبحت متمحضة لوجه الله تعالى .

(٢) أى لابن عطاء الله الاسكندرى صاحب الحكم .

إمّا أن تقام فيما أنت فيه من غير نقل ولا زيادة ولا نقص ، وهذه سلامة ورحمة .

وإما أن يستعملك فيه من غير إخراج فيكون لك غنيمة العبودية منوطة بغنيمة الفائدة المطلوبة مع زيادة ما أنت فيه ، وإما أن يهيئك للخروج عما أنت فيه بتخلُّف شرط الإقامة الذى هو استقامته والاستقامة فيه فإن التخلف إذْنٌ فى التخلف ، كما تقدم .

ثم إذا قمت بما عليك من الاستسلام أو الامتثال حيث أُقمت فلا تقف بهمتك عند شىء دون الحق ، لأَن ماسواه حجاب عنه وقاطع دونه ، وان كان من فوائده وكراماته .

وهذا ما بيّنه المؤلف اذ قال :

ما أرادت همة سالك أن تقف عند ما كشف لها الا ونادته هواتف الحقيقة : الذى تطلبه أمامك .

قلت : يقول متى أراد المريد أن يقف بهمته عندما كشف له من العلوم والمعارف ونحوها نُودى من بساط الحقيقة بلسان حال ما كشف له : الذى تطلبه من معرفة الحق أمامك ، ولا يزال أمامك أبداً فجدّ فى الطلب ولا تعوّد نفسك الكسل ؛ لأن ما كشف لك إن كان من علوم الأفعال ومعانى النسب الظاهرة فيها فقد فاتك موقف الأسماء والتحقيق بمعانيها على ما يليق بك وما يبدو لك منها ، وإن كان

ما كشف لك من معانى الصفات وحقائقها ، فقد فاتك كشف عظمة الذات وجلالتها .

ثم كذلك فى كلّ مرتبة إلى ما لا نهاية له ؛ لأن المعروف لا يتناهى ، فالمعرفة به لا تتناهى فى دار الآخرة الأبدية فضلاً عن الدار الدنيوية .

ثم الوقوف على ثلاثة أوجه : وقوف قنوع ، ووقوف رؤية الانتهاء ، ووقوف استئناس .

وقد قال بعض المشايخ : وقفة المريد شرٌّ من فترته ؛ لأن الفترةَ تُجبر بالتشمير والوقفة تقطع عن التوجّه بالتقصير ، وهو رأس الحرمان والعياذ بالله . وقد يدعوه للوقوف ما يظهر له من الكرامات قنوعاً واستئناساً أو اعتقاداً بأنها النهاية ؛ فلذلك قال :

ولا تبرجت له ظواهر المكنونات الا ونادته حقائقها « انما نحن فتنة فلا تكفر » .

قلت : تبرّجت : ظهرت بالزينة لقصد الاستمالة ، وليس ذلك إلاَّ بخرق العوائد وتحصيل الفوائد ، فإذا ظهر شىء من ذلك أُولعت النفس به فأرادت الوقوف معه فيناديه لسان حالها (إنّما نحنُ فتنَة) أى اختبار لك ، هل تقف معنا فتحجب عن ربنا ، أو تنظر لمنّته فتشكر نعمة الله تعالى فينا فلا تكفر نعمة الله عليك فينا بوقوفك معنا وتجاوزْنا لرؤية

الحق بنا أو دوننا شكراً لما أنعم الحق عليك بنا ، واعمل على أبيات الششترى حيث يقول :

فلا تلتفت فى السير غيراً فكلما
سوى الله غير ، فاتخذ ذكره حصنا
وكلُّ مقام لا تقم فيه إنه
حجاب فجدّ السير واستجلب العونا
ومهما ترى كل المراتب تجتلى
عليك فحل عنها فعن مثلها حُلْنا
وقل ليس فى غير ذاتك مطلب
فلا صورة تجلى ولا طُرفة تجنا
وسر نحو أعلام اليمين فإنها
سبيل بها يمنٌ فلا تترك اليمنا

وبالجملة فالوقوف بالهمة على شيء دون الحق حرمان ، واشتغال النفس بالطلب له مفتاح كل خير لكن على وجه العبودية ، لا على غير ذلك الوجه ، فإن وجوه الطلب كلها معلولة ، إلا ما كان على وجه العبودية . وقد بيّن ذلك المؤلف فى كل وجه منها فقال :

طلبك منه اتهام له وطلبك له غيبة منك عنه ، وطلبك لغيره لقلة حيائك منه ، وطلبك من غيره لوجود بعدك عنه.

قلت : يقول : طلبك منه ، أى : سؤالك منه ما تريده من الحوائج منه .

تعالى على جهة الاقتضاء والتسبب بالطلب من اتهامه تعالى فى علمه ورحمته ووعده ؛ لأنك لو وثقت بعلمه بحالك لم تجنح لسؤالك ، ولو وثقت برحمته كنت تكتفى بها عن طلبك ، ولو وثقت بوعده ما كنت تطلب منه شيئاً قسمه لك قبل وجودك ، ولذلك قيل :

« لا تكونوا بطلب الرزق مهتمين فتكونوا للرازق متهمين » انتهى .

وطلبك له معناه طلبك الوصلةَ به من وجود الغيبة عنه ؛ لأنه ليس بغائب ولا بعيد ، فطلبك له من وجود غيبتك وبعدك عنه ؛ إذ لو كنت قريباً منه شاهدت قربه منك حتى ترى أنه أقرب إليك من نفْسِك ونَفَسك .

وطلبك لغيره معناه طلبك الوُصلة بغيره ، أى : من أمر الدنيا والآخرة[1] من قلّة الحياء منه تعالى ؛ لأنك لو استحييت منه حقَّ الحياء ما كنت تلتفت لغيره، فضلاعن أن تراه أهلا لأن تطلب الوصلة به

وطلبك من غيره الحوائج لوجود بُعدك عنه ، لانك لو شاهدت قربه منك عرفت أن الامور كلها بيده فوقفت بِكنه الهمَّة عليه .

وبالجملة ، فالطلب كلّه معلول إلا ما كان على وجه العبودية والقيام

---

(١) كما لو طلب الجنة ثمنا لعمله فى الدنيا فإنه بذلك لا يطلب الله بعبادته وإنما يطلب الجنة .

بحق الربوبية ، لأن الحق تعالى أقرب إلى العبيد من حبل الوريد ، وهو على كلّ شيء شهيد ، فلا محل للطلب إذن ،

وبرهان ذلك فيما ذكره المؤلف إذ قال :

مامن نفس تبديه ألا وله فيه قدر يمضيه

قلت : النفَس بالتحريك أدق الحركات النفسانية فى عالم الملك والشهادة، ومرجعه لأزمنة دقيقة يجرى بها وجود الإنسان فتبدو : أى تظهر على وجوده ويبدو معها مايقضيه الحق للعبد من الأمور العادية وغيرها ، فهى مراتب للأحكام الجارية على العباد ، وبحسب هذا فكل نفَس يقتضى تجلياً جلالياً أو جماليا أو خارجاً عنهما . وذلك التجلى يقتضى عبودية ، وتلك العبودية تقتضى تجل ولا يزال ذلك متجدداً على مرّ الدهور والأوقات بعدد الأنفاس ،فيكون المريد فى كل نفَس سالكا طريقاً إلى الله تعالى ، وعلى هذا يتنزل قولهم : الطرق إلى الله بعدد أنفاس الخلائق ، لا مايسميه بعض الناس اختلاف الحق ومخالفته[1] ، فما ثمَّ إلا طريق واحد وهو طريق محمد صلى الله عليه وسلم. ومسالكه ثلاثة :

عبادة ، وإرادة ، وزهادة .

وإن كان مامن نفَس تبديه إلا وله قدَر فيك يمضيه لم يصح لك

---

(١) وفى نسخة : لا ما يسميه بعض الناس من اختلاف الحق ومخالفته.

إبهامه ، ولا يصح أن يكون عنك غائبا . فيجب أن تستحى منه بأن لا تطلب غيره ، ولا تطلب من غيره وتدع التدبير معه فتنهض الهمة إليه من غير توقف ولا تردد ، كما أشار إليه المؤلف إذ قال :

لا تترقب فروغ الأغيار فان ذلك يقطعك عن وجود المراقبة له فيما هو مقيمك فيه

قلت : لا تنتظر بعملك فراغا من الأغيار والأفكار ؛ فان ذلك التوقف قاطع لك عن عبودية الوقت وحكمه ، ولكن قم له بما تقدر عليه كما أنت من غير التفات إلى فراغ ولا غيره[1] فقد قيل : « سيروا إلى الله عُرجا ومكاسير ولا تنتظروا الصحة ؛ فان انتظار الصحة بطالة» انتهى.

ومترقب الفراغ للعمل كمن يقول لا أتداوى حتى أجد الشفاء ، فيقال له : لا تجد الشفاء حتى تتداوى . فلا هو يتداوى ولا يجد الشفاء ، كذلك هذا : يقول لا أعمل حتى أتفرغ ، ولا يتفرغ حتى يعمل ، فهو لا يعمل ولا يجد الفراغ .

ثم الذى ينتظره من الفراغ محال عادة ؛ لأن الدنيا دار الشغل والفكر كما قيل :

فما قضى أحدٌ منها لُباناته ولا انتهى أربٌ منها إلا إلى أرب

فاذا أردت أن يكون شغلك فراغا فاجعل عملك من جملة أشغالك ، وليس ذلك[2] إلا بتحقيق العلم بما هي عليه ، كما نبّه عليه إذ قال :

---

(١) وفى نسخة : من غير التفات لغيره .

(٢) وفى بعض النسخ : وليس ذلك إلا بتوطين النفس على عدم ما تؤمله من الفراغ وليس ذلك إلا بتحقيق العلم . .

لا تستغرب وقوع الأكدار مادمت فى هذه الدار فانها ماأبرزت الا ماهو مستحق وصفها، وواجب نعتها

قلت : وذلك أنها موصوفة بالدناءة ، أي : الخساسة . والدنو أي : قرب المرام[1] وقرب المسافة . عمرها قصير ، ومتاعها قليل ، وآفاتها غزيرة ، ومن وطّن نفسه على ذلك منها وعمل عليه وجد الراحة وكان دهره كلّه عافية . ومن نظر إلى العكس أتعب نفسه من غير حاصل ، ولذلك قال جعفر الصادق رضى الله عنه[2] :

من طلب مالم يُخْلق أتعب نفسه ولم يُرزق ، يعنى : الراحة فى الدنيا . وأنشدوا فى معناه :

تطلب الراحة فى دار الفناء خاب من يطلب شيئاً لايكون

وقال الجنيد رضى الله عنه : لست أستبشع مايرد علىّ من العالم؛ لأنى قد أصّلت أصلا وهو أن الدنيا دار همّ وغمٍّ والعالم كله شر ، ومن حكمه أن يتلقانى بكلّ ماأكره ، فإن تلقانى بما أحب فهو فضل، والا فالأصل هو الأول » .

---

(١) أى قرب النهاية والخاتمة ، وفى بعض النسخ : أى قرب الحرام .

(٢) هو : أبو عبد الله جعفر بن محمد الباقر زين الدين بن الحسين الهاشمى القرشى . سادس الأئمة الاثنى عشر عند الإمامية . كان من أجلاء التابعين ، وله منزلة رفيعة فى العلم . أخذ عنه جماعة منهم : أبو حنيفة ، ومالك ، وجابر بن حيان . ولد بالمدينة المنورة سنة ٨٠ هـ ٦٩٩ م وتوفى بها سنة ١٤٨ هـ ٧٦٥ م . انظر وفيات الأعيان ونزهة الجليس للموسوى ج ٢ ، والأعلام للزركلى ج ١ ص ١٨٦ .

قال ابن مسعود[1] رضى الله عنه : «الدنيا دارُ همٍّ وغمٍّ ، فما كان منها من سرور فهو ربح » انتهى .

ثم الأشغال والأكدار وغيرها تذهب بالرجوع إلى الله سبحانه وتعالى وتتضاعف بالرجوع الى النفس، وهذا مانبّه عليه وبيّنه المؤلف بأن قال :

ماتوقف مطلب أنت طالبه بربك ولا تيسر مطلب أنت طالبه بنفسك

قلت : الطلب بالله تعالى هو :الاستناد اليه فى تيسير المطلب .

وعلامته ثلاثة .

التفويض فى المراد ، والتوكل فى التحصيل ، والاستقامة فى التوجُّه. فإذا تمت هذه فالمطلب متيسر ، سواء وجد المراد أو لم يوجد ؛ لأن المقصود تبريد حرقة الاحتياج ولا بقاء لها مع التفويض ، لأن عاقبته الرضا فى الوجود والعدم ، والطلب بالنفس هو الاستنادُ إليها فى تحصيل المراد ، وعلاماته ثلاثة : حبُّ الموافقة من غير تفويض ، واعتماد

---

(١) هو : عبدالله بن مسعود بن غافل بن حبيب الهزلى : من أكابر الصحابة علما وعقلا وقربا من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهو من السابقين إلى الإسلام ؛ وكان خادم رسول الله صلى الله عليه وسلم ورفيقه فى حله وترحاله وغزواته . كان عمر رضى الله عنه يقول عنه : إنه وعاء ملىء علما . له فى الصحيحين ٨٤٨ حديثا . توفى بالمدينة المنورة فى خلافه عثمان رضى الله عنه عن نحو ستين عاما (انظر فى ترجمته كتاب الاصابة جـ ٢ ص ٣٦٨ وكتاب الأعلام للزركلى جـ ٢ ص ٥٨٦) .

الأسباب من غير توكل ، والتهوّر فى وجه التحصيل دون تقوى ولا استقامة ، وكلها عائدة بالضرر فى الوجود والعدم . فالمطلب وإن تيسَّر بها صورة ، فهو حرمان فى الحقيقة ؛ لما فيه من نسيان الشكر ومفارقة الحق ، والاعتماد على الخلق .

قال فى « التنوير » : « وما أدخلك الله فيه تولّى إعانتك عليه ، وما دخلت فيه بنفسك وكلك إليه (وقل رب ادخلنى مُدخل صدق[1]) فالمدخل الصدق : أن تدخل لا بنفسك ، والمخرج الصدق أيضاً كذلك » انتهى .

وبحسب هذا فالرجوع إلى الله علامة الربح ، والرجوع إلى النفس علامة الخسران ، كما قال :

من علامة النجح فى النهايات الرجوع الى الله فى البدايات

قلت : من علامة الخسران فى النهايات الرجوع إلى النفس فى البدايات ؛ لأنها إذا كانت البداية بالله كانت النهاية إلى الله ، وإذا فوّض له[2] شكر فى العطاء ورضاء فى المنع ، وكان ناظراً لما عنده أولاً وآخراً فهذا الفوز والنجح ، والعكس للعكس ، هذا مع أنه موكول لما رجع إليه ، مخذول فيما وقف معه ، كما قيل :

---

(١) من آية ٨٠ سورة الاسراء .

(٢) وفى نسخة : فاذن فوض له شكراً فى العطاء ورضاء فى المنع .

إذا لم يُعنْـــــك الله فيما تريده
فليس لمخلوق إليـــه سبيـــل
فإن هو لم يرشدك فى كل مسلك
ضللت ولو أن السِّماكَ دليـــل

وقد قال النهرجورى[1] : رضى الله عنه : «من كان شبعه بالطعام لم يزل جائعاً ، ومن كان غناه بالمال لم يزل فقيراً ، ومن قصد بحاجته غير الله لم يزل محروماً ، ومن استعان على أمره بغير الله لم يزل مخذولاً» اه وهو عجيب .

ثم العوايد على حسب الفوائد ، والفوائد على حسب المقاصد .
والأمر كما قال :

من أشرقت بدايته أشرقت نهايته

قلت : يقول : من أشرقت بدايته بالرجوع إلى الله أشرقت نهايته بالوصول إلى الله . .

من أشرقت بدايته بإحكام أصولها أشرقت نهايته بالعثور على محصولها . .

---

(١) هو : أبو يعقوب اسحق بن محمد النهر جورى من علماء الصوفية الذين صحبوا أبا عمرو المكى وأبا يعقوب السوسى والجنيد وغيرهم . والنهرجورى نسبة إلى « نهر جور » قرية بالقرب من الاهواز . أقام مجاوراً بالحرم سنين كثيرة ومات بمكة سنة ٣٣٠ هـ ٩٤١ م (انظر طبقات الصوفية والأعلام وص ١٥٦ من الجزء الأول من الرسالة القشيرية).

من أشرقت بدايته بالتزام الطريقة أشرقت نهايته بكشف الحقيقة.
من أشرقت بدايته بتلفه فى الله أشرقت نهايته بخلفه من الله .

من أشرقت بدايته برفع الهمَّة عن الأكوان أشرقت نهايته بالكشف والعيان من الله ، لأن البدايات مجلى النهايات ، ومن كانت بالله بدايته كانت إليه نهايته .

وقد قال ابن الجلاّء[1] رحمه الله : ﴿ من علت همته عن الأكوان وصل إلى مكوّنها ، ومن وقف بهمته على شيء دون الحق فاته الحق؛لأنه أعزّ من أن يرضى معه بشريك ﴾ اهـ.

ثم ما يوجد فى البداية والنهاية إنما هو سر الحقيقة والغاية كما قال :

ما أستودع فى غيب السرائر ظهر فى شهادة الظواهر .

ما استُودع فى غيب السرائر من معرفة الله ظهر فى شهادة الظواهر[2] بالعمل على مقتضى ماهنالك ، فمن كان غيْب سرّه أتم كان ظاهره أحكم

---

(١) هو : أبو عبد الله أحمد بن يحيى الجلاء ، أصله من بغداد ، وأقام بدمشق ويعد من أكابر علماء الشام صحب ذا النون المصرى وأبا عبيد البسرى كما صحب أباه يحيى الجلاد [انظر الرسالة القشيرية جـ ١] .

(٢) وفى نسخة : فى شهادة الظواهر بالانحباس إلى الله . ما استودع فى غيب السرائر من الجهل بجناب الله ظهر فى شهادة الظواهر بالاستناد لغير الله ، وما استودع فى غيب السرائر من المعرفة واليقين وضد ذلك ، ظهر فى شهادة الظواهر بالعمل على مقتضى ماهنالك . . الخ .

لأن ظواهر الأمور تدل على حقائق الصدور ، والأسرَّة تدل على السريرة ، وما خامر القلوب فعلى الوجوه أثره يلوح ، والكلام صفة المتكلم، ومافيك يظهر على فيك ، وأدب الظاهر عنوان أدب الباطن (لو خشع قلب هذا خشعت جوارحه-سيماهم في وجوههم - ولتعرفنهم فى لحن القول- وخصلتان لا يجتمعان فى منافق : حُسن سَمْت وفقه فى دين ، قال بعضهم :

دلائل الحبِّ لاتخفى على أحد كحامل المسك لايخفى إذا عبقا

ثم مما أُودع فى غيب السرائر رؤية الخلق بالحق لقوم ، ورؤية الحق بالخلق لقوم ، ولكل مرتبة حكمها ؛ فلذلك قال :

شتان بين من يستدل به أو يستدل عليه

قلت : يعنى بُعدان وفُرقان مابينهما وإن اجتمعا فى طلب الحق ومعرفته ، فكثير[1] بين من ينظر بنور الأكوان وبين من ينظر بنور المكوِّن .

المستدل به عرف الحق

قلت : الحق هو النظر لواجب الوجود قبل جائز الوجود لاهله الذى هو واجب الوجود لذاته ، فإنه أظهر فى الجائز ؛ لدلالة العقل عليه أولاً بمقتضى الإطلاق إذْ إنما يُعرف وجود ثم يُحمل عليه موجود لا يفهم فى

(١) أى : فبعد كثير بين . . . وفى نسخة : لا يستوى من ينظر .

وجوده إلا أنه مطلق غير مقيد وذلك يقتضى كماله بكل وجه، ومن لازم كماله وجوب اتصافه بالكمالات ، ثم من كمال الأوصاف ظهور آثارها : فعرف الموجود فى وجود ، وعرف الأوصاف من ذلك الموجود ، ثم عرف الأفعال من الأوصاف ، فنظر الأمر على وجهه .

وأثبت الامر

الذى هو وجود الكون وما يجرى عليه **من وجود أصله** الذى هو إيجاد الخلق بكرم الحق وفضله ، وظهورهم على أثر وصفه بفعله .

وهذه طريقة أرباب التدلىّ فى البرهان ، وأنكرها قوم فما أتوا ببيان .

وقال قوم : لاتكون المعرفة فى بدايتها إلا كسبية بالترقى، ثم تعود ضرورية ، فيكون النظر على التدلىّ وهو الذى يفهمه أكثر الناس، وعليها نبّه فى « لطائف المنن » حسب ما يأتى .

وقسم ثالث : وهو أن يتجلى الحق تعالى لبعض عباده بالحقيقة فيكون له فى معدن العيان بحيث لايشعر بدليل على التدلىّ ولا يفهم معناه على الترقى، كما قال ذلك الصبى لخاله وهو ابن ثلاث سنين ، حيث قال : يابنىّ نَمْ فقد أشغلت سرّى ، أرأيت من تجلى لقلبه شىء فسجد له؟ قال : إلى متى ؟ قال : إلى الأبد .

وكذلك وقع لإبراهيم عليه السلام إذ عرف حقيقة لا أُفول لها ولا زوال ، ثم نظر بها فى أعظم الموجودات حسًّا ، إذ قال فى عقب كل

اعتبار : لاأحب الآفلين ، فلولم يكن عرف حقيقة لاأفول لهامانفى كلَّ آفل ، بل قد صرَّح آخراً بما ضمَّنه أولا إذ قال : (إنى وجهت وجهى) فتأمل ذلك عالما أن الإستدلال عليه دليل البعد كما قال :

والاستدلال عليه من عدم الوصول اليه

قلت : لأنه لايستدل إلا على الأمر الخفى أو الغائب ، ولا خفاء ولا غيبة مع الوصول قال فى (لطائف المنن) : (اعلم أن الدليل إنما نُصب لمن يطلب الحق لالمن يشهده ، فإن الشاهد غنيٌّ بوضوح المشهود عن أن يحتاج إلى دليل فتكون المعرفة باعتبار توصيل الوسائل إليها كسبية ثم تعود فى نهايتها ضرورية .

وإذا كان من الكائنات ماهو غنى بوضوحه عن الدليل فالحق تعالى أولى بغناه عن الدليل منها) اهـ .

ثم ذكر وجه الدليل فى أن الاستدلال عليه من البعد فقال :

والا فمتى غاب حتى يستدل عليه ، ومتى بعد حتى تكون الآثار هى الموصلة اليه

قلت . وإن لم يكن الاستدلال من عدم الوصول فليس إلا من البعد والغيبة ، والحق تعالى ليس بغائب ولا بعيد ، فتبين أن الإستدلال عليه دليل الغيبة والبعد قال فى (لطائف المنن) : « ومن أعجب العجب أن تكون الكائنات موصّلة إليه ، فليت شعرى هل لها وجود معه حتى توصِّل إليه ؟ ! أم هل لها من الظهور ماليس له حتى تكون هى المظهرة له ، وإن كانت الكائنات موصِّلة إليه فليس لها ذلك من حيثُ ذاتها ،

لكن هو الذى ولاّها رتبة التوصيل فوصّلت ؛ فما وصَّل إليه غير إلاهيته، ولكن الحكيم هو واضع للأسباب ، وهى لمن وقف معها ولم ينفذ إلى قدرته : عين الحجاب » اهـ .

ثم يتعين على كلٍّ من المستدل به أو عليه أن ينتهج مافتح عليه ؛ إذ لا يمكنه انتقال عنه ، بل كما نبّه عليه بالآية التى فرَّع بها إذ قال :

لينفق ذو سعة من سعته : الواصلون اليه ، ومن قدر عليه رزقه : السائرون اليه

قلت : يقول العارفون وُسِّعت عليهم أرزاق العلوم والمعارف فانفقوا على مقدار (ماوصل إليهم[1] إذ استدلوا به وذلك حكم وقتهم، والسالكون ضيقت عليهم أرزاق العلوم فأنفقوا على قدر ماعندهم) ولذلك استدلوا عليه . وذلك حكمهم ؛ إذ لا يكلف الله نفساً إلا ما أتاها ، وفضل الله مرجوّ للجميع (سيجعل الله بعد عسر يسراً)[2] .

وإنما صحّ توقيع الآية فى الواصل والسائر لاحتمالها ماهو أعم ، ثم ذلك لا يرفع حكم الأصل الذى هو كونها فى نفقات الزوجات ولا يدفعه بل يؤكده[3] ، لدخوله فى النفقة الواقعة على ماهو أعم من المال . والله أعلم .

---

(١) ما بين القوسين زائد فى النسخة التيمورية وفى نسخ أخرى .

(٢) آية ٧ من سورة الطلاق .

(٣) إن التفسير الصوفى إشارات ، والإشارات لا تنفى تفسير الآيات الكريمة بحسب مقتضى اللغة وأسباب النزول وقد تكون مؤكدة له أحياناً ، وعلى ذلك فلا وجه لمن يحاولون انتقاد التفسير الصوفى فما هو إلا بيان لخصوبة التعبير القرآنى دون أن يكون فيه تعطيل لمعنى شرعى .

ثم ذكر توجّه كلٍّ من الواصل والسائر فقال :

اهتدى الراحلون اليه بأنوار التوجه . والواصلون لهم أنوار المواجهة .

قلت : فأنوار التوجه أنوار: العمل والمعاملة . وأنوار المواجهة :ما يَرِد من حقائق المواصلة .

فمظاهر الأولى ثلاثة : الاستدلال للتوصّل ، والعمل للتوسّل ، والتعلق للتقرّب .

ومظاهر الأخرى : التوفيق للهداية ، والإلهام للعناية ، والتحقق للولاية (ومن لم يَجعَل اللهُ لهُ نوراً فما لهُ من نور)(١)

ومعنى الرحلة من هؤلاء انتقالهم من عوالم الحسّ والخيال بمفارقة الوهم والضلال ، والوصلة في حق الآخرين تحقق العلم واليقين ،والتمكن في منازل العارفين .

ثم لكل حال : حقيقة،وحكم، ومرتبة تخصّه أشار إليها بأن قال:

والأولون للانوار وهؤلاء الانوار لهم

قلت : فالأولون للأنوار عبيد ومِلك ؛ إذ جعلوها من أعظم عُددهم وأقوى معتمدهم فلا يقدرون على مفارقتها ، وإن فارقوها حزنوا وأيسوا من مرادهم لمفارقة المعتمد في تحصيل المقصود ، وهؤلاء الواصلون الأنوارُ لهم مملوكة ؛ لأنها عندهم تابعة وإن كانت غير متروكة .

---

(١) آية ٤٠ من سورة النور .

قال شارح « محاسن المجالس » : « العارفون قائمون بالله ، قد تولىّ الله أمرهم ، فإن ظهرت منهم طاعة لم يرجوا عليها ثواباً ، لأنهم لايرون أنفسهم عمالا[١] لها ، وإن صدرت منهم زلة ، فالدية على القاتل[٢] . لم يشهدوا غيره فى الشدة والرخاء . قيامهم بالله ونظرهم إليه ، وخوفهم رهبتهم ، ورجاؤهم هيبتهم » . انتهى

ومعنى قوله (الدية على القاتل) معناه :أن المقدّر لها هو المجازى عليها إن شاء عاقب ، وإن شاء غفر ؛ إذ لاحجر عليه آخراً ، كما لاحجر عليه أولاً ،فافهم .

ثم ذكر علةحال الواصلين فقال :

لأنهم لله لاشيء دونه

قلت . يعنى : وبالله لابشيء سواه ، فلا التفات لهم لغيره فى فقدان ولاوُجدان ولا طاعة ولا عصيان ، إذ كان لهم فكانوا له بلا علّة من نفوسهم ، فهم هم رضى الله عنهم ، كما قيل :

هم الرجال وغبنٌ أن يقال لمن لم يتصف بمعانى وصْفهم رجل

ثم ذكر الآية التى تجمع حقائقهم على وجه الاستدلال لمقامهم[٣] (قال الله ثم ذرهم فى خوضهم يلعبون)[٤] قلت : توقيع هذه الآية على

---

(١) وفى نسخة : لأنهم لم يروا لأنفسهم عملا .
(٢) وفى نسخة « على العاقلة » .
(٣) وفى نسخة : لمقاصدهم . (٤) آية ٩١ من سورة الأنعام .

هذا الموضع لا يتم بالقول ، إنها ليست بجواب لما قبلها وهو قوله تعالى (قل من أنزل الكتاب الذى جاء به موسى .. الآية) ثم عند الإستدلال بها ، فالتقدير : حسبي الله ، أي : اكتفيت به عن كل شيء سواه . وهو صريح في غير هذه الآية ، ومعنى : ذرهم : اتركهم ، في خوضهم يلعبون : يتشاغلون بكل شيء لاحقيقة له ، لأن اللعب التشاغل بما لاحقيقة له ، والوجود كله كذلك من حيث التحقيق . أصدق كلمة قالها الشاعر « لبيد »[1] :

ألا كل شيء ما خلا الله باطل

وسيأتى هذا المعنى فى كلام المؤلف متعدداً [2] وبالله التوفيق.

تنبيه :

بساط المعرفة تزكية النفس وتطهيرها من العيوب ، فمن أرادها فعليه بذلك لقوله تعالى (والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا)

فلا تشغل نفسك بطلب العرفان وغيره من الغيوب ، ولكن بما فيك من القبائح والعيوب . وهذا ما افتتح به .

---

(١) لبيد هو : لبيد بن ربيعة بن مالك العامرى : شاعر مخضرم معمر عاش في الجاهلية وأدرك الإسلام وتوفى سنة ٤١ هـ ٦٦١ م .

(٢) وفى نسخة بدل متعدداً (بعد) .

الباب الثالث

إذ قال :

وقال رضي الله عنه :

تشوفك الى مابطن فيك من العيوب خير لك من تشوفك الى ماحجب عنك من الغيوب .

قلت : العيوب جمع عيب ، وهو ما أوجب نقصاً فيمن نسب إليه . معصية أو غيرها ، جارياً كان فى الأفعال أو فى الأخلاق أو فى الآداب ، متعلقاً بالله أو بعباده . ثم هى على قسمين ظاهرة جلية ، و باطنة خفية .

فالنظر فى الجلية وإزالتها سهل قريب . وإزالة الخفية والنظر فيها مشكل صعب ، وقد مر منها جملة ؛ كالاعتماد على العمل ، وإرادة غير ما أقيم فيه العبد ، والتدبير مع الله ، والاستعجال فى الدعاء ، والتشكك فى الوعد ، والاعتراض عند فوت المراد ، وفقد الإخلاص ، وحب الشهوات[1] وإيثار الخلطة وانطباع الأكوان فى مرآة القلب ، وتعلقه بالشهوات واسترساله مع الغفلة ، وقلة المبالاة بالهفوة ، والاحتجاب عن الحق برؤية الأكوان ، وإرادة غير حكم الوقت ، وإحالة العمل على الفراغ ، وطلب حالة غير التى أنت فيها ، والوقوف عندما يبدو من كشف ونحوه ، والطلب منه ، وطلبه ، والطلب من غيره ، ولغيره ، وترقب الفراغ ورؤية صفو الدنيا ، وطلب الأشياء بالنفس ، والرجوع لغير الله فى

---

(١) وفى نسخة : وحب الشهرة .

البداية . . . إلى غير ذلك مما دخل فى طىّ ماذكرنا وما يأتى فى الكلام بعد مما فى معناه ، فافهم .

والغيوب : جمع غيب ، وهو ما استتر عن الخلق .

وينقسم إلى حسىّ ، ومعنوى .

وشأن النفس إهمال العيوب وطلب الغيوب .

والمطلوب العكس ، لوجوه ثلاثة :

أحدها : أن الاشتغال بالعيوب حق الأدب وطلب الغيوب قد يجر إلى العطب .

الثانى : أن الاشتغال بالعيوب يجر إلى الكمال وطلب العيوب ربما وصّل للضلال .

الثالث : أن الإشتغال بالعيوب أداء حقّ الربوبية وطلب الغيوب تفويت لحق العبودية ، وقد قالوا : « كن طالب الإستقامة ولا تكن طالب الكرامة ؛ فإن نفسك تهزّك بطلب الكرامة ومولاك يطالبك بالإستقامة ، ولأن تكون بحق ربّك أولى من أن تكون بحظ نفسك » انتهى .

ثم حجاب الغيوب إنما هو وجود العيوب ، كما أشار إليه المؤلف إذ قال :

الحق ليس بمحجوب ، وإنما المحجوب أنت عن النظر إليه

قلت : أما أن الحق ليس بمحجوب فقد تقدّم من براهينه مالامزيد عليه ، وأما أنك المحجوب عن النظر إليه فلا يحتاج إلى دليل ، لكن حجابك على وجهين :

حجاب بصر ، وحجاب بصيرة .

حجاب البصر عيبك الأصلى الذى هو النقص والفنَاء ؛ ولا زوال لهما إلا فى الآخرة ؛ فلا رؤية به إلا هناك ؛ كما جاء به الخبر عن الصادق صلى الله عليه وسلم .

وحجاب البصيرة عيبك العارض ، فإذا زال كشفت لك الحقيقة .

قال فى « لطائف المنن » : « وإنما حجاب الغيوب وجود العيوب به ، فالتطهر من العيب يفتح باب الغيب ، ولا تكن ممن يطالب الله لنفسه ، ولا يطالب نفسه لربه فذلك حال الجاهلين الذين لم يفقهوا عن الله ولا واجههم المدد من الله ، والمؤمن ليس كذلك ، بل المؤمن من يطالب نفسه لربه ، ولا يطالب ربه لنفسه ، فإن توقف عليه الحال استبطأ أدبه ولا يستبطىء مطلبه » انتهى .

ثم ذكر برهاناً عجيباً فى أن الحق ليس بمحجوب فقال :

إذ لو حجبه شىء لستره ما حجبه . ولو كان له ساتر لكان لوجوده حاصرا وكل حاصر لشىء فهو له قاهر . وهو القاهر فوق عباده

قلت : جملة هذا البرهان : أن الحجاب ساتر ، والساتر حاصر ، لأنه

يحصر المحجوب فى جهة منه ، وكلُّ حاصر قاهرٌ، والرَّب تعالى قاهر غير مقهور كما قال تعالى : (وهو القاهر فوق عباده) فوقية معنوية ، كما يقال : السيدفوق عبده ، والسلطان فوق الوزير ، والآمر فوق المأمور يعنى أن جلالته ظاهرة ومزيته أعلى من مزيته ، فهو العلىُّ فى المنزلة أو المزية أو المكانة[1]، إذ «ليس كمثله شىء وهو السميع البصير»

ثم بيَّن أصل العيوب وذكر وجه المخْلص منها فقال :

أخرج من اوصاف بشريتك عن كل وصف مناقض لعبوديتك

قلت : أوصاف البشرية : مالا يكون البشر بشراً إلاَّ به من العوايد والأسباب والأخلاق ، وغيرها .

ثم هى قسمان : أوصاف موافقة للعبودية : كالطاعة والعفة واليقظة.

وأوصاف مناقضة للعبودية : كالمعصية والشهوة والغفلة ، فالخروج من المناقضة بالعمل بالموافقة ، وإنما أمرت بذلك لعلَّة ذكرها بأن قال :

لتكون لنداء الحق مجيبا ، ومن حضرته قريبا

قلت : أما نداء الحق فهو خطابه الجارى على لسان نبيه صلى الله عليه وسلم بقوله (يابنى آدم . . يأَيها الناس . . يأيها الذين آمنوا . . يأيها الذين أوتوا الكتاب . . ياأيها الذين آمنوا . .) . وقد قال جعفر الصادق رضى الله عنه :

---

(١) وفى نسخة : فهو العلى فى المنزلة والمزية لا المنزل ، والمكانة لا المكان .

«إذا سمعته يقول يا أيها الذين آمنوا فاصغ إليه، فإنما هو أمر أو نهى».

وإجابة ذلك على الحقيقة ثلاث: تصديقه، والعمل به، وإرادة وجهه تعالى بالعمل.

وبذلك يكون القرب من حضرته، أي: دائرة ولايته واختصاصه، فقد قال الشيخ أبو الحسن الشاذلى رضى الله عنه: إذا أكرم الله عبداً فى حركاته وسكناته نَصَبَ العبودية لله بن عينيه، وستر عنه حظوظ نفسه، وجعله يتقلب فى عبوديته والحظوظ عنه مستورة مع جرى ما قدِّر له لا يلتفت إليها كأنه فى معزل عنها.

وإذا أهان الله عبداً فى حركاته وسكناته نصب له حظوظ نفسه وستر عنه عبوديته؛ فهو يتقلّب فى شهواته وعبوديةُ الله عنه بمعزل وإن كان يجرى عليه شيء منها فى الظاهر. قال: وهذا باب من الولاية والصيانة. فأما الصديقية العظمى والولاية الكبرى فالحقوق والحظوظ سواء عند ذوى البصائر لأنه بالله فيما يأخذ ويترك» انتهى وهو عجيب ثم أصَّل العيوب ومقابلها وأصَّل كلَّ أصل منها؛ ليثبت بالأصل وينفى به فيكون أتمّ فقال:

أصل كل معصية وشهوة وغفلة الرضا عن النفس

قلت: المعصية: مخالفة أمر الله الواجب.

والشهوة: الإسترسال مع النفس فى طلب الملذات.

والغفلة: إهمال الحقوق المندوبة والواجبة بالإسترسال مع دواعى الهوى.

والرضا عن النفس علامته ثلاث : رؤية الحق لنفسه ، والشفقة عليها ، والإغضاء عن عيوبها بتزكيتها من حيث إنه يرى قبيحها حسناً بالتأويل ، لأنه يعلم العيب ثم يغضى عنه، وإن كان نوعاً منه ،وأنشدوا فى ذلك :

وعين الرضا عن كل عيب كليلةٌ ولكن عين السخط تُبدى المساويا

وهذا الشطر الثانى يوافق المعنى الثانى الذى ذكره المؤلف إذ قال:

وأصل كل طاعة وعفة ويقظة عدم الرضا منك عنها

قلت : وهو السخط عليها ، أو ماهو أعم منه ، وله علامات ثلاث : اتهامها ، والحذر من آفاتها ، وحملها على المكاره فى عموم أوقاتها .

فقد قال أبو حفص الحدّاد رضى الله عنه : (من لم يتهم نفسه على دوام الأوقات ، ولم يخالفها فى جميع الأحوال ، ولم يجرّها إلى مكروهها فى سائر أيامه فهو مغرور .

ومن نظر إليها باستحسان شىء منها فقد أهلكها ، وكيف يصحُّ لعاقلٍ الرضا عن نفسه ، والكريم ابن الكريم يوسف بن يعقوب يقول (وما أبرىء نفسى إن النفس لأمارة بالسوء إلا ما رحم ربى) انتهى

والطاعة : موافقة أمر الله ، واجباً كان أو مندوبا .

والعفة : ترك الدناءة من كل شىء .

واليقظة : الانتباه لأمر الله سبحانه .

ثمّ لابدّ للانسان فى تبصُّره عيبه من مُعين: أخ ناصح ، أوشيخ صالح لابتلائه بالاغضاء عن نفسه .

وشرط ذلك المعين أن يكون بريئاً عن الرضا عن نفسه فلذلك قال :

ولأن تصحب جاهلا لا يرضى عن نفسه خير لك من أن تصحب عالماً يرضى عن نفسه

قلت : سواء كان شيخاً أو قريناً أو تابعاً ، لأن الذى لا يرضى عن نفسه قد جمع مناقب ثلاثا وإن كان جاهلا ، وهى : الإنصاف من نفسه ، والتواضع لعباد الله ، وطلب الحق بالصدق .

وقد قال عمار رضى الله عنه : « ثلاث من جمعهن فقد جمع الإيمان : الإنصاف من نفسه[1] ، وبذل السلام للعالم ، والإنفاق من الإقتار » اهـ

فصحبةُ مَن هذه أوصافه تقتضى ثلاثاً : اكتساب هذه المحاسن منه ؛ لأن المرء على دين خليله ، وراحة القلب مع البدن من معاناته ، وسلامةُ الدنيا والدين من التكلف . والراضى عن نفسه قد باء بثلاث : الكبر ، وقلّة الإنصاف ، والتصرف بالرياسة .

فصحبته تورث ثلاثاً : العبودية له ، والتكلُّف ، والقطيعة آخر الأمر ؛ لأنه يرى لنفسه من الحق ماليس له ، فلا يُبْلَغُ رضاه ، ثم لا ينفر

---

(١) وفى نسخة : النفس .

زَلَّةً ولا يقيل عثرة ولا يرجع لربه(١) وذلك مالا يصح معه أُلفة .

ثم إذا كان عالماً فعلمه زيادة فى شرِّه ، وإن كان جاهلا فجهله بلاء عليه وعلى صاحبه ، وإن كان رئيساً فلا يُنتفع بالدنيا ولا بالدين معه ، فلذلك قال سهل بن عبد الله رضى الله عنه «أحذر صحبه ثلاثةمن أصناف الناس : القراء المداهنين ، والمتصوِّفة الجاهلين ، والجبابرة الغافلين » اهـ

ثم الصاحب إنما يراد لثلاثة : النصيحة ، والشفقة ، والإعانة .

وكلها من الراضى عن نفسه مفقودة ؛ لجهله بمقدار نفسه وغفلته بذلك عن حقوق صاحبه ، وإن أتى بشىء من ذلك أعجب به حتى يودّ الإنسان أنه لم يره ، وذلك من جهله بنفسه ، وهو رأس الجهل ، كما أن عدم الرضا عنها من العلم بها ، ولا علم فوقه ، فلذلك انقلبت أحكامها كما قال :

فأى علم لعالم يرضى عن نفسه ، وأى جهل لجاهل لا يرضى عن نفسه

قلت : انقلبت حقائقها لانقلاب الأحكام عندها ، لأن من حقائق الجهل ثلاث : الفرار من الحق ، وإتباع الباطل ، والحكم بما لا يصح . وهذا حال الراضى عن نفسه .

ومن حقائق العلم : العملُ بالحق، ومجانبة الباطل ، وإعطاء كل شىء ما يليق به .

وهذه لا توجد إلاَّ ممن لا يرضى عن نفسه ؛ فالعلم بالصورة لاعبرة به

---

(١) وفى نسخة : لرأى .

إنما هو صناعة ، والجهل بالصورة لاضرر على صاحبه إذ يحصّل مايحتاج إليه بسؤاله مع سلامته فى حاله . والآخر كلما ازداد مسائلة ازداد جهلا بربّه وبنفسه. وقد قال سفيان الثورى رضى الله عنه[(١)] :

« إنما يتعلم العلم ليُتّقى الله ، وإنما فضُل العلم غيره لأنه يتقى الله به»

وقال سفيان بن عيينه[(٢)] رضى الله عنه : « إذا كان ليلى ليلَ سفيه ، ونهارى نهارَ جاهل فما أصنع بالعلم الذى أكتسب ؟ » .

وقال مسروق[(٣)] رضى الله عنه : « كفى بخشية الله علما ، وكفى بالاغترار بالله جهلا » اه .

---

(١) هو : أبو عبد الله سفيان بن سعيد بن مسروق الثورى من مضر ، أمير المؤمنين فى الحديث وكان أفضل أهل زمانه علما وتقوى ، ولد فى الكوفة سنة ٩٧ ه [٧١٦ م] عرض عليه المنصور العباسى أن يتولى الحكم فأبى، خرج من الكوفة سنة ١٤٤ ه فسكن مكة والمدينة ثم مات بالبصرة سنة ١٦١ ه [٧٧٨ م] له من الكتب : الجامع الكبير والجامع الصغير وكلاهما فى الحديث. ولا بن الجوزى كتاب فى مناقبه وانظر ابن النديم ج ١ ص ٢٢٥ والأعلام ج ١ ص ٣٧٤ .

(٢) هو سفيان بن عيينة بن ميمون الهلالى الكوفى محدث الحرم . كان حافظة ثقة واسع العلم كبير القدر قال الشافعى « لولا مالك وسفيان لذهب علم الحجاز » . ولد بالكوفة سنة ١٠٧ ه [٧٢٥ م] ومات بمكة سنة ١٩٨ ه ٨٤٦ م . له كتب كثيرة فى التفسير والحديث انظر تذكره الحفاظ ج ١ ص ٢٤٢ .

(٣) أبو العباس أحمد بن محمد بن مسروق من أهل طوس سكن بغداد وصحب الحارث المحاسبى وأخذ الحديث عن كثيرين . توفى ببغداد سنة ٢٩٨ ه .

وقد استعاذ رسول الله صلى الله عليه وسلم من علم لاينفع وقال : « أشدُّ الناس عذابا عالم لم ينفعه الله بعلمه . . . . . الحديث) .

ثم الذى ينفى كلَّ عيب ويذهب بكل ريبة وريب إنما هو العلم بالله، إذ به تتم الخشية لله . والناس فيه مراتب بحسب الأشهاد والشهود .

ومرجع ذلك لمراتب ثلاث ، ذكر المؤلف أولها بأن قال :

شعاع البصيرة يشهدك قربه منك

قلت : هو تعالى قريب أبداً وشهود العباد له على قدر أنوار بصائرهم. وشعاع البصيرة : هو نور العقل الهادى إلى الإيمان الذى غايته الإثبات فى محله والنفى فى محله ، فمن اطلع فى أفق قلبه شاهد قرب الحق منه، فراقبه فى حركاته وسكناته حتى لايراه حيث نهاه ، ولا يفقده حيث أمره ، حتى إذا تمَّ الإيمان، انفتح عين البصيرة لعين اليقين انطوى القرب فى عموم التعريف ،فشهدت الحقيقة عدمَ كل شىء لوجود الحق كما قال :

وعين البصيرة تشهدك عدمك لوجوده

قلت : وذلك نفس الحقيقة ، لأن كل شىء عدم لوجود الحق ؛ إذ لا وجود لشىء إلاَّ منه ، ولا قيام لشىء إلا به ، لأنه الغنى عن الكل ، والكل مفتقر إليه .

فعين البصيرة : هو نور الإيمان الهادى إلى التحقيق . وثمرته : ترك التدبير والإستسلام لحكم المقادير . ثم إذا حصل التحقق بذلك انتقل الحال فإذ يرى الخلق لاعبرة بهم فى وجود ولا عدم ؛ لرجوع

كلِّ شيء له تعالى ، وذلك حق البصيرة كما قال :

وحق البصيرة يشهدك وجوده لاعدمك ولاوجودك

قلت : نور الحقيقة القاضى بالتحقق بحقائق العلم بقرب الحق هو حق البصيرة، وبه يظهر أن الكون لانسبة له فى عدم ولافى وجود . وأن العبرة إنما هى بوجود الحق سبحانه وحده ، لأن الحادث إذاقورن بالقديم تلاشى الحادث وبقى القديم ، ولهذه المواقف الثلاث أشار الشيخ محى الدين حيث قال : (من شهد الخلق لافعل لهم فقد فاز ، ومن شهدهم عينُ العدم فقد وصل) انتهى .

ثم استشهد المؤلف للمقام الأخير بحديث ذكر لفظه بأن قال :

كان الله ولاشيء معه وهو الآن على ماعليه كان

قلت : يعنى أنه لاشيء معه فى أبده ، كما لم يكن معه شيء فى أزله لأنه الواحد الأحد أزلا وأبداً .

قيل لبعضهم : أين الله ؟ قال : حيث كان قبل أن يخلق المكان . قيل : فأين كان ؟ قال : حيث هو الآن .

يعنى أنه لا يُعرف بالأين ولا بالكون . وشهود ذلك بجريانه فى عوالم القلب حتى لا يبقى فيها متسع للغير كما قيل :

فلم يبق إلا الحق لم يبق كائن   فما ثمَّ مجموع ولا ثمَّ باين

بذا جاء برهانُ العِيان فما أرى بعينىَ شيئاً غيره إذ أعاين(١)

تنبيه :

إذا تحققت المعرفة بقرب الحق ، أو بعدم كل شىء لوجوده ، أو بانتفاء كلِّ شىء لوجوده فنى من لم يكن ، وبقى من لم يزل ، فعكفت الهمَّة عليه بنسيان غيره ، كما أشار إليه فى افتتاح :

---

(١) وفى نسخة : غير ما أنا عاين ، وفى نسخة أخرى : غير ما هو كائن .

الباب الرابع

إذ قال : **وقال رضى الله عنه : لاتتعدنية همتك الى غيره .**

قلت : يقول : لا تتجاوز نيّةُ همتّك إلى غير مولاك بطلب ذلك الغير ، ولا الطلب منه ، بل اجعله مكان همتّك اكتفاء به واقتصاراً على ماعنده ، اقتداء بنبيّ الله يوسف عليه السلام حيث قال عند خروجه من السجن: «حسبى من دنيا كم دينى ، وحسبى من دينى ربى »، وبخليل الله إبراهيم عليه السلام: إنه قال وهو فى المنجنيق : « حسبى من سؤالى علمه بحالى » حتى لقد قال الشيخ أبو العباس المرسى رضى الله عنه فى قوله تعالى (وإبراهيم الذى وفّى)(1) قال : بمقتضى قوله « حسبى الله ».

ثم ذكر المؤلف علّة من يقتصر بهمته على المولى(2) جلّت قدرته فقال :

فالكريم لاتتخطاه الآمال

قلت : يقول : فالكريم ذاتا ووصفاً وفعلا لاتتخطاه آمال المؤمّلين إلى غيره بطلب ذلك الغير ولا بالطلب منه ؛ لأن جماله يُغنى عن اختيار غيره ، وإحسانه يصرف الوجه له دون غيره ، لاسيما ولا غير إلاّ به وله ، فالرجوع إليه أولى بكل حال لمن يعقل ، فقد جاء فى بعض

(1) آية ٣٧ من سورة النجم .
(2) وفى نسخة : علة أمره بقصر الهمة على المولى .

الآثار : يقول الله تعـالى : « عبدى اجعلنى مكان همك أكفك كلّ همك ، ما كنت بى[1] فأنت فى محل القرب ، وما كنت بك فأنت فى محل البعد ، فاختر لنفسك » أو كما قال .

ثم ذكر رفع الحوائج لغيره ، وأنه لا يصح فقال :

لا ترفعن إلى غيره حاجة وهو موردها عليك

قلت : يقول إنه هو الذى أورد عليك الاحتياج ، وقد عرفت أنه غنى قدير قوى ومن سواه لا غنى له ولا قوة ولا قدرة ، وإذ كان الأمر كذلك فرفعها للعاجز الفقير الضعيف لا يصحّ قال الله تعالى ﴿ وإن يَمسسك اللهُ بِضرّ فلا كاشِفَ له إلاّ هُوَ وإنْ يُردكَ بِخيرٍ فَلَا رادّ لفضله ﴾[2] وقال تعالى : ﴿ وإن يمسسك بخير فهو على كل شىء قدير وهو القاهر فوق عباده وهو الحكيم الخبير ﴾[3]

قال بعض العارفين المكاشفين رضى الله عنهم : « قيل لى فى يقظة كالنوم أو نوم كاليقظة : لا تبدينَّ فاقة إلى غيرى فأضاعفها عليك مكافأة بسوء أدبك وخروجك عن حَدِّك فى عبوديتك ، إنما ابتليتك بالفاقة لتفزع منها إلىّ ، وتتفرّغ[4] بها لدىَّ ، وتتوكل فيها علىَّ ، سبكتك بالفاقة لتصير ذهباً خالصاً فلا تُزيَّف بعد السبك ، وسَمْتُك بالفاقة وحكمت لنفسى بالغنى فإن وصلتها بى وصلتك بالغنى وإنْ وصلتها

---

(١) وفى نسخة « لى » (٢) من آية ١٠٧ من سورة يونس .
(٣) آية ١٧ ، ١٨ من سورة الأنعام (٤) وفى نسخة : تتضرع

بغيرى قطعت عنك مواد معونتى (١) ، وحسمت (٢) أسبابك من أسبابى طرداً لك عن بابى ، فمن وكلته إلىّ مَلَك ، ومن وكلته إليك هلك » اهـ

وهو كلام عظيم النفع والموقع لمن تأمله . وبالله التوفيق .

ثم تعجّب المؤلف من رفع غيره ماوضعه فقال :

فكيف يرفع غيره ما كان له واضعا

قلت : ذلك : مالا يصحّ بوجه ولا بحال ، لا تصافه تعالى بالعزّ ، والغنى ، والاقتدار ، واتصاف الغير بالعجز والذل والافتقار ، وهو ما بيّنه إذ قال :

من لا يستطيع أن يرفع حاجة عن نفسه فكيف يستطيع أن يكون لها عن غيره رافعا

قلت : من كان عاجزاً عن الرفع والنفع فى حوائجه فهو عن غيره أعجز ، ليت الكلّ يوجه نفسه لذلك . قال بعضهم : «استغاثة المخلوق بالمخلوق كاستغاثة المسجون بالمسجون » .

قال الشيخ أبو الحسن الشاذلى ، رضى الله عنه : يئست من نفع نفسى لنفسى فكيف لا أيأس من نفع غيرى لها ، ورجوت الله لغيرى فكيف لا أرجوه لنفسى ؟

وسئل رضى الله عنه ، عن « الكيمياء » فقال :

---

(١) وفى نسخة : مؤنتى .
(٢) فى نسخة : وحسبك .

« اقطع طمعك من الله أن يعطيك غير ماقسم لك ، ومن الخلق أن ينفعوك أو يضرّوك » اه

ثم الاكتفاء بالله ، وأعلى أسبابه : النظر لكمال وصفه ، والجميل لايفعل إلا جميلا ، وأدْناه أن تنظر إلى إحسانه السابق فتسرّ به لإفضاله اللاحق ، وقد أتى بهذا المؤلف كما ذكرنا فقال :

ان لم تحسن ظنك به لاجل جميل وصفه حسن ظنك به لوجود معاملته معك

قلت : حسن الظن به تعالى لأجل وصفه : أن تنظر لكماله فى جلاله وكماله، فتعلم أنه جميل والجميل لا يفعل إلا جميلاً ،فتقطع الآمال عن سوى فضله لما تحققته من كمال وصفه . وحُسْنُ الظن به لمعاملته معك : هو أن تنظر إلى إحسانه السابق وإفضاله اللاحق فتجدك مغموساً فى منّته، مغموراً فى إكرامه ورحمته ، فيحملك ذلك على حسن الظن به فيما تؤمله منه ، وقطع النظر عن : هل يكون(١) أولا يكون ، وتستعين على ذلك بما شاهدته من فعله الجميل، كما نبّه عليه المؤلف إذ قال :

فهل عودك الا حسنا وهل أسدى اليك الأ مننا

قلت : يقول تأمل تجد مامنه إليك إنما هو إحسان من أفضاله ، وعطاء من امتنانه أوجدك من العدم ، وأمدّك بالنعم وخصّك بالكرم ، وجعلك مؤمنا من غير سالفةٍ ولا قِدم ، إنما هو جوده وكرمه .

وقدقال أبو حبيب البدوى ــ رحمه الله ــ : « لم نر خيراً قطُّ إلا من ربنا فما لنا نكره لقاء مَن لم نر خيراً قط إلاّ منه» ؟!

(١) وفى نسخة : عن أمل يكون .

وقال الشيخ أبو الحسن الشاذلى رحمه الله : إنا لا نحبُّ إلا الله .

فقال له رجل : قد أبى ذلك جدّك ياسيدى بقوله : ُجبلت القلوب على حبّ من أحسن إليها .

فقال : إنا لم نر محسنا إلا الله ولم نحب سواه .

وقال عليه السلام : أحبّوا الله لما يغدو بكم من نعمه ، وأحبونى بحبّ الله . . الحديث) والناس ثلاثة أقسام :

قسم حسّن ظنه بالله تعالى لأجل وصفه ، وهو أعلى من الذى بعده .

وقسم أحبَّ الله وحسّن الظن به لأجل إحسانه ، وهو دون الذى قبـــله .

وقسم أحبَّ مولاه وحسَّن الظن به لهما . وهو أتمُّ حالاً منهما .

وعليه يدور كلام رابعة العدوية حيث قالت :

أحبّك حبَّين : حبَّ الهوى   وحبًّا لأنك أهل لذاكا

فأَما الذى هو حبُّ الهوى   فشغلى بذكرك عمن سواكا

وأما الذى أنت أهـــل له   فكشفك لى الحجب حتى أراكا

فلا حمد فى ذا ولا ذاك لى   ولـكن لك الحمد فى ذا وذاكا

ثم العبد مفتقر إلى مولاه فى كل أحواله ، فلابدَّ له منه ، ولاغنى له عنه ، وفراقه للخلائق لازم ، ومع ذا يركن إليهم دون مولاه ؟! وهذا عجيب من الأمر كما نبّه عليه المؤلف إذ قال :

العجب كل العجب ممن يهرب مما لا انفكاك له عنه ويطلب مالا بقاء له معه .

قلت : مالا انفكاك له عنه ، هو : مولاه ، وما كان المرجع إليه بخبر الصادق من الآخرة وما فيها .

ومالا بقاء له معه : هم الخلائق ، والدنيا التى إن لم يفارقها بالحياة فارقها بالممات . وإنما عجب منه لثلاث :

تركه المهم مع اشتغاله بالباطل .

وإعراضه عن مولاه بما لا حقيقة له .

وعدوله بما لا يغنيه بدلا بما لا غنا له عنه .

ثم ذلك إنما هو من عمى البصيرة ؛ إذ وضع الشىء فى غير محله ، وأتى به على غير وجهه : فقدم ماشأنه التأخير وأخر ماحقّه التقديم . وهذا ما نبه عليه المؤلف اذ قال :

فانها لا تعمى الابصار ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور

قلت : وقع بهذه الآية هنا ليشعر بأن ماذكره من عمى البصيرة أنه هو العمى الحقيقى ، فالتقدير ، فإنها لا تعمى الأبصار عما يعود على صاحبها بالضرر ، ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور ، أو فإنها لا تعمى الأبصار على الحقيقة وإنما عماها من القلوب التى فى الصدور ، أو فإنها لا تعمى الأبصار عن درك الحقائق ؛ اذ ليست محل إدراكها ، ولكن العمى عمى القلب عن ذلك ، لأنه محل إدراكه :

وقد قال الشيخ أبو الحسن الشاذلى رضى الله عنه : « عمى البصيرة فى ثلاثة أشياء :

إرسال الجوارح فى معاصى الله ، والطمعُ فى خلق الله ، والتصنّع (١) بطاعة الله ، فمن ادّعى البصيرة مع واحدة من هذه فقلبه هدف لظنون النفس ووساوس الشيطان » اهـ

ثم ذكر التوجه للمخلوقات بمثال تقبيح ٍ فى وجه من التحقيق فقال:

لا ترحل من كون الى كون فتكون كحمار الرحى يسير والذى ارتحل اليه هو الذى ارتحل عنه .

يقول : لا تنتقل عن نفسك لمثلها لا فى طلب ذلك المثل ولا فى الطلب منه ؛ فإن فعلت كنت كحمار الطاحونة فى سير دائم وتعب متصل من حيث خرج إلى ثمّ عاد ، لاهو استراح ولا قطع المسافة ، وهو يرى أنه فى عمل يعود عليه بالنفع ، وماهو إلا كما قيل :

فماهو مقتول ففى الموت راحة ولا هو ممنون عليه فيُعتق

من فقير خرج ، وإلى فقير توجّه ، قال بعضهم فى قوله تعالى ﴿هل يسمعونكم إذ تدعون . . . ﴾(٢) : «استغاثة المخلوق بالمخلوق كاستغاثة المسجون بالمسجون » اهـ .

---

(١) وفى نسخة : والتضييع لطاعة الله .

(٢) آية ٧٢ من سورة الشعراء .

ثم قال :

ولكن أرحل من الأكوان إلى المكون

قلت : بأن لا تريد سواه ، ولا تعرف فى الدنيا والآخرة إلاّ إيّاه ، فلا تطلب إلاّ هو ولا تطلب إلاَّ منه ، فقد قال ابن السمّاك رحمه الله : « كتب إلىّ أخ لى أن لا تكون لغير الله عبداً ما وجدت من العبودية له بدا »[١] .

قال أبو الحسن الشاذلى رضى الله عنه : « قف بباب واحد لا لتفتح لك الأبواب تفتح لك الأبواب[٢] ، واخضع لمالك واحد لا لتخضع لك الرقاب تخضع لك الرقاب ، قال تعالى (وإنْ مِن شَيءٍ إلا عِندنَا خَزَائنُه) وهذا معنى ما أشار إليه بالآية إذ قال :

وان الى ربك المنتهى

قلت : يعنى منتهى كل شىء بَدْءاً وعَوْداً ؛ لأنه المبدئ المعيد الفعّال لما يريد ، فالذى ترجوه من الخلق لا يتيسر الاّ بتيسير الحق ، فدع كُلاً جانبا واتخذ مولاك صاحبا ، رجوعا لقوله عليه السلام : «أنت الصاحب فى السفر والخليفة فى الأهل » ولقوله عليه السلام : « إليك انتهت الأمانى ياصاحب العافية » .

---

(١) وزادت بعض النسخ العبارة الآتية (إن استطعت أن لا تكون لغير الله عبدا ماوجدت من العبودية بدا فافعل ، قال بعضهم : إياك أن تلاحظ مخلوقا وانت تجد إلى ملاحظة الحق سبيلا) وفى نسخة أخرى بدا بدل (بداً) .

(٢) وفى نسخة قف بباب واحد تفتح لك الأبواب واخضع لمالك واحد تخضع لك الرقاب .

ويرحم الله القائل فى معنى ذلك :

أيحسن أنى فى داركم ونزيلكم أوجه يوما للعباد رجائى ؟

لبيك اللهم وسعديك والخير كله فى يديك ، والشر ليس إليك والرغبه والعمل[١] منك وإليك .

ثم وقع المؤلف بالحديث فيما هو بصدده فقال :

وانظر الى قوله صلى الله عليه وسلم: فمن كانت هجرته الى الله ورسوله فهجرته الى الله ورسوله

قلت : يعنى ، واعمل على ذلك بأن تهاجر إلى الله ورسوله ، فلا تتوجه إلى غيره ؛ إذ هو الله ورسوله ، إذ هو عبد الله ورسوله[٢] ، ومن كان فى الله تلفه كان على الله خَلَفُه ، ومن يخرج من بيته مهاجراً إلى الله ورسوله ثم يدركه الموت فقد وقع أجره على الله ، حسب فقير ذليل حقير يقع أجره على غنى عزيز كبير .

ويرحم الله سيدى إبراهيم الدارانى حيث قال :

كمالُ الله أكبر من كمالى فلله الكمال ولا مُمَارِ
وحبُّ الله أفضل كل شىء فلا تنس التخلق بالوقار
وذكر الله مرهم كل جرح وأروى من زلال للأُوار[٣]

(١) وفى نسخة : والأمل اليك .
(٢) وفى نسخة : فلا تتوجة إلى غيره إذ الله ورسوله هوالله .. الخ .
(٣) الأوار : العطش الشديد .

ولا موجود إلا الله حقا فدع عنك التَّعَلُّقَ بالفشار

ثم ذكر المؤلف تمام الحديث فقال :

ومن كانت هجرته الى دنيا يصيبها أو امرأة يتزوجها فهجرته الى ما هاجر اليه

قلت : قيل ذكر المرأة لأنها بين مراتب الدنيا والدين ، وقيل لأنها أعظم فتن الدنيا ، وقيل لأنها المهم فى الوقت ، لأن الحديث وقع على سبب ، وقيل ذكرها لينبِّه على المتصلات وغيرها المنفصلات . ثم اكتفى بالإشارة عن إعادة ماذكر من الدنيا والمرأة ولم يفعل ذلك فى ذكر الله ورسوله. ولهذا أشار المؤلف بطلب الفهم والتفهم إذ قال :

فافهم قوله صلى الله عليه وسلم : فهجرته الى ماهاجر اليه .

قلت : يعنى مع قوله فهجرته إلى الله ورسوله كيف كرر فى الأول ولم يكرر فى الثانى ؟ تجد لذلك وجوها منها : أنه كرر ذكر الله ورسوله اعتناءً بهما ، وأهمل ذكر الدنيا والمرأة احتقاراً لهما ، ومنها أنه كرر الأول تحقيقا للثبوت والعظمة وترك الأخير تنبيها للنفى وعدم الجدوى[1] ، فإذا فهمت ذلك حق الفهم خرج منه «لاعبرة بشىء سوى الله ورسوله وهو الحق المبين والصراط المستقيم» ثم قال :

وتدبر هذا الامر ان كنت ذا فهم والسلام

قلت : الإشارة بهذا الأمر لما يقتضى الحق والحقيقة من نفى

---

(١) وفى نسخة وأهمل الأخير للاستثقال وذكر الأول للاستطابة .

السوِّى والرجوع إلى المولى .

وإنما خصّ هذا الموضع بالسلام ؛ لأن المسألة قد أخذت به حقها أمراً ، ونهيا ، وخبراً ، وبرهانا ، ودليلا شرعيا ، ومثلا مضروباً ، وأصلاً ، وفرعا ، وقرآنا وسنة ، واعتباراً .. إلى غير ذلك ، والله أعلم .

تنبيه :

وكما يتعيّن أن لاتنظر إلاّ إلى الله فى جميع أحوالك يتعين أن لاتصحب إلا من شأنه ذلك ، من شأنه لامَن هو على العكس ، وهذا ما افتتح به :



الباب الخامس

إذ قال :

وقال رضى الله عنه :
لا تصحب من لا ينهضك حاله ولا يدلك على الله مقاله .

قلت : الذى لا ينهضك حاله ولا يدلك على الله مقاله هو الذى لم ينازل الحقائق ، ولا رفع همته عن الخلائق ، بل هو الراضى عن نفسه ، المترفع على أبناء جنسه ، الذى يعتد بعلومه وأعماله ، ويحمد نفسه فى إدباره وإقباله وإن كثرت أعماله وعلومه واتسعت أنظاره وفهومه .

والذى ينهض حاله ويدل على الله مقاله : هو الذى رفع همته عن الخلائق ، وامتلأ قلبه بمشاهـــدة الحقائق ، فإذا نظرت إليه وجدته مشغولا بالله ، وإذا تكلم فإنما يدلك على الله .

قال الشيخ أبو الحسن الشاذلى ، رضى الله عنه : « لا تصحب من يؤثر نفسه عليك ، فإنه لئيم ، ولا من يؤثرك على نفسه فإنه قلّما يدوم ، وأصحب من إذا ذكر ذكر الله ، فالله يُغْنِي به إذا شهد وينوب عنه إذا فُقِد ، ذِكره نور القلوب ومشاهدته مفاتيح الغيوب »

وقال أيضاً رضى الله عنه : «أوصانى خليلى فقال : لا تنقل قدميك إلاّ حيث ترجو ثواب الله ولا تجلس إلاّ حيث تأمن غالباً من معصية الله ،

ولا تصحب إلاّ من تستعين به على طاعة الله ، ولا تصطفى لنفسك إلاّ من تزداد به يقيناً ، وقليل ماهم » .

ويروى أن الله تعالى أوحى إلى موسى عليه السلام : (يابن عمران كن يقظان ، وارتد لنفسك إخواناً ، وكلُّ أخ وصديق لايؤازرك على مسرّتى فهو لك عدو ويقسّى قلبك ويباعدك منى) اه ،

ومن آفات صحبة من لاينهض حاله ، ولا يدل على الله مقاله رؤية المرء نفسه بعين الكمال ، كما نبَّه عليه المؤلف إذ قال :

وربما كنت مسيئا فأراك الاحسان منك صحبتك لمن هو أسوأ حالا منك .

قلت : يقول لك إنك إذا صحبت من هو أسوأ حالا منك ربما رأيت بذلك الإحسانَ من نفسك لماجبلت عليه النفوس من استشعار فضيلتها عند مشاهدة من هو دونها . والمعتبر فى هذا كله الهمة والحال ، لا العلوم والأعمال ؛ قال سيدى أبو عبد الله بن عباد رضى الله عنه ، فى ترجيز هذا الموضع فى أرجوزته مانصُّه :

إن التواخى فضله لاينكر ... وإن خَلا من شرطه لايُشكر
والشرط فيه أن تؤاخى العارفا ... عن الحظوظ واللحوظ الصارفا
مقاله وحاله سيَّان ... مايدعو إلاَّ إلى الرحمن
أنواره دائمة السراية ... فيك وقد حفت بك الرعاية
وقاصد الفاقد هذا الشرطا ... بصحبةٍ يعقدها قد أخطا

لكونه يرى بها محاسنَه فنفسه ذات اغترار آمنة

وقال الشيخ أبو الحسن ، رضي الله عنه : «سألت أستاذى عن قوله عليه السلام : (يسِّروا ولا تعسروا ، وبشِّروا ولا تنفروا) قال : يعنى دلوهم على الله ، ولا تدلوهم على غيره ، فإن من دلك على الدنيا فقد غشك ، ومن دلَّك على العمل فقد اتعبك ومن دلك على الله فقد نصحك » اهـ .

ثم من علامة الحالة المنهضة إنما هو الغنى بالله ، والثقة به ، وعلامة ذلك إنما هو الزهد فى الدنيا ، لا كثرة الأعمال والعلوم ونحوها ، فلذلك قال :

ماقل عمل برز من قلب زاهد ولا كثر عمل برز من قلب راغب

قلت : يقول العمل القليل من الزاهد ليس بقليل ؛ لفراغ قلبه وسلامة وقته وحضوره فى عبادته ، والعمل الكثير من غير الزاهد ليس بكثير لمزاحمته بالأضداد ؛ لأن حقيقة الزهد برودة الدنيا على القلب ، وذلك من أصل الثقة بالله ؛ فقد جاء فى الخبر (ليس الزهد بتحريم الحلال ولا بإضاعة المال ، إنما الزهد أن تكون بما فى يد الله أوثق منك بما فى يدك) .

وقال ابن مسعود رضى الله عنه : (ركعتان من عالم زاهد خيرٌ وأحب إلى الله تعالى من عبادة المتعبِّدين الراغبين أبداً سرمداً) .

وقال الشيخ أبو الحسن رضى الله عنه ، (رأيت الصِّديق فى المنام فقال : أتدرى ماعلامة خروج الدنيا من القلب ؟

قلت: لا، قال: بذلها عند الوجود، ووجود الراحة منها عند الفقد)اه. ثم برهن على ماذكر بأن قال:

حسن الاعمال نتائج حسن الاحوال، وحسن الاحوال من التحقيق فى مقامات الانزال

قلت: حُسن الأعمال: جمالها وكمالها، وكذلك حسن الأحوال.

والأعمال عبارة عن الحركات الجسمانية، والأحوال عبارة عن الحركات القلبية، ومقامات الأنزال عبارة عما نازل القلب من المعارف ونحوها، فمن كانت معرفته أتمَّ كان حاله أحكم، ومن كان حاله أحكم كان عمله أكمل.

وهى ثلاث مراتب، بعضها على بعض يدور دورانا، كما يقول الإمام أبو حامد رحمه الله: لابد لكل مقام من علم وعمل وحال، فالمقام يثمر علما، والعلم يثمر عملا، والعمل يثمر حالا؛ لأن حركات الأجسام تابعة لحركات القلوب، وحركات القلوب جارية بحركات الأجسام.

قال فى (التنوير): (وليس يدل على فهم العبد كثرة عمله، ولا مداومته على وِرده وإنما يدلُّ على فهمه ونوره غناه بربِّه، ورجوعه إليه بقلبه، وتحرره من رِقِّ الطمع، وتحليه بحلية الورَع، فبذلك تحسن الأعمال، وتزكو الأحوال، قال الله تعالى (إنا جعلنا ماعلى الأرض

زِينَةً لَهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً)(١)

فحسن الأعمال إنما هو بالفهم عن الله ؛ والفهم هو ماذكرناه من الاكتفاء بالله والغنى به ، والاعتماد عليه ، ورفع الحوائج إليه ، والدوام بين يديه ، فكل ذلك ثمرة الفهم عن الله » اهـ .

وهو نتيجة الزهد والحالة المنهضة . والله أعلم .

ثم مدار الأعمال على الذكر ، وحُسنه بالحضور فيه ، لكن ربما وُجد وربما فُقد ، ثم إذا فقد فلا ينبغى أن يترك الذكر لفقده ، كما نبّه عليه المؤلف إذ قال :

لا تترك الذكر لعدم حضورك مع الله فيه

قلت : يعنى : بل اذكره فى حال الحضور وفى حال الغفلة ، باذلاً مجهودك فى الأمر حسبما أمر الله تعالى به إذ قال تعالى (كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْراً)(٢) ومن المعلوم أنه لا يتقيد بحضور ولا غيبة ،

وقال عليه الصلاة والسلام للذى استوصاه : « لا يزال لسانك رطباً بذكر الله »(٣) فلم يدله إلاّ على ذكر اللسان ؛ وذلك لأنه مقدور العبد

---

(١) آية ٧ من سورة الكهف .

(٢) آية ٢٠٠ من سورة البقرة .

(٣) عن عبد الله بن بسر رضى الله عنه أن رجلا قال : « يا رسول الله إن شرائع الاسلام قد كثرت على فأخبرنى بشىء أتشبث به ؟ قال : لا يزال لسانك رطبا من ذكر الله » رواه الترمذى وابن حبان فى صحيحه والحاكم وقال : صحيح الإسناد .

إبتداء ودواماً، بخلاف الحضور، فانما مقدوره فيه السبب الذى هو الفكر والدوام عند الحضور بقدر الاستطاعة. والله أعلم.

ثم قال:

فان غفلتك عن وجود ذكره أشد من غفلتك فى وجود ذكره

قلت: وذلك لثلاثة أوجه:

أحدها: أن فى وجود ذكره إقبالاً بوجه ما، والغفلة عنه إعراض بالكلية.

الثانى: أن فى ذكره تزيين جارحة بالعبادة، والغفلة عنه تفويت لذلك.

الثالث: فى وجود ذكره تعرّض لنفخات رحمته أن يرفعك مما هو أدنى لما هو أعلى، وفى الغفلة عن ذكره إهمال لذلك.

ولا يشك عاقل فى أن الإقبال، ولو ضعيفاً، خير من الإدبار بالكلية.

قيل لبعضهم: مالنا نذكر الله باللسان والقلبُ غافل!!

فقال: أشكروا الله على ما وفّق من ذكر اللسان، ولو أجرى مكانه الغيبة عنه ماذا كنتم تصنعون؟ ثم قال: والله أكرم أن يحضر العبد بلسانه ثم لا يمنّ عليه بحضور قلبه، وأنشد:

لو علمنا أن الزيارة حق   لفرشنا الطريق بالمرجان

ثم أشار المؤلف لما ذكرنا من التعرض لنفحات رحمة الله وكرمه فقال :

فعساه أن يرفعك من ذكر مع وجود غفلة الى ذكر مع وجود يقظة . ومن ذكر مع وجود يقظة الى ذكر مع وجود حضور ومن ذكر مع وجود حضور الى ذكر مع غيبة عما سوى المذكور .

قلت : ولو لم تسكن لك مقدمة ذكر : ما كنت ترتجى هذا الترقى ، فتعرضك لنفحات رحمته بما فى مقدورك هو الذى يرجّيك بالترقى لغاية ما تعلقتَ به ، وعنه قال عليه الصلاة والسلام : (إن لله فى أيام دهركم نفحات فتعرَّضوا لنفحات رحمة الله) .

وقال تعالى . (فَاذْكُرُونِى أَذْكُرْكُمْ)(١) فجعل جزاء ذكرك إيّاه وجود ذكره لك . ومن ذَكرمولاه ، وفقه وهداه ، ورحمه وآواه ، وتولاه وأكرم مثواه .

وكذلك قال الله (اذْكُروا اللهَ ذكراً كثيراً وسبحوهُ بكرةً وأَصيلاً هوَ الذى يصلِّى عليكُمْ وملائكتُه)(٢) أى : يقبل عليكم بإحسانه وإكرامه (ليخرجكم من الظلمات إلى النور) .

وقد قيل : « إن الذكر منشور الولاية ، فمن أُعطى الذكر فقد أُعطى المنشور » اهـ.

---

(١) آية ١٥٢ من سورة البقرة .
(٢) آية ٤٣ من سورة الأحزاب .

وعلى مقتضى ماذكره المؤلف: أن كلا نتيجةُ ماقبله ومقدمة مابعده.
واليقظة هنا : الانتباه لمدلول الذكر ومقتضاه بالتفات القلب لذلك ، واستشعاره اياه بعد عدم شعوره به .

والحضور هنا أيضاً : أن يرتسم معنى الذكر فى الفؤاد إرتساماً لا يصح انفكاكه عنه ولا ينسى ذكر الله عند أمره ونهيه . وهو أفضل من ذكر اللسان كما قال عمر بن الخطاب رضى الله عنه .

والغيبة عما سوى المذكور : انتصاب القلب له بحيث لا يصح له فى فهم : وجودٌ سوى وجوده تعالى بوجه لا ينفك لافى ذكره ولا فى غيره وهو موقف الفناء والله أعلم .

فمن غفل عنه ذكر غيره، ومن انتبه له أنس به المرّة بعد المرّة ،ومن حضر معه خضع له ، ومن نسى ماسواه فنى به ، ومن فنى به غاب عن كل شىء سواه .

وقد قال الشيخ أبو الحسن الشاذلى رضى الله عنه : « حقيقة الذكر الانقطاع عن الذكر إلى المذكور ، أى عن كل شىء سواه ، لقوله تعالى (واذكر اسم ربك وتبتل إليه تبتيلا)[١] .ولكل من المواقف الثلاث أصل ومادة ، وحقيقة وعلامة ، وتأويل وتفصيل وتنزيل ، ومداره على ثلاث : معرفة الحق ، وإجلاله ، والعبودية له .

---

(١) آية ٨ من سورة المزمل .

ومراتب ذلك غير متناهية ، وبالله التوفيق .

ثم نبّه المؤلف على أن نقل العبد من أدنى المراتب إلى أعلاها سهل يسير على الله تعالى فقال :

وما ذلك على الله بعزيز

قلت : يقول : ليس بممتنع فى قدرته ، ولا ببعيد عن كرمه ، وإنما على العبد الأسباب وعلى الله فتح الباب ، وإنما ذلك لإثبات الحكمة وظهور العبودية بالتعبد ، وإلا فالربُّ يفعل ما يشاء بخلقه ما عُبد إلا بفضله ولا ذُكر إلا برحمته ، ولا توجّه إليه إلا بمنته ، فهو الذى أمد العبد بتوفيقه ثم هداه الطريقة ، ثم فتح له باب العزم ، ثم أعانه على العمل حكمة منه وتصريفاً للأقدار تصرف اقتدار ، فسبحان الكريم المتعال .

تنبيه :

الذكر حياة القلب ، والغفلة موته . وغايتها(١) تنتهى لاستحسان القبيح ، ومبدأ ذلك نسيان قبحه ، كما نبّه عليه المؤلف فى أول

(١) وغاية الغفلة

الباب السادس

إذ قال :

وقال رضى الله عنه : من علامات موت القلب عدم الحزن على مافاتك من الموافقات ، وترك الندم على مافعلته من الزلات

قلت : الموت : فقد الحياة ، وعلاماتها ثلاث هي ضد علامات الحياة ، وعلامات الحياة : الأول : الإحساس بما يرد من مؤلم أو ملائم حسياً كان أو معنوياً : الثانى : التأثر بالعوارض القادحة فى القيام الباعث على طلب القوام . الثالث : ذوق الأشياء على ماهى عليه ، أو على خلافه ، حتى تدرك فيها حرارة أو بروده أو مرارة أو حلاوة أو غير ذلك .

فالقلب الحىّ هو الذى يتألم بالمعاصى ويتلذذ بالطاعة ، ويطلب هذه ، ويفرّ من هذه ، لما أحسّ به من ألم أو ملائمة ، ووجده من مرارة وحلاوة ، فيحزن لما فاته من الموافقات على حسب همّته ، ويندم على مافعله من وجود الزلاّت ، كذلك والميت لا يُحسّ بشىء من ذلك . فلا يقع له حزن ولا ندم ، ولذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من سرّته حسنته وساءته سيئته فهو مؤمن »[1] .

وقال ابن مسعود رضى الله عنه : « المؤمن يرى نفسه من ذنوبه

(1) رواه الطبرانى فى الكبير عن أبى موسى رضى الله عنه .

كأنه قاعد تحت جبل يخاف أن يقع عليه، والمنافق يرى ذنوبه كذباب وقع على أنفه ، فقال به[1] هكذا فأطاره » اهـ .

وحقيقة الحزن : انقباض السر لما سلف من مخالفة الأمر .

والندم : التلهف على ماوقع فيتمنى أنه لم يكن وقع .

ثم هذا الحزن والندم قد ينتهى بصاحبه لليأس والقنوط ، وهما قبيحان ؛ فلذلك نبه عليه بأن قال :

لايعظم الذنب عندك عظمة تصدك عن حسن الظن بالله

قلت : لما كان الحزن والندم منشأهما عظمة الذنب وموقعه من القلب وذلك قد يفرط[2] فينتهى لحد اليأس والقنوط ، وقد لايفرط فيوجب الانزعاج دون القنوط واليأس ، وأن اليأس والقنوط من الإعراض عن حسن الظن بالله وهو من كبائر القلوب ، ففى الخبر أنه عليه السلام قال « خصلتان ليس فوقهما شىء من الخير : حسن الظن بالله ، وحسن الظن بعباد الله ، وخصلتان ليس فوقهما شىء من الشر : سوء الظن بالله وسوء الظن بعباد الله » . ويقال : خمسة فى الذنب أعظم من الذنب : تعظيم الذنب أعظم من الذنب ، واحتقار الذنب أعظم من

---

(١) فقال به هكذا : أى فعل به هكذا وأشار بيده .

(٢) وفى نسخه أخرى (وذلك قد يفرط فينتهى لحد القنوط واليأس ، وقد لايفرط فيوجب الانزعاج عن الذنب ، فقط نبه على أن المحمود منه مايوجب الانزعاج دون القنوط واليأس ، وأن اليأس والقنوط من الإعراض عن ... الخ

الذنب ، والإصرار على الذنب أعظم من الذنب ، والمجاهرة بالذنب أعظم من الذنب ، والجرأة على الذنب أعظم من الذنب» .

وقال الشيخ أبو الحسن الشاذلى رضى الله عنه: (قرأت ليلة قل أعوذ برب الناس فقيل لى : شرّ الوسواس وسواس يدخل بينك وبين حبيبك فيذكرك أفعاله السيئة و ينسيك أفعاله الحسنة ، ويكثّر عندك ذات الشمال ، ويقلل عندك ذات اليمين ليعدل بك عن حسن الظن بالله إلى سوء الظن بالله ، فاحذر هذا الباب ؛ فقد أخذ منه خلق كثير من العبّاد والزهّاد وأهل الطاعة والسداد) انتهى وهو عجيب .

ثم فى قوله : عظمة تصدّك . . الخ تنبيه على أن التى لاتصدّ غير منهية ، بل هى مطلوبة ؛ لأن بها يقع الحزن والندم المطلوبين ، سواء أكان عن خوف أو استشعار فوت مقصد من عبودية أو محبة أو نعيم، أو كمال ، أو غير ذلك . ثم ذكر معنى يقتضى علة النهى ، فقال :

فان من عرف ربه استصغر فى جنب كرمه ذنبه

قلت : ومن عرف ربه أعظم ، لأجل حق إجلاله ، ذنبه ، فكان معتدلاً بين هذه وهذه بلا ميل ،وإلاّ فقد نقص له من المعرفة على قدر ميله من الجانب الذى مال عنه إلى الجانب الذى مال إليه .

ثم إنْ أدّاه ذكرُ الكرم للاغترار فالهوى غالب عليه،أو ذكر مقابله للقنوط فظلمة النفس حاكمة لديه،ففى الحديث الصحيح:(إن العبد إذا أذنب الذنب فقال : يارب اغفر لى ، قال الله تعالى : أذنب عبدى ذنباً فعلم أن

له ربّاً يغفر الذنب ويأخذ به ، أشهدكم بأنى قد غفرت له . . الحديث »
فعلمه أنه يغفر الذنب من مشاهدة كرمه وجماله ، وعلمه أنه يؤاخذ به من مشاهدة جلاله ، ولولا اجتماعهما له فى موضع واحد ما اندفع باستغفاره .فافهم» وقد نبّه المؤلف على ذلك بأن قال:

لاصغيرة اذا قابلك عدله ولا كبيرة اذا واجهك فضله

قلت: فانظر لعدله وفضله ، لالذنوبك وعيوبك ، سواء كانت صغائر أو كبائر ، وبحسب هذا فلا ميل ؛ إذ لاعلم لنا بما يواجه ، ولا بما يقابل. وقد قال يحيى بن معاذ رضى الله عنه :« إنْ أنالهم فضله لم تبق لهم سيئة ، وإن أقام عليهم عدله لم تبق لهم حسنة » . وفيما أوحى الله إلى بعض أنبيائه ، (قل لعبادى الصدّيقين لا يغْتروّا ، فإنى ن أقم عليهم عدلى وقسطى أعذّبهم غير ظالم لهم ، وقل لعبادى المذنبين لا يقنطوا ، فإنى لا يتعاظمنى ذنب أغفره لهم. وقال تعالى فى كتابه الكريم : (نبّئ عبادى أنى أنا الغفور الرحيم وأن عذابى هو العذاب الأليم) (١) وقال عز وجل : (ما يقال لك إلاّ ما قد قيل للرسل من قبلك إن ربك لذو مغفرة وذو عقاب أليم (٢)) فجمل دعوة الرسل وخطابهم بهما على حدّ سواء ، وقال عز وجل (وإن ربك لذو مغفرة للناس على ظلمهم وإن ربك لشديد العقاب» (٣) وقال سبحانه وتعالى : (هو أهل التقوى

---

(١) آية ٤٩ من سورة الحجر . (٢) آية ٤٣ من سورة فصلت.
(٣) من سورة الرعد آية : ٦

وأهل المغفرة)[1] أى أنه أهل لأن يُتقى ، وأهل لأن يغفر ، وكل ذلك على حدّ السواء فى حقّه . فذهب الميل والترجيح ، وبقى الوقوف على حدّ سواء . والله أعلم .

وللناس فى حدّ حقيقة الصغيرة والكبيرة اختلاف كثير، ومرجعه أن الكبيرة ماعظم أمره عند الله ، والصغيرة ماخفّ أمره عند الله ، والعدل ما للمالك أن يفعله من غير منازع، وكل تصرّف لله كذلك ؛ إذ الكل منه وإليه ، والفضل : المواجهة بالإحسان لا لعلّة ولا لسبب ، وبالله التوفيق .

وكما وجب أن ينظر فى الذنوب للعدل والفضل فكذلك فى الأعمال؛ لأنها من نسبتها فى ذلك[2] ، وذلك يفضى إلى عدم الاعتداد بها ، وهذا ما ذكره المؤلف بان قال :

لاعمل أرجى للقبول من عمل يغيب عنك شهوده ويحتقر عندك وجوده

قلت : تقدير الكلام : لاعمل أرجى للقلوب قبوله وحصول النفع به فى إفادة مايترتب عليه من تنوير وتعريف وكمال وثواب وغير ذلك من عملٍ يغيب عنك شهوده بشهود مدبّره ، حتى لا ترى لنفسك نسبةً فيه ، بل لاتدرى له وجوداً فى ذاته ، ويُحتقر عندك وجوده ، لما هو عليه من نقص وعيب ظاهر أو خفىّ منه .

---

(١) آية ٥٦ من سورة المدثر .
(٢) وفى نسخة (لأنها من نسبتها لذلك تقضى بعدم الاعتداد بها)

فحاصله أن يرى نفسه مقصِّراً فيه ، ويراه مع تقصيره منّة من الله عليه ؛ إذ لا يليق به من حيث ذاته ، ومن هو حتى وُفّق له يوماً ما وإلاّ لكان ممن هم مُطّرحون فى الخسائس ، بل فى أرذل الكفر والنفاق ، نسأل الله العافية .

وقد يكوم كلام المؤلف على التفكيك ، والواو فى « ويُحتقر » للتنويع ، فالمقصود يغيبُ عنك أو تحتقر عندك .

وبحسب هذا ، فالناس ثلاث :

غائب عن شهود عمله ، ومحتقر له ، وجامع بينهما .

والأخير أكمل ، والأول دونه ، والأوسط دونهما .

وقد أشار المؤلف لترجيح الأول على الثانى بأن قال :

انما أورد عليك الوارد لتكون به عليه واردا

قلت : الوارد هنا : ما ينزل بالقلب فيزعجُه عن معتاده ويرفعه عن مراده من موارد الحق ومعارفه . ومقصوده إرجاع العبد لمولاه ، وانقطاعه لما به تولاّه ، فيكون العبد به ، أى : بالوارد وارداً على مولاه ، أى : بمولاه وارداً على مولاه . وعلى الوجهين فهو يقتضى عدم نظره إلى كسبه[1] فى الإقبال والإدبار ، فإن تمَّ له ذلك بأن غاب عن شهود عمله بشهود مولاه فذاك ، وإلاّ فنظره لتقصيره ، وورود بوادر

(١) وفى نسخة : نفسه .

الحق على نفسه وليس هناك إذ قيل لايخلو شهود التقصير من وجود الشرك فى التقدير .

وقال الواسطى رضى الله عنه لأصحاب أبى جعفر : بم يأمركم شيخكم؟

قالوا : يأمرنا بالتزام الطاعة ورؤية التقصير فيها .

فقال : أمركم بالمجوسية المحضة ، هلاَّ أمركم بالغيبة عنها بشهود مُجْريها ومنشيها ؟

قال الأستاذ أبو القاسم القشيرى رضى الله عنه : « إنما أراد بهذا صيانتهم عن الإعجاب ، لاتعريجاً فى ميدان التقصير ، أو تجويزاً للاخلال بأدب من آداب الشريعة » اهـ .

فإذن فائدة الوارد ثلاثة :

الورود على المولى بلا علّة ، والخروج من عبودية والأكوان فى الجملة ، والخروج من سجن النفس بلا توقف .

قد مضى الأول من كلام المؤلف ، وذكر الثانى بأن قال :

أورد عليك الوارد ليتسلمك من يد الأغيار وليحررك من رق الآثار .

قلت : معنى يتسلمك : يأخذك مما تسلمك منه على وجه لايبقى له تعلّق فيك ، وهى هنا « الأغيار » أى : المخلوقات بحيث لايبقى لك إليها استناد ، ولا عليها اعتماد ، ولا منها استمداد ، ولا فيها شهود ولا أشهاد ، بل تكون لمولاك وحدَه بلا علّة منك ولا تشوّف لغيره ،

وذلك عين التحرر من رقّ العبودية لها ؛ إذ تصير تابعة لامتبوعة ، ومحكومة لا حاكمة ، وبذلك تقع الراحة الأبدية ، كما قال النصراباذى رضى الله عنه[١] : « سجنُك نفسك ؛ إذا خرجت منها وقعت فى راحة الأبد » انتهى .

وذلك لأنه يصير الحال للرضا وعدم التقييد بالأغراض ، بل كما قيل :

أصبحت لا أملاً أبغى ولا أمنيـــة أرجو ، ولا نائبة أخشى ، ولا موعدة أترقب » .

ثم ذكر المؤلف الوجه الثالث من فوائد الوارد إذ قال :

أورد عليك الوارد ليخرجك من سجن وجودك الى فضاء شهودك

قلت : وذلك أنك مسجون بمحيطاتك ، ومحصور فى هيكل ذاتك مالم تفتح لك ميادين الغيوب ، ومتى طلع عليك نور الوارد لاح لك من حقائق الوجود ماتعرف به الدنيا والآخرة وغيرهما . وهذا ماأشار إليه التسترى حيث يقول : (عند نور إلهامى لاح الحقّ لى ، ودنوتُ من قرب مذ (عرَفْتَ نى)[٢] .

---

(١) هو : إبراهيم بن محمد وكنيته أبو القاسم . نيسابورى الأصل والمولد . توفى بمكة سنة ٣٧٦ ﻫ . وكان عالما بالحديث كثير الرواية .

(٢) لعله يريد أن يقول : إن الحق لاح له عندما غمر الإل[illegible] بنوره قلبه وقرب من الله منذ أن أصبح عارفاً بالله : أى عارفاً لله معرفة من الله ، فالله سبحانه هو الذى يعرف أولياءه به .

ثم نبه على ما ذكرناه من أن جملة الأمر فى الوارد أنه حاملٌ إلى الحق فلا يصح التوجه به لغيره، فقال :

الأنوار مطايا القلوب والأسرار

قلت : الأنوار، هى : الظلال الواقعة فى الصدور من المعانى التى أتت بها الواردات ، وهى مطايا القلوب بإيضاح الفهم إلى حضرة علام الغيوب .

ومطايا الأسرار ببيان العلم إلى حضرة الملك الجبّار ، فمن طلع النور فى قلبه سار على مطيّة فهمه . ومن طلع فى أفق سرّه سار بمطية علمه ، ومن لم يجعل الله له نوراً فما له من نور .

وإذا كانت الأنوار مطايا الحق فلا تَحملْ عليها شيئاً من الباطل .

ومن الباطل : رؤية النفس فى نقصها وكمالها . فافهم .

ثم ذكر أن الأنوار مقوية للقلوب مضعفة للنفوس فقال :

النور جند القلب كما أن الظلمة جند النفس

قلت : وذلك لأن النور يحصل به ثلاث : الكشف ، والعلم ، والتحقيق .

والظلمة يحصل بها ثلاث : الجهل ، والتلف ، والتخبيط .

وإذا كانت هذه[1] غَلَبَ الهوى وذهب الحق ، وإذا كانت

---

(١) الظلمة

الأولى ذهب الهوى وثبت الحق .

ولكلّ مقويات وموارد أشار إليها المؤلف بأن قال:

فاذا أراد الله أن ينصر عبده أيده بجنود الانوار وقطع عنه مدد الظلم والاغيار

قلت : يقول إذا أراد نَصْر عبده على نفسه وهواه مدّه بالجنود التى هى الأنوار ؛ فيحصل له العلم والتحقيق والإلهام الذى هو الكشف ، فيباشر قلبه بما يعلمه(1) من خير أو شر حتى يقبل على الحق ويدبر عمّا سواه إقباله على الخبز عند الحاجة ، وإدباره عن الحيّة عند المعاينة،ولا يتم ذلك إلاّ بحسم موارد الظلم ، وهى ثلاثة :

هوى يخالطه علم بتأويل ، ووهم يعينه ضعف اليقين ، وشهوة غالبة لايملك معها أمراً .

ولاتنقطع هذه الأمور إلا بإثبات أضدادها : يقين لايداخله شك ، وعلم لايخالطه هوى ، وإلهام لايفسده وهم .

وقد تقدّم من كلام الشيخ أبى الحسن رضى الله عنه : « إذا أكرم الله عبداً فى حركاته وسكناته نَصَب له العبودية لله لصب عينيه » . فانظره .

ثم ذكر ترتيب إمداد القلب وتوارد جنوده، وعيَّنها بأن قال:

---

(1) وفى نسخة : مايعمله .

النور له الكشف ، والبصيرة لها الحكم ، والقلب له الادبار والاقبال .

قلت : إذا كان النور تاماً كشف الشيء على ماهو عليه ، وإذا كانت البصيرة مستقيمةً حكمت به على وجهه ، فأقبل القلب في محل الإقبال وأدبر في محل الإدبار . وإذا كان النور مفقوداً أو ناقصاً ، والبصيرة غير مستقيمة أقبَل القلب في محل الإدبار وأدبر في محل الإقبال ، ، فكان شبه حال الأعمى تارة يخطيء وتارة يصيب . وإن أصاب فعلى غير أصل ولا حقيقة .

فإذن نور القلب هو الأصل ومابعده تبع له ، قال تعالى (أفمن شرح الله صدره للإسلام فهو على نور من ربه)(١) وقال تعالى (فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام)(٢) فجعل الهداية فرع الشرح ، والشرح فرع النور ، فافهم .

ثم من مظاهر ماذكر وجود الفرح بالطاعة وغيرها ، فمن كان فرحه بها من حيث إنها منّة من الله عليه فنوره تام ، وبصيرته مستقيمة إذ أقبل قلبه في محل الإقبال ومن فرح بها من حيث نفسه فعلى العكس ، فهذا مانبه عليه إذ قال :

لا تفرحك الطاعة لانها برزت منك وافرح بها لانها برزت من الله اليك

قلت : الطاعة من الفوائد المحبوبة النافعة دنيا ودينا ، والفرح بها أمر ضروري لمن حصَّلها ، ثم هو على ثلاثة أوجه :

---

(١) آية ٢٢ من سورة الزمر . (٢) آية ١٢٥ من سورة الانعام

فرح بها من حيث ما يُرجى من ثوابها أو يُخشى من عقاب فوتها .

وفرح بها من حيث وجودها وظهورها على يده لتزكيه بها .

وفرح بها من حيث إن الحق ذكره بالتوفيق لها ومنَّ عليه بوجود تحصيلها مع تحصيل العبودية وامتثال الأمر بها . وهذا الوجه أحسن من الأول ، والأول خير من الذى بعده ؛ لأن هذا يزيده شكراً وافتقاراً ، والذى قبله يزيده عُجباً وافتخاراً ، فالأول فيه رائحة الاعتماد على العمل وهو من أصول العلل .

ثم نزع المؤلف بالآية للدلالة فقال :

قل بفضل الله و برحمته فبذلك فليفرحوا هو خير مما يجمعون

قلت : يقول : لايكن فرحكم إلا بفضل الله ؛ لأنه تفضَّل عليكم وذكّركم بمنته فيما به تولاكم ، لا بما تجمعون من الفوائد الحاصلة بمنته من حيث هى ، لأن الفرح بها مجردةً عينُ الغفلة عنه، والفرح بمنته من إجلاله ، وقد قال تعالى (لئن شكرتم لأزيدنكم)[1] والشكر فرح القلب بالمنعم لأجل نعمته ؛ فافهم.

ثم ذكر تفصيل ما تقدم له من قوله «لا عمل أرجى للقبول » فقال :

قطع السائرين له والواصلين اليه عن رؤية أعمالهم وشهود أحوالهم

قلت : وإنما قطعهم عن ذلك ، لوجوه :

---

(١) من آية ٧ من سورة إبراهيم .

أحدها : ليكونوا له بلا علّة كما كان لهم ولا علّة .

الثانى : ليسلموا من آفة الإعجاب ورؤية النفس فى جميع الأحوال.

الثالث : ليتم لهم الإنعام بالشكر والافتقار . فافهم .

ثم ذكر ماوقع به انقطاع كل من الفريقين ، فقال :

أما السائرون فلانهم لم يتحققوا الصدق مع الله فيها

قلت : وإذا لم يتحققوا ذلك فيها فهم متحققون لوجودها ، من حيث ما اشتملت عليه من النقائص والدعاوى ؛ وبذلك يزيد افتقارهم لمولاهم واضطرارهم له .

وقد قال الجنيد رضى الله عنه : (لا يصفو لأحد قدمٌ فى العبودية حتى تكون الأفعال كلُّها عنده رياء وأحواله كلها عنده دعاوى).

وقال النهرجورى رضى الله عنه : (مِن علامة مَن تولاه الله فى أحواله أن يشهد التقصير فى إخلاصه والغفلة فى أذكاره ، والنقصان فى صدقه ، والفتور فى مجاهداته ،وقلَّة المبالاة فى فقره ؛فتكون جميع أحواله عنده غير مرضية ،ويزداد فقره إلى الله تعالى فى قصده وسيره حتى يفنى عن كل مادونه) انتهى . ثم قال المؤلف :

وأما الواصلون فلانهم غيبهم بشهوده عنها

قلت : فهم لا يرون أنفسهم عمالا لها ، ولا مستحقين للثواب بها ، وإنما هى رسم عبودية جرى بتوجه المنَّة ، بل جرى بإجراء الحق سبحانه

بلا علّة ، حتى لقد قال بعضهم : (لا تنظر إلى عملك وإن صحّ، وانظر لمن وفّقك إليه) .

ومدارهم فى ذلك على قول نبى الله شعيب عليه السلام : إن أريد إلا الإصلاح ما استطعت وما توفيقى إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب .

فذكر الإنابة والتوكل للاستسلام ، كما ذكر إرادة الإصلاح للعبودية، وذكر التوفيق بالتبرّى من الحول والقوة ، وقد تقدّم من كلام بعض المشايخ رضى الله عنه : (صحّح عملك بالإخلاص ، وصحّح إخلاصك بالتبرّى من الحول والقوة) اهـ . والله المسئول أن يمنّ به علينا بمنّه .

تنبيه .

من انقطع عن أحواله وأعماله فلينقطع عن حياته وآماله ، متوجها للحقائق ، وتاركاً للطمع فى الخلائق ، وهذا ما توجه إليه فى :

الباب السابع

وهو افتتاح الربع الثانى من الكتاب إذ قال :

وقال رضى الله عنه : مابسقت أغصان ذل الا على بذرطمع

قلت : بسقت:طالت. ومنه (والنخل باسقات). والبذر :مايُسْتَنْبت منه الشيء ، والمقصود: من ثبت طمعه طال ذله ، فاستعار البذر للطمع ، لأنه أصل الذل ، والذل غصنه لأنه فرعه وطول ذلك باتصاله واتساعه فالمعنى من طمع ذلَّ على قدر طمعه ، فرحم الله القائل :

تركُ المطـــامع للفتى شَرَفٌ له   حتى إذا طمع الفتى ذلَّ الشرف

وذلك لان الطمع مقرون بثلاث :

التملُّق للمطموع فيه .

واستشعار الخيبة عند الطلب، أو سلطنة المعطِى عندالمساعدة .

وبذل ماء الوجه عند المواجهة . هذا مع ماينضاف لذلك من أصله وفرعه، فقد قال أبو بكر الوراق[٢] رحمه الله : لوقيل للطمع منأبوكـ؟

لقال: الشك فى المقدور.

ولو قيل له : ماحرفتك ؟

---

(١) هو : أبو بكر محمد بن عمر الوراق الترمذى : قام ببلخ وصحب أحمد بن خضرويه ، وله تصانيف فى الرياضات .

لقال . اكتساب الذلّ

ولو قيل : ماغايتك ؟

لقال : الحرمان .

وقد قال الشيخ أبو العباس المرسى رضى الله عنه : « الطمع ثلاثة أحرف كلّها مجوّفة ، فصاحبه بطن كله فلا يشبع أبداً) اه .

وهى أيضاً حروف يابسة خاوية ، فالمتعلّق بها كذلك !!

ثم ذكر المؤلف أصل الطمع : هو غالب الوهم ، فقال :

ماقادك شيء مثل الوهم

قلت : الوهم هنا : التخيُّل والحسبان ، ولا شك أن غالب النفوس فى قياده ، فإذا تخيلوا شيئاً أو ظنوه عملوا عليه فحصل لهم منه الطمع وغيرُه ، فيوقعهم فى الذل والحرمان والتعب ظاهراً وباطناً . وقد قيل : (لولا الأطماع الكاذبة ما استعبد الأحرار بكل شيء لاخطر له)اه

فإذن إنما يدعو إلى الطمع توهُّم النفع من المطموع فيه ، وبذلك تحصل العبودية له ؛ فمن غلب الوهم عليه نسى ماينتهى إليه الطمع من النقص والدناءة ، ومن ضعف لديه الوهم ذكر ذلك فانتفى عنه الطمع ، وهذا ماأشار إليه المؤلف إذ قال :

انت حرمماأنت عنه ايس ، وعبد لما أنت له طامع .

قلت : لأن ما أنت له طامع آخذ بقلبك فأنت له بكلّك .

وما أنت عنه آيس أنت عنه معرض بقلبك ، فليس له شيء من

وجودك ، وقد قال (بنان الحمّال) رضى الله عنه[1] :

العبـد حـرٌّ ماقنع   والحر عبد ماطمع

وقيل : «إن العُقاب يطير فى مصاف عزّه بحيث لا يرتقى طرف إلى مطاره ، ولا تسمو الهمة إلى الوصول إليه ، فيرى قطعة لحم معلقة على شبكة فينزله الطمع من مطاره فيعلق بالشبكة جناحه ، فيصيده صبىٌّ يلعب به » .

قال فى (التنوير) : (وتَفَقَّدْ وجود الورع من نفسك أكثر مما تتفقد سواه وتطَّهر من الطمع فى الخلق ، فلو تطهر الطامع فيهم بسبعة أبحر ماطهره إلا اليأس منهم ورفع الهمة عنهم .

ثم ذكر حكاية علىٍّ كرم الله وجهه ، وقول الحسن[2] له : (فساد الدِّين الطمع ، وصلاح الدين الورع) .

قال : وسمعت شيخنا : يعنى أبا العباس المرسى رضى الله عنه: كنت فى إبتدائى فى ثغر الإسكندرية جئت إلى بعض من يعرفنى فاشتريت منه حاجة بنصف درهم ، فقلت فى نفسى : لعلّه لا يأخذه منى . فهتف بى هاتف : السلامة فى الدين بترك الطمع فى المخلوقين ، . . ثم بعد كلام قال : فعليك أيها المريد برفع همتك عن الخلق ولا تذلّ لهم ، فقد سبقت

(١) هو : أبو الحسن بنان الحمال ، من واسط . أقام بمصر ، ومات بها سنة ٣١٦هـ .
(٢) هو الحسن البصرى .

قسمتُه وجودَك ، وتقدَّم ثبوتُه ظهورَك ، واسمع ماقاله بعض المشايخ : (أيها المريد ماقُدِّر لما ضغيك أن يمضغاه فلا بد أن يمضغاه ، فكله ويحك بعزٍّ ، ولاتأكله بذلٍ)انتهى.

وقد ذكر ابن عبّاد ، رحمه الله ، جملة من النقل يحتاج إليها ، فلتُنْظَر وبالله التوفيق .

ثم ذكر المؤلف حكمة الله تعالى فى عدم إسعاف الطامع فقال :

من لم يقبل على الله بملاطفات الاحسان قيد اليه بسلاسل الامتحان

قلت : يقول من لم يفرد وجهه لمولاه اعتباراً [١] لإحسانه السابق واللاحق الذى لاطفه به حتى لايطمع فى غيره ولا يرجو سواه سلط عليه البلايا والمحن حتى يقوده إليه به كرها إذ لم يرجع إليه طوعا .

قال الشيخ أبو مدين ، رضى الله عنه : (سنته تعالى استدعاء العباد لطاعته بسعة الأرزاق ودوام المعافاة ، ليرجعوا اليه بنعمته ، فإن لم يفعلوا ابتلاهم بالسراء والضراء لعلهم يرجعون ، لأن مراده ، عز وجل ، رجوع العباد اليه طوعا أو كرها) اه .

وشواهد هذه فى القرآن كثيرة . وأصله سلب النعم لفقدان الشكر كما نبه عليه المؤلف إذ قال :

---

(١) وفى التيمورية : إعتبارا باحسانه .

من لم يشكر النعم فقد تعرض لزوالها ومن شكرها فقد قيدها بعقالها

شكر النعمة ضامن لثلاثة أشياء :

حفظها عن الزوال، وتغيير[١] الحال بالانتقال ، وزيادتها فى الحال وبركتها فى المآل ، واتصال العبد بمولاه على وجه العافية بلا إخلال .

وعدم الشكر ضامنٌ للسلب ، وتشويشِ القلب ، ومقت الربّ .

وقد قال الحكماء : (الشكر قيد الموجود ، وصيد المفقود)

وقالوا أيضا : (من لم يشكر النعم سلبها من حيث لا يعلم)

قال الله تعالى : ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾[٢]

وقال سبحانه وتعالى : ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾[٣] أى إذ غيرّوا مابهم من الطاعة ، وهى شكر النعم ، غيرّ الله تعالى مابهم ، أى : ماَمنّ عليهم من الإحسان والكرم : وأنشدوا فى ذلك :

إذا كنت فى نعمة فارعَها   فإن المعاصى تُزيل النعم

(١) وفى التيمورية : وتغير .
(٢) آية ٧ من سورة إبراهيم .
(٣) آية ١١ من سورة الرعد .

إذا تمَّ شيءٌ بدا نقصُـه توقّع زوالاً إذا قيل «تمَّ»[١]

وقد قال عمر بن الخطاب رضى الله عنه : « النعم وَحْشية قيّدوها بالشكر » .

والشكر فرح القلب بالمنعم لأجل نعمته حتى يتعدى ذلك إلى الجوارح فتنبسط بالأوامر ، وتنكفّ عن الزواجر ، وقد عبّر الناس عنه تارة بأصله، وتارة بفرعه، وتارة بمادته.

ثم زوال النعمة قد يكون ظاهراً جليًا ، وهو « السلب » .

وقد يكون باطناً خفياً وهو «الاستدراج» وهو الذى يُتّقى أكثر لغموضه ؛ فلذلك قال المؤلف :

خف من وجود احسانه اليك ودوام اساءتك معه أن يكون ذلك استدارجا لك

قلت : خوف الاستدراج فى النعمة يبعث على التشمير لشكرها والرجوع إلى الله فيها وبها ، واستشعارُ ذلك بذكر أفعالك السيئة مع جرى إحسانه ؛ إذ الاستدراج: كون المحنة فى عين المنّة[٢] بغير خوف الفتنة ، وهو مأخوذ من درج الصبىّ أى : أخذ يمشى شيئا بعد شيء

---

(١) وفى التيمورية بدل هذا البيت الثانى :

وداوم عليها بشكر الاله فإن الاله سريع النقم

(٢) وفى التيمورية (الاستدراج كون المحنة فى عين المنة . ويقال تواتر المنة بعين الفتنة وهو مأخوذ . . الخ .

وهو لايشعر ، ومنه « الدرج » الذى يرتقى عليه ، أو يوجد به العلوّ . كذلك « المستدرَج » هو الذى تؤخذ منه النعمة شيئاً بعد شىء وهو لايشعر ؛ قال الله تعالى (سَنَسْتَدْرِجُهُم مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ (١)) .

قلت : يقول نأخذهم بالنعم وهم لا يشعرون .

وقد قال سهل بن عبد الله ، رضى الله عنه ، فى معنى الآية : « نمدّهم بالنعم وننسيهم الشُّكر عليها حتى إذا ركنوا للنعمة وحُجبوا عن المنعم أُخذوا » .

وقيل : « كلما جددوا معصية جددنا لهم نعمة وأنسيناهم الاستغفار من تلك المعصية » انتهى وهو مأخوذ من قوله تعالى : (إِنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْماً)(٢) ومن قوله عزّ وجل : (أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ نُسَارِعُ لَهُمْ فِى الْخَيْرَاتِ بَل لَّا يَشْعُرُونَ)(٣) ومن قوله عز وجل : (فتحنا عليهم أبواب كل شىء حتى إذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتة)إلى غير ذلك من وجوه(٤) الاستدراج فتح باب التأويل فى مواقف ، وذلك ما ذكره المؤلف إذ قال :

---

(١) من آية ١٨٢ من سورة الأعراف .

(٢) من آية ١٧٨ من سورة آل عمران .

(٣) آية ٥٥ من سورة المؤمنون .

(٤) وفى التيمورية : (إلى غير ذلك من وجود الاستدراج فتح باب التأويل فى مواقف الادب) .

من جهل المريد أن يسيء الادب فتؤخر العقوبة عنه فيقول لو كان [هذا] سوء أدب لقطع الامداد أو وجب الابعاد

قلت : هذا لا يتصور مع جريان ماله من الله من علوم وأحوال وغير ذلك بحيث تخفى عليه المحنة بجريان المنّة[1] وفى الآداب الخفية لا الجليّة؛ لأن مثل هذا التأويل لا يجرى فيمن بان غيّه وظهر نقصُه ، وهذا غاية الاستدراج .

فوجب على المريد التحفظ فى مواقف الأدب بالاحتياط أبداً وترك التأويل رأساً ، وذلك بأن يجعل الأوْلى نصب عينه ، فلا يقتصر على الواجب إلا إذا لم يجد مساغاً للأَوْلى ، ويقدّم الحقيقة على الأسباب فى موضع الإباحة ، لا فى موقف الطلب الشرعى ؛ فيتحفظ على ظاهره بالشريعة وعلى باطنه بالحقيقة ، ويفرّ من مواقف النقص بينه وبين مولاه : من رعونة كامنة ، أو غفلة ظاهرة ، أو دَعوى شىء وأن قلّ .

والآداب كلُّها منحصرة فى خمسة :

أولها : حفظ الحرمة مع الله ، ومع من له نسبة من جانب الله ؛ من نبى أو ولىّ أو عالم أو غيرهم ، حتى عوامّ المسلمين على مراتبهم .

الثانى : علوُّ الهمّة فى أمر الدين والدنيا ، حتى لا يكون له تعلُّق بشىء من النقائص لا ظاهراً ولا باطناً ، وما جرى عليه من ذلك بادره بالتوبة .

---

(١) وفى التيمورية (بجريان المنة إلا فى إساءة الأدب الخفية لا الجلية) .

الثالث : حُسن الخدمة بلزوم الاتباع وترك الإبتداع ، والتّبرى من الحول والقوة فى كل أمر .

الرابع : نفوذُ العزيمة بحيث لايسمح للنفس فى كل عزيمة[1] ، ولا يتراخى فى محل تشمير ، ولا يركن لموضع تقصير .

الخامس : شُكر النعمة ، وأصله : شهود المنَّة ، وهو مبنىّ على خالص التوحيد وخالص الإيمان .

ولكلٍ من هذه مُعارض وقادح هو سوء الأدب فى حق فاعله ، وله عقوبة من نوعه على قدر صاحبه ، فمن الناس مَن عقوبتُه بالعذاب[2] ومن الناس من يعاقَب بصرفه عن مواقف الأحباب .

وقال أبو حفص الحدَّاد[3] ، رضى الله عنه : «التصوّف كله أدب ، لكل وقت أدبٌ ، ولكل حالٍ أدب ، ولكل مقام أدب ، فمن لزم آداب الأوقات بلغ مبلغ الرجال ، ومن ضيَّع الأدب فهو بعيد من حيث يظن القرب ، ومردود من حيث يظن القبول» .

وقال بعضهم : «إلزم الأدب ظاهراً وباطناً ؛ فما أساء أحدٌ الأدب

---

(١) وفى التيمورية (بحيث لايتسمح لنفسه فى حل عزيمته)

(٢) وزادت نسخة التيمورية (ومن الناس من يعاتب بوقوع الحجاب) .

(٣) هو : أبو حفص عمر بن مسلمة الحداد . ولد بقرية من قرى نيسابور على طريق بخارى . وهو أول من أظهر طريقة التصوف بنيسابور . توفى سنة ٢٦٦هـ [أنظر ترجمته وأقواله فى الجزء الأول من الرسالة القشيرية ص ٩٦] .

فى الظاهر إلاّ عوقب ظاهراً ، وماأساء أحدٌ الأدب باطناً إلاعوقب باطناً » .

وقال ذو النون المصرى[1] : « إذا خرج المريد عن حدِّ الأدب فإنه يرجع من حيث جاء » وسئل الدقاق ، رحمه الله تعالى : « بم يقوِّم الرجلُ إعوجاجه ؟

قال : بالتأدُّب بإمام ، فمن لم يتأدَّب بإمام بقى بطّالا » .

وقال أبو العباس بن عطاء الله رحمه الله : « النفس مجبولة على سوء الأدب ، والعبد مأمور بملازمة الأدب ، فالنفس تجرُه[2] بطبعها فى ميدان المخالفة ، والعبد يردُّها بجهاده عن سوء المطالبة ؛ فمن أطلق عَنانها فهو شريكها فى فسادها » اه

وجهل المريد فى الوجه الذى ذكره المؤلف بثلاثة :

إغترارُه بظاهر مايجرى عليه من أمداده بزعمه وحسن ظنِّه بنفسه فى حاله ، ونصرة نفسه فى غلطها بفتح باب التأويل ، وذلك من الرضا عنها والسكون إليها ، ونسيانُ خوف المكر فى عموم أحواله ؛ إذ لا يتوقف أمر الله فيه على علمه . كما نبّه عليه المؤلف إذ قال:

(١) هو أبو الفيض ثوبان بن إبراهيم الإخميمى المصرى ، من أهل مصر نوبى الأصل . كان عالماً زاهداً فصيحا حكيما وشوا به لدى الخليفة العباسى المتوكل فاستحضره من مصر فلما وعظه رده إلى مصر مكرماً . توفى بالجيزة سنة ٢٤٥ هـ ٨٥٩ م

(٢) وفى التيمورية (تجرى)

فقد يقطع المدد عنه من حيث لا يشعر

قلت : ذلك بأحد وجوه ثلاث :

صَرفه عن التحقق بما علم إلى الإتساع فى علمه ومعارفه ، وإبقائه فى حاله مع عدم الشعور بنقصه ؛ حتى لا تسمو همته لغير ما هو فيه ، فيكون حجاباً له عما هو أعلى ؛ بل يكون موكولا لحاله فى وقته ، وبتيسير مراداته من غير تأييد فيها بما يقع به الزيادة فى حاله فيشتغل بمراده عن مولاه ، ويرى ذلك سعادة فى أمر دينه ودنياه ، وإنما هو صرفٌ له عن بابه وطَرْد عن مواقف أحبابه ، كما قيل :

ومن صدَّ عنا حسبُه البيْن والقِلا　　　ومن فاتنا يكفيه أنَّا نفوته

وقد نبَّه المؤلف على ما قلناه بما ذكره حيث قال :

ولو لم يكن الا منع المزيد

قلت : وبذلك يتحقق الإستدراج ، حتى يرى الشرَّ فى موضع الخير ، وبالعكس ، (ومن لم يجعل اللّه له نورا فما له من نور)(١)

فعليك باللجاء إلى الله فى كل حال ، والحذر من نفسك بكل حال ، والإعراض عن الإنتظار بما تتعلَّق به الأغراض . والسلام . قال :

ولو لم يكن الا أن يخليك وما تريد

قلت : يعنى يصرفك عن بابه بمرادك ، ويطردك عن جنابه بتواتر

---

(١) آية ٤٠ من سورة النور .

إمدادك ؛ فترى أنك فى محلّ القرب وأنت فى محل البعد ، وهذا من غاية المكر والإستدراج والعياذ بالله ، وإليه أشار الجنيد ، رضى الله عنه حيث قال : « ألطف[1] ما يُخادَع به الأولياء وجودُ الكرامات والمعونات » اهـ

ووجوه الإبتلاء فى المقام مع ما تريد ثلاث :

أحدها : الأنس به والإنقطاع إليه ، وذلك بُعْدٌ عن مراتب الإختصاص.

الثانى : الإشتغال عن العبودية بسببه فرحاً وترحاً ، وإن كنت ترى أنه موجب شكر وشهود منَّة ، ففيه من الإقبال والإدبار علّة.

الثالث : الإغترار بظاهر الأفعال عن باطن الأحكام ، وهو أصل كبير فى الإبعاد والطرد ، وقد قال الإمام أحمد بن حنبل ، رضى الله عنه ، يُوصى بعض أصحابه :

« خَفْ سطوة العدل ، وارج رأفة[2] الفضل ، ولا تأمن مكره ولو أدخلك الجنة ، ففى الجنَّة وقع لأبيك آدم ما وقع ، وقد يقطع بأقوام فيها فيقال لهم : كلوا واشربوا هنيئاً بما أسلفتم فى الأيام الخالية »[3] فقطعهم بالأكل والشرب عنه ، وأىّ مكر فوق هذا ، وأىّ خسران أعظم منه » انتهى.

---

(١) أى أدق وأخفى (٢) وفى نسخة « رقة » (٣) آية ٢٤ من سورة الحاقة

وهو أول كلام حفظته فى هذه الطريقة .

[وقوله (ولو أدخلك الجنة) أتى به للمبالغة ، واستشهد بواقع آدم عليه السلام للتحقيق فى ذلك ، وإلاَّ فالجنة دار السلام ، وآدم أعلى التبرئة من كلِّ نقص وعيب ، وموقف الخوف والرجاء هذه الدار . فافهم] (١)

ثم إنَّ من أصول الآداب التى يقع بتركها الطرد والإنقلاب حفظ حرمة المسلمين، خصوصاً أهل دائرة الحق، من: العباد والزهّاد وأهل الطاعة والسداد ، ومفتاحُ إسقاط حرمتهم احتقارُ مامنحهم مولاهم وعدم الإعتبار بما مَنَّ به عليهم وأولاهم ، فلذلك قال :

اذا رأيت عبدا أقامه بوجود الاوراد وأدامه عليها مع طول الامداد فلا تستحقرن مامنحه مولاه لانك لم تر عليه سيماء العارفين ولا بهجة المحبين

قلت : معنى أقامه : استعمله مع الدوام وحصول الفوائد ، والأوراد ماترتب من العبادات فى الأوقات . والإمداد هنا : حصول المنافع والفوائد ، وطولها بكثرتها واتصالها . ومنحه : أعطاه عن تفضُّل وإكرام .

ولاشك أن من اتصلت أوراده وتواترت أوراده مخصوصٌ من مولاه بعناية ، وملحوظٌ برحمة ورعاية ، فيجب تعظيمه واحترامه، ويتعين توقيره وإكرامه ، ولا يُتحقَّر ماهو عليه لكونه قاصراً عن درجة أهل الكمال من العارفين والمحبين ؛ إذ لم تُر عليه سيماء الأوَّلين ، من :

---

(١) يبدو أن مابين القوسين من تعليقات بعض النساخ .

الاستسلام والرضاء والسكون عند جريان القضاء ، ومن حال أهل المحبّة وبهجتهم التي مقتضاها[١] شغلهم بمولاهم، وإعراضهم عن الوجود إذ تولاَّهم ، فإنَّ قصورهم عن ذلك لايخرجهم عن دائرة أهل الاختصاص حتى يحتقروا ويُحتقر ماهم عليه ، فقد قال أبو الحسن الشاذلي رضى الله عنه : (لو كشف عن نور المؤمن العاصي لطبَّق ما بين السماء والأرض فما ظنك بالمؤمن المطيع)

وقال أيضاً رضى الله عنه : « أكرم المؤمنين وإن كانوا عصاةً مذنبين ، وأَقم عليهم الحدود وأهجرهم رحمة بهم ،لاتقزُّزاً لهم ، ولاتقتد بمن يتورّع عما نالته أيدى المؤمنين ، ولا يتورع عما نالته أيدى المشركين فقد عُلم ما نال الحجر من أيدى المشركين ؛ فاسودّ لذلك » اهـ .

(وأشار بآخره لما روى انّ الحجر الأسود إنما تدلى إلى الأرض ياقوتة بيضاء وإنما سوّدته أيدى المشركين)[٢]

والمقصود أن من ظهر بالنسبة لجناب الله تعالى تاماً كان أو ناقصاً ، صادقاً كان أو كاذباً تعيّن تعظيمُه واحترامه ، ووجب توقيره وإكرامه على قدر حاله من غير احتقار ولا إهمال ، ولااقتداء ، إلاّ بمن صح عمله وورعُه ، ونفوذ بصيرته ؛ فإن الجناب عظيم ، والانتسابُ اليه لايكون إلابعناية منه ؛ إذ لايقدر أحد على هداية نفسه ، وهذا ما نبه عليه إذ قال:

(١) وفى التيمورية (اقتضاها)
(٢) الراجح أن ما بين الأقواس من شرح بعض الكتاب .

فلولا وارد ما كان ورد

قال : يقول فلولا وارد من الحق يقتضى تعظيم جنابه ما كان ورد يقتضى الوقوف ببابه ؛ إذ ما كان ظاهر ذكر إلاّ عن باطن شهود وفكر ؛ بل لولا وارد ما كان انتساب ، إنما ينتسب العبد للجناب ، بعد تحققه بعظمته على قدر حاله ، واعتبر هذا بقول الصحابة رضى الله عنهم حين كانوا يرتجزون فى الخندق :

والله لولا اللهُ ما اهتدينا ولا تصدَّقنا ولا صلّينا

وإنما هما إثنان : أهل هداية أو عناية ، وكلاهما فى منّة الحق وكرامته كما قال :

قوم اقامهم الحق لخدمته ، وقوم اختصهم بمحبته

قال : فالذين أقامهم لخدمته ثلاث :

العباد ، والزُّهاد ، وأهل الطاعة والسداد .

فالعباد : من يعمل بتحقيق العمل لقصد تحصيل الأمل .

والزاهد[1] : الفار من وجود الخلائق فى الظاهر لينفرد همّه لمولاه على الأوراد بالغدوّ والآصال .

والذين اختصهم بمحبته ثلاث :

---

(١) وفى نسخة الدار (والزهاد الفارون من الخلائق فى الظاهر لينفردوا هم لمولاهم على بساط الطلب وإرادة السلامة . والناسك : المتمسك بالفضائل المواظب على الأوراد بالغدو والآصال) .

المحبُّون ، والعارفون ، والواصلون .

فالمحبُّ من آثره على كل شيء .

والعارف : من شهده فى كل شيء .

والواصل : من يَغنى به عن كل شيء .

وهم أهل الإجتباء والاختصاص ، كما أن الذين من قبلهم أهل الهداية والإنابة . قال الله تعالى (يجتبى إليه من يشاء ويهدى اليه من ينيب)(١)

فالكلُّ فى دائرة الحق مستمدون من إحسانه وفضله ، كما أشار إليه المؤلف بالآية إذ قال :

كلا نمد هؤلاء وهؤلاء من عطاء ربك وما كان عطاء ربك محظورا(٢)

قلت : أشار بالآية إلى أن الكل من عطائه تعالى ؛ فيعطى من يشاء مايشاء بلا حَجْر ، ويمنع من يشاء مايشاء بلا علَّة ، فالكلُّ منه وإليه .

وإذا كان الأمر كذلك فلْتُراع نسبة إحسانه ، وظهور فضله وامتنانه فيمن ظهر عليه شيء من شواهد الإحسان، بحيث لا ينقص من حقه شيء وإن كان بعضهم فوق بعض فى ذلك .

ثم موقع الآية إنما هو فيمن أراد الآخرة أو الدنيا . لكن آخرها مشير للتفاضل فى درجات الآخرة . وعليه يجرى التوقيع المذكور هنا .

---

(١) آية ١٣ من سورة الشورى .
(٢) آية ٢٠ من سورة الاسراء .

إذ قال تعالى (وللآخرة أكبر درجات وأكبر تفضيلا)[1] فافهم الآية، وتدبَّرها حقَّ التدبُّر تُصب ما أشرنا إليه، وما هو إلا كما قال:

ارحم بنيَّ جميعَ الخلق كلهمُ — وانظر إليهم بعين اللطف والشفقة
وقِّر كبيرهم وارحم صغيرهم — وراع فى كل خلق حقَّ من خلقه

ومنى محظوراً: ممنوعاً. والمقصود: ليس عطاء الله بمحجور حتى يُقصر على من ظهر عليه، بل وربما يفتح منه على من بَعُد عنه فضلا عمن له نسبة فيه، والله أعلم.

تنبيه:

وأصل هذا الأمر كله ورودُ الواردات، وهى منح الهيّة لا تتوقف على علة، ولا سبب، ولا زمان، ولا عين، ولا أمد، ولا وقت ولا غيره كما نبَّه عليه المؤلف فى افتتاح:

---

(١) آية ٢١ من سورة الإسراء.

الباب الثامن

إذ قال : **وقال رضى الله عنه « قلما تـكون الواردات الالهية الا [بغتة »**

قلت : يقول قليلا ماتـكون الواردات التى هى التنزيلات العرفانية على القلوب الموجب[1] لتأثيرها بورودها من حيث قوتها وسطوتها ومعناها إلاّ بغتة ، أى : فجأة دون روّية ، ولا استعداد ، ولا توقيت ، وقد ترد على استعداد وهو أقلُّ من القليل ، بل يكاد يكون معدوماً ، نعم قد يُعرف ورودها بمقاماتها ومودتها[2] فى بعض الأوقات .

وقد سئل الشيخ أبو محمد عبد القادر الجيلانى[3] ، رضى الله عنه ، عن صفة الواردات الإلهية والطوارق الشيطانية ، فقال : « الوارد الإلهى لا يأتى باستدعاء ، ولا يذهب بسبب ، ولا يأتى على نمط واحد ، ولا فى وقت واحد . والطارق الشيطانىُّ بخلاف ذلك غالباً » انتهى .

---

(١) وفى نسخة « الموجهة » (٢) وفى نسخة ووجودها

(٣) هو : عبد القادر بن عبد الله الحسنى ، مؤسس الطريقة القادرية ، من كبار الزهاد والمتصوفين . ولد بجيلان (وراء طبرستان) سنة ٤٩١ هـ ١٠٩٨ م وانتقل إلى بغداد فاتصل بعلمائها ومتصوفيها ، وسمع منهم الفقه والحديث والأدب . ثم تصدر للتدريس والفتوى ببغداد سنة ٥٢٨ هـ . وللعالم الإنجليزى « مرجليوث » رسالة فى ترجمته نشرها ملحقة فى المجلة الآسيوية الإنجليزية وانظر كذلك فى ترجمته كتاب الإعلام للزركلى حـ ٢ ص ٥٥٤ .

ثم ذكر المؤلف وجها من وجوه الحكمة فى إتيان الوارد على ماذكر فقال :

صيانة لها عن أن يدعيها العباد بوجود الأستعداد

قلت : وإنما صانها عن ذلك لثلاثة أوجه :

أحدها : لأنها من بساط عزيز ، وما كان من عزيز لاينبغى أن يكون إلا عزيزاً .

الثانى : لئلا تكون مبتذلة فيبطل سرُّ الإختصاص، وهو الذى جاء من أجله[1]

الثالث : لتعظيم المنّة وتحقيق الشكر على الواجهها على قدرها ؛ فقد قيل : « إذا عمَّت النعم صُغِّرت وكُفرت ، وإذا خصَّت عُظِّمت وشُكرت » فتأمل ذلك وبالله التوفيق .

وسيأتى من كلام المؤلف «ستر أنوار السرائر بكثائف الظواهر إجلالاً لها أن تُبتذل بوجود الإظهار ، أو ينادى عليها بلسان الاشتهار» فانظره فى محله ، فإن له تعلقاً بما هنا . والله أعلم .

وإذا كانت حكمة الله فى الوارد ماذكر فحقٌّ العبد أن يجرى على حكم ذلك فيما ألقى إليه إعتبار بحكمة الله فيما ألقى إليه . وإن خالف ذلك فهو جاهل كما نبّه عليه المؤلف إذ قال :

---

(١) وفى التيمورية (وهو الذى جاءت على أصله) .

من رأيته مجيبا عن كل ما سئل وذاكرا كلما علم ، ومعبرا عن كل ماشهد فاستدل بذلك على وجود جهله .

قلت : وجهله من وجوه ثلاث :

أحدها : عدم اعتبار المراتب فى أنفسها ، فليس كلّ سائل يستحق الجواب ، ولا كل علم يُذكر لكل أحد ، ولا كلُّ مشهود يعبرّ عنه لكل شاهد ؛ فقد سُئل بعضهم عن مسألة فلم يُجب عنها ، فقال له السائل : أما علمتَ أنّ من كتَم علماً نافعاً أُلجم يوم القيامة بلجام من نار ؟! فقال العالم : ضع اللجام واذهب ، فإن جاء من يستحقه وكتمتُه عنه فليلجمنى . وقال علىّ كرّم الله وجهه : « حدّثوا الناس بما يعرفون أتريدون أن يكذب الله ورسوله » وقال الإمام أبو حامد الغزالى : «وقد يتضرر بالحقائق أقوام كما يتضرر الجُعل[1] بالورد والمسك» .

وقيل للجنيد ، رحمه الله ، يسألك الرجلان عن المسألة الواحدة فتجيب هذا بخلاف ما تجيب هذا ؟! فقال : الجواب على قدر السائل ، لا على قدر المسائل .

وقال بعض الحكماء : « زيادة العلم فى الرجل السوء كزيادة الماء فى أصول الحنظل كلما ازداد رِيّا ازداد مرارة » اهـ .

الثانى : تعذر الإحاطة فى الجواب بالعلم[2] ، وإضاعة العلم ببذله فى غير محله وقصور العبارة عن مدارك الشهود حتى ربما أدَّت العبارة خلاف

(١) الجعل بضم الجيم = حشرة (الخنفس) .
(٢) وفى نسخة : والعلم .

المقصود ومن ثمَّ كُفِّر جماعة من المحققين وبُدِّعوا وفُسِّقوا، ولا كَفروا ولا فَسقوا، ولا ابتدعوا. وفى الخبر « إن من العلم كهيئة المكنون لا يعلمه إلاّ العلماء بالله فإذا ذكروه أنكره أهل الغرَّة بالله، وأنشدوا فى ذلك :

يا رُبَّ جوهر علم لو أبوح به لقيل لى أنت ممن يَعبد الوَثنا
ولاستباح رجالٌ مسلمون دمى يروْن أقبحَ ما يأتونه حسنا

الثالث : أن المحالّ والأوقات مختلفة، فربّ مسأله يليق ذكرُها فى وقت دون وقت، وربّ علم خُوطب به فى محلّ دون آخر، وربّ مشهود صحَّ ذكرُه فى زمان دون زمان، ولناسٍ دون آخرين، فالجهل إذن لاختلاف النِسب والوجوه.

وقد اختلف المشايخ فى : هل لا يبذل علم إلاَّ لأهله؟ وهو قول الثورى، أو يُبذل لأهله وغير أهله، والعلم أحمى(١) جانباً عن أن يصل إلى غير أهله، وهو مذهب الجنيد؛ إذ قيل : « كم تنادى على الله بين يدى العامة؟ قال : لكنىِّ أنادى على العامة بين يدى الله » .

وقيل للثورى : ألا تُذكِّر أصحابك؟

فقال : إنهم فى حجاب القطيعة » أو كما قال .

والصواب التفصيل؛ فما كان من الوعظ والتذكير فللخاصة والعامة،

(١) وفى ت : (والعلم أحمى جنابا أن يصل إليه غير أهله) .

وما كان للبيان والتقرير فللخاصّ من المحبين ، فمن بَعدهم .

وما كان من الأحوال والمنازلات فللمريدين والسالكين[١] .

فكل مقامٍ مقالٌ ولكل عمل رجال ، وبالله التوفيق .

ثم الحامل على التعبير وما معه إنما هو حبُّ الاستظهار ، وهو من الميل للدنيا ، والميل للدنيا من الجهل بالآخرة ، وطلب الدنيا بالآخرة جهل ، إذ يقتضى عدم تعظيمها ، وذلك من الغفلة عن عظمة ما أعدّ الله[٢] فيها كمًّا وكيْفاً . وهذا أشار إليه المؤلف إذ قال :

أنما جعل الدار الآخرة محلا لجزاء عباده المؤمنين ، لأن هذه الدار لا تسع ما يريد أن يعطيهم ، لانه أجل أقدارهم عن أن يجازيهم فى دار لا بقاء لها.

قلت : ذكر هنا حكمتين فى تأخير جزاء المؤمنين للدار الآخرة :

أحداهما : اتساع عطائه وذلك فى الصفة والمقدار ، ودليله قوله عليه السلام ، يقول الله تعالى : « أعددت لعبادى الصالحين ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر[٣] ، ثم تلا قوله تعالى (فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرّة أعين جزاءً بما كانوا يعملون)[٤] .

---

(١) وفى التيمورية : (وما كان من الحقائق والمعارف فلأهل المعرفة والواصلين)

(٢) وفى التيمورية : (وذلك من الغفلة عن عظمة ما أعد الله سبحانه فيها لعباده المؤمنين مما لا يكيف)

(٣) حديث صحيح رواه الشيخان وغيرهما .

(٤) آية ١٧ من سورة السجدة

ومعناها فى كلّ وجه وفى كلّ معنى وفى كل نوع وفى كلّ جزء .
وكونه حاصلاً ببقائه لا يزول ولا يحول ؛ لأن الآتى قطعاً كالموجود فى الحال . وما كان مآله إلى الزوال فكأنه قد زال . وقد جاء فى الخبر : «لو كانت الدنيا من ذهب يفنى والآخرة من خزف يبقى لاختار العاقل الذى يبقى على الذى يفنى» فيرحم الله القائل :

فما الدنيا وزخرُفها بشىء ولا أيامها إلاّ عَـــوار
وليس بعاقل من يصطفيها أتشرى[1] الفوز، ويلك، بالتبار[2]؟!

ثم للجزاء مقدِّمة وهى وجدان الثمرة ، وذلك دليل القبول ، والجزاء على قدر القبول ، وهذا ما نبَّه عليه المؤلف إذ قال :

من وجد ثمرة عمله عاجلا فهو دليل على وجود القبول

قلت : ثمرة العمل : ما ينشأ عنه من الفوائد الدينية والدنيوية ، وذلك يدور على ثلاثة :

حصول البشارة بزوال الخوف والحزن لقوله تعالى (ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون الذين آمنوا وكانوا يتقون لهم البشرى فى الحياة وفى الآخرة)[3] والحياة الطيبة بالرضا والقناعة لقوله تعالى

---

(١) شرى بمعنى باع .
(٢) التبار = الهلاك .
(٣) آية ٦٢ من سورة يونس .

مَنْ عَمِلَ صَالِحاً مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَوٰةً طَيِّبَةً (١).

وظهور سرّ الخلافة بتسخير الكائنات وانفعالها ظاهراً وباطناً لقوله تعالى : ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا.. الآية﴾(٢) .

وفى الحديث الصحيح قول ذلك الصحابى : فمنّا من أينعت له ثمرتُه فهو يهديها ، ومنّا من مات لم يستوف من أجره شيئاً ، منهم مصعب بن عمير (٣) رضى الله عنهم أجمعين .

ومن طيب الحياة حلاوةُ الطاعة ، فمن ثمّ يصح كونها ثمرة ، لا من حيث ذاتُها ، فتدبّر ذلك ، وبالله التوفيق .

وإنما كانت الثمره دليل القبول ، لأن الكريم إذا أعطى ظاهراً كمّل باطناً ، وإذا وعَدَ أمراً قوَّى اليقين فيه بمبشراته ، ولذلك أشار المصنف إذ قال :

---

(١) آيه ٩٧ من سورة النحل .

(٢) آية ٥٥ من سورة النور .

(٣) هو : مصعب بن عمير بن هاشم بن عبد مناف صحابى من السابقين إلى الإسلام . أسلم فى مكة وكتم إسلامه فعلم به أهله فأوثقوه وحبسوه فهرب مع من هاجر إلى الحبشة ثم رجع إلى مكة ، وهاجر إلى المدينة وشهد بدراً وحمل اللواء يوم أحد فاستشهد ، وكان فى الجاهلية فتى مكة شباباً وجمالا ونعمة ، ولما أسلم زهد بالنعيم وكان يلقب « مصعب الخير » انظر ترجمته فى طبقات ابن سعد ، والإصابة ، والأعلام .

ان أردت أن تعرف قدرك عنده فانظر فى ماذا يقيمك .

قلت : لأن المنازل على قدر مراتب النازل ، فإن وجّهك للدنيا فقد أهانك ، وإن أشغلك بالخلق عنه فقد صرفك ، وإن وجّهك للعمل فقد أعانك ، وإن فتح لك باب العلم فقد أرادك..

وإن فتح لك باباً إلى مناجاته فقد قرّبك .

وإن واجهك بالبلاء فقد هداك .

وإن صرفك عن الأغراض فقد أدّبك .

وإن رضيتَ به ورضيتَ عنه فقد فتح لك باب الرضى عنه ، وهو أعظم الأبواب وأتمّها وأكملها ، فقد قال عبد الواحد بن زيد ، رضى الله عنه :

« الرضا باب الله الأعظم، ومستراح[1] العابدين، وجنّة الدنيا » ،

وفى الخبر يقول الله تعالى : « أنا الله لا إله إلا أنا خلقت الخير والشر فطوبَى لمن خلقته للخير وأجريت الخير على يديه ، وويل لمن خلقته للشر وأجريت الشرّ على يديه » .

وفى خبر عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال : « من أراد أن يعلم ماله

---

(١) وفى نسخة (وسراج).

عند الله فلينظر مالله عنده(١) فإن الله ينزلُ العبدَ حيث ينزله العبدُ من نفسه » .

وقال الفضيل بن عياض (٢) ، رضى الله عنه : « إنما يطيع العبد ربّه على قدر منزلته منه » انتهى .

وأكبر المنازل كلّها التعلّق بأوصافه مع التحقق بأوصافك، بل أكبر الكرامات أن تكون فى الظاهر ممتثلاً لأمره، وفى الباطن مستسلماً لقهره.

وإن شئت قلت : الصدق فى العبودية ، والقيام بحقوق الربوبية ، وإن شئت قلت : الطاعة والغنى به عنها ، فهذه العبارات كلها ترجع لمعنى واحد عبّر عنه بها ، وقد نبّه عليه المؤلف بالعبارة الأخيرة إذ قال :

متى رزقك الطاعة والغنى به فاعلم أنه قد أسبغ عليك نعمه ظاهرة وباطنة .

قلت : وصورة ذلك أن تعمل(٣) بأمر الله ، لا لشىء ، وترجو من الله خير الدنيا والآخرة لا بشىء ، فتكون له به لا لعلّة ولا بسبب،

(١) رواه الدار قطنى فى الإفراد عن أنس ، ورواه أبو نعيم فى الحلية ، وفى معناه الحديث الذى يقول الله تعالى فيه : أنا عند ظن عبدى بى إن خيراً فخير ، وإن شراً فشر . وقد رواه الطبرانى فى الأوسط وأبو نعيم فى الحلية .

(٢) هو : أبو على الفضيل بن عياض بن مسعود التميمى ، من أكابر العباد الصلحاء . كان ثقة فى الحديث أخذ عنه كثيرون منهم الإمام الشافعى : أصله من الكوفة ، ومولده بسمرقند سنة ١٠٥ هـ سنة ٧٢٣ م وسكن مكة وتوفى بها سنة ١٨٧ هـ سنة ٨٠٣ م ،

[انظر ترجمته فى الكتب الآتية: طبقات الصوفية ـ تذكرة الحفاظ ـ الإعلام ـ الرسالة القشيرية]

(٣) وفى التيمورية :(وصورة ذلك أن تعمل بأمر الله سبحانه لا لشىء ترجوه من الله من خير الدنيا والآخرة ، ولا بسبب شىء فتكون له به ..)

ومعنى: أسبغ = أكمل وأتمّ. والظاهرة = الجلية، والباطنة = الخفيّة.
والمقصود أن أتمّ النعم وأكملها وأعلاها وأفضلها القيام بالعبودية في عين مشاهدة الربوبية. وإن شئت قلت: إقامة الشريعة مع موافقة الحقيقة؛ لأن به تقع الراحة والموافقة والكمال والتحقيق والتبرّي مما سواه تعالى، فيزول البؤس والسَّغَب، ويتحصّل المراد والطلب، وهي الرحمة الكبرى والنعمة العظمى، والفائدة التامّة، فقد قيل: النعمة العظمى الخروج من النفس.

وقيل: «النعمة ما وصلك بالحقائق وقطعك عن الخلائق،

النعمة ما أسلاك عن دنياك وأدناك من مولاك،

النعمة ما لا يوجب ندماً ولا يُعقب ألماً» اهـ.

وصورة ما ذكره أن يعمل لله لا لشيء ويطلب من الله لا بشيء، فهو غني به عن طاعته فيما يريده من ثواب وغيره مع تلبّسه بالطاعة.

رزقنا الله ذلك، وحققنا به بمنّه وكرمه.

تنبيه:

نعمة الله بالطاعة، والغنى به عنها هي مطلوبه من عباده.

وخير المطالب ما هو مطلوب منه، وهو ما ذكر من الطاعة والغنى به، وهذا ما نبّه عليه المؤلف في افتتاح:

الباب التاسع

إذ قال :

وقال رضى الله عنه : خير ما تطلبه منه ما هو طالبه منك .

قلت : وذلك لأنه مختاره لك ، وهو العالم بمصالحك ، والقادر على توصيلها إليك ، وأولى ما نرجع به إلى الله ما جاءنا عن الله .

والذى هو طالبه منك ثلاث :

التخلّى عن كل شىء إلاّ عنه .

والتحلّى بما يرضيه عنك ويردّك إليه .

والدوام على ذلك حتى تلقاه بلا فترة ولا تقصير .

ويعبّر عن ذلك بإحدى عبارات ثلاث :

الطاعة والغنى به عنها ، والصدق فى العبودية ، والقيام بحقوق الربوبية، وامتثال لأمره، والإستسلام لقهره، وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن الله لا يسأل الخلق عن ذاته وصفاته ، ولا عن قضائه وقدره ، ولكن عن أمره ونهيه » فاطلب ربّك من حيث يطلبك . انتهى . وذكره فى « لطائف المنن » . ثم من مقتضيات طلب الطاعة ، والانبعاث إليها وجود الحزن على فقدانها وذلك غير مفيد ما لم يوجب النهوض إليها حسبما نبّه عليه المؤلف إذ قال :

الحزن على فقدان الطاعة مع عدم النهوض اليها من علامات الاغترار .

قلت : الحزن : انقباض القلب لفوت محبوب أو خوف حصول مكروه، فيهيّجه حسرة خوف الفوات، أو وجود الفوات، وهو عذاب حاضر ونكد حاصل ، لا فائدة له إلاّ التلهف على السالف ، والتشمير فى المستأنف ، فإن أفاد ذلك عملاً أو نهوضاً لاستدراك الممكن منه كان حسناً جميلاً ، وإلاّ فليس بشىء ، بل هو زيادة فى الإغترار ؛ لاعتماد صاحبه فى باب التوجّه والتذكير بالرجعى إلى الله تعالى ، وقد يزداد صاحبُه جرأة ورؤية لنفسه فيكون سبباً لطرده من حيث يراه سبب قُربه .

وقد سمعت شيخنا أبا عبد الله القودرى رحمه الله يقول : « رأيت فى حديث عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال : إذا استكمل الرجُل النفاقَ ملك عينيه يُرسلهما متى شاء » .

وقال أبو سليمان الدارانى رضى الله عنه : « ليس البكاء بتعصير العيون ، إنما البكاء أن تترك الأمر الذى تبكى عليه » انتهى .

وبالجملة ، فكل شىء لا حقيقة له فالإعتداد به غرور ، والحزن بلا نهوض : من ذلك[1] » والله أعلم .

ثم باعث الحزن : ما يجرى فى الفؤاد من إشارة القلب لجلال الحق سبحانه حتى يقع فيه خوف أو حياء أو رؤية نقص فى العبودية

(١) أى : من هذا النمط من الغرور .

ونحوها ، وذلك كلّه من ملاحظة أوصاف العبد فهذا وإن كان كمالاً فليس بأكمل .

وهذا ما نبّه عليه المؤلف إذ قال :

ما العارف : من اذا أشار وجد الحق أقرب اليه من اشارته .

قلت : يقول : ليس العارف الحقيقي أو الكامل ، من إذا أشار ضميرُه لمعنًى من الحقيقة ، أو اسم من أسماء الحق ، أو صفة من صفاته ، وجد قلبه وضميره لربّه دون ما أشار إليه في قلبه بحيث لم يحسّ بعلم ما وقعت به الإشارة ولا بمعناه ، بل ذكر الله به من حيث ما أشار إليه في قلبه ذكراً نسي به ذكره ومذكورَه لاستغراقه فيه ؛ لأن ذلك إنما سرى له من تعلّق الإشارة بمعنًى إليه مرجعه ، فهو باقٍ في إشارته ، وغاية معرفته ما أشار إليه ضميره وهو راجع إليه فإشارته عائدة عليه ، وإذا كان كذلك ، فإنما عرف وصف نفسه ، فليس بعارف على الحقيقة وإن كان له حظ من المعرفة ؛ ولذلك قيل : « الإشارة نداء على رأس العبد بالعبد ، وبوح بعين العلّة » .

وقد قال الشبلي[1] رضي الله عنه : « كل إشارة أشار بها الخلق

---

(١) هو : أبو بكر دلف بن جحدر الشبلي ، عالم عابد ناسك كان في مبدأ أمره والياً في (دنباوند) ثم ترك الولاية وعكف على العبادة واشتهر بالتقوى والظرف والصلاح له شعر صوفي جيد . أصله من « خراسان » ومولده ووفاته ببغداد ولد سنة ٢٤٧ هـ سنة ٨٦١ م وتوفي سنة ٣٣٤ هـ ٩٤٦ م

إلى الحق فهى مردودة عليهم ، حتى يشيروا بالحق إلى الحق ، وليس لهم إلى ذلك سبيل » وقال أبو على الروذ باری[1] رضى الله عنه : «الإشارة تصحبها العلل ، والعلل بعيدة من عين عين الحقائق» انتهى .

ثم بين المؤلف شأن العارف الحقيقى فى بساط الإشارة بأن قال :

بل العارف من لا اشارة له

قلت : يعنى لا إشارة له أصلا لا لجمال ولا لجلال ، ولكنه موقوف فى موقف الفناء بالحق عن كل ملاحظة وإشارة وتنبيه ومعنًى ، كما نبَّه عليه المؤلف إذ قال :

لفنائه فى وجوده وانطوائه فى شهوده .

قلت : فسقوط إشارته فى حاله لكمال فنائه بشهود الكمال ، لا لنقصه وقصوره عن مدارك الجمال والجلال ، فهو فانٍ فى وجوده عن وجوده ، وفى شهوده عن شهوده [بموجوده بل بمشهوده][2] ويظهر ذلك فى حركات الجميع ، فأما الفانى فكما حكى أن بعضهم خرج فى بعض غيباته فأخذه الكفار فلم يستفق إلاَّ والدَّلالُ يقول : من يزيد ؟

فرفع رأسه إلى السماء وقال :

أقامنى حُبُّك فيمن يزيد   فى موقف الذل وقهر العبيد

---

(١) هو : أبو على أحمد بن محمد الروذبارى . ترجم له صاحب الرسالة القشيرية فقال : بغدادى المولد أقام بمصر ومات بها سنة : ٣٢٢ هـ صحب الجنيد والنورى . وكان أظرف المشايخ وأعلمهم بالطريقة .

(٢) ما بين القوسين زائد فى بعض النسخ .

وقد حضر البائع والمشترى عبدك موقوف فماذا تريد ؟

وكما اتفق فى حكاية « حاتم الأصم[1] » رضى الله عنه ، إذ أخذه تركىٌّ ليذبحه ، فأتى مُسلم ، فضرب التركىَّ فقتله ، فقيل له : كيف كان قلبك إذ ذاك ؟ قال : كنت أنظر مايحكم الله بينى وبينه .

ففى هاتين الحكايتين عدم التمييز عند مواجهة الحكم ، ولو أشار الضمير للجمال لقال : كنت أرجو الله أن يخلصنى من ذلك أو أراه نعمة قابلة فى الحال ، ولو أشار للجلال لقال : كنت أرى ذلك من ذنوبى أو أنتظر ماهو أعظم منه . والله أعلم .

ثم لما كانت الإشارة واسطة بين الرجاء والخوف إذ تفيد كلاً منهما ، جعلها المؤلف واسطة فذكر الخوف قبلها والرجاء بعدها فقال :

الرجاء ماقارنه عمل .

قلت : يعنى عملا فى سبب تحصيل المرجوِّ لأجل تحصيله ،وقد عبّر عنه بعض الفقهاء بقوله : « تعلّق القلب بمطموع يحصل فى المستقبل مع الأخذ فى العمل المحصِّل له » وأقرب منه أن يقال : « طمع يصحبه عمل فى سبب المطموع فيه لأجل تحصيله »

والمقصود أن الرجاء بلا عمل لايصح كونه رجاء بل هو أمنية كما قال:

---

(١) هو : أبو عبد الرحمن حاتم بن علوان ، ويقال له : حاتم بن يوسف الأصم ، من أكابر مشايخ خراسان ، وكان تلميذ « شقيق » واستاذ « أحمد بن خضرويه » .

والا فهو أمنية .

قلت : يعنى وإن لم يقارنه عمل فهو أمنية ، أى : تمنى ، لاحقيقة له .

ولقد رأيت ليلةً شيخنا الفقيه أبا عبدالله العودى ، رضى الله عنه ، فى المنام وكنت أقرأ عليه هذه الحكمة فكلما قلت أمنيَة ، قال أو مَنيَّه . فلما انتبهت تأملت فاذا الأمنية عين المنية من حيث إنها توصل إليه ، لأن تحصيل المنية إعدام للحياة ، والأمنية كذلك ، والمنيَّة إعدامٌ حسىٌ والأمنية إعدام معنوى .

وكذلك قال الحسن رضى الله عنه : «يأيها الناس اتقوا هذه الأمانى فانها أودية النوكى[1] فيحلُّون فيها ، فوالله ما أتى الله عبداً بأمنية خيراً فى الدنيا ولا فى الآخرة » . وقال معروف الكرخى[2] رضى الله عنه: « طلب الجنة بلا عمل ذنبٌ من الذنوب ، وارتجاء الشفاعة بلا عمل[3] نوع من الغرور ، وارتجاء الله مع المعاصى حمق وجهل». وقال الحسن أيضا: «إن قوماً ألهتهم أمانىُّ المغفرة حتى لقوا الله وليست لهم حسنة ، يقول أحدهم أُحسن الظنَّ بربّى ، وكذب ، لو أحسن الظن بربّه لأحسن العمل

---

(١) وفى التيمورية « أودية الشياطين » والنوكى أى: الحمقى .

(٢) هو : أبو محفوظ معروف بن فيروز الكرخى أحد أعلام الزهاد والمتصوفين ، ولد فى قرية « كرخ » ببغداد وتوفى ببغداد سنة ٢٠٠ هـ [سنة ٨١٥ م] واشتهر بالصلاح والعلم والتقوى قال الامام الغزالى « كان احمد بن حنبل وابن معين يختلفان ويسألانه ولم يكن فى علم الظاهر مثلهما » .

(٣) وفى االتيمورية (بلا اتباع السنة) .

له ، وتلا قول الله تعالى (وذلكم ظنكم الذى ظننتم بربكم أرداكم فأصبحتم من الخاسرين)[1] انتهى .

وفى آخره بحث يطول ذكره .

ثم لما فرغ المؤلف من ذكر بواعث الطلب ذكر عين المطلوب مقروناً بخبر الطالبين فقال :

مطلب العارفين من الله الصدق فى العبودية والقيام بحقوق الربوبية .

قلت : لأن ذلك هو المطلوب منهم ، فهم طالبون منه ما هو طالبه منهم .

والصدق فى العبودية بالتزام أحكامها فى كل ورد وصدر هو عين القيام بحقوق الربوبية. ومداره فى أمور ثلاث :

التشمير للحقوق ، والإعراض عن كل مخلوق ، والإستسلام تحت جريان المقادير والأحكام . وقد يعبّر عنه بامتثال أمره والإستسلام لقهره .

أو يعبّر عنه بالطاعة والغناء به عنها ، فكل صحيح واضح مليح ، والله أعلم .

ثم مما يعرض للعارف وغيره فى طلبه بسبب مطلوبه ، أو دونه .

---

(١) آية ٢٣ من سورة فصلت .

وجودُ القبض والبسط ، وهما حالان للقلب يردان عليه توقّع أو واقع، فائدة وورودهما أبق للعبد بعد فنائه ، وفناؤه بعد بقائه ، وهذا ما نبَّه عليه المؤلف إذ قال :

قبضك حيث لا يبقيك مع البسط ، وبسطك بحيث لا يتركك مع القبض وأخرجك عنهما كى لا تكون لشىء دونه

قلت : القبض والبسط وصفان وجوديان يتعاقبان على القلب ، فيكون تارة بهذا وتاره بهذا ، وتارة فى موقف الإعتدال .

وما جعل الحقُّ ذلك إلا ليعرفَ العبدُ أنه فى قبضة مولاه، ليس له من الأمر شىء ، فينقطع عن نفسه وعن كل شىء سوى ربّه ؛ إذ ليس من مراد العبد دخول القبض عليه ولا مفارقة البسط له ، فإذا تحقّق عدمَ دوام ما يحبّه وثبوتَ ما لا يريده لم يسكن لشىء من وجوده، ولم يعتدّ بوجوده . وتأثير ذلك بالأمور الملابسة له أقوى من تأثيره بالأمور البعيدة عنه أو المنفصلة .

وهذا ما أشار إليه الجنيد رضى الله عنه ، حيث يقول : «الخوف يقبضنى والرجاء يبسطنى ، والحقيقة تجمعنى ، والحق يفرقنى، إذا قبضنى بالخوف أفنانى عنّى ، وإذا بسطنى بالرجاء ردّنى علىّ ، وإذا جمعنى بالحقيقة أحضرنى معه، وإذا فرّقنى بالحق أشهدنى غيره فغطانى عنه، فهو فى كلِّ ذلك محرِّكى غير مسكنى ، ومُوحشى غير مؤنسى ، فحضورى

لذوق طعم وجودى،فليته أفنانى عنى فتى نى أو غيبنى عنى فروحنى»[١].

وقال فارس رحمه الله ، : « القبض أولاً ، ثم البسط ، ثم لا قبض ولا بسط؛ لأنَّ القبض والبسط إنما يتعاقبان في الوجود، فأما الفناء والبقاء فلا » انتهى .

يريد - والله أعلم - أن الله يربّى المريدين فى بداياتهم بغلبة القبض عليهم حتى يفْنَوا عن أنفسهم، ويذهلوا عن حظوظها، ثم يردّهم عليه بالبسط حتى يأنسوا به ، وبما منّه من منّة فيما توجهوا إليه، حتى لا يمكنهم نزوع عنها ، ثم ينتفيان عنهم ؛ ليتفرغوا لوظائف العبودية دون علّة نفسانية ولا غيرهما ، فيكونون له به ، لا لشىء من نفوسهم ولا بشىء منها . وهذا مراد الشيخ أو قريباً منه . وبالله التوفيق .

ثم إن أحوال الناس فى تلقّى القبض والبسط مختلفة على قدر قواهم وما واجههم من العرفان والتحقيق ، وهذا ما أشار إليه المؤلف إذ قال :

العارفون اذا بسطوا أخوف منهم اذا قبضوا

قلت : حقيقة المعرفة تقتضى العارف قصرَ نظره على مولاه واعتباره بأوصافه مما به تولاه ، فإذا واجهه بجمال ذكر جلاله، وإذا واجهه بجلال ذكر كماله ، لأنه لا ييأس من الله فى شىء ولا يأمن منه فى شىء ، لأنَّ ظواهر الأخبار لا تقضى على باطن الصفات ، فلا يأمن مكر الله إلا

(١) وفى التيمورية (أو غيبنى عنى فرجعنى)

القوم الخاسرون ، ومن يقنط من رحمة ربه إلا الضالون ، فهم إذا عاينوا صورةَأمنٍ خافوا المكروه[١] ، وإذا رأوا صورة خوف رجوا الفضل.

قال الشيخ أبو العباس المرسى رضى الله عنه : «العامة إذا خُوِّفوا خافوا ، وإذا رُجوا رَجَوْا ، والعارفون إذا خُوِّفوا رَجَوا وإذا رُجّوا خافوا » انتهى .

وقد يفهم ذلك من حديث الغار وحديث بدر ؛ إذ قال أبو بكر فى الأول : يارسول الله ، لو نظروا إلى أقدامهم لرأونا ، فقال عليه الصلاة والسلام : لاتحزن إن الله معنا » .

وكان عليه الصلاة والسلام يوم بدر يقول : « اللهم إن تَهلك هذه العصابةلن تُعبد . فيقول أبو بكر : دع مناشدتك ربَّك ؛ فإنه قد وعدنا بالنصر » .

فكان أبو بكر فى مقام الثقة بوعد الله ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم فى موقف النظر ؛ لاتساع علم الله ، وهو أتمّ ، مع أن كلًّ كمال بحسب ما ظهر فيه ، فاعرف ذلك . وبالله التوفيق .

ومن موجبات الخوف ما يتضمنه البسط من الزلل وعدم الوقوف عند الحدّ ، وهذا ما أشار إليه إذ قال :

---

(١) وفى التيمورية (اذا عاينوا صورة خوف رجوا الفضل واذا عاينوا صورة أمن خافوا العدل)

ولا يقف على حدود الادب فى البسط الا القليل .

قلت : وذلك لأن البسط يوجب انتشار الحرارة فى البدن فيستدعى استرسال النفس مع ما يلائمها ، وذلك يتضمن سوء الأدب فى الحركات والتصرفات ؛ إذ لا يمكن معه حفظ الحرمة لوجود الطيش الباعث على الحركة من غير اختيار ، فلا يقف على حدّ الأدب مع ما ذُكر إلاَّ ما كان متمكن النفس فى الأدب متحققا بحقائق حفظ الحرمة ، قد غُمِس قلبه فى بحر الهيبة ؛ ولذلك قيل : « قف على البساط وإياك والانبساط » .

وقال رجل لأبى محمد الجريرى(١) رحمه الله : « كنت على بساط الأنس وفتح علىَّ طريق البسط فزللت زلة ، فحُجبت عن مقامى ، فكيف السبيل إليه ، دلنى على الوصول إلى ما كنت عليه ؟! .

فبكى أبو محمد وقال : يا أخى الكل فى قبضة هذه اللحظة، لكنىّ أنشدك أبياتاً لبعضهم ، وأنشد يقول :

قف بالديار فهذه آثارهم تبكى الأحبَّةَ حسرة وتشوُّقاَ
كم قد وقفت بربعها مستخبِراً أو سائلا عن أهلها أومشفقاَ
فأجابنى داعى الهوى فى رسمها فارقتَ من تهوىَ فعز المُلْتَقَى

وسئل بعض المشايخ عن تلك الزلَّة فقال : « انبساط مع الحق من

---

(١) أبو محمد أحمد بن محمد بن الحسين الجريرى من كبار أصحاب الجنيد وأقعد بعد الجنيد فى مكانه . مات سنة ٣١١ هـ .

غير أدب » . انتهى .

ثم ذكر الشيخ بعض علة كونه موجباً لإساءة الأدب فى غالب الأحوال فقال :

البسط تأخذ النفس منه حظها بوجود الفرح والقبض لاحظ للنفس فيه .

قلت : وموقف الحظوظ مناف للقيام بالحقوق فيما يتضمنه من الورع والاسترسال ، بخلاف محل فقدها . قال فى « لطائف المنن » : « البسط : مزلّة أقدام الرجال ؛ فهو موجب لمزيد حذرهم وكثرة لجائهم . والقبض أقرب لوجود السلامة ؛ لأنه وطن العبد ؛ إذ هو فى أسر قبضة الله تعالى ، وإحاطة الحق محيطة به ، ومن أين يكون للعبد البسط وليس هو شأنه[1] .

والبسطُ خروج عن حكم وقته ، والقبض هو اللائق بهذه الدار ؛ إذ هى وطن التكليف وإبهامِ الخاتمة ، وعدم العلم بالسابقة والمطالبة بحقوق الله تعالى » انتهى .

وقد قالوا : إن القبض للأرواح ، والبسط للارتياح ، والقبض حق الحقّ منك ، والبسط حَظُّك منه ، ولأن تكون بحق ربّك أوْلى من أن تكون بحظّ نفسك .

ثم أسباب القبض والبسط راجعة لعطاءٍ أو منع ، وهما لا يتحققان

---

(١) وفى نسخة (وهذا شأنه)

فى صورها ، فوجب أن تراعى الحقائقُ وينكَّب عن صور الأمور كما أشار إليه المؤلف إذ قال :

ربما أعطاك فمنعك وربما منعك فأعطاك .

قلت : إذا كان الأمر كذلك فكن خائفاً راجياً فى عطائه ومنعه ، راجعاً باللجاء والافتقار اليه فيهما ، غير مطمئن بشىء منهما ، إذقد يكون فى طيّه خلافُ ماظهرت به صورته ، وقد أشار سبحانه وتعالى إلى ذلك بقوله الكريم (فَأَمَّا ٱلإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَكْرَمَنِ وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَهَٰنَنِ كَلَّا[1]) أى : ليس الأمر كذلك ، بل قد يكون المنع عطاء[2] ، والعطاء إهانة ، أو على مقتضى صورته ، فلا تفرح بشىء ولا تحزن عليه من حيث وجوده . فافهم .

ثم المنع فى العطاء بأن يكون صارفاً عن الله ومشغلا عنه كما قيل :

ماشغلك عن الله من أهل ، ومال ، وولد ، فهو عليك مشئوم .

فأمّا صورة العطاء فى المنع فتأولها المؤلف بأن قال :

متى فتح لك باب الفهم فى المنع عاد المنع وهو عين العطاء .

قلت : لأنه يردُّك إلى مولاك ، ويصلك به من جهة ما به تولاّك ،

---

(١) آية ١٦ من سورة الفجر .
(٢) وفى نسخة (بل قد يكون المنع إكراماً)

والنعمة ماوصلك بالحقائق وقطعك عن الخلائق . وسيأتى مزيد بيان عند قوله بعد ذلك : متى أعطاك أشهدك برّه ، ومتى منعك أشهدك قهره .

ومن مقتضيات الفهم عن الله وجود الرضا عنه سبحانه وتعالى ؛ لأن الرضا عن الله جنّة معجلة وحالة حسنة ، ومفتاحُ كل خيرٍ وبر . قال عبد الواحد بن زيد رضى الله عنه : « الرضا باب الله الأعظم ، ومستراح العابدين ، وجنة الدنيا » .

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم (المؤمن بكل خيرٍ على كل حال ؛ إذ نفسه تنزع من بين جنبيه وهو يحمد الله . . . الحديث) .

وقد عدّ المؤلف فى «التنوير» وجوه الفهم ، وأنهاها إلى عشرة ، ثم بيّن جميعها بما هو متأكد على كل مُريد صادق . وبالله التوفيق .

ومن وجوه المنع فى العطاء والعطاء فى المنع ما ذكر المؤلف بأن قال :

الاكوان ظاهرها غرة وباطنها عبرة .

قلت : فمن نظر إلى ظاهرها أسرّته ومن نظر إلى باطنها هدته[1] ، وإن اشتغل بها صرفته ، وإن اطمأن إليها صرعته ، وإن أعرض عنها فاتحته بما فيها ، فالعاقل ينبسط بإدبارها أكثر من إقبالها ، ويتحرز

---

(١) وفى نسخة : (غمته)

من إقبالها أشدَّ من إدبارها ، وكذلك كان السلفُ رضى الله عنهم إذا أقبلت الدنيا عليهم قالوا : ذنبٌ عجلت عقوبته ، وإذا أقبل الفقر قالوا : مرحباً بشعار الصالحين . وهذا رسول الله صلى الله عليه وسلم المعصوم من كل آفة وهفوةٍ قد عُرضت عليه مفاتيح خزائن الأرض فأَبى إلاّ أن يجوع يوماً ويشبع يوماً . ولما سألته ابنته وقرّة عينه فاطمة ، رضى الله عنها ، خادماً لما وجدته من الألم عند طحن الرَّحى دَلَّها على ذكر الله مولاها عند نومها قائلاً :

ألَّا أَدُلك على ما هو خير لك من خادم ؛ إذا آويتما إلى فراشكما فسبّحا ثلاثاً وثلاثين ، وكبِّرا ثلاثاً وثلاثين ، وأحمدا أربعاً وثلاثين ، وذلك خير لكما من الخادم . . الحديث) .

كلُّ ذلك فراراً من زينة الدنيا وغِرَّتها ، ورجوعاً إلى مادلَّ عليه وجود عِبْرتها ، أليست بدار فناء وزوال ومحل نقص وارتحال ؟!! لكن العبد مبتلىً بنفسه ، معلقاً بأسباب معاشه ورياشه ، فوجب أن يتناول على قدر حاجته ، والنظر إلى ما وراء ذلك إنما هو من نفسه الخبيثة وإن لم ينظر فالنلبة وارد الحقيقة عليه كما قال :

فالنفس تنظر الى ظاهر غرتها ، والقلب ينظر الى باطن عبرتها .

قلت : فإذا نَظرتْ إليها النفس وقع البسط والقبض بإقبالها وإدبارها ، وإذا نظر إليها القلب وقع البسط والقبض على حسب ما كوشف من حالها ، ومن أجل ذلك قال بعضهم : « تركت الدنيا

لسرعة فنائها ، وقلة غنائها ، وكثرة عنائها وخسة شركائها » .

وقال بعض العلماء : « ماسطع لى زينة من زخرف الدنيا إلا كُشف لى باطنه، فظهر عندى عزوف عنها » .

قال الشيخ أبو طالب المكى رضى الله عنه : « فهذه عناية من الله لمن والاه من أوليائه المقربين ؛ فمن شهد الدنيا بأول أوصافها لم يعتبر بآخره ، ومن عرفها بباطن حقيقتها لم يعجب بظاهرها(١) ، ومن كوشف بعاقبتها لم يستهوه زخرفها » .

وكان عيسى عليه السلام يقول : ويلكم علماء السوء ، مثلكم مثل قناة خَبَث ، ظاهرها جِص ، وباطنها نَتَن » .

وقد أمر الله تعالى نبيه عليه السلام بترك النظر إلى الدنيا ؛ فقال عز وعلا وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ . . . الآية)(٢)

ففى هذه الآية : أن الدنيا فتنة والنظر إليها مذموم ، وإن لم يكن حراماً علينا ، لأن فيه عليه السلام أسوة لنا ، كما لنا أسوة به صلى الله عليه وسلم . ومن وجوه العبرة رؤية الفناء ، كما أن من الغرة رؤية النظر اا

---

(١) وفى نسخة (لم يسر بعاجلها) .
(٢) آيه ١٢١ من سورة طه .

يحصل بها من العز والغنى(١) ، وعلى ذلك نبه المؤلف إذ قال :

ان أردت ان يكون لك عز لا يفنى فلا تستعزن بعز يفنى .

قلت : وكلّ عزٍّ في الدنيا فانٍ ؛ لأنه إنما يكون بأسبابها وهي فانية ، وما ترتب على الفاني زال بزواله ، قال في «التنوير» : فإن اعتززت بالله دام عزك ، وإن اعتززت بغير الله فلا بقاء لعزك ، إذ لا بقاء لمن أنتَ به متعزز » .

قال وأنشد بعض الفضلاء لنفسه :

اجعل بربك شأن عزك يستقر ويثبتُ
فإن اعتززت بمن يموت ، فإن عزك ميّتُ

قال : ودخل إنسان من العارفين على رجل يبكي . فقال : ماشأنك؟

قال : مات أستاذي ! !

فقال ذلك العارف : ولِمَ جعلت أستاذك من يموت ؟ ! ويقال لك إذا اعتززت بغير الله فقدته ، أو استندت إلى غيره عدمته ، « وَٱنظُرْ إِلَىٰ إِلَـٰهِكَ ٱلَّذِى ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا لَّنُحَرِّقَنَّهُۥ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُۥ فِى ٱلْيَمِّ نَسْفًا إِنَّمَآ إِلَـٰهُكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ وَسِعَ كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا(٢) » انتهى .

---

(١) وفي نسخة الدار (وأن النظر إليها مذموم - وإن لم يكن حراما علينا - لأن فيه أسوة لنا به عليه السلام . من وجوه العبرة برؤية الفناء كما أنه من وجوه الغرة النظر لما يحصل بها من العز والغنى) .

(٢) آية ٩٧ من سورة طه .

وكلام المؤلف هنا مثل قوله بعدُ [إن أردت أن لا يعزلك[1] فلا تتول ولاية لا تدوم لك] ـ مشربهما واحد ، ومدارهما على أن القبض والبسط بإدبار الدنيا وإقبالها ليس بشيء ، ومن وجوه ما يقع به العزُّ ويحصل به البسط بوجوده والقبض بزواله الخوارقُ والكراماتُ التي من أكبرها طيُّ الأرض ؛ فلذلك خصَّها المؤلف بالتنبيه فقال :

الطي الحقيقي أن تطوى مسافة الدنيا عنك حتى ترى الاخرة أقرب اليك منك .

قلت : يقول ظاهر الطيِّ من الفعل والكرامة كطيّ الأيام بلا طعام ولا شراب ، أو طيِّ الأرض بحيث يقطعها دون مشى ولا تعب فى أقرب مدة ، كلاهما لا عبرة به إنما هو رسمى خارج .

وإنما الطيُّ الحقيقى طيُّ الدنيا بالزهد ، كما قال بعضهم فى قوله عليه السلام » : «الدنيا خطوة مؤمن» أى : أنه يتخطاها بالزهد ، وكقول بشر رضى الله عنه : « من دخل طريقتنا يومين فقد حاز ملك الدارين ». قيل : لأنه يترك فى الأول الدنيا ، وفى الثانى التعلق بالآخرة ، وفى الثالث يكون لربّه بلا علّة » .

وقد قال الشيخ أبو العباس المرسى رضى الله عنه : « ليس الشأن من تُطْوى له الأرض فإذا هو بمكة أو حيث شاء من البلاد ، إنما الشأن من تُطوى عنه أوصاف نفسه فإذا هو عند ربّه »

---

(١) وفى نسخة التيمورية (تعزل)

وقال بعض المشايخ : « لاتعجبوا ممن لم يضع فى جيبه شيئاً فيخرج منه مايريد، ولكن تعجّبوا ممن يضع فى جيبه شيئاًفيدخل يده فلم يجده فلا يتغير » . وقيل لأبى محمد المرتعش[1] رضى الله عنه : « إن فلانا يمشى على الماء، فقال : عندى من مكّنه الله من مخالفة هواه فهو أعظم من[2] المشى على الماء والهوى» . فرؤية الدنيا بعين الفناء والزوال يوجب طيَّها عن نظر العبد وزهده فيها ، لاستشعاره أنها أقرب من أن يرحل إليها وأدنى من أن يستعيد شأنها[3] . ودليل ذلك ماجرى مع الأيام من التغيُّر والانتقال : ألاَ ترى أن الليالى والأيام يبليان كل جديد ويأتيان بكل موعود (وسيأتى إن شاء الله فى قول المؤلف : لو أشرق نور اليقين لرأيت الآخرة أقرب من أن ترحل إليها) والله الموفق للصواب .

ومما يأتى بالقبض والبسط عطاء الخلق ومنعهم ، وعطاء الله ومنعه ، وإليهما يرجع جميع ماذكر .

والأصل : أن كل ما يأتى من الله بلا واسطة فهو رحمة ونعمة ،

---

(١) هو . أبو محمد عبد الله بن محمد المرتعش ، نيسابورى قال عنه القشيرى « كان كبير الشأن ومات ببغداد سنه ٣٢٨ هـ . وقال المناوى (عجائب الدنيا فى التصوف ثلاثة : الشبلى فى الإشارات ، والمرتعش فى النكت ، وجعفر الخلدى فى الحكايات)

(٢) وفى نسخة (أعظم ممن مكنه من المشى على الماء)

(٣) وفى نسخة (يستعد لشأنها ومن دلائل ذلك مايجرى مع الأيام من التغيير . .)

وكل ما يأتى بواسطة الخلق عكسه ، إلاّ أن يتأيدّ بأمر من الله: وهذا ما نبَّه عليه المؤلف إذ قال :

العطاء من الخلق حرمان والمنع من الله عز وجل احسان ،

قلت : وذلك لأن المنع منه تعالى يقتضى اللجاء إليه والدوام بين يديه ، وحسن الإختيار فيما وجَّه به إليك ؛ إذ لا يمنعك من بخل ولا عُدْم ولا افتقار ولا احتياج ، وإنما يمنعك رحمةً بك ، فالعطاء منه هو العطاء والمنع منه هو عينُ العطاء لمن فهم مراده به . ولكن لا يفهم العطاء فى المنع إلاّ صدّيق وقال أبو حبيب البدوى ، رضى الله عنه ، لسفيان الثورى رحمه الله :

مالى أطلب الشيء من الله تعالى فيمنعنى ؟

قال : منْع الله إياك عطاء ؛ لأنه لم يمنعك من بخل ولا عُدم »

وقال الشيخ محي الدين بن عربى : « إذا منعك فذلك عطاؤه ، وإذا أعطاك فذلك منعه ، فاختر الترك على الأخذ » انتهى .

ولكن آخره مقيَّد بما إذا كان العطاء صارفاً لك عنه ، وهو أمر لا يتحقق ، فلزم الحذر فى الترك . والله أعلم .

فأما العطاء من الخلق فهو حرمان من وجوهٍ ثلاث :

أحدها تقلُّد المنَّة . وقد قال الحكماء : الصبر على العُدم أيسر من تقلد المنن .

الثانى : صرف الوجه إليهم والأنس بهم ، وربَّما أدَّى إلى الاعتماد عليهم فكان سبب الطرد والإبعاد والعياذ بالله .

الثالث : شغْل الوقت بهم مكافأةً وغيرها طلباً للسلامة من الذل معهم ، وإلاَّ كنت ذليلاً فيهم ، وقد قيل : « عزّ النزاهة أشرف من سرور الفائدة» . وقد قال الشيخ أبو الحسن رضى الله عنه : «اهْرب من من خير الناس أكثر مما تهرب من شرّهم ؛ لأن خيرهم يصيبك فى قلبك وشرَّهم يصيبك فى بدنك ، ولأن تصاب فى بدنك خير من أن تصاب فى قلبك ، ولعدوٌّ ترجع به إلى الله تعالى خير من صديق يصدُّك عن الله » .

وفى وصية علىٍّ كرم الله وجهه : لا تجعل بينك وبين الله مُنعماً ، واعدُد نعمة غير الله عليك مغرماً ، فلذلك قال القائل :

فلا ألبس النُّعْمى وغيرك مُلْبِسى ‏ ‏ ولا أقبل الدنيا وغيرُك واهب

جبر الله صدع قلوبنا بالإقبال عليه ، ومنَّ علينا فى كل حال بالدوام بين يديه ، وحال بيننا وبين كل ما يحول بيننا وبينه ، إنه منعم كريم .

تنبيه :

إذا كان منع الله عطاء ، وعطاء الخلق منعاً وحرماناً وجب الإعراض عنهم بوجود الإقبال عليه ، وذلك يقتضى وجود إكرامه وإفضاله بلا مُهلة ولا تراخ ، كما نبَّه عليه فى افتتاح :

الباب العاشر

الذى يلى هذا ، وهو أول الثلث الثانى من الـكتاب ، قال :

وقال رضى الله عنه : جل ربنا أن يعامله العبد نقدا فيجازيه نسيئة

قلت : بل جزاؤه كلّه معجّل وإن كان ما فى الآخرة مؤجلاً ، فإن المأتىَّ قطعاً كالموجود فى الحال ، والتنعُّم بانتظار الفائدة زيادة فى الإحسان بها ، وإنما كان الأمر كذلك لثلاثه أوجه :

أحدها : أنه تعالى كريم ، والـكريم إذا أعطى كمّل ، وإذا خوّل نوّل ، وإذا تفضّل وصّل .

الثانى : أن العبد فقير محتاج فى الحال والمآل فيقدِّم له ما يحتاج إليه من معارف وأحوال وغيرها ، ويدَّخر له ما يستغنى عنه من ثواب وحسن مآب .

الثالث : أن مراده تعالى من عباده المخلصين إفراد قلوبهم له[1] فيعينُهم على ذلك بما يوجهُه لهم ولو لم يكن من جزائه على الطاعة إلا وجود التخصيص بالتوفيق لـكان كافياً ، وهذا ما نبَّه عليه المؤلف إذ قال :

كفى من جزائه اياك على الطاعة أن رضيك لها أهلا

قلت : وذلك أنك من حيث أنت لا يليق بك إلاَّ النقص، بل هو

---

(١) وفى التيمورية (افراد قلوبهم له عن وجل فيعينهم . .)

وصفُك اللازم ، ونقصك الملازم(١) ، وما جرى عليك من وجوه الكمال فمنَّة ورحمة واجهتك منه ، قال تعالى (وَلَوْلاَ فَضْلُ اللهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَازَكَىٰ مِنكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَدًا)(٢) وقال عز وعلا (وَلَوْلاَ فَضْلُ اللهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لاَتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلاَّ قَلِيلاً)(٣) وقال تعالى (بَلِ اللهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلإِيمَانِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ)(٤) إلى غير ذلك . وبيان ذلك من ثلاثة أوجه :

أحدها : أن الطاعة كمالٌ لك ، فالمنة عليك فيها بتوفيقك لما فيه كمالُك .

الثانى : أنها أمان لك فى الدنيا والآخرة فالمنَّة فيها بتأمينك أو تسخيرك(٥) بسبب حصول تأمينك .

الثالث : : عزٌّ لك وغنى فى الدارين بما أُودع فيها من الخواص وما وعد عليها من الثواب ومن أكبر خواصّها وجود الحلاوة الواقعة بها والأنس المتوجّه ، بسببها ، وهذا ما نبه عليه المؤلف إذ قال :

كفى العاملين جزاء ما هو فاتحه على قلوبهم فى طاعته :

قلت : يعنى حال التلبُّس بها من حلاوة المناجاة ، ولذَّات المصافاة ،

---

(١) وفى نسخة التيمورية (ونعتك) .
(٢) آية ٢١ من سورة النور .
(٣) آية ٨٣ من سورة النساء .
(٤) آية ١٧ من سورة الحجرات .
(٥) وفى التيمورية (بتأمينك وتيسيرك لحصول سبب الأمن) .

وسيِّئ الحالات ، حتى قال بعضهم : فى الدنيا جنَّة من دخلها لم يشتق إلى جنة الآخرة ، ولا إلى شىء ، وهى طاعة الله عزَّ وجلَّ » .

وقال غيره : « ليس فى الدنيا شىء يشبه نعيم الجنة إلا ما يجده أهل التعلُّق فى قلوبهم بالليل من لذَّات المناجاة[١] » .

وفى الحديث : إن رجلين من الصحابة كانا فى حرس المسلمين من الكفار ، فقام أحدهما يصلِّى ، ونام الآخر ، فكبَّد[٢] كافر قوسه وضرب المصلِّى فأصابه السهمُ فلم يحفل به ، ومضى فى صلاته ، فعاوده بثانٍ كذلك ، ثم ثالث ، فلما رأى ذلك أيقظ صاحبَه وقال : إنِّى لولا خفت على المسلمين ما أيقظتك ، ولكان ما أنا فيه شاغلاً لى عما أصابنى . . [أو كلاماً هذا معناه] .

وقُطعت رجل عروة بن الزبير[٣] رضى الله عنه لأَكِلَة[٤] كانت بها وهو فى صلاته فلم يحسّ بها . والنقول فى هذا الباب كثيرة وقد استدل بها ابن أبى حمزة على أنها لذة حسيّة وجدانية ، خلافاً لبعض الفقهاء واستدلاله صحيح ، وبالله التوفيق ثم قال المؤلف :

---

(١) وفى نسخة (يشبه نعيم الآخرة إلا ما يجده أهل التملق وقلوبهم بالليل من لذة . .) .

(٢) كبد : قبض على كبد القوس . وكبد القوس : مقبضها كما جاء فى الصحاح .

(٣) وفى نسخة (وقطعت من رجل عروة بن الزبير آكلة كانت بها . .) .

(٤) جاء فى القاموس المحيط : الأكلة كفرحة : داء فى العضو يأتكل منه .

وما هو مورده عليهم من وجود مؤانسته .

قلت : وكفى العاملين ما هو مورده عليهم من وجود مؤانسته ، أى فى طاعته بطاعته وما يجرى منها لهم فى حال التلبس بها وبعد ذلك من تآنسهم به وبما منه وإليه وما يصلحهم به من الإمدادات العرفانية والمواريد[1] العلمية والإيمانية .

قال الله تعالى (إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات سيجعل لهم الرحمن ودّاً . .[2]) قيل : يعنى فيما بينهم وبينه ، وقيل : فيما بينهم وبين عباده . وقد يريد الجميع ، وهو صحيح مليح يؤيده حديث : إذا أحبّ الله عبدا نادى جبريلَ أنى أحب فلانا ، فيحبه جبريل ، ثم ينادى جبريلُ فى أهل السماء : إنّ الله يحب فلانا فأحبوه ، ثم يوضع له القبول فى الأرض . وهو صحيح مشهور ، وإلى معناه أشار عطاء رحمه الله تعالى حين أوصى مالك بن أنس رضى الله عنه إذ قال : أطع الله يحبك الناسُ وإن كرهوا . وقال على كرّم الله وجهه : من أراد الغنى بغير مال والعزّ بغير عشيرة فلينتقل من ذل المعصية إلى عزّ الطاعة .

وأنشدوا فى ذلك :

إنّ عرفان ذى الجلال لعزٌّ ... وبهاء ، وبهجة ، وسرور
وعلى العارفين أيضاً بهاء ... وعليهم من المحبة نور
فهنيئاً لعارفٍ بك ربّى ... هو والله دهره مسرور

فإذن جزاء العمل على ثلاثة أوجه :

---

(١) وفى نسخة : والزوايد

(٢) من سورة مريم

جزاء قبله وهو التوفيق ، فيكون العمل شكراً له .

وجزاء بعد العمل ، ويكون قبوله والفرح بالمنّة شكرُه ، ومن تمام ذلك التوجُّه لتحصيل مثله في المستقبل بمحض المحبّة ، والعبودية ، وشكر المنّة ، لا لجلب ولا لدفع إذْ كان مستشعراً به شكر النعمة والاستغراق في المنّة ، وعلى هذا نبّه المؤلف إذ قال :

من عبده لشيء يرجوه منه أو ليدفع بطاعته ورود العقوبة عنه فما قام بحق أوصافه .

قلت : وذلك أنها تقضي بأن يطاع فلا يُعصى ، وأن يُذكر فلا يُنسى ، لا لعلّة ولا لسبب بل لحق الربوبيّة وواجب العبودية له ، وسابق إحسانه وكرمه ؛ إذ حقه واجبٌ وإحسانه سابق[١] فعلى العبد أن يعمل له تعالى لا لشيء ويطلب منه لا لشيء ، لأنَّ الكل منه وإليه فالعمل على الأغراض والأعواض إساءة أدب ، والطلب له بغير العمل قيام بحق الحرمة[٢] ، وعدم الطلب رأساً فيه رائحة الاستغناء وغير ذلك لقوله تعالى: ﴿ إنما نطعمكم لوجه الله لا نريد منكم جزاء ولاشكوراً إنَّا نخاف من ربنا ﴾[٣] فجعل الإطعامَ لا لعلّه ، ومحل الخوف غيرُ محل العطاء ، فافهم .

---

(١) وفي التيمورية (. . وإحسانه سابق وهو رب الكل ومربيهم بلطيف إحسانه فحق العبد أن يعمل له تعالى لا لشيء . . إلخ .

(٢) وفي التيمورية (والطلب له بغير العمل ليس قيام بحق الخدمة ..)

(٣) آية رقم ٩ من سورة : الإنسان .

وفيما نقل وهب من الزبور يقول الله تعالى : ﴿ ومن أظلم ممن عبدنى لجنّة أو نار..!!ولم أخلق جنة ولا ناراً لم أكن أهلاً لأن أطاع !!﴾

وفى الخبر : « لايكن أحدكم كالعبد السّوء إن لم يخف لم يعمل » ولا كالأجير السوء إن لم يُعط الأجرة لم يعمل».

وإنما كان هذا أجير سوء لأنه قد أساء الظن بمستعمله ولايليق به ذلك،ولم يعط الحرمة[1] حقّها ولا توجّه بالمروءة فى محلها . فافهم .

وقال عليه الصلاة والسلام : « نعم العبد صُهيب لو لم يخف الله لم يعصه » . ثم العطاء والمنع للمتوجهين إنما هما رسائل تحمل هدايا التعريف ، فالاشتغال فى الجلب[2] فيهما تضييع لحكم الوقت ، وهذا ما أشار إليه المؤلف إذقال :

متى أعطاك أشهدك بره ، ومتى منعك اشهدك قهره فهو فى كل ذلك متعرف اليك ومقبل بوجود لطفه عليك .

قلت : فالتقلبات[3] للتعريف ، والعبادات للتصريف، والكل رحمة ولطف إذ أقبل عليك بما وجّه إليك أو وجّه عليك مما أقرّ به أو فيه عينك.فوجب عليك الإقبال عليه بمعرفة منّته،والتعرّف لما واجهك به من قهره أو رحمته ، والإقبال على عبادته شكراً له على ما أولى وأسدى فى عطائه ومنعه ، فالمؤمن شَغَله الثناء على الله عن أن يكون لنفسه

(١) وفى نسخة (الخدمة) . وهى أنسب
(٢) وفى نسخة (فالاشتغال بالجلب والدفع فيهما) .
(٣) وفى نسخة : (فالتلقيات) .

شاكراً ، وتشغله حقوق الله عن أن يكون لحظوظه ذاكراً ، لكن غلبة الهوى وعدم الفهم هو الداعى للاعراض فى محل الإقبال . وهذا ما نبه عليه المؤلف إذ قال :

انما يؤلمك المنع لعدم فهمك عن الله فيه .

قلت : لأنك لو فهمت عنه تسلّيت بما فهمته من لطفه وإبراره فى منعه وعطائه ؛ إذ الكل رحمة وكرامة ولطف [كما يأتى من قوله : مَن ظنّ إنفكاكَ لطفه عن قَدره فذلك لقصور نظره ، وقد مرّ قوله : متى فتح لك باب الفهم عاد المنع هو عين العطاء ، وعن قريب يأتى قوله : ليخفف ألم البلاء عنك عِلمك بأن الله سبحانه وتعالى هو المبْلى لك] .

وبالجملة : فمن علم أن الله تعالى رحيم به ومتفضّل عليه ولطيف به لم يتألّم بما يواجهه منه . وقد ذكر فى أول « التنوير » وجوهاً من الفهم يتعيّن النظر فيها على كل لبيب عاقل . وبالله التوفيق .

ثم من وجوه المنع فى العطاء ما ذكره بأن قال :

ربما فتح لك باب الطاعة وما فتح لك باب القبول

قلت : والطاعة عطاء ، وعدم القبول منع مصحوب بعطاء ، بل عطاء مصحوب بمنع فعاد منعا ، إذ لا عِبْرةَ بعمل لا قبول فيه !!.

وباب القبول ثلاثة أمور :

أحدها : التقوى (إنما يتقبّل الله من المتقين) ؛ فكل عمل لا تقوى

معه تعب لافائدة له ، إلاّ ما يُرجى من أُنس النفس به ليسهل عليها عند تلبّس التقوى[١] .

الثانى : الإخلاص : إذ لا يُقبل إلاّ ما أريد به وجهه ، لحديث : يقول الله تعالى « أنا أغنى الشركاء عن الشرك ، ومن عمل عملاً أشرك فيه معى غيرى تركتُه وشريكَه . . »[٢] .

الثالث : اقترانه بالسنة واتباع الحق ؛ إذ لا يقبل الله عمل عامل إلاّ بالصدق واتباع الحق .

فمن وجد هذه الثلاث فلْيَسُرَّ بعمله ؛ لأنه دليل قبوله ، وإلاّ فليبك على تعبه ؛ فإنه دون حاصل ولا تحصيل . ثم قال :

وقضى عليك بالذنب فكان سببا فى الوصول

قلت : يقول : وربما قضى عليك بالذنب فكان سببا فى الوصول بما يفتح به عليك من أبواب الهداية والخير التى أصولها ثلاث :

الإنكسار : إذ قال الله تعالى فى الحديث (أنا عند المنكسرة قلوبهم من أَجلى) .

والتوبة : (إنّ اللهَ يُحبُّ التّوابين)

---

(١) وفى التيمورية (ليسهل عليها عنده تيسير التقوى)

(٢) روى ابن ماجة ـ ورواته ثقات ـ وروى ابن خزيمة فى صحيحه والبيهقى عن أبى هريرة : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : قال الله عز وجل : « أنا أغنى الشركاء عن الشرك ؛ فمن عمل لى عملا أشرك فيه غيرى فأنا منه برىء وهو للذى أشرك »

والتشمير : مع الحذر الموجبيْن للجدّ والإخلاص المخلّصيْن من العيوب والذنوب،فقد وردفى«الحديث : ربّ ذنب أدخل صاحبه الجنّة» وقال الشيخ أبو العباس المرسى ، رضى الله عنه ، « فى إشارة قوله تعالى (يولج الليل فى النهار ويولج النهار فى الليل) : يولج الطاعة فى المعصية ويولج المعصية فى الطاعة ، فيطيع العبد الطاعة فيعجب بها ويعتمد عليها ويستصغر من لم يعملها ، ويطلب من الله العوض عليها ، فهذه حسنة أحاطت بها سيِّئات .

ويذنب الذنبَ فيلجأ إلى الله ويعتذر منه ، ويستصغر نفسه ، ويعظّم من لم يعمله فهذه سيئة أحاطت بها حسنات ، فأيّتهما الطاعة ، وأيتهما المعْصية ؟ ! » وهو معنى ماذكره المؤلف إذ قال :

معصية أورثت ذلا واحتقارا[١] خير من طاعة أورثت عزا واستكبارا

قلت : الخير فى الطاعة بالذات والشر فيها بالعَرَض،والشرُّفى المعصية بالذات والخير فيها بالعَرَض ، وخير الطاعة من حيث إنها عبودية له وخضوع بين يديه ورجوع إليه وطلب لما عنده ، وشر المعصية فى ضد ذلك ، فإذا أوجبت الطاعة ماهو بالمعصية فى الذات[٢] كانت شراً ، وإذا أوجبت المعصية ماهو فى الطاعة بالذات كانت خيراً ، ولذلك أشار رسول الله صلى الله عليه وسلم بقوله (لولا أن الذنب خير من العُجب

---

(١) وفى نسخة (وافتقاراً).
(٢) وفى التيمورية (ماهو فى المعصية بالذات) .

ماخـــلاً الله بين مؤمن وبين ذنبه أبداً) .

وقال عليه الصلاة والسلام: (لولم تذنبوا لخشيت عليكم ماهو أشدُّ من ذلك : العجب) .

وقال الشيخ أبو مدين ،رضى الله عنه، : «إنكسار العاصى خير من صَوْلة المطيع » اهـ .

وإنما ينسيك أفعالك رؤيةُ تقصيرها ، أوشهودُ منَّته تعالى المستغرق لها وهو أَولى ، فلذلك اتبع المسألة بكلام جامع للمنن فقال :

نعمتان ماخرج موجود عنهما ولا بد لكل مكون منهما : نعمة الايجاد ونعمة الامداد

قلت : إذلابد من وجود ومَدد ، وإلاَّ كان المخلوق معدوماً بأوّله ، وراجعاً إلى العدم بآخره كما قال تعالى (وقد خلقتك من قبل ولم تك شيئا)[1] وهذا : الإيجاد .

وقال عزّ من قائل إخباراً عن قول بعض أهل التوفيق (ولولا نعمة ربى لكنت من المحضرين)[2] وهذا : الإمداد .

فالأمر إذن كما ذكر المؤلف إذ قال :

أنعم عليك أولا بالايجاد ، وثانيا بتوالى الامداد

قلت : يقول : وإنما كان الإيجاد نعمة ؛ لأنه تعالى غنى عنك وأنت

(١) آية ٩ من سورة مريم .
(٢) آية ٥٧ من سورة الصافات .

مفتقر إليه فى وجودك ، إذ لولم يوجدك لكنت صرف النفى ومَحْضَ العدم .

وقد قال الشيخ أبو مدين ؛ رضى الله عنه ،: «الحق تعالى مستبدأ[1]، والوجودُ مستَمّد ، والمادة من عين الجود ، فلو انقطعت المادة لانهدَّ الوجود » اهـ

ثم نعمة الإمداد تجرى بثلاث :

دفع المضرّات، وجلب الفوائد ، وتوجيه الخطاب .

فالكلُّ منه تعالى عناية ورحمة وتفضيل ، فمن أين يكون للعبد نسبة حتى يضيفها لنفسه فيتعزز أو يتكبَّر ؟

وقد أشار المؤلف اليه لأن أصل ماذكر ماقلناه من الافتقار فقال :

فاقتك لك ذاتية وورود الاسباب مذكرات لك بما خفى عليك منها

قلت : الفاقة : شدة الاحتياج . والفقر الذاتى : مايلازم الذات فلا ينعدم إلاّ بانعدامها ، ولا شك أن الفاقة لازمة للعبد أبدا ، ولا ترتفع عنه أبداً ، لكنه قد يغفل عنها فيذكَّر بالأسباب الواردة عليه من الغنى والفقر والعزّ والذلّ والقوة والضعف وجميع مختلفات الأحوال التى يستشعر بها فاقته فيرجع إلى حدّه بملاحظة أوصافه .

والفاقة الذاتية لا ترفعها العوارض

بل تؤكدها ، وإنما ينظر ذلك من وُفّق له فيكون فى الذمة متلبساً

(١) وفى نسخة : مستبد .

بالشكر ، وفى البليَّة متلبساً بإظهار الفاقة والفقر ، ومن هنا كان كما قال :

خير أوقاتك وقت تشهد فيه وجود فاقتك

ترجع فيه إلى مولاك على حكما أولاك من رخاء أو شدّة بما يقتضيه كل منهما من غير تعريج على غيره أو تحقق بحالك[1]

وترد فيه الى وجود ذلتك

فتسكن النفس عن الدعوى، ويدوم وقوفها بباب المولى ، ومن هنا كان أشد الناس بلاء الأنبياء ثم الأولياء ، ثم الأمثل فالأمثل .

وقال بعضهم : « إنّ ماحمل فرعون على أن يقول (أنا ربكم الأعلى) طول العوافى والغنى ، لبث أربعمائة سنة ولم يتصدّع رأسه ولم يُحَمّ جسمه ، ولم يَضرب عليه عرق ، فادّعى الربوبية[2] » اه

فإذا علمت أنَّ كلَّ ماسوى الحق موسوم بالفاقة استوحشت منه

ومتى أوحشك من خلقه فاعلم أنه يريد أن يفتح لك باب الانس به

إذ القلب لايخلو عن شيء أو مقابله ، فإذا نفر من الخلق تعلّق بالحق ، وإذا شهد فقرهم وجد الأنس بغنى مولاه فأقبل عليه بكلّه ، كما أعرض عن الخلائق بكلّه ؛ ولذلك قيل :

---

(١) وفى النسخة التيمورية (إذ يتحقق بمالك ماله عليك)

(٢) وفى التيمورية (ولو أخذته الشقيقة ساعة واحدة فى كل يوم أو تألم ليلة كل يوم لشغله ذلك عن دعوى الربوبية)

الأنس بالله لايحويه بطّال ولا يحوزنّه بالحول محتال
والآنسون رجال كلهم فخُمُوا وكلهم صفوّة لله عمّال

وقال القاضي عبدالرحيم بن القشيري رحمه الله : «الأنس سرورُ السرّ من غير ملاحظة للبرّ . الأنس حياة القلب بتنسّم القُرب . الأنس بَرَد الحياة بِوجد المدانات . الأنس وجد الحبيب بفقد الرقيب الأنس دون الوصول وفوقَ المأمول » اه .

ومتى أنس العبدُ بِه لم يحتشم من طلبه .

ومتى أطلق لسانك بالطلب

على وجه العبودية أو غيرها إنطلاقاً ضرورياً .

فاعلم انه لايريد أن يعطيك

ما تريد كما تريد[1] ، فقد روى عن عبدالله بن عمر ، رضى الله عنه ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : (من أذن له فى الدعاء فتحت له أبواب الرحمة وما سُئل الله شيئاً قط أحب إلى الله من أن يسأل العفو والعافية » . وفى معنى ذلك قيل :

لولم ترد نيل ما أرجو وأطلبه من فيض جودك ما علمتنى الطلبا

فَثَمَّ العارف لايزول اضطراره

لتحققه بفقره وفاقته **ولا يكون مع غير الله قراره** لاستيحاشه مما سواه ، فهو مستأنس الجنان بقربه ، منطلق اللسان بذكره ؛ لذلك قيل : « من عرف الله أطلق لسانه » .

(١) وفى نسخة : فاعلم أنه يريد أن يعطيك ما يريد كما يريد متى يريد .

وقال الشيخ أبو العباس المرسى رضى الله عنه في قوله تعالى : (أَمَّنْ يجيب المضطر إذا دعاه)[1] العارف لا يزال مضطراً ، وفى معناه :

إِنّى إليك مع الأنفَاس محتاج لو كان فى مَفْرِق الإكليلُ والتَّاجُ

وإذا كان العبد فقيراً بكل وجه ، فالحق تعالى هو الذى :

أنار الظواهر بانوار آثاره

التى هى الإحساس المستفادُ من آثار الأفعال .

وأنار السرائر بأنوار أوصافه

التى هى المعارف الإيمانية والحقائق اليقينية ، فأعظم المنّة ظاهراً وباطناً إلاّ أنّ الظواهرَ موقوف وجودُها على الأفعال ، وهى حادثة ، والسرائر مستفاد نورها من تجلِّى الأوصاف وهى قديمة .

فلاجل ذلك افلت انوار الظواهر

بالفناء والزوال ، وانقضت بانقضاء الوقت ، والنظر الحاضر

ولم تأفل انوار القلوب والسرائر

هى ثابتة فى دار الآخرة الأبدية ، لا انقضاء لها أبد الآبدين ، فكان ثباتُ كلٍّ وزواله بحسب متعلقه وأصله ، ولذلك قيل :

إن شمس النهار تغرب بالليـ ـل وشمس القلوب ليس تغيب

وهو البيت الذى استشهد به المؤلف قبل بيت آخر وهو قوله:

---

(١) آية ٦٢ من سورة : النمل.

طلعتْ شمسُ من أُحبُّ بليل واستنارت فما تلاها غُروب

وقال الشيخ أبو العباس، رضى الله عنه : « لو كشف عن نور الولىّ لعُبِد ؛ لأن أوصافه من أوصافه، ونعوتَه من نعوته »

قال فى « لطائف المنن » : فلو كشف الحقُّ عن مشرقات أنوار قلوب أوليائه لانطوى نورُ الشمس والقمر فى مشرقات أنوارهم ، وأين نور الشمس والقمر من أنوارهم ، الشمس يطرأ عليها الكسوف والغروب ، وأنوار قلوب أولياء الله لا كسوف لها ولا غروب »

وقال فيه أيضاً : « نور الشمس تشهد به الآثار ونور اليقين شهد به المؤثر » قال : ولنا فى هذا :

هذه الشمس قابلتنا بنورها ولَشمس اليقين أبهر نوراً
فبهذى قد رأينا الأنوار لكن بهاتيك قد رأينا المنيرا

الباب الحادى عشر

وقال رضى الله عنه :

مبيِّناً توجُّه الألطاف فى أسباب التلف :

يخفف ألم البلاء عليك علمك بأنه سبحانه وتعالى هو المبلى لك :

فإنه جميل الوصف ، كريم الفعل ، لا يقصد ألم عبده إلاَّ لمصلحة له فضلا ومنَنَاً ، لا أنه يجب عليه ذلك.

وقد قال للنبى صلى الله عليه وسلم (واصبر لحكم ربّك فإنك بأعيننا)(١) وكما عوّدك ما تحبّ فاصبر له على ما يحب .

فالذى واجهتك منه الاقدار بما لا تريده من الأمور

هو الذى عودك حسن الاختيار على ممر الدهور ،

إن أعرضوا فهم الذين تعطَّفوا ، كما قد وفوا فاصبر لهم إنْ أخلفوا

وقد قال الجنيد رضى الله عنه : « كنت ليلة نائماً عندالسرىالسقطى(٢) رضى الله عنه فنبهنى وقال لى : ياجنيد ، رأيت كأنى وقفت بين يديه،

---

(١) آية ٤٨ من سورة الطور .

(٢) هو أبو الحسن سرى بن المغلس السقطى . خال الجنيد وأستاذه كان أوحد أهل زمانه فى الورع وعلوم التوحيد . بغدادى المولد والوفاة كان إمام البغداديين وشيخهم فى وقته . أخذ عنه الكرخى وسمع الحديث من الفضيل وروى عنه الجنيد . ومن أقواله : « عجباً لضعيف كيف يعصى قوياً » و « احذر أن تكون ثناء منشوراً أوعيباً مستوراً » توفى سنة : ٢٥٧ هـ .

فقال لى : ياسرّى ، خلقتُ الخلقَ فكلهم ادّعوا محبتى ، فخلقت الدنيا فهرب منهم تسعة أَعشارهم وبقى معى العُشر ، فخلقت الجَنَّة فهرب منىّ تسعة أعشار العشر وبقى معى عشر العشر ، فسطت عليهم ذرَّة من البلاء فهرب منّى تسعة أعشار عشر العشر ، فقلت للباقين معى : لا الدنيا أردتم ، ولا الجنة أخذتم ، ولا من النار هربتم ، فماذا تريدون :

فقالوا : إنك تعلم ما نريد ، فقلت : إنّى مسلّط عليكم من البلاء بعدد أنفاسكم مالا تقوم له الجبال الرواسى .. أتصبرون .

قالوا : إذا كنت أنت المُبْتَلِى فافعل ماشئت . فهؤلاء عبادى حقاً »

ثم إن :

من ظن انفكاك لطفه عن قدره فذلك لقصور نظره .

فى العقليَّات والعاديات والشرعيَّات ؛ أمّا العقليات فما من بلاءٍ إلاّ والعقل قاض بإمكان[1] مافوقه ؛ فالاقتصار على مادون المقدور عليه لطف، وبهذا يتبين أن أهل النار ملطوف بهم .

وأما العاديات فما وُجدت قط بليّة لشخص إلاّ وُجد ماهو أعظم منها بغيره ، ولا اجتمعت البلايا على شخص واحد أبداً ، فإن من أعظم المصائب : الفقر فى الشيب، والموتُ فى الشباب. ولا يمكن اجتماعهما .

وأما الشرعيات ، فما من بليّة إلاّ وهى مكفرّة من ذنوب صاحبها أو موجبة له ثواباً ، أو مخففة عنه عقاباً ، أو مبشِّرة له بمنفعة دنيوية أو

---

(١) وفى نسخة : بإيجاد .

معرفة جلالية[١] ، أو حقارة نفْس ؛ فقد قال صلى الله عليه وسلم : (مايصيب المؤمن من وصب ولا نَصب إلاّ كفِّرّ به من خطاياه حتى الشوكة يشاكها) وقال عليه الصلاة والسلام : (حمّى يوم تكفرّ ذنوب سنة) .

وقال عليه الصلاة والسلام : (الحمّى حظُّ كل مؤمن من النار . .)

وأحاديث هذا الباب كثيرة ، وتفاصيلها غزيرة ، وهى كلها مجملة على شكر أو صبر .

ولا يخاف عليك ان تلتبس الطريق عليك .

فى ذلك ، فلا تدرى ماتمسك فى ذلك : الشكُر اعتباراً بلطفه ، أو الصبرُ اعتباراً بحكمه .

وانما يخاف عليك من غلبة الهوى عليك

الحامل على وجود الشفقة على النفس والرفق بها حتى يؤدّى إلى الضجر ، وقد قال أحمد بن خضرويه[٢] رضى الله عنه : « الحق واضح، والطريق لائح ، والداعى قد أسمع فما التحيّر بعد هذا إلاّ من العَمى » .

وقال أبو عثمان رضى الله عنه : « الخلق كلهم مع الله فى مقام الشكر وهم يظنون أنهم فى مقام الصبر » اهـ .

---

(١) فى نسخة (بعز جلاله)

(٢) هو : أبو حامد أحمد بن خضرويه البلخى من كبار مشايخ خراسان ، عمر خمسا وتسعين سنة وتوفى سنة ٢٤٠ هـ.

وإنما كانت البلايا نعماً لعباده ، لأنها تردّ العبد إلى حدوده ، فيتحقق عرفانه بنفسه ، وبحسب ذلك تحصل له المعرفة بربّه .

فسبحان من ستر سر الخصوصية

التى هى المعرفة والولاية **بظهور صفات البشرية**

التى هى : الفقر ، والذل ، والضعف المحقق لغنى المولى وعزّة وقوّته فى باطن العبد .

وظهر بعظمة الربوبية

التى دلائلها وشواهدها مثبوتة **فى اظهار وصف العبودية**

فبقدر مايظهر على العبد من آثار الأوصاف الدّالة على عجزه وفقره ، وذلّه وضعفه يتبين وجود غنى الحقّ وعزّه وقدرته ، فبقدر ظهور آثار البشرية يقع سرّ الخصوصية ، ومن ظهور البشرية يتحقق وصف العبودية ، فتثبت الخصوصيةُ للمختص ؛ إذ يتبين عظمة الربوبية ؛ لذلك قال الشيخ أبو الحسن الشاذلى رضى الله عنه : « العبودية جوهرة أظهر بها الربوبية » اهـ

فإذن تحقق الخصوصية فى التحقق فى العبودية ، والتحقق فى العبودية بترك كل ماسوى الحق له وبه .

تطالب الرب بتأخر مطلبك

وهو : وجود الخصوصية ؛ إذْ لاتستحق عليه شيئاً بطلبك .

ولكن طالب نفسك بتأخير أدبك

وهو : التحقق بالعبودية بامتثال أمره والاستسلام لقهره

ومتى جعلك فى الظاهر ممتثلا لأمره

من حيث هو عبودية له أو تصديق لوعده

ورزقك فى الباطن الاستسلام لقهره

رضا بفعله ، أو تفويضاً له فى حكمه

فقد أعظم المنة عليك

إذْ أراح ظاهرك من مخالفته، وباطنك من الاعتراض عليه ومنازعته. وقد قال وهب رضى الله عنه : « قرأت فى بعض الكتب يقول الله تعالى : عبدى أطعنى فيما أمرتك ولا تعلمنى بما يصلحك أنا أُكْرِمُ من أَكْرمنى ، وأهين من هان عليه أمرى ، ولست بناظر فى حق عبد حتى ينظر العبد فى حقّ » وقال الشيخ محمد أبو عبد العزيز المهدوى رضى الله عنه : « من لم يكن فى دعائه تاركاً لاختياره راضيا باختيار الله تعالى فهو مستدرَج مغرور وهو ممن قيل له : « اقضوا حاجته فإنى أكره أن أسمع صوته » فإن كان مع اختيار الحق تعالى له ، لا مع اختياره لنفسه ، كان مجاباً وإن لم يُعط ، والأعمال بخواتيمها » اهـ .

وإنما كان الامتثال والاستسلام أعظم منه لأنه .

ليس كل من ثبت تخصيصه .

بالخصائص من الكرامات والعلوم وغيرها.

كمل تخليصه

من الملل والآفات ونحوها، ولذلك لمّا ذكر عند سهل رضى الله عنه شىء فى الكرامات والآيات، فقال: وما الآية، وما الكرامات، هى أشياء تنقضى لوقتها. عندى من مكنّه الله من أن يبدّل خُلقاً مذموماً بخلق محمود أفضل حالاً من صاحبها »

وقال بعضهم: « ليس العجب ممن يدخل يده فى جيبه فينفق، إنما العجب ممن يدخل يده فى جيبه لشىء وضعه هناك فلم يجده، فلم يتغيّر».

وقيل لأبى يزيد رضى الله عنه: « إن فلاناً يمشى على الماء !!

قال: الحوتُ أعجب من ذلك؛ إذ هو شأنه.

وقيل له: إن فلانا يطير فى الهواء!!

قال: الطير أعجب من ذلك إذ هو حاله.

وقيل له إن فلانا يمشى إلى مكة ويرجع من يومه!!

قال: إبليس يطوف الأرض كلّها فى لحظة وهو فى لعنة الله » اهـ.

وقال يحيى بن معاذ رضى الله عنه[1]: « إذا رأيت الرجل يشير إلى الآيات والكرامات فطريقه طريق الأبدال، وإذا رأيته يشير إلى

(١) هو أبو زكريا يحيى بن معاذ الوازى الواعظ، قال عنه الامام القشيرى فى رسالته نسيج وحده فى وقته، خرج من نيسابور إلى بلخ وأقام بها مدة ثم رجع إلى نيسابور ومات بها سنة ٢٥٨ هـ

الآلاء والنعماء فطريقه طريق العارفين(١) وهو أعلى درجة من الجميع » اهـ
ففهم أن الكرامات أدنى المراتب .
وفى « لطائف المنن » فيها كلام طويل والله الموفّق للصواب .

(١) وفى التيمورية (.. إذا رأيته يشير إلى الآلاء والنعماء فطريقه طريق المحبة وهو أعلى من الذى قبله ، وإذا رأيته يشير إلى الذكر وهو معلق به فطريقه طريق العارفين)

الباب الثانى عشر

وقال رضى الله عنه . مُبيناً أحكام الأوراد ومنبهاً على المقصود منها والمراد

لا يستحقر الورد

الذى هو إقامة الطاعة فى الأوقات **الا جهول** بحق ربّه وبحظّ نفسه لأنه استحقر ماعظَّم مولاهُ ولم يعمل فى أسباب نجاته وفوزه .

اذ الوارد الذى هو ثواب الورد وثمراته **يوجد فى الدار الاخرة** حسب ما جاء به الوعـــد الصدق **والورد** الذى به حصول الوارد **ينطوى بانطواء هذه الدار**

فبحسب انطوائه انطواء ثمرته إذ زيادتها زيادة فيه ، ونقصانها نقص فيه وهو لايخلف .

واولى مايعتنى به ويجهد فى تحصيله ما لم **يخلف وجوده** لفواته وذلك كل وقت ونفس من أوقات العبد وأنفاسه .

لذلك قال أبو سليمان لابن أبى الجوارى[1] :

---

(١) هو أبو الحسين أحمد بن أبى الحوارى : من أهل دمشق صحب أبا سليمان الدارانى وغيره ، مات سنة ٢٣٠ ھ يروى عنه أنه طلب العلم ثلاثين سنة فلما بلغ حمل كتبه إلى البحر فأغرقها وقال : ياعلم . لم أفعل بك هذا هواناً بك ولا استخفافاً بحقك، بل كنت أطلب لأهتدى بك إلى ربى والآن استغنيت عنك ومن حكمه : « لادليل على الله سواه » .

يا أحمد ، جوع قليل ، وعرى قليل ، وصبر قليل[1] وقد انفضت عنك أيام الدنيا » اهـ .

ثم **الورد هو طالبه منك** فهو حقه عليك

والوارد انت تطلبه منه فهو حظّك منه

واين ماهو طالبه منك من حقه الواجب وأمره اللازم

مما هو مطلبك منه

من حظّك الناقص وغرضك القالص[2] ! ! قضاء الله أحق وشرط الله أوثق ، وإنما الولاء لمن اعتق .

وقد قالوا : كن طالب الاستقامة ، ولا تكن طالب الكرامة ، فإنّ نفْسك تهتز بطلب الكرامة ، ومولاك يطالبك بالاستقامة ، و لأن تكون بحقّ ربك خير من أن تكون بحظّ نفسك »

وقال أبو سليمان رضى الله عنه : « لو خيرّتُ بين ركعتين ودخول الفردوس لاخترت الركعتين ؛ لأنى فى الركعتين بحق ربّى وفى الفردوس بحظ نفسى » انتهى - فبان تفضيل الورد على الوارد

ورود الامداد من ثواب وغيره

بحسب الاستعداد من إقامة ورد ونحوه ، فمن كمل استعداده حصل

---

(١) وفى نسخة : جع قليلا ، واعر قليلا ، واصبر قليلا . .

(٢) يقال ظل قالص إذا نقص - وقلص الشيء بمعنى انزوى وانكمش .

مراده . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول الله تعالى يوم القيامة : ﴿ادخلوا الجنة برحمتى وتقاسموها بأعمالكم﴾ ، وتلا قوله تعالى ﴿وتلك الجنة التى أورثتموها بما كنتم تعملون﴾

وأيضا **شروق الانوار** اليقينية الإيمانية **على حسب صفاء الاسرار القلبية**، وصفاء الأسرار القلبية على قدر البعد من الأغيار بحسب الأوراد والأذكار .

قال فى « لطائف المنن » : « واعلموا أن الله تعالى أودع أنوار المكنونات[1] فى أصناف الطاعات ، فإن من فاته من الطاعات صنف وأعوزه من الموافقات جنس فقد فاته من النور بمقدار ذلك .

فلا تهملوا شيئا من الطاعات ، ولا تستغنوا عن الاوراد بالواردات ، ولا ترضوا لانفسكم بما رضى المدّعون بجرى الحقائق على ألسنتهم ، وخلوّها من قلوبهم » انتهى .

والناس قسمان : عاقل ، وغير عاقل .

فالغافل(٢) **اذا اصبح نظر فيما يفعل**

من أمور دينه ودنياه ، فإن فاته مقصوده تكدّرت حاله وتغيّر مزاجه ؛ لاستشعاره فوات المقصود بفوات سببه ، وذلك من اعتماده على عمله ، فهو فى نقص دائم مع ظنه الكمال .

---

(١) وفى نسخة : الملكوت .

(٢) الغافل عن التوحيد وأن كل شىء بقضاء الله وقدره « فالغافل إذا أصبح أول خاطر يرد عليه نسبة الفعل إلى نفسه ، فيقول : ماذا أفعل اليوم .. ؟ »

تكليفاً فيطلبه ، وتصريفاً فيرضى به ويستسلم له ، فهو لا يعامل وقته إلاَّ بما اقتضاه أمرُه ، لذلك قال أبو أيوب السختيانى رضى الله عنه : « إذا لم يكن ماتريد فأرِدْ مايكون »

وقال عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه : « أصبحت ومالى سرور إلاَّ فى مواقع القدر »

وقال الشيخ أبو مدين رضى الله عنه : « إحرص على أن تصبح مفوّضاً مستسلما لعلّه ينظر إليك فيرحمك »

وقال عبد الواحد بن أبى زيد رضى الله عنه : « الرضا باب الله الأعظم ومستراح العابدين وجنّة الدنيا »

وكان سيدى رضى الله عنه كلما دخلت عليه أنشدنى هذين البيتين ، ويقول إنهما لبعض العارفين :

اتبع رياحَ القضا ودُرْ لها حيثُ دارت
وسلمّ لها تسلما وسِرْ بها حيث سارت

والمقصود : أن العبد يعزم على طاعة مولاه بلا تقصير ؛ فإن قصَّر به الحال فلا ينبغى أن يرجع إلى عيب نفسه، إلاَّ أن يكون ذلك عن سبب منه ، وشاهده فى قضيته أهل الوادى ؛ إذ ناموا عن الصلاة فقال عليه الصلاة والسلام : لاروع عليكم إن الله قبض أرواحكم . .

وحديث عليّ إذ سأله عن سبب عدم صلاته من الليل فقال إن الله قبض أرواحنا ، فقال عليه الصلاة والسلام : « وكان الإنسان أكثر شيء جدلا » فافهم ما أشرنا إليه .

انما استوحش العباد والزهاد من كل شيء لغيبتهم عن الله في كل شيء .

قلت: العبّاد عاملون على التحصيل فهم مستوحشون من الخلق لاستشعارهم فواته بمخالطتهم لأحد وجوه ثلاثة :

الاشتغال بمعالجة أمرهم، ونظر النفس لما يجرى من قِبَلِهم ، ونقص العمل بما يقع منهم إقبالا وإدباراً في جهتهم ، إذ يمنعون من العبادة أو يشغلون عن كمالها فيدخل بسببهم النقص عليها .

والزهّاد عاملون على السلامة فيستوحشون من الخلق لِما يخشونه من دخول العلل والآفات عليهم كالتلوّن في الحال ، والتقصير في العمل ودخول مالا يعني في المعاملات ، وكل ذلك من رؤية النفس والخلائق في النفي والإثبات وهو علامة خلوّ القلب من مشاهدة الحق بالخلق كما قال :

فلو شهدوه في كل شيء لم يستوحشوا من شيء .

قلت : بل كانوا يستأنسون بكل شيء لرؤية مطلوبهم في كل شيء ورجوعهم له بكل شيء ؛ إذ غلب على قلوبهم النظر إليه دون كل شيء ، فهم مستأنسون بكل شيء من أجل ظهور نسبته فيه ، مستوحشون من كل شيء لعدم تعلقهم بذلك الشيء » اه

سمعت شيخنا أبا العباس الحضرمى، رضى الله عنه يقول : « ليس الرجل الذى لا يدخل الظلمة ، ولا الذى يدخل الظلمة بالظلمة ، إنما الرجل الذى يدخل الظلمة بالنور » وقال أيضاً رضى الله عنه : « ليس الرجل الذى يعرف كيفية تفريق الدنيا فيفرّقها ، إنما الرجل الذى يعرف كيفية إمساكها فيمسكها » قلت : وذلك لأنها حيّة ، وليس الشأن فى قتل الحيّة ، إنما الشأن فى إمساكها ، وفى الحديث : (المؤمن إلف مألوف ولا خير فيمن لا يألف ولا يؤلف) .

ثم من فوائد مشاهدة الخلائق : التحقق فى التوحيد ، والمعرفة برؤية المختلفات ، لأن لها أثراً فى النفس بخلاف الأمور المتجَردة من وجه واحد ، والرؤية فى تلك الدار بالبصر على قدرها فى هذه الدار بالبصيرة ، فأعظم الناس معرفة أكثرهم فى الآخرة رؤيةً ، لا أكثرهم عباده ، وأقواهم زهداً ، فلزم مراعاة السبب لتحصيل المسبب . وهذا ماأشار إليه المؤلف إذ قال :

امرك فى هذه الدار بالنظر فى مكوناته . وسيكشف لك فى تلك الدار عن كمال ذاته

قلت : فتراه فى تلك الدار بالباصرة كما رأيته فى هذه الدار بالبصيرة وذلك بقدر قوة المعرفة. ومقوياتُها مشاهدةُ المختلفات من أفعال الخلق، ولذلك اختار الأكابُر من العارفين سُكْنَى المدن العظام التى يشاهد فيها الآثار الغريبة والمختلفة كثيراً .

ومن تأمَّل ذلك وجده واضحاً .

وقد سئل بعضهم : « كيف يُرى اللهُ في الآخرة ؟

فقال : هي رؤية وجود ، لا أنه في مكان محدود .

وقال بعضهم : يُرِى نفسَه لمخلوقاته ، وليس في جهة من نفسه ولا من مخلوقاته .

وقال بعضهم في حديث الساق : إن العلامة التي بينهم وبينه معرفتهم إيّاه بلا كيف . قلت : وعلم ذلك حاصل من شواهد الصنع ؛ إذ لا وصول إليه إلاّ بذلك كما نبّه عليه المؤلف إذ قال :

علم منك انك لا تصبر عنه فأشهدك ما برز منه

قلت : إنما لا تصبر عنه لثلاثة أمور :

إفتقارك إليه ، وإحسانه إليك ، وكمال جماله الذى لا حسن فوقه ولا مزيد عليه ، وإنما أحالك على ما برز منه لأنه لا وصول إليه إلا بذلك ؛ لأن عين الحدَثِ لا تنفتح لشعاع شمس الأزل ، فالمخلوق إنما ينتهى إلى مثله ، وإنما يعرف ما كان من شكله ، فتقدير كلام المؤلف : علم منك أنك لا تصبر عنه لما أنت عليه من الاحتياج وما هو عليه من الكمال فأشهدك ما برز منه إذ لا وصول إليه إلا به . فافهم .

وكما تنوَّعت الموجودات بالاعتبار والتوجّه تنوعت العبادات للادِّكار والإعانة . وهذا ما نبّه عليه المؤلف إذ قال :

لما علم الحق منك وجود الملل لون لك الطاعات وعلم مافيك من وجود الشره فحجرها عليك فى الأوقات .

قلت : الملل : ثقل فى النفس عن العمل يعرض من الإكثار .

والشره : خفة تدعُو للاكثار والتعجيل ، ثم هى داعية الملل التى بسببها يحدث ويجرى ، فلما كانت الأعمال متلونةً انتفى الملل بالاستراحة من لون إلى لون فيها .

ولما كان لكل عمل وقت انتفى الشرّه بالحجر .

وفى الشرّه آفات ثلاث :

تأديتُه إلى الملل المؤدّى للترك أو النقص ، ووقوع الإعجاب برؤية الجملة التى لها أثر فى النفس بخلاف ماتفرّق ، وحصولُ الدعوى بالتشمير

وقد قيل : مثل النفس فى شرّها كذبابٍ مرّ برغيف عليه عسل فوقع فيه يطلب لأكله فلزق بين جناحيه فقتله . وآخرَ أتاه من أوله حتى خرج من آخره سليماً . فافهم.

ثم ماوقع من التلوين والحجر ، فيه ثلاثة أمور :

إعانة للموفّق ، وحُجة على المخذول ،وكرامة للمحقق بتيسير أسباب العبودية . والله أعلم.

وإذا كان الأمر كذلك فالواجب ماذكر إذ قال :

لتكون همتك اقامة الصلاة لا وجود الصلاة

قلت : لأن ذلك هو المقصود منك ، إذ لو كان المقصود الوجودَ

ما كان حجر ولا غيره . وإقامة الصلاة : القيام بحقوقها وحدودها الشرطية ، والكمالية ، بقدر الطاقة ، فإن ذلك يختلف باختلاف الناس كما قال :

فما كل مصل مقيم

قلت : ولا كلُّ مقيمٍ مقيمٌ ، ولا كل عامل مستقيم .

قال القاضى أبو بكر بن العربى رضى الله عنه ، فى قول عمر ، رضى الله عنه : « من حفظها وحافظ عليها[1] » ولقد رأيت من يحافظ عليها آلافاً لاأحصيها ، فأما من يحفظها بالخشوع والإقبال فما أَعُدُّمنهم خمسة» انتهى بتقريب لمعناه .

ثم فى الصلاة ستُّ خصال،هى علامة الإقامة. ذكر المؤلف أوَّلها بأن قال :

الصلاة طهارة للقلوب واستفتاح لباب الغيوب

قلت : طهارة القلوب من الذنوب ،إذ أنها تنهى عن الفحشاء والمنكر، وتكفِّر السيئات ، وتفتح أبواب الغيوب بما فيها من التجليات التى أشار إليها بأن قال :

الصلاة محل المناجاة ومعدن المصافاة

قلت : لأنها محل لقرب العبد من ربِّه ، والوقوف بين يدى مولاه

(١) وزاد فى التيمورية (.. من حفظها وحافظ عليها) تمام كلام عمر (فهو لما سواها أحفظ ومن ضيعها فهو لما سواها أضيع ، ولقد رأيت .. الخ)

بلا واسطة سوى ذكره . والقيام بوظائف العبودية على المواجهة والمعاينة ، وتفسير ذلك فى حديث أبى هريرة رضى الله عنه ، يقول الله تعالى : قسمت الصلاة بينى و بين عبدى نصفين ، فنصفها لى و نصفها لعبدى ولعبدى ماسأل اذا قال : الحمد لله رب العالمين ، يقول الله تعالى اثنى علىّ عبدى، فاذا قال : الرحمن الرحيم ، قال الله : مجدّنى عبدى ، وإذا قال : مالك يوم الدين ، قال الله تعالى : فوّض إلىّ عبدى ، فإذا قال : إيّاك نعبد و إياك نستعين قال الله : هذه لعبدى ولعبدى ماسأل . . الحديث[1] .

والمناجاة لغة : المسارَرة ، والمصافاة من الصفاء ، فالعبد يصافى ربه بقلبه فيصافيه ربّه بما يلقيه إليه من رحمته ، ويساره بما فى نفسه فيلقى

(١) عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : قال الله تعالى : « قسمت الصلاة بينى وبين عبدى نصفين ، ولعبدى ماسأل » .

وفى رواية : فنصفها لى و نصفها لعبدى ، فإذا قال العبد : (الحمد لله رب العالمين) قال الله تعالى : حمدنى عبدى ، فإذا قال (الرحمن الرحيم) قال : أثنى على عبدى . فإذا قال (مالك يوم الدين) قال : مجدنى عبدى ، فإذا قال (إياك نعبد وإياك نستعين) قال هذا بينى وبين عبدى ولعبدى ماسأل . فإذا قال (اهدنا الصراط المستقيم صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين) قال : هذا لعبدى ولعبدى ماسأل » اه .

يقول الحافظ المنذرى : قوله « قسمت الصلاة » يعنى القراءة بدليل تفسيره بها وقد تسمى القراءة صلاة لكونها جزءاً من أجزائها . والله أعلم .

روى الحديث الإمام مسلم .

إليه من أسراره ما يليق به ويقابله بما ذكر من خطابه ، وإلا فالربُّ تعالى منزَّه عن المسادرَة الحسيَّة المعهودة فى قياس البشرية ، ثم زاد فى شأن الصلاة فقال :

تتسع فيها ميادين الاسرار وتشرق فيها شوارق الانوار

قلت : المراد بالأسرار هنا : دقائق العلوم والمعارف ، وقد يراد بها قوابل المعلومات : والأول أولى فيجد المصلى فى كل سورة معنى ، بل من كل آية . بل من كل حرف ، ويتجدد ذلك عليه بتجدّد الأيام والأوقات على قدر الفيض والقصد والهمَّة وتشرق فيها شوارق الأنوار كذلك ؛ فهى الجامعة للعلوم والمعارف والإشارات والدقائق واللطائف وغيرها مما هو معلوم ويسرى حتى إلى الجوارح والقوالب فيظهر عليها سمة الباطن ونورُ العمل وأسراره حتى لقد قيل : « من كثرت صلاته بالليل حسن وجهه بالنهار » .

وقال الشيخ أبو عبد الله محمد بن الترمذى[1] رضى الله عنه : « دعا

---

(١) هو : أبو عبد الله محمد بن على الترمذى ، من كبار الشيوخ . وله تصانيف فى علوم القرآن .

والترمذى نسبة إلى « ترمذ » مدينة على طرف نهر بلخ المسمى بجيحون . قال الحافظ بن النجار فى تاريخه (كان الترمذى إماما من أئمة المسلمين ، له التصانيف الكثيرة فى التصوف وأصول الدين ومعانى الحديث) وقال الكلاباذى فى كتابه « التعرف » هو : من أئمة الصوفية . وقال ابن عطاء الله : كان الشاذلى والمرسى يعظمانه ويقولان : هو أحد الأوتاد الأربعة .

الله الموحّدين إلى هذه الصلوات الخمس رحمة منه عليهم ، وهيأ لهم ألوان الضيافات لينال العبد من كل قول وفعل شيئاً من عطاياه ، فالأفعال كالأطعمة ، والأقوال كالأشربة . فهى عُرُس الموحدّين هيأها ربّ العالمين لأهل رحمته فى كل يوم خمس مرات ، حتى لا يَبْقَى عليهم دنس ولا غبار » انتهى .

وقد ذكره فى التنبيه مع نقول وأقوال أخرى يطول ذكرها ، فانظر ذلك وبالله التوفيق. ثم مع هذه الفوائد العظيمة فالحق سبحانه قد أعان عليها بكثرة ثوابها وقلة أَعدادها كما نبّه عليه المؤلف إذ قال :

علم وجود الضعف منك فقلل اعدادها ، وعلم احتياجك الى فضله فـكثر امدادها.

قلت : وذلك بأن جعل ثواب الخمس خمسين، إذ الحسنة بعشر أمثالها، وكان قد أوجب خمسين ثم حطّها إلى الخمس، وخاطب نبيّه محمداً فى ذلك بقوله (هنَّ خمس وهُنّ خمسون ، ما يبدّل القول لدىَّ الحسنة بعشر أمثالها وأزيد السيئة بمثلها وأغفر . . الحديث) .

ثم شأن القوم إنما يذكرون الثواب لاستشعار فضله تعالى وكرمه لا لقصد العوض ؛ فلذلك كل ما ذكره المؤلف عقّبه بما ينفى قصده فذكر ذلك هنا بأن قال :

متى طلبت عوضا عن عمل طولبت بوجود الصدق فيه

قلت : لأن الجزاء لا يكون إلاّ على كامل فى ذاته وقصده ، فهو

يحتاج إلى التخليص من الشوائب والإخلاص فى القصد ، وجامع ذلك كلّه حصول الصدق ، وهو لايتم إلاّ بالتبرّى من الحول والقوة ، والتبرِّى لايصح مع رؤية العمل[1] فضلاً عن طلب ثوابه لاستغراقه بشهود المنّة ، هذا وأعمالنا خليّة عن الإخلاص والتخليص لما نحن عليه من النقص والتخليط ، فالأَوْلى بنا الفرار إلى الله تعالى كما قال خير النسَّاج رضى الله عنه : « ميراث أعمالك مايليق بأفعالك ، فاطلب ميراث فضله وكرمه فهو أَوْلى بك » اهـ

ثم نبّه المؤلف على أنَّ الشرط المذكور مفقود فقال :

ويكفى المريب غنيمته وجدانه السلامة

قلت : إذا كانت أعمالك مدخولة وأفعالك معلولة فأنت صاحبُ ريبة ، وما كان كذلك فرأس غنيمته السلامة من عقوبة ماهو عليه فى عمله فضلاً عن غيره ، فافهم .

ثم أقام المؤلف الحجة على ما ذكر بأن قال :

لاتطلب عوضا عن عمل لست له فاعلا

قلت: بل الفاعل له مولاك،وبحسب هذا فقصدك[2] فيه بأن لاتطلب

---

(١) وفى نسخة : مع رؤية « عمل »

(٢) وفى نسخة (فصدقك بأن لاتطلب العوض على فعل غيرك)

العوض عليه ، لأنك لاتطلب العوض على فعل غيرك ، وذلك قبيح مردود فى الجملة وعلى التفصيل .

وبالجملة فلا عوض إلا بعد صدق،ولا صدق إلا بعدم طلب العوض، فلزم الثانى للزوم الأول . والله أعلم . ثم قال :

يكفى من الجزاء لك على العمل ان كان له قابلا

قلت : لمـا هو عليه من العلل والآفات فوجب الرجوع إلى الله بالافتقار المحْض فيما عنده دون وسيلة ، ولا سبب ، لأن الأعمال كلّها مدخولة ومع إندخالها فهى منّة وإفضال فلا استحقاق بها على كل حال فافهم . ثم جملة الأمر وكماله فيماذكره إذ قال:

اذا أراد ان يظهر فضله عليك خلق لك العمل ونسبه اليك

قلت : يعنى خلق القدرة لك على العمل ووفّقك إليه ، وأعانك فيه، وردّ نسبته إليك ، فهو سبحانه خلق الطاعة ونسبها إلينا ، وأثابنا عليها ولسنا بأهل لذلك كما نبه عليه المؤلف بأن قال :

لانهاية لمذامك ان ارجعك اليك ، ولا تفرغ مدائحك ان أظهر جوده عليك .

قلت : لأنك من حيث أنت محلٌ كل نقص وريبة ، ومن حيث فضله مَظْهرُ كلّ خير وإفضال، حدّث عن البحر فى الوجهين ولاحرج .

تنبيه :

رأس الورد(١) نسيان وجوده بوجوده ، وهذا الذى افتتح به :

---

(١) وفى التيمورية : رأس الورع نسيان وجودك بوجوده .

الباب الثالث عشر

إذ قال : **وقال رضى الله عنه .**

كن بأوصاف ربوبيته متعلقا وبأوصاف عبوديتك متحققا :

قلت : أوصاف الربوبية أربعة : هى الغنى ، والعزُّ ، والقدرة ، والقوة . والتعلّق بهاأن تكون ناظراً إليها ، معتمداً عليها ، دون نظر الشيء سواها .

وأوصاف العبودية أربعة ، هى : الفقر ، والذل ، والعجز ، والضعف. والتحقّق بها أن تراها لازمة لك فلا تنفك عن النظر إليها فى حال من أحوالك .

ثم التعلُّق بأوصافه يقتضى التحقق بأوصافك ، والتحقق بأوصافك يُفْضى بك إلى التعلق بأوصافه . لكن يختلف البساط ، فتارة يغلب عليك الغنى بالله ، وتارة يغلب عليك الفقر إلى الله ، فإذا غلب عليك الغنى بالله انبسطت بإحسانه ، وإذا غلب عليك الفقر إليه رجعت إليه بمواقف الأدب ، فالأوّل : محل البسط والكرامة ، والثانى : موقف الأدب والتعظيم . هذا رسول الله صلى الله عليه وسلم أشبع ألفاً من صاع إظهاراً للغنى بالله، وشدّ على بطنه حجراً من الجوع إظهاراً للفقر إلى الله .

وإنما أظهر الأول فى محل احتياج الناس إليه وفقًا لمقصوده[١]، وتنمية لأحواله . وأظهر الثانى لتأديبهم وتعليمهم وهو المقصود .

ولذلك ما كان يظهر شيئاً من الخوارق إلاّ فى محل الاحتياج وخوفَ تزلزل الضعفاء ، ومن تأمّل السِّـــيرَ ، عرف ذلك . وبالله التوفيق .

ثم التحقق بأوصافك[٢] من التحلّى بأوصافه تحلية توجب عليك التحفُّظ من الدعوى ، كما نبّه عليه المؤلف إذ قال :

منعك من أن تدعى ما ليس لك مما للمخلوقين أفيبيح لك أن تدعى وصفه وهو رب العالمين .

قلت : ظهور وصفه عليك وتحلّيك به كمالٌ يليق بك ، بحيث تصير غنياً به ، عزيزاً به ، قادراً به ، قوياً به ، حتى تصير « باسم الله » منك موافقه « يكُنْ » من الله ، فلا تريد شيئاً إلاّ كان ، ولا تفتقر لشىء ولا تذل له.ولا به ولا تضعف عن شىء ، ولا تعجز عن شىء، بل تكون قادراً على كل شىء بمولاك غنياً به عن كل شىء ، عزيزاً به فى كل شىء، قوياً به عند كل شىء، لا يسوغ لك ادّعاء شىء من ذلك ، بل يؤكد عليك الرجوعَ إلى وصفك والقيام معه من الفقر والذل والعجز والضعف

(١) وفى التيمورية (قضاء لعقولهم وتنمية لأحوالهم) .
(٢) وفى التيمورية (ثم التحقق بأوصافك أولى بك من التخلق بأوصافه وإذا تحليت بأوصافه وجب التحفظ بالدعوى) وفى نسخة أخرى (ثم التحقق بأوصافك أولى من التحلى بأوصافه وإذا تحليت وجب عليك التحفظ من المدعين) .

لأنّ ما بيدك عارية مجازية ، والعارية مؤدّاة ، والمجاز مرفوع بالحقيقة، فالزم التذلل والافتقار فى جميع أحوالك . فافهم .

ثم المنع المذكور واقعٌ شرعاً ومروءة وحكمة ،فيحرم ادّعاءملك الغير ولا يليق من حيث المروءة والنفوس متسلطة على ذلك بمقتضى الغَيْرة[1] التى جُبلت عليها . وكل ذلك فيما ذكر فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم .(لا أحد أغيْر من الله.. الحديث) والغيْرة فى حقّه منع ما هو له من وصف أو حقٍ أن يكون لغيره، لا كما يفهم فى حق المخلوقات من العرض والجبلَّة[2] ومن ذلك قوله عليه الصلاة والسلام، يقول الله تعالى (العظمة إزارى والكبرياء ردأى من نازعنى فيهما قذفته فى النار . . الحديث) يريد : أنهما وصفان مختصان به تعالى فمن ادّعاهما كمن كان يدّعى إزار شخص وقميصَه لا يمكنه أن يسلم له فيه إلاّ بعجزه ، ولا عجز لله تعالى ، فوجب هلاكه ، ولله المثل الأعلى ، وهو العزيز الحكيم.

ثم ظهور حلية الأوصاف عليك لا يصحّ إلاّ بخروجك عنه كما نبّه عليه المؤلف إذ قال :

كيف تخرق لك العوائد وأنت لم تخرق من نفسك من العوائد .

قلت . خروق العوايد لك بظهور ما ليس من شأنك على يديك

---

(١) وفى نسخة (بمقتضى الفطرة) .

(٢) وفى نسخة (والحيلة) .

واتصافك بما لا يقتضيه وصفك من الكمالات الجارية عليك كما يليق بك .

وعلامة ذلك : جرى الكرمات والدلائل على يديك .

وخرق العوايد منك بترك مألوفاتك وعاداتك الرديئة ، وذلك كله مجموع فى تحققك بأوصافك وتعلقك بأوصافه ، فان قمت بذلك كان لك ما تريد كما تريد ، وإلا فأنت بعيد ، لأن الجزاء من جنس العمل أبداً ؛

فمن خرق عوائده خرقت له العوائد على نسبة ذلك ، وإلاَّ بقى حيث كان . قيل لبعض المختصّين : بِمَ أدركتَ ما أدركتَ ؟

قال:وحدّته بأفضل التوحيد ، وخدمته خدمة العبيد ، وأطعته فيما أمرنى ونهانى ، فكلَّما سألته أعطانى » انتهى .

وفى الإشارة عن الله سبحانه « عبدى أنا الذى أقول للشىء كن فيكون ، فأطعنى أجعلك تقول للشىء كن فيكون » .

وفى الصحيح : يقول الله تعالى : (ما تقرّب إلىّ المتقرّبون بمثل أداء ما افترضه عليهم ، ولا يزال عبدى يتقرّب إلىّ بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت له سمعاً وبصراً ويداً ومؤيداً فلئن سألنى لأعطينه

ولئن استعاذنى لأعيذنه..)[1] وهو عبارة عن غاية الإكرام بالتصرف، دون حجر ولا توقف.

ثم بمجموع خرق العوائد من نفسك فى التزام الأدب، لا فى الجدّ فى الطلب وهو ما بيّنه إذ قال:

ما الشان وجود الطلب انما الشان أن ترزق حسن الآدب .

قلت. يقول: ليس الشأن فى هذا الطريق وجود الطلب، لأن ما عند الله لا يُنال بالأسباب. وإنما الشأن أن تُرزق حسنَ الأدب؛ لأن به تتحقق العبودية، وقد قال الله تعالى (لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا)[2] لم يقل أكثرهم طلباً، ولا أعظمهم جدًّا فيه.

والأدب يختلف باختلاف الأقوال والأحوال، لكنه يرجع لثلاثة:

أقامة الفرائض، واتباع السنن، ومجاملة الخلق. كما قال عليه الصلاة والسلام (اتق الله حيثما كنت واتبع السيئة الحسنة تمحها، وخالق

---

(١) ورد فى صحيح البخارى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما رواه عن ربه: من عاد لى ولياً فقد آذنته بالحرب، وما تقرب إلى عبدى بشىء أحب إلى من أداء ما افترضه عليه، وما يزال عبدى يتقرب إلى بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذى يسمع به وبصره الذى يبصر به ويده الذى يبطش بها ورجله التى يمشى بها، وإن سألنى لأعطينه، وإن استعاذنى لأعيذنه».

(٢) آية ٧ سورة الكهف.

الناس بخلق حسن)[١] وهذه هى الأصول التى من تركها حُرِم الوصول. والله أعلم .

ثم رأس الآداب كلها راجع للزوم وصفك مع التعلُّق بوصفه ، وذلك بما ذكره بأن قال :

ما طلب لك شيء مثل الاضطرار ولا أسرع بالمواهب اليك مثل الذلة والافتقار .

قلت : لأن ذلك يقتضى الرجوع إليه بلا علة ، والوقوف بين يديه على نعت المسكنة والذلَّة ، وخير أوقاتك وقت تشهد فيه ما فاتك[٢] وتُردّ فيه إلى وجود ذلّتك . وانشدوا فى ذلك :

أدب العبيد تذلل ... والعبد لا يَدَع الأدب
فإذا تكامل ذلّة ... نال المودَّة واقترب

والظاهر أن الاضطرار هو فاعل الطلب ، فالتقدير : ما طلب لك الحوائجَ من الله مثل الاضطرار ، ولا أسرع لك بالمواهب منه ، لقوله تعالى : (أَمَّنْ يُجِيبُ المضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ . . الآية)[٣] .

ويحتمل أن يكون المراد : لا مطلوب منك مثل الاضطرار ، وذلك لأنه متيسّر عليك إذ هو وصفك . وبه تصل إلى رضوان الله مولاك .

---

(١) رواه الإمام أحمد ورواه الترمذى وغيرهما .
(٢) وفى بعض النسخ (تشهد فيه وجود فاقتك) .
(٣) من آية ٦٢ من سورة النمل .

قال أبو يزيد رضى الله عنه : « قيل لى جرابك[1] مملوء بالخدمة فإن أردتنا فعليك بالذلة والافتقار » .

ومن فوائد الفاقات ثلاث : الإعراضُ عن الكل ، والإقبال على الحق بالكل ، ووقوف العبد عند حدِّه دون دعوى . وفى ذلك جملة الخير وكماله .

ومن أسباب ذلك : العلم بما أنت عليه من النقص فى حالك حتى أن أعمالك كلها مساوى وحقائقك كلها دعاوى كما نبَّه عليه المؤلف إذ قال .

لو انك لا تصل اليه الا بعد فناء مساويك ومحو دعاويك لم تصل اليه ابدا

قلت : لأنها لا تتناهى ، لكثرتها ، وتسلسلها وتواترها وتواردها على كل شىء منك ، طاعة كانت أوغيرها ، حتى إنك إذا تأمت وجدت أعمالك[2] كلها دعاوى ولو كنت أصدق الصادقين ، وتجد أحوالك كلها دعاوى ولو كنت أخلص المخلصين ، وقد نبَّه على ذلك قوله تعالى (وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَى مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَدًا) فافهم وهذا ما قال:

---

(١) وفى نسخة : خزائننا مملوءة .

(٢) وفى نسخة (إذا تأملت وجدت أحوالك كلها دعاوى ولو كنت أصدق الصادقين وتجد أحوالك كلها مساوى ولو كنت رأس المخلصين) .

ولكن اذا اراد ان يوصلك اليه ستر وصفك بوصفه(١) فوصلك اليه بما منه اليك

من إحسان ، وستر ، وإفضال .

لا بما منك اليه . من أحوال، وعلوم، وأعمال.

تنبيه :

خاتمة هذا الباب مع الذى يليه ظاهرة المناسبة ؛ لأنها إذا كانت الدعاوى والمساوىء لا تنقضى فليس إلاَّ جميل ستره كما قال :

---

(١) وفى بعض النسخ تعديل لهذه العبارة كالاتى (ستر وصفك بوصفه وغطى نعتك بنعته فغمس فقرك فى غناه وضعفك فى قوته وعجزك فى قدرته وذلك فى عزته فظهر عليك الكمال به لا بنفسك كما قال : **فوصلك اليه بما منه اليك** من إحسان وستر وإفضال **لا بما منك اليه** من أحوال وعلوم وأعمال . تنبيه : خاتمة هذا الباب مع الذى يليه ظاهرة المناسبة لأنها إذا كانت الدعاوى والمساوى لا تنقضى فليس لها إلا جميل ستره كما قال : **وقال رضى الله عنه لولا جميل ستره)**

الباب الرابع عشر

وغطا نعتك بنعته

فغمس فقرك فى غناه ،وضعفك فى قوته،وعجزك فى قدرته وذلك فى عزته ، فظهر عليك الكمال به لا بنفسك كما قال

وقال رضى الله عنه : لولا جميل ستره لم يكن عمل اهلا للقبول .

قلت : بل ولا للوجود ؛ لأن النفس مجبولة على ضد الخير فلا تعمله إلاّ بوقاية تكون بينها و بين وصفها الأصلى، كما أشار إليه قوله تعالى: (ومن يوق شح نفسه فؤلئك هم المفلحون) وبعد الدخول فى العمل فهى أصل العلل والآفات ، فلا يصدر منها إلاّ ناقص وإن صدر كاملا لحقته العلل من الملاحظات وطلب الأعواض والأغراض ، فالعمل يحتاج إلى التخليص والإخلاص ، وهما مفقودان ، أو فى حكم المفقودين فالقبول من فضل الله وكرمه دون واسطة ، وقد قال الشيخ أبو عبد الله القرشى رضى الله عنه : « إذا طالبهم بالإخلاص تلاشت أعمالهم . وإذا تلاشت أعمالهم زاد فقرهم وفاقتهم فتبرءوا عن كل شىء لهم ومنهم»اه

ومن بيان ذلك ماذكره فقال :

أنت الى حلمه اذا اطعته احوج منك الى حلمه اذا عصيته

قلت : لأنك فى الطاعة مصحوب بالعلل والدعاوى والآفات من الرياء والعجب والنظر إلى نفسك وعدم التحفظ وقلة الإحترام مع الغفلة

عن ذلك كلّه ، وفى المعصية مصحوب بالافتقار والاضطرار ، مقرون بالذلّة والاحتقار ،وقد جاء عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال «أوحى الله تعالى إلى نبىٍّ من الأنبياء : قل لعبادى الصديقين لا يغترّوا ؛ فإنى إن أُقم عليهم عدلى وقسطى أعذبهم غير ظالم لهم ، وقل لعبادى المذنبين لا تقنطوا ؛ فإنه لا يكبر علىّ ذنب أغفره لهم » .

وقال أبو القاسم النصراباذى[1] رضى الله عنه : «العبادات إلى طلب العفو عن تقصيرها أحوج منها إلى طلب الأعواض والجزاء عليها»

وقال أبو يزيد رضى الله عنه : « توبة المعصية واحدة وتوبة الطاعة ألف توبة» ولا يختص الستر بالواقع بل يجرى فى الواقع والمتوقَّع كما بيَّنه المؤلف إذ قال :

الستر على قسمين : ستر عن المعصية ، وستر فيها

قلت : فالستر عنها حجاب بين العبد وبينها حتى لا يراها ، وإذا رآها فلا يستحسنها ، وإذا استحسنها[2] فلا يقع فيها : عصمة من الله لمن عصمه ، وحفظ منه لمن حفظه .

---

(١) واسمه : إبراهيم بن محمد النصراباذى ، نيسابورى الأصل والمولد . شيخ خراسان فى وقته جاور بمكة سنة : ست وستين وثلاثمائة . ومات بها سنة: سبع وستين وثلاثمائة وكان عالما بالحديث كثير الرواية . والنصراباذى نسبة إلى « نصراباذى » محلة من محال نيسابور

(٢) وفى نسخة التيمورية (وإذا لم يستحسنها)

والعصمة : الامتناع من الذنب مع استحالة الوقوع فيه، وذلك واجب الأنبياء عليهم السلام .

والحفظ : الامتناع من الذنب مع جواز الوقوع فيه، والكل بستره الجميل وفضله الكامل ، وإلاَّ فلا عاصم من أمر الله إلاَّ من رحم .

والستر فيها : حجاب عن الفضيحة بعد الوقوع .

والناس في ذلك نوعان ، ذكرهما المؤلف بأن قال :

العامة يطلبون الستر من الله فيها خشية سقوط مرتبتهم عند الخلق

قلت : فهم لا يفرُّون منها أولاً وابتداء ولا يرون الفضيحة آخراً وانتهاء ، ولذلك صح منهم الرياء والتصنع تستراً وتجملا ، وذلك من قصور هممهم ونقص إيمانهم . وإذا وجدوها دون فضيحة لم يرجعوا عنها .

ثم إذا كان طلبهم للستر فرارهم من ذلك شفقة على عباد الله من الوقيعة فهم أولى لافتدائهم ونحو ذلك ، فقد يُرجى لهم لاسيما إن اقترن ذلك بالتوبة والإنابة [1] والله أعلم .

ثم قال :

---

(١) وفي التيمورية (ثم إن كان طلبهم للستر من الله تعالى فقد رجعوا إليه بما لا يرضاه لهم من حيث مرادهم فكان رجوعهم حجة عليهم لا لهم إلا أن يكون فرارهم من ذلك شفقة على عباد الله من الوقيعة فيهم ، أو الاقتداء بهم ، أو نحو ذلك ، فقد يرجى ..)

والخاصة يطلبون الستر عنها خشية سقوطهم من نظر الله الملك الحق

قلت : فهم يفرّون منها إبتداء وإن طلبوا سترها انتهاء ،فلا يضرهم ذلك ، وذلك من تعظيمهم لمولاهم . وتحقق إيمانهم ، ثم هم فيه على مراتبهم، فمنهم من يطلب ذلك لخوف العذاب ، ومنهم من يطلبه لخوف الحجاب، ومنهم من يطلبه خوفاً من فوات الثواب ، ومنهم من يطلبه إشفاقاً من الطرد عن الباب ، ومنهم من يطلبه اتقاء للطرد عن الباب والإبعاد عن الجناب . . إلى غير ذلك .

وكل ذلك راجع لما ذكر من السقوط من نظر الملك الحق على وجه الإشفاق والرحمة ، لأن ذلك يقتضى فوت كل خير وحصول كل شرٍّ . وأكملهم من يطلب ذلك حياء وهيبة وإجلالا وتعظيما حتى لو غفر ذنبه ماسقط خجله كما قال الفضيل بن عياض[1] رحمه الله :(وآسو أتاه منك وإن غفرتَ » انتهى .

وقد يتركب من القسمين قسم ثالث ، وهو طلب الستر فيها إذا حصلت وعنها إذا لم تحصل وذلك مقتضى الحقيقة والشريعة ، لكن إنْ كان ذلك من حيث ما أمر الله فصحيح مليح ، وإلا فالالتفات للخلائق نقص . والله الموفق .

---

(١) هو : أبو على الفضيل بن مسعود بن بشر التيمى . خرسانى من ناحية « مرو » ، قيل إنه ولد بسمرقند . مات بمكة فى المحرم سنة : سبع وثمانين ومائة. كان إماما ربانيا صمديا عابداً شديد الخوف دائم الفكر .

وإذا كان المانع من المعصية وجود الستر عنها ، ومن الفضيحة فيها ذلك فإكرام الخلق إذن راجع لستره سواء كنت مطيعاً أو عاصياً . وهذا مانبه عليه المؤلف إذ قال :

من أكرمك فانما أكرم فيك جميل ستره

قلت : وذلك لأنك من حيث أنت محل كل عيب أصلا وفضلا سواء كنت مطيعاً أو عاصياً ، منعَّما كنت أو مُبْتَلى ، فلله درُّ القائل : « ماهنالك إلاَّ فضله ، ولا تعيش إلاَّ فى ستره ، ولو كشف الغطاء لكشف عن أمر عظيم » .

فالعباد إنما يتعاملون بستر الله سبحانه ؛ إذ لو كشف البواطن والضمائر مانظر أحدٌ فى أحد ، ولقلا الإنسان أحبَّ الناس ، فوجب الحمد لربنا على ستره كما قال :

فالحمد لمن سترك ليس الحمد لمن اكرمك وشكرك

قلت : إذ لولا وجود ستره ما جرى لك شكر من غيره ، فلا تحمدن أحداً على فضل الله ، ولا تذمنَّ أحداً على مالم يؤتك الله ، وإن كان شكر الخلائق واجباً ، فمن حيث إنه مأمور به صار من شكر الله ، وسرُّ وجوبه التحرُّر من رق إحسانهم والقيام بمجازاة امتنانهم ، فمجاز الشكر لمن له مجاز الإحسان ، وحقيقة الشكر لمن له حقيقة الفضل والامتنان . فافهم :

ومن برهان ما ذكر من أن المشكور فينا ستره أن علم أن الخلائق

بعيوبنا يوجب نفرتهم عنا ، وهو تعالى عليم بخفيِّ الخفيِّ من أمرنا ، ومع هذا أجرى فضله وإحسانه علينا . وهذا ما نبَّه عليه المؤلف إذ قال :

ماصحبك الا من صحبك وهو بعيبك عليم وليس ذلك الا من مولاك الكريم

قلت : يقول ماصحبك حقَّ الصحبة إلاَّ من صحبك مع علمه بعيبك تفصيلاً ، واطلع عليه تأصيلاً وتحصيلاً ، لأنه لا يتركك بزلة ولا يردُّك بنقص ، ويرفق بك فى كل حال من أحوالك ، ولا يعلم عيبك على التفصيل إلا خالقُك ومولاك ، ثم مع ذلك فهو يأمرك وينهاك وتعصى أمره فلا يدعك لأحدٍ من خلقه ، بل يرأف بك رأفة تدعوك للانحياش إليه إن غفلتَ ، ولو علم الخلائق بعض البعض مما علم الله منك ما نظروا إليك ، بل كانوا يرجمونك ويؤذونك على فعلك إلاَّ من هو ناظر إليك بربك . متخلقاً بالرحمة الإلهَية فى حفظك ، وقليلٌ ماهم : بل أقل من القليل ، ولله درُّ القائل :

جنّب الناس جانباً وارض بالله صاحباً
وقلّب الناس كيف شئت تجــدهم عقاربا

ثم ذكر المؤلف برهاناً آخر يدعو إلى الإنحياش إلى الله ، وتركِ ما سواه ، كالذى قبله والذى قبلهما فقال :

خير من تصحبه من يطلبك لالشيء يعود منك اليه .

قلت : وليس ذاك إلاّ مولاك ، لأن صحبة الخلائق كلها مقرونة بالعلل فلا يصحبك أحد إلاّ لما يعود إليه من نفع أو دفع ضرّ ، حتى أن من صحبك لذاتك فإنما أجاب فيك داعية نفسه ، وعاد عليه منك تبريدُ حرقة الشوق والمحبة من قلبه، واستلذاذه بالإتصال والوصلة بما يريده من صحبته، والربّ تعالى غنيّ منزَّه عن الأغراض والأعواض؛ فهو يعطيك ولا يأخذ منك ، ويُريحك ولا يستريح إليك ، فاعطِ الأدبَ حقَّه بأن لاتعرّج على غيره أبداً . وبالله التوفيق.

ثم ذكر المؤلف هنا من إطلاق الصحبة ما قد وقع فى حديث (اللهم أنت الصاحب فى السفر . .) فهم قوم جواز إطلاقه حيث لاإيهام ، ومنعه آخرون إلاّ حيث ورد ، فلعل الشيخَ ممن يرى جوازه.

وكذلك وقع للامام أبى حامد وجماعة من أئمة هذه الطريقة . والله أعلم .

وإذن قد بان لك أن صحبة الخلائق لا عِبرة بها من حيثهم،فالدنيا أيضاً كذلك ، لأنها فانية زائلة ، لكن حجاب الوهم وضعف اليقين بعّدَ ذلك !! كما نبّه عليه المؤلف إذ قال :

لو أشرق نور اليقين لرأيت الأخرة اقرب من ان ترحل اليها .

قلت : لأن الآتى قطعاً كالموجود فى الحال ، ولأن بادى النقص

تشاهد بدحول تلك فى هذه فهى عينُها لمن عقل حكمها ، وإن كانت أحكامها مختلفة .

وقد قال أحمد بن عاصم الأنطاكى ، رضى الله عنه : « اليقين نور يجعله الله فى قلب العبد حتى يشاهد به أمور آخرته ، ويخرقَ به كل حجاب بينه وبينها حتى يطالع الآخرة كالمشاهِد لها » .

وقال حارثة رضى الله عنه لرسول الله صلى الله عليه وسلم لمَّا سأله:

كيف أصبحتَ يا حارثة ؟

قال : أصبحتُ مؤمناً حقًّا .

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لكلّ حق حقيقة ، فما حقيقة إيمانك؟ قال : كأنِّى بعرش ربِّى قد نُصب، وبأهل الجنة يتنعَّمون، وبأهل النار فى النار يتعاوون .

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : عرفت فالزم عبَّد نوّر الله قلبه . . الحديث) وقال عليه الصلاة والسلام : (إن النور إذا دخل القلب انفسح وانشرح قيل : يا رسول الله، وهل لذلك من علامة يُعرف بها ؟

قال : التجافى عن دار الغرور ، والإنابة إلى دار الخلود ، والاستعداد للموت قبل نزوله » انتهى .

ثم قال:

ولو رأيت محاسن الدنيا وقد ظهرت كسفة الفناء عليها.

قلت: هو من تتمة الكلام الذى قبله، فاليقين إذا أشرق كشف عن الدنيا والآخرة، إذ شأنه الكشف فيحصل العلم بأن الآخرة خير من الدنيا.

والكِسْفَةُ: من الكسوف، وهو: التغيير وظهور كسفة الفناء على هذه الدار بما يَعرض عليها من عوارض النقص والتغيير والانقلاب كضعف القوة وخلق الجدّة[1]، أو غير ذلك، فافهم.

فخرج من جملة ما ذكر أن الدنيا ناقصة زائلة، وأن الخلق لا استقلال لهم ولا كمال، بل ولا وجود على الحقيقة[2]، فالاشتغال بهم تعلّق بالوهم دون حقيقة كما قال:

ما حجبك عن الله وجود موجود معه، إذ لا شيء معه وإنما حجبك عنه توهم موجود معه.

قلت: فاشتغالك بثناء الخلق وذمّهم، وتعلّقك بالسرّ لأجلهم، وانتظار المنافع من قِبَلهم، وتوجّهك للدنيا بالكل حتى حُجبتَ به عن مولاك، من تعلّقك بالوهم القاضى باعتبار ذلك كلّه مع الحق سبحانه، وذلك باطل ووهم؛ لما قضى به من التحقيق من أنه تعالى المنفرد بالخلق

---

(١) فكل جديدها (الدنيا) خلق: أى يبلى وتذهب جدته.

(٢) لأن الوجود الحقيقى إنما هو وجود واجب الوجود.

والتدبير والمتوحِّدُ بالحكم والتقدير ، فالكلُّ به وإليه فهو الموجود وحده لا غيره .

قال فى « لطائف المنن » : « وأشبه شىء بوجود الكائنات إذا نظرت إليها بعين البصيرة وجود الظلّ . والظِلُّ لاموجود باعتبار جميع مراتب الوجود، ولا معدوم باعتبار جميع مراتب العدم ، وإذا أثبتت ظِليَّةُ الآثارُ لم تنسخ أحدية المؤثر ، لأن الشىء إنما يشبّه بمثله ويضم إلى شكله كذلك أيضاً من شهد ظلِّية الآثار لم تعقه عن الله تعالى ، كما أن ظلال الأشجار فى الأنهار لا تعوق السفنَ عن التسيار .

ومن هنا يتبيّن لك أن الحجاب ليس أمراً وجودياً بينك و بين الله تعالى ، ولو كان الحجاب وجودياً بينك و بين الله تعالى للزم أن يكون أقرب إليك منه ، ولا شىء أقرب من الله ، فرجعتْ حقيقة الحجاب إلى توهّم الحجاب » انتهى . وهو كالبيان لما هنا . فافهم .

وبحسب هذا فالنظر إلى صفاته يقضى باضمحلال مخلوقاته كما قال :

لو ظهرت صفاته اضمحلت مكوناته .

قلت : إذ لا ثبات للخلق مع ظهور آثار الحق « يا عجبا ! ! كيف يظهر الوجود فى العدم؟! أم كيف يثبت الحادث مع من له وصف القدم» لا يكون ذلك أبداً ، وليس إلاَّ هو وحده . بيان ذلك فيما اتبع هذه الجملة به إذ قال :

لولا ظهوره فى المكونات

أى بآثار أوصافه القدسية التى هى اتقانها بالعلم وتخصيصها بالإرادة وإبرازها بالقدرة .

ما وقع عليها وجود أبصار

قلت : يريد لا بالبصائر ولا بالأبصار ، لأنها كانت تكون عدماً محضاً ونفياً صرفاً ، فما ظهر فى الكون سوى آثار أوصافه : فالظاهر إذن أوصافه ورؤية غيرها بلا هى من الوقوف مع الوهم المقيّد بالصور دون رجوع للحقيقة الرافعة للوهم ، فافهم .

ثم ظهورُ الأكوان إنما هو للدلالة عليه ؛ فإذا ظهر لم يكن لشىء وجودٌ معه ، لثبوت أحديته وظهورها بما ظهر من فعله الموصّل إليه . وهذا ماذكره بأن قال :

اظهر كل شىء لانه الباطن

يعنى الذى لا وصول إلى معرفته إلاّ بما ظهر منه لدلالته عليه من حيث ولاه ذلك .

وطوى وجود كل شىء لانه الظاهر

يعنى لايصحّ ظهور شىء مع ظهوره لاستتاره فى وجوده وعدم استقلاله بوجوده ؛ فحكمة ظهور الخلق لوجود التعريف وحصول المعرفة ينفى وجودهم فسبحانه الظاهر الباطن العليم .

ثم دلالة المخلوقات إنما هو بما فيها عن حُكْمه وحكمته ، لا بأعيانها

لعدم جدوى ذلك ونفى إفادته . وهذا ما نبَّه عليه المؤلف إذ قال :

اباح لك ان تنظر فى المكونات وما اذن لك أن تقف مع ذوات المكونات

قلت : عبرّ بأباح ، ليشعر بأن النظر والاستدلال غير واجب ، أو إشعاراً بأن المطلوب أولاً تحصيل العيان لا إقامة الدليل والبرهان ؛ لأنه يؤذن بالغيبة ، وهى تقص عند ذوى الأبصار ، حتى لقد قال مريد لشيخه : إن فلاناً يستدل على وحدانية الله بألف دليل .

فقال الشيخ : يا بُنَىَّ ، لو عرف الله ما استدل عليه ، فبلغ ذلك العالمُ فقال : صَدَق ، هم يشاهدون على العِيان ونحن ننظر من وراء الستر ، وقال مريد لشيخه : ياأستاذ ، أين الله ؟

قال : أسحقك الله !! أتطلب مع العين أَيْنٌ ؟ !

والذى فى المكنونات مادلت عليه من عجائب القدرة والإرادة والعلم إتقاناً وتخصيصاً وإبرازاً على اتساع ذلك ، وإنما لم يأذن فى الوقوف مع ذواتها ، لأنها حجاب صارف مانع عمّا وراءه ، كما تقدم فى غير ماموضع ، والله أعلم .

ثم نزع المؤلف بالآية الكريمة وبَسط المعنى فيها بأن قال :

قل أنظروا ماذا فى السموات ، ولم يقل أنظروا السموات

قلت : فأشار بفى ؛ لأن موقع النظر ما احتوت عليه ، فهى ظرف لما يقع النظر عليه ، لا أنها هى المقصودة به ، ثم زاد ذلك بياناً فقال :

فتح لك باب الافهام

قلت : يعنى بما أتى به من ذكر الظرفية الدالّة على معنى زائد على أعيانها ، وأنه هو الذى يتعلّق النظر به ، فإن تأوّله متأوّل بما يُرده لأعيانها لم يبعد ، ولكن الوقوف مع النظر أولى من التأويل، وإخراجُ اللفظ عن معنى يهدى إليه ولا يقدح فى حقيقة ما دل عليه ليس بصواب فافهم ثم قال:

ولم يقل انظروا السموات لئلا يدلك على وجود الاجرام

قلت : وذلك لأن الدلالة عليها لافائدة فيها ، بل هى صارفة بالاشتغال بها عن عين الحقيقة وتحقيقها وذلك أكبر المصائب وأعظم الآفات والنوائب ، ولله درّ القائل :

ما الغد؟ ما الطرف الكحيل، وما اللمّا   لولاك تشهد فى حلاه وتُرمَقُ

وجملة الأمر وكليته ، ومداره ، وحقيقته ، ومبناه ، ووجهه، ومعناه راجع لِما ختم به الباب إذ قال :

ألاكوان ثابتة باثباته ، وممحوة باحدية ذاته

قلت : يقول : إنك إذا نظرت الخلق من حيث إثبات الحق لهم رأيتهم وجوداً ، وإذا نظرت إليهم من حيث ماهم عليه من الفقر والنقص وعدم الاستقلال رأيتهم محواً ، قال فى « التنوير » عند كلامه على الأسباب وحكم النظر إليها مانصّه : « والقول الفصل فى ذلك أنه لابدّ من الأسباب وجوداً ، ومن الغيبة عنها شهوداً، فاثبتها من حيث أثبتَها

بحكمته ، ولا تستند إليها لعلمك بأحديته » انتهى وهو عين المراد ومخ المعرفة فى مراعاة الأسباب . وبالله التوفيق .

تنبيه :

إذا كانت الأكوان معتبرة من حيث هو تعالى الذى أوجدها وجب أن لا ينظر فى إقبالها وإدبارها إلا إليه ، فإذا أثنى عليك الخلائق فانظر لنفسك بحكم الحقيقة ترها مذمومة ضرورة . وهذا ماافتتح به الباب الخامس عشر .

الباب الخامس عشر

إذ قال رضي الله عنه : الناس يمدحونك بما يظنون فيك ، فكن أنت ذاما لنفسك لما تعلمه منها .

قلت : مدح الناس للعبد على حسب ظنّهم فيه من الخير والصلاح الذي اقتضاه ظاهر حاله لا يدفع ما هو عليه من النقص في جميع أحواله ، فوجب ألا يقف في مدحهم ولا يلتفت إليهم ، بل يذمّ نفسه بما يعلمه منها ، وذلك على وجوه ثلاثة :

أحدها : أن ينظر لما جبلت عليه من النقص والإساءة فلا يراها أصلاً لما ذُكرتْ به ، وأن ذلك من فضله تعالى ومنّته ، إذ لا يليق به من حيث ذاته ، وذلك رأسُ الذمِّ لها .

الثاني : أن ينظر لما تضمنه ما مدحت به من التقصير والإساءة فيذكّرها به ، كالرياء في العمل ، والتزيين ونحوه .

الثالث : أن يثبت لها ما جهلته أو غفلت عنه من سيئات أُخر بأعمال خفيّة ؛ إذ لكل إنسان خبيئة من عمله (والإنسان على نفسه بصيرة) .

هذا كلّه إن كان ما مدح به موجوداً فيه ؛ وإلاّ فيذمّها بالتقصير والنقص عما ذُكرت به إن لم يثبت لها ، والمتشبّعُ بما لم يُعطَ كلابس ثوبي زور ، فافهم .

ثم نظر العبد لمولاه يذكّر بحقارة نفسه ، وهذا ما ذكره المؤلف بأن قال :

المؤمن اذا مدح استحيا من الله أن يثنى عليه بوصف لا يشهده من نفسه .

قلت : مرادُه المؤمن الكامل ، وقوله إذا مدح : يريد بما فيه ، أو بما ليس فيه ، فإنه إن مُدح بما فيه وليس منه فيستحى من الله[1] أن قد ستره فيما هو فيه ، وهو يجرى عليه ثناؤه الجميل بما لم يكن من شأنه فهو لا يشهده من نفسه وجوداً وإن كان موجوداً فكيف بشهوده موجوداً ولا وجود ، فافهم .

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (المؤمن إذا مُدح ربا الإيمان فى قلبه . . الحديث) .

فالمدحُ لا يُذمُّ من حيث ذاته ، ولا يحمد من حيث ذاته ، فلذلك قد يكون موصّلاً للكمال أو موصّلاً للنقص ، أو غير موصّل لشىء منهما[2] كما أشار إليه المؤلف إذ قال:

---

(١) زاد فى التيمورية بعد فيستحى من الله تعالى زاد قوله (أن يكون له نسبة مع مولاه فيما من به عليه وأولاه فيأخذ فى شكره وشهود منته حياء من ذكره معه ، وإن مدح بما ليس فيه فيستحى من الله أن قد ستره بما هو به وهو يجرى عليه . . الخ) .

(٢) وزاد فى التيمورية بعد قوله أو غير موصل لشىء منهما (ولكل دليل ووجه ، ومن وجوهه المذمومة كونه بالباطل وقبوله على ذلك أكبر وأعظم كما أشار إليه المؤلف . .) .

أجهل الناس من ترك يقين ما عنده لظن ما عند الناس

قلت : يقين ما عنده هو ما عليه من ذنوبه وعيوبه . وظن ما عند الناس هو ما ظهر عليه من خالص أعماله وصالح أحواله ، بل يقين ما عنده عجزه ونقصه وتقصيره وإساءته . وظن ما عند الناس كون ذلك منه حقيقة . والخروجُ عن ذلك كلّه إنما هو بالثناء على الله لأجل ستره . وهذا ما ذكره إذ قال :

اذا أطلق الثناء عليك ولست باهل فاثن عليه بما هو أهله

قلت : يقول : إذا أطلق الثناء عليك عموماً أو خصوصاً بأمر عام أو خاص ولم تر نفسَك أهلاً له من حيث نقصُك وقصورُك فارجع لمولاك بالثناء عليه ؛ إذ أظهر عليك ما لست بأهل له من حيث ذاتُك ذاكراً نعمته فيما واجهك به من ذلك ؛ إذْ ستَر القبيحَ وأظهر الجميل ولم يؤاخذ بالجريرة .

والناس ثلاثة :

رجل رأى نفسه مستحقاً للمدح والثناء فهلك .

ورجل رأى نفسه ليس بأهل ولم يشعر بإحسان الله إليه فاشتغل بذم نفسه وتوبيخها على ما هي متلبسة به وما فرط منها فسَلِم من آفاتها .

ورجل رأى نفسه كعروس افتضت بزنا وأهلها يريدون لها الزفاف فتطلب الستر عند المواجهة وتنظر لنقصها في الحال قائلة : إذا

وصلتُ إليه فسترني ثمَّ لى ولكم ما نريد ، وإلاّ فأنتم يتم أمرُكم وأنا كما شاء وحكم . وعلى هذا يتنزّل قول علىّ كرّم الله وجهه عند ما سمع الثناء عليه : اللهم اجعلنى خيراً مما يظنون ولا تؤاخذنا بما لا يعلمون ، واغفر لنا ما يقولون » .

ومن وراء هذا مراتب أهل الحقيقة ، وهم ثلاثة :

من لا يبالى بإقبال ولا إدبار .

ومن يعتبر بإدبار الخلق دون إقبالهم لشعوره بالإنفراد للحق .

ومن يرى الخلق أقلام الحق وهم العارفون الذين ذكرهم المؤلف بأن قال :

الزهاد اذا مدحوا انقبضوا لشهودهم الثناء من الخلق
والعارفون اذا مدحوا انبسطوا لشهودهم ذلك من الملك الحق

قلت : شهودُ أفعال الخلق من حيث هم من نقص المعرفة بالحق ، وشهودها من حيث إجرائها عليهم من المعرفة به ، وبحسب هذا فالعارف يرى الخلقَ أقلام الحق ، إذا أثنوا عليه فرح بذلك من حيث مولاهم لا من حيث هم ؛ فيزيده ذلك شكراً لمولاه، وسكوناً إليه وفراراً مما سواه ، وغيره من يرى أفعالهم من حيث هم فيقبل ويدبر بحسب ما يواجهه منهم ، فإن كان راغباً فرح بالمدح من حيث ثبوت منزلته عندهم وظهورها بينهم فيكون المدح فى حقه ذبحاً لكونه يدعوه لمراءاتهم والتصنّع والتزّين لهم ، وإن كان زاهداً لم يقبل ذلك منهم ،

بل يسكن لذمّهم أكثر من مَدحهم ، ولإدبارهم أكثر من إقبالهم رجوعاً لقوله عليه السلام (أحثوا التراب فى وجه المادحين) ولقوله عليه السلام (المدح هو الذبح) ولقوله عليه السلام لمن مُدح عنده : (قطعتم عُنق صاحبكم) .

وعمل العارفين فى ذلك على الحديث الصحيح (إن الله إذا أحبّ عبداً نادى جبريلَ أنّى أحبّ فلاناً فاحبّه ، فيحبّه جبريل ، ثم ينادى جبريل فى أهل السماء إن الله يحب فلاناً فأحبّوه فيحبه أهل السموات ، ثم يوضع له القبول فى أهل الأرض »[1] ولا يتصوّر تأويله كما تؤولت الأحاديث الأُخر ، فلزم حمله على وجهه والعمل به للخاص لا لعموم الخلق . وبالله التوفيق .

ثم حال العارف والعامىّ فى الصورة واحدٌ ؛افترقا بالحقيقة التى بينها المؤلف إذ قال :

متى أعطيت بسطك العطاء ، واذا منعت قبضك المنع فاستدل بذلك على ثبوت طفوليتك وعدم صدقك فى عبوديتك

قلت : هذه علامة يعرف بها المريد حاله فى العطاء والمنع والمدح

---

(١) روى الإمام مسلم عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « إن الله تعالى إذا أحب عبداً دعا جبريل فقال : إنى أحب فلاناً فأحبه فيحبه جبريل ثم ينادى فى السماء فيقول إن الله يحب فلاناً فأحبوه فيحبه أهل السماء ، ثم يوضع له القبول فى الأرض ، وإذا أبغض عبداً دعا جبريل فيقول إنى أبغض فلاناً فأبغضه فيبغضه جبريل ثم ينادى فى أهل السماء إن الله تعالى يبغض فلاناً فأبغضوه ثم توضع له البغضاء فى الأرض .

والذم ؛ فإذا كان يقبل ذلك ويردّه من حيث الطبع والعادة ، ومن حيث هو إقبال وإدبار فذلك دليل نقصه ؛ إذ هو كالطفل فى إقباله وإدباره لا يشعر بما وراء العطاء والمنع ، ولا يفرح ولا يحزن إلا لهما ، وهو من مراعاته للخلق فى حاله فيحتاج لمقابلتهم بالقبض[١] من الفرار من المدح والفرح بالذم حتى يستوى عنده الحالان ، أو يكون الذمُّ أشهى إليه ، أو تغلب عليه الحقيقة فيفرح بمولاه ويحزن لمولاه ، وعلامة صدقه فى ذلك وجود العدل فى الرضا والغضب فلا يتجاوز الحدّ فى مدح محسن وإكرامه ، ولا فى ذمّ مسيء وإهماله .

وقد قال أبو عثمان الحيرى[٢] رضى الله عنه : « لا يكمل الرجل حتى يستوى قلبه فى أربعة أشياء : فى المنع ، والعطاء ، والعز ، والذل » .

تنبيـه :

توقّف المدح والذم داع لوجود العصيان بمقابلة الذامّ والمادح ، بخلاف الحقّ واغترار النفس به وسكونها إليه ، وحبّه بالباطل ، وذلك يوجب التوبة والرجوع إلى الاستقامة ، فلذلك افتتح .

---

(١) وفى التيمورية (فيحتاج إلى مقابلتهم بالنقيض) .

(٢) هو أبو عثمان سعيد بن إسماعيل الحيرى من الرى ، وأقام بنيسابور وقرأ على أبى حفص الحداد وأقام عنده وتخرج به وزوجه أبو حفص ابنته . مات سنة : ٢٩٨هـ .

به بأن قال :

وقال رضى الله عنه : اذا وقع منك ذنب فلا يكن سببا يؤيسك من حصول الاستقامة مع ربك

بل اجعله مفتاح الرجوع إليه بالتوبة والإنابة رجاءً فى الله وخوفاً منه ؛ لأن اليأس من رحمة الله كوجود الاغترار بالله ، ولا يعظِّم الشيطان عندك الأمرَ بما عسى أن يكون تقدَّم لك من كسر التوبة ، ولا بما تعلمه من نفسك من قلة الوقار والخشية ، ولا بما تراه من عظم الذنب وكبر السيئة ؛ فإن الله لا يتعاظمه ذنب يغفره .

قال الإمام أبو حامد رضى الله عنه : وكما اتخذت الذنب والعودَ إليه حرفة فاتخذ التوبة والعودة إليها حرفة، فما أصرَّ من استغفر ولو عاد إلى الذنب فى اليوم سبعين مرة » وقد ذكر ذلك فى حال من استقام بعد عظم الذنب وقبائح الامور ، فلا أعظم ذنباً من فرعون وقد قال الله تعالى (فَقُولَا لَهُ قَوْلاً لَيِّناً لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى . . . الآية)[1]

ثم الذنب الواقع منك قد يكون آخر ذنبٍ قُدّر عليك كما قال :

فقد يكون ذلك اخر ذنب قدر عليك

قلت : وذلك بان يصرفك الحق عنه ، أو يصرفه عنك بأحد وجوه

---

(١) آية ٤٤ من سورة طه .

ثلاثة: أن تستقيم على التوبة فلا تراجعه أبداً لوجود صدقك، أو تعاجلك المنيَّة قبل العود إلى مثله، أو تصرفك الموانع عن فعله، فمن العصمة أن لا تجد، ومن العصمة أن لا تقدر، وإن لم يكن شيء من ذلك فالذنب الماضي قد مُحِي عنك بوجود التوبة فلم يكن عليك غيرُ هذا الأخير. وكنت في غيبة عن الذنب وغروب عن العزم إلى وقوع الثاني فبرئت من الإصرار وهو من العظائم. وهذا رأس الغنيمة. وبالله التوفيق.

ثم الحامل على التوبة إنما هو رجاء أو ما في معناه، أو خوف أو ما في معناه، ولكل منهما باعث يخصّه أو سبب يتوصّل به إليه، ذكره المؤلف بأن قال:

ان أردت أن يفتح لك باب الرجاء فاشهد ما منه اليك . وان اردت ان يفتح لك باب الحزن فاشهد ما منك اليه .

قلت: وإن أردت أن ينفتح لك كلٌّ منهما فاشهد كلَّ واحد في عين الآخر، وعند ذلك يستوي رجاك وخوفك فتكون على كمال في حالك.

والذي منه إليك ثلاث:

نعمة الإيجاد، ونعمة الإمداد، ونعمة الإبعاد: إبعاد البليات والمحن[1] وهي: الوزرُ، ونسيان الذكر.

---

(١) زاد في التيمورية (ونعمة الإبعاد إبعاد البلايا والمحن، وهي نعمة الدفع كما أن اللتين قبلهما نعمة النفع. والذي منك إليه ثلاث: مخالفة الأمر ومفارقة الوزر ونسيان الذكر وانما يتحقق.. الخ)

وإنما يتحقق شهود كلٍ بثلاث :

ذكر النعم أو ضدها تفصيلا ، وإلزامها دليلا ، وتكراره الذكر بكرة وأصيلا . وينتفى بثلاث :

الاشتغال بوجه الحكم والحكمة فى الواقع ، والقناعةُ بالجملة قبل التفصيل فإنه يزيد فى الجرأة ولا يشفى غلة ، فاعتبار ذلك بالحفظ والذكر حتى كأنه نصب عينيه حتى يشكر النعمة ويتبرأ من وجود النقمة . وبالله التوفيق .

ثم الحزن أعمّ من أن يكون مع خوف أم لا ، والرجاء أعمُّ من أن يكون فى الجنة أو غيرها ، يَعُمُّ ، والقبض حال الحزن ، والبسط حال الرجاء ، وتختلف نفعاً بحسب القوّة والضعف فى الحال الوارد عليهما فوجب الوقوف مع ما يظهر من ذلك للجهل بمحل الفائدة كما قال :

ربما أفادك فى ليل القبض مالم تستفده فى اشراق نهار البسط

وربما كان العكس ، فاقبل ما واجهك منهما من غير مبالاة بغيره ، وأقبل فى ذلك ما قال الله تعالى فى حق الأبناء والآباء **(لا تدرون ايهم اقرب لكم نفعا)**

أشار بالآية إلى أن البسط من بساط الجمال ، وهو أصل وجودنا ؛ فهو بمثابة الأب . والقبض نتيجة أفعالنا فهو بمثابة الابن[1] وعدم تحصيل الثانى فلذلك قال :

---

(١) زاد فى التيمورية بعد ذلك (ثم هما نتائج أنوار القلوب والأسرار =

قلت: لأن أصلها فهم أو علم ، فالفهوم للقلوب ، والعلوم للأسرار

وقد قال شيخنا أبو العباس الحضرمى ، رضى الله عنه ، بعد كلام ذكره فى كتب له :

« والفهم فى ذلك بحسب واردات القلوب وبحسب النور الموضوع فى باطن القلب ، ثم قال : وأى نور هو ؛ فإن الأنوار مختلفة : نور الطبع ، ونور العقل ، ونور الروح ، ونور القلب ، ونور سويداء القلب ، ونور السر ، وهو أعظم الأنوار وأجلها وأكملها قال : ولكل نور من هذه الأنوار تأويل وتنزيل وتحويل وتنقيل ، ولكل مقام منها شرح ما تسعه الصدور فضلا عن السطور ، وما يعلم جنود ربك إلا هو » انتهى .

وقد بينا هذه الأنوار فى مواضعها وبالله التوفيق .

ثم مرجع الأنوار ، وإن تعددت ، لأصلين(١) ذكرهما المؤلف بأن قال :

نور مستودع فى القلوب مدده النور الوارد من خزائن الغيوب

قلت : فالنور المستودع فى القلوب هو المطبوع(٢) فى باطن القلب

= وهى غير محكومة عليها فوجب أن نتحاشى ولا نخالف لتفويت الأول وعدم تحصيل الثانى . .)

(١) وهما : القلوب والأسرار . (٢) وفى نسخة : الموضوع .

الفائض من نور مشاهدة يوم الميثاق يوم (ألستُ بربكم ، قالوا بلى) فهو للقلب بمثابة نور العين به تُبْصر ، لكن بعد ورود نور الإلهام الوارد من خزائن الغيوب ، الذى هو بمثابة الشمس المنبسطة على المنظور فيه ، ولا يحصل الإبصار إلاَّ باجتماعهما كما قيل :

رأيت العقل عقلين فمطبوعٌ ومسموع

ولا ينفع مسموع إذا لم يك مطبوع

كما لا تنفع العين وضوء الشمس ممنوع

ثم هذا النور باعتبار انبساطه نوعان ذكرهما المؤلف بأن قال :

نور ينكشف لك به عن آثاره ، ونور ينكشف لك به عن أوصافه

قلت : وكلاهما باطنان ؛ فإذا كشف لك به عن آثاره رأيتها على ما يليق بها من النقص والزوال فى هذه الدار ، وعلى ما هى عليه من البقاء والدوام والكمال فى تلك الدار ، فترجو وتخاف وتطلب النجاة والثواب لعلمك بالدنيا وانقراضها ، وعلمك بالآخرة ودوامها ، وما أعدَّه الله لمن أطاعه وما توعَّد به لمن عصاه ، وإذا كشف لك عن أوصافه تعالى ، رأيت النقص فى كل شىء بكماله ، بل فناء كل شىء فى وجوده ؛ إذ لو ظهرت صفاته اضمحلت مكوِّناته ، فلم يبق لك مع غيره قرار ، ولا عما سواه خيار .

ثم هذه الأنوار إنما توجب ماقلناه مع تَمكنها من القلب لا مع ظهورها فى عوالمه فقط ، ولذلك قال بعضهم : « إذا كان الإيمان فى

ظاهر القلب ، يعنى على الفؤاد ، كان المؤمن يحب الله حباً متوسطا ، فإذا دخل الإيمان باطن القلب وكان فى سويدائه أحبه الحب البالغ» اهـ.

ثم الأنوار قد تكون حجاباً كما تكون الأغيار حجاباً ؛ وهذا ما نبَّه عليه المؤلف بأن قال :

ربما وقفت القلوب مع الأنوار . كما حجبت النفوس بكثائف الأغيار

قلت : يقول : قد تقف القلوب مع الأنوار فتحجب عن المنوِّر بوقوفها ، كما تقف النفوس مع الأغيار فتحجب بوجودها عن الأنوار.

ثم وجوه الوقوف مع الأنوار ثلاثة :

أحدها : الأُنس بها ، والتعشُّق بوجودها استحلاءً لها وحباً فيها .

الثانى : القنوعُ بها والنظر إليها مع عدم الالتفات لما بعدها .

الثالث : رؤية أنها الغاية التى ليس شىء وراءها .

وقد تقدَّم من كلام « ابن الجلاء » : « من وقف بهمَّته على مادون الحق فاته الحق ، لانه أعزُّ من أن يرضى معه بشريك »

ولله درُّ ابن الفارض حيث يقول :

وإن اكتفى غيرى بطيف خياله ... فأنا الذى بوصاله لا أكتفى

وكثائف الأغيار ، معناه : الأغيار الكثيفة ، فهو من إضافة الشىء إلى نفسه . والأغيار جمع غَيْر بالفتحة والسكون ، وهو : يطلق على كل شىء سوى الحق سبحانه وتعالى . وتقدّم معنى هذه الحكمة عند

قوله (ما أرادت همة سالك أن تقف عندما كشف لها) فانظره .

وفى معناه للشيخ أبى الحسن التسترى رضى الله عنه ، ورحمه ، ورحمنا بهم جميعاً :

تقيّـدتَ بالأوهـام حتّى تداخلت
عليك ونورُ العقل أورثك السجنا
وهِمْتَ بأنوار فهمنا أصـــولَها
ومنبعها من أين كانت فما هِمْنا
وقد تحجب الأنوار للعبْـدِ مثلما
تُبعده أوصاف نفس حَوَت ضِغْنا
وأىُّ وصالٍ فى القضية يُدّعَى
وأكملُ من فى الناس لم يدّع الأَمْنا

ثم ذكر المؤلف حكمة ستر أسرار الأولياء عن عوام الخلق وعدم اطلاعهم عليها فقال :

ستر أنوار السرائر بكثائف الظواهر اجلالا لها أن تبتذل بوجود الاظهار وينادى عليها بلسان الاشتهار

يقول : ستر الله تعالى أنوار السرائر التى هى ما يتحقّق به الأولياء والعارفون من أحوال المنازلات، ومنازلات الأحوال، وحقائق المعارف ومعارف الحقائق ، بكثائف الظواهر وظواهر الكثائف التى هى أوصاف البشرية ؛ إذ جعلها مظهراً لها وموقفاً فيها ، وغير منفكّة

عنها ، حتى أنّ الجاهل ليندفع عن الوليّ من أجلها كما اندفع الكافر عن الأنبياء بذلك ؛ إذ قالوا (ماهذا إلاّ بشر مثلكم يأكل مما تأكلون منه ويشرب مما تشربون) (وَقَالُوا مَا لِهَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الأَسْوَاقِ) إلى غير ذلك .

وما سترها الحق تعالى بذلك إلاّ غيرْة عليها ، وصيانة لها عن المدَّعين كما تقدّم فى قوله [صيانة لها عن أن يدَّعيها العباد بوجود الاستمداد ؛ وإجلالا لها عن الابتذال والاشتهار] كما بيّنا ؛ لأن ما كان من العزيز لا يكون إلا عزيزاً ، وما يحصل به الإكرام والتخصيص إذا صار مبتذلاً بطل سرّ الاختصاص به ، قال فى « لطائف المنن » فأولياء الله تعالى : أهل كهف الإيواء ، فقليل من يعرفهم » . قال ، وقد سمعته (يعنى شيخه أبا العباس المرسى) يقول : معرفة الولى أصعب من معرفة الله ؛ لأن الله تعالى ظاهر بكماله وجماله ، وحتى متى تعرف مخلوقاً مثلك يأكل كما تأكل ، ويشرب كما تشرب قال فيه «وإذا أراد الله أن يعرّفك وليّاً من أوليائه طوى عنك وجود بشريّته وأشهدك وجود خصوصيته» انتهى وبحسبه فلا وصول للوليّ إلا بالله ؛ لأنه فى حجاب الغيْرة ، وبالله التوفيق.

تنبيه :

لما كان الولىُّ مستوراً عن الأغيار، ولا يُعرف إلاّ بكشف الحجب والأستار كانت الدلالة عليه من حيثُ الدلالةُ على مولاه؛ إذ لا يُعرف إلاّ به ولا يُطلب إلاّ له، ولا يُوصل إلا به لا بسواه[1] كما نبّه عليه المؤلف إذ قال فى أول :

(١) وفى نسخة (إذ لا يعرف إلا بطلب الإله ولا يوصل به سواه) .
وفى نسخة (ولا يوصل به سواه)

الباب السابع عشر

إذ قال :

وقال رضى الله عنه : سبحان من لم يجعل الدليل على اوليائه الا من حيث الدليل عليه .

قلت : صدّر بالتسبيح لوجوة ثلاثة :

الإشعار بعظمة الأمر وكبره، وإنه لكذلك، والتنبيه على أن أولياء الله منزّهون بتنزيهه كما أشارت إليه الآية فى تنزيه المؤمنين ، إذ قال تعالى : (وَلَوْلاَ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُمْ مَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَتَكَلَّمَ بِهَذَا سُبْحَانَكَ . .) الآية[1] .

والإشارة لعدم المساواة فى الدلالة التى أشعر بها كلامه . ومقصود الكلام : كما أن الله تعالى لا يُعرف إلاّ بما أظهر من أفعاله كذلك الولىّ لا يُعرف إلاّ بما بدا من أوصافه .

وكما أن الله لا يُعرف إلاّ بتوفيقه كذلك لا يُعرف الولىّ إلاّ (بتوصيل الحق له . وأيضاً لا تتصور معرفة الولى إلا بعد معرفة الله لأنه لا يطلب الولىّ إلاّ)[2] من عرف الولاية ، ولا يعرفها إلاّ من صدّق

---

(١) آية ١٦ من سورة النور .

(٢) ما بين القوسين ساقط فى النسخة التيمورية، وفى نسخة الدار : ومقصود الكلام كما أن الله لا يعرف إلا بتوفيقه كذلك الولى لا يعرف إلا بتوصيل الحق له =

بالإختصاص ، وذلك من اتساع الإيمان بالقدرة ، وهو فتح من الله تعالى؛ لذلك قال بعضهم :

« الإيمان بطريقتنا هذه ولاية » . قال فى « التنوير » : « وذلك لأن الإيمان بالفتح لا يكون إلاّ بفتح » انتهى .

ثم الوليّ يعرف بثلاث :

إيثارُ الحق ، والإعراضُ عن الخلق ، والتزام السنَّة بالصدقِ ، فقد قال أبو على الجرجانى رضى الله عنه : « الولىّ : هو الفانى فى حاله ، والباقى فى مشاهده الحقّ ، تولّىَ الله تعالى سياسته فتوالت عليه أنوار التولّي ، ثم لم يكن له عن نفسه إخبار ، ولا مع غير الله تعالى قرار ، وفى « الإشارة » عن الله تعالى : إنما سميَتُ الأولياءَ أولياءَ ، لأنهم يلونى دون مَن سواى من خلق » انتهى. وحاصله أن الوليّ هو من تولاَّه الله فلم يدْعه لغيره ظاهراً ولا باطناً ، وتولىّ اللهَ فلم يُعرجْ على غيره بحال، وبحسب هذا فكل من والاهم محفوظ بحفظه ، وواصل إليه على قدر نصيبه وحظِّه ، كما قال :

ولم يوصل اليهم الا من أراد أن يوصله اليه.

قلت : المراد بالوصول هنا معرفة الولى على وجه يقتضى القيام بحق حرمته ، والوقوف عند أمره أو نهيه ، والتعلُّق بحاله وهمتِه .

= وأيضا لا تتصور معرفة الولى إلا بعد معرفة الله لأنه لا يطلب الولى إلا من عرف الولى ولا يعرفها إلا من صدق بالاختصاص وذلك من اتساع الايمان ....الخ.

ولا شك أن ذلك مفتاح الوصول ؛ لأنه يوجب الاهتمام من الولىّ بمن يقع له ذلك[1] فيشغل قلبُه به فيكرمه مولاه بنظره لمن تعلّق ذلك فيتولاّه بإحسانه إكراماً لعبده ، وإراحةً له من شغل قلبه بغيره ؛ فإنه يغار على قلوب أوليائه أن يَظهر فيها غيرُه ، ولهذا يقول الناس لأهل الخير « خاطرك » أى : ليكن لك بى اهتمام ، لعل الله أن يكرمك بقضاء حاجتى لمكان اهتمامك .

وأيضاً فإن من شأن أولياء الله تعالى الاهتمام ، وحُسن الإخاء ، والفتوة والله تعالى يغنى بهم[2] إذا شهدوا ، وينوب عنهم إذا فُقدوا ، فلذلك قيل : « الولىّ إذا أراد أغنى[3] » وإذا استقر صحيحا أنه ما خالط أحدٌ وليّا معتقداً به إلاّ نفعه الله تعالى منه بنيّته على قدر همّته ، كما قيل :

على قدر أهل العزم تأتى العزائم

وقد قال شيخنا أبو العباس الحضْرمىُّ رضى الله عنه فى كتابه « صدور المراتب » : « فهنيئا لمن ذاق أو ذاق من بعض ما[4] ذاق ، أو رأى من ذاق ؛ فقد قيل : المطر قريب عهد بربّه فيستحب البروزُ فيه والتبرّك به عند نزول المطر ، هكذا ذكره الشارع صلى الله عليه وسلم ،

(١) وفى نسخة الدار .(بمن منه نفع لك)
(٢) وفى نسخة : يعتنى ، وفى أخرى يعين .
(٣) وفى نسخة : إذا أراد غنا أغنى .
(٤) لعلها : من

وهو مطر من السحاب فما ظنُّك بالمؤمن العارف بالله ، فمن الأحْرى والأَوْلى النظر إلى العارف بالله والصادق بالله والساير لله بالله النظر إليه أقوى بالتأثير ، وفيه سعادة الدنيا والآخرة عند مصادفة المحل والتوفيق .

وقد تقدّم من كلام الشيخ أبي محمد بن عبد السلام يُوصى الشيخ أبا الحسن الشاذلى رضى الله عنهما « واصحب من إذا ذَكر ذَكر الله ؛ فإن الله يُغْنى به إذا شهد وينوب عنه إذا فقد ، ذِكره نور القلوب ، ومشاهدته مفاتيح الغيوب » انتهى .

ومما يدل على أن رؤية العارف تزيد فى نور المعرفة وغيرها قول أنس رضى الله عنه :(ما نفضنا التراب من أيدينا من دفن رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى وجدنا النقصَ فى قلوبنا . . . الحديث) .

وبالجملة ، فأولياء الله تعالى أبوابُ الله ، ومعرفتُهم مفاتيح تلك الأبواب ، وأسنان ذلك المفتاح حِفظ الحرمة ، وحُسنُ الخدمة ، ودوام الحشمة ، واتساع الرحمة . فمن عاملهم بذلك فُتحَ له ، وإلاّ فهو على خطر ، كما نبّه عليه المؤلف إذ قال :

ربما اطلعك على غيب ملكوته وحجب عنك الاستشراف على أسرار العباد .

قلت : يقول : ربما أكرمك الحقّ سبحانه وتعالى بالاطلاع على غيب الملكوت ، الذى هو الاطلاع على مكنون العلم ودقائق[1] المعارف ،

---

(١) وفى نسخة (ودقيق المعارف)

حتى يكون الأمرُ عندك فى ذلك كأنه رأيُ عين ، بل يحصل لك منه ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر :

ومع ذلك لم يطلعك على شىء من أسرار العباد ، أى خفىّ أمورهم ، رحمة بك وبهم ، وإبقاءً عليك وعليهم ، وإلّا فما فُتح لك خيرٌ مما حجب عنك ، وهذا ما نبّه عليه المؤلف إذ قال :

من اطلع على اسرار العباد ولم يتخلق بالرحمة الالهية كان اطلاعه فتنة وسببا لجر الوبال اليه .

قلت : المتخلّق بالرحمة الإلهية هو أن يكون واسع الرحمة لعباد الله ، قد وَسع الناسَ بسطُه وخُلقه فكان لهم أباً ، وكانوا عنده فى الحق سواء كما جاء فى وصفه عليه السلام (وَكَانَ بِالمؤْمِنِينَ رَحِيماً) يرحم المذنبين ويعطف على المساكين ويصفح عن الجاهلين ويُحسن للمسيئين ، إذْ كان خلقه القرآن ؛ كما قالت أم المؤمنين وتلَتْ قوله تعالى (خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ) .

فمن كان متخلّقا بهذا الخلق كان اطلاعه إكراماً له ورحمةً لعباد الله ، وإلاّ فكما قال المؤلف : فتنة فى الحال عليه وسببا يُجرّ إليه المكروه وسوء العقبى وهو الوبال(١) لأنه يضر نفسه بثلاث :

بتزكية نفسه ؛ برؤية الفضل لها ، وتضييق رحمة الله على عباده ،

---

(١) وفى نسخة (وهو الوبال ، لأنه يجر إليه الوبال فى المآل لأنه يضر ..)

وإيذائه عباد الله بهتك أستارهم ، وهو أصل كل بلاء ، فيرحم الله القائل :

ارحم بنىَّ جميعَ الخلق كلِّهم
وانظر إليهم بعين اللطف والشفقة
وقِّرْ كبيرهم وارحم صغيرهم
وراع فى كل خَلق حقَّ من خَلَقَهْ

ثم الاطِّلاع إما أن يكون على معصية أو على طاعة ، وذلك يجرى لحظ النفس فيها كما يجرى فى العمل بهما ، وهذا ما أشار إليه المؤلف إذ قال :

حظ النفس فى المعصية ظاهر جلى ، وحظها فى الطاعة باطن خفى .

قلت : يقول : حظ النفس فى المعصية فعلاً واطِّلاعا ظاهر جليّ ، لأنها من بساط الحظوظ ومواقف النقص والريبة ، ففعلها بحظّ نفسانى ولولاه ما تصوَّروجودها ؛ لأن أصلها إحدى ثلاث :

خوف الخلق ، وهَمُّ الرزق ، والرضا عن النفس .

والإطلاع عليها مصحوب بحظ النفس ، وهو ما يستشعر معه من التزكية ، وما يجده من لذة الإطلاع على نقص الغير موجب لارتفاعه عليه وتمكنه منه ، ونحو ذلك .

وحظها فى الطاعة باطن خفيّ فعلاً واطلاعا ؛ فإن فعلها قربةً ربما احتوت على رياءٍ أو تصنع أو تَزَيّد ، أو قصد غرض أو عوض ، والإطلاع عليها

حسن، لكن ربما جرّ لتزكية النفس وإظهار سرّ المطّلع عليه، وتعظيمه لأجله وتعظيمُ حاله بأن يرى الصالحين، ويقف على أهل الفضل والدّين إلى غير ذلك من الدسائس[1] التى لا يطّلع عليها إلاّ أولو البصائر .

والمقصود هنا أن الطاعة قد تحتوى على حظّ كما تحتوى عليه المعصية ولكنه خفىّ لا يُنظر إلا بتوفيق ومساعدة[2] من التوفيق لأنه كما ذكر إذْ قال :

ومداواة ما يخفى صعب علاجه

قلت : يقول وصعوبةُ علاجه على قدر خفائه ، لأن المداواة تابعة للمعرفة بأصل العلّة وسببها وعرضها ، فإذا كانت خفيّة وبَعُد الوصول إليها ، فلا يمكن مداواتها إلاّ بمشقّة .

ومن العلل الخفية فى الأعمال دخول الرياء فى الخلق[3] كما قال :

ربما دخل الرياء عليك من حيث لا ينظر الخلق اليك

قلت : وذلك لأن الرياء راجع لرؤية العامل للخلق ، لا لرؤيتهم إيّاه، فكل من نظر للخلق فى عمله فهو مرائى ، ولو كان فى جوف بيت ، بل فى صخرة مطبقة فى قعْر البحر .

ومن لم يداخله نظر إليهم فى أعمالهم بكلّ حال ، فهو مخلص ولو كان

(١) وفى نسخة الدار : إلى غير ذلك من الدنيا .

(٢) وفى نسخة : لا يظهر إلا بنظر دقيق .

(٣) وفى نسخ أخرى : فى الخلوة ولعلها أصوب - لقوله بعد ذلك : ثم إن الرياء الداخل فى الخلوة وجوها .

فى وسط أهل الأرض بأجمعهم ، وسواء كان يعمل لأجلهم ، أو يترك لأجلهم ، وغير ذلك ، فقد قال الفضيل بن عياض ، رضى الله عنه : « العمل لأجل الناس جوابه كما نقله النووى فى «الأذكار» عن الفضيل ابن عياض : العمل لأجل الناس شركة . وترك العمل لأجلهم رياء ، وترك العمل لأجل الناس شرك ، والإخلاص ، أن يعافيك الله تعالى منهما »[1] انتهى .

ثم إن للرياء الداخل فى الخلوة وجوهاً ، منها :الاستشرافُ لعلم الخلق بحاله من حيث هداية[2] عبادِه ، فلذلك قال :

استشرافك أن يعلم الخلق بخصوصيتك دليل على عدم صدقك فى عبوديتك

قلت : لأنك لو كنت صادقاً مع مولاك ما أحببت أن يرى عملَك غيرُه ، فقد قال بعضهم : ما صَدَقَ اللهَ أحدٌ قط إلاَّ أحبَّ أن يكون فى جُبٍّ لا يُعرف ، وقال أحمد بن أبى الحوارى ؛ رضى الله عنه : «من أحبّ أن يُعرف بشىء من الخير أو يذكر به فقد أشرك فى عبادته ؛ لأن من خدم على المحبة لا يُحبُّ أن يرى خدمتَه غيرُ مخدومه » .

وقال سهل بن عبد الله رضى الله عنه : من أحبّ أن يطلع الناس

---

(١) وفى التيمورية : قال ابن عياض (العمل لأجل الناس رياء ،وترك العمل لأجل الناس شرك والإخلاص أن . . الخ) وكذلك فى نسخة الدار .

(٢) وفى التيمورية (الاستشراف لعلم الخلق بحاله من حيث هو لا من حيث منته تعالى ، ولا من حيث هداية عباده فلذلك ... الخ) .

على عمله فهو مُرائى ، ومن أحبّ أن يطّلع الناسُ على حاله فهو كذّاب»[(١)] .

وقال إبراهيم بن أدهم[(٢)] ، رضى الله عنه : «ما صدق اللهَ من أحبّ الشهرة» .

وإنما الخلاص من الرياء وغيره بالنظر إلى الحق ورفض ما سواه بكل حال ، كما نبّه عليه المؤلف إذ قال :

غيب نظر الخلق اليك بنظر الله اليك

قلت : يقول لاتنظر لنظر الخلق اليك، وانظر لنظر الله إليك ؛ فإنه يراك فى كل حال، ويطّلع على خفىّ الخفىّ من حالك، والخلقُ لا يعلمون منك إلّا الظاهر ، ثم إذا نظر إليك بالرحمة لم يضرّك نظرهم بنقضها[(٣)] ، وإن نظرك بالنقمة لم ينفعك نظرهم بالرحمة ، قال الله سبحانه (وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِه . . الآية) .

---

(١) وفى التيمورية (قال سهل بن عبد الله : من أحب أن يطلع الخلائق على ما بينه وبين الله تعالى فهو غافل ، وقال أبو الخير بن الأقطع : من أحب أن يطلع الناس على عمله فهو مراء . .) وكذلك فى نسخة الدار.

(٢) إبراهيم بن أدهم بن منصور التميمى : زاهد مشهور، أخباره كثيرة وفيها اضطراب واختلاف فى نسبته ومسكنه ووفاته ولعل الراجح أنه مات ببلاد الروم سنة ١٦١ هـ - ٧٨٨ م .

(٣) وفى نسخة الدار (بنقيضها)

وقد كان بعض الصالحين يقول : يا مرائى ، قلب مَن تُرائى ، بيد مَنْ تعصيه ».

وقيل لبعضهم : بمَ يستعين العبد على حفظ بصره ؟

قال: بعلمه أن الله تعالى سائق نظره إلى ما يريد أن ينظر إليه [1] ، ثم قال :

وغب عن وجود اقبالهم عليك بشهود اقباله عليك

قلت : يقول : انظر لإقباله تعالى عليك بنسيان إقبال الخلق عليك ؛ حتى لا تبالى بهم فى إقبال ولا إدبار اكتفاءً بربّك .

قال فى « لطائف المنن » : اعلم أن مبنى أَمْر الولى على الاكتفاء بالله والقناعة بعلمه والاغتناء بجوده [2] ، قال سبحانه (وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ فَهوَ حَسْبُهُ [3]) وقال : (أَلَيْسَ اللهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ) [4] وقال (أَلَمْ يَعْلَمْ بِأَنَّ اللهَ يَرَى) [5] وقال : (أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ) [6] .

---

(١) وفى نسخة التيمورية (بعلمه أن نظر الله سابق نظره إلى ما يريد أن ينظر اليه . .) وكذلك فى نسخة الدار .

(٢) وفى التيمورية (والاغتناء بشهوده) .

(٣) آية ٣ من سورة الطلاق .

(٤) آية ٣٦ من سورة الزمر .

(٥) آية ١٤ من سورة العلق .

(٦) آية ٥٣ من سورة فصلت .

فبنى أمرهم فى بداياتهم على الفرارِ من الخلق، والإنفراد بالملك الحق، وإخفاء الأعمال، وكتم الأحوال؛ تحقيقاً لفنائهم وتثبيتاً لزهدهم، وعملاً على سلامة قلوبهم، وحباً فى إخلاص أعمالهم لسيّدهم، حتى إذا تمكّن اليقين وأُيّدوا بالرسوخ والتمكين، وتحققوا بحقيقة الفَنَاء، وردُّوا إلى وجود البقاء، فهنالك: إن شاءالله تعالى سترهم، وإن شاء أظهرهم هادين لعباده، وإن شاء سترهم فاقتطعهم عن كل شيء إليه.

وظهر الولىّ ليس بإرادته لنفسه، ولكن بإرادة الله تعالى له، بل مطلبه إن كان له مطلب الخفاء لا الجلاء كما قدّمنا.

فلما لم يكن الظهور مطلبهم، وأراد سبحانه إظهارَهم فأظهرهم تَوَلّاهم فى ذلك بتأييده وإرادة مزيده[1]؛ لقوله صلى الله عليه وسلم لعبد الرحمن ابن سمرة: « لا تطلب الإمارة، فإنك إنْ أُعطِيتَها من غير مسألة أُعِنْتَ عليها، وإن أُعطِيتَها عن مسألة وكلت إليها ».

ومن تحقَّق بالعبودية لله لم يطلب ظهوراً ولا خفاءً، بل إرادته وقْفٌ على اختيار سيّده له، قال الشيخ أبو العبّاس رضى الله عنه: «من أحبّ الظهور فهو عبد الظهور، ومن أحب الخفاء فهو عبد الخفاء، ومن كان عبداً لله فسواء عليه أظهره أو أخفاه».

ثم أساس هذا الأمر كله وجود المعرفة والمحبّة والفناء، كما قال:

---

(١) وفى نسخة الدار (وواردات).

من عرف الحق شهده فى كل شىء .

قلت : فكان كُلُّ شىء عنده ، وله ، وبحسب ذلك فهو لا ينظر لشىء سواه ؛ إذ محال أن يراه ويشهد معه سواه ، بل كما قيل :

مذ عرفت الإله لم أر غيراً   وكذا الغير عندنا ممنوع
مذ تجمّعت ما خشيت افتراقاً   فأنا اليوم واصلٌ مجموع

والمعرفة : تحقق العارف بما يقتضيه جلال معروفه حتى يصيرَ ذلك التحقّق كأنه صفة له لا يتحوّل ولا يتزحزح ، ولا تجرى أحواله إلا على مقتضاها ، وبحسب ذلك فيكون نُصب قلبه فى كل وقت وعلى كل حالة .

ثم شهود الحق يهدى إلى الفناء فيه رجوعاً بالكلِّ إليه ، وذلك يوصّل إليه ، كما قيل :

ومن فنى به غاب عن كل شىء

قلت: الفناء : شهود حقّ بلا خلق ، لاندراج حكم الفعل فى الصفة من حيث إنه أثرها ، وبذلك لا يبقى خبر عن الفعل من حيث هو . والصفة مضافة لموصوفها فليس إلاّ هو وحده ، وذلك عين الغيبة عن كل شىء به ؛ لرجوع كل شىء إليه .

ثم المعرفة كما توجب الفناء و الغيبة تقتضى الإيثار[1] ، والمحبّة يلازمها الإيثار ، كما قال :

---

(١) وفى التيمورية (والغيبة يقتضى وجودها المحبة والمحبة . . . الخ) .

ومن أحبه لم يؤثر عليه شيئا

قلت : وذلك لأن حقيقة المحبّة أَخْذ جمال المحبوب بحبّة[1] القلب حتى لا يدعه لغيره فى حال من أحواله؛ ولذلك قيل : المحبة الإيثارُ بدوام المحبّين[2] » . وادّعى بعض المريدين شيئاً من المحبة فقال له أستاذه : يا بنى هل ابتلاك بغيره فآثَرته عليه ؟ !

وقد قال بعضهم : أَبتِ المحبةُ أن تستعمل مُحباً بغير محبوبه ، فصاحت الغَيْرَة «لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللهَ وَرَسُولَهُ » انتهى .

وقد ذكر المؤلف فى هذه المقامات الثلاث ، التى هي : المعرفة ، والفناء ، والمحبّة عُمداً بواب الولاية فكأنه يقول: الولى الذى ذكرتُ أوّلاً هو العارف بالله والفانى فيه والمحبُّ له . ومن لا يكون له نصيب من هذه كلّها فليس له فى الولاية من نصيب ، جعلنا الله منهم بمنّه وكرمه .

ثم من لازم المحبة وجودُ الشوق إلى الرؤية ، وطلبُ الوصلة والقُربة ، وهو أمر موجود لمن عرف كمال وصف مولاه ؛ إذ لامسافة ولا علة ولا غيبة ، وإنما هو حجاب العزّة بوجود القرب كما قال :

---

(١) وفى نسخة (لأن حقيقة المحبة أخذ جمال المحبوب بحبة القلب . . الخ) .
(٢) وفى التيمورية (بدوام الحنين) وكذا فى نسخة الدار .

انما حجب الحق عنك لشدة قربه منك

قلت : قرب الحق سبحانه وتعالى ليس بالمداناة ، ولا بالمسافات ، ولا فى المناسبة(١) ؛ لأن كلّها محال عليه تعالى ، فهو إذنْ قربُ إحاطة بالعلم والقدرة والإرادة ، كما يليق بجماله وكماله ، وقد تحقق أن قدرته وإرادته عامتا التصرّف ، فى وجود العبد والعِلم محيطٌ به فى عموم أوقاته(٢) وأحواله. والمتصرف فى الشىء بما هو بهوجوده أو تمام وجوده أو انتظام وجوده أقرب إليه من وجوده(٣) ، والحجب للخلق إنما وقع بوجودهم أو موجودهم ،

ثمّ كلما اتّسع موجودهم واتّسع مظاهر التصريف اشتداحتجابُهم باشتغالهم ، وذلك عين مظهر قرب الإحاطة؛ فشدّة القُرب هى الحجاب عن القرب وعن المقرِّب ﴿ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ ﴾(٤) .

﴿ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْكُمْ وَلَكِنْ لَا تُبْصِرُونَ ﴾(٥) .

ولذلك قال الشيخ أبو العباس رضى الله عنه فى بعض مناجاته :

---

(١) وفى نسخة (ولا فى المناسبات) .

(٢) وفى نسخة الدار (إن قدرته وإرادته عامة والتصرف فى وجود العبد محقق به فى . . . الخ) .

(٣) وزاد فى التيمورية (أقرب إليه من وجوده لسبق تصرفه فيه لوجوده أو لما يقوم به وجوده . . .) وكذلك فى نسخة الدار .

(٤) آية ١١٢ من سورة الأنعام .

(٥) آية ٨٥ من سورة الواقعة .

« يا قريب أنت القريب وأنا البعيد ، قُربك منّى أيأسنى من غيرك ، وبُعدى عنك ردّنى للطلب منك ، فكن لى بفضلك حتى تمحو إرادتى بإرادتك يا قوىّ يا عزيز » .

وإذا كان الأمر كما ذُكر ، فهو أيضاً كما قال المؤلف :

استتر لشدة ظهوره ، وخفى عن الابصار لعظيم نوره .

قلت : يقول : ظهور الحق سبحانه بأفعاله هو الذى يستر الخلائق عن رؤيته ، وذلك من ظهور نور أوصافه الذى هو أثرها المظهر لجميع الكائنات[١] عن الرؤية المعنوية فى هذه الدار . وبقدر تملّئه بها يكون انصرافه فى الآخرة حسب سنة الله تعالى ، فشدّة الظهور هو المانع من الرؤيه .

وقد مثّلوا ذلك بمحسوس هو : ضوء الشمس مع بصر الخفّاش ، ولله المثل الأعلى ، إذ كلما ازداد نورُها ازداد عمى ، وعلى ذلك قالوا : الناظر فى التوحيد كالناظر للشمس كلما ازداد نظراً ازداد عمًى » .

وقال بعضهم : عيْن الحدَث لا تنفتح لشعاع شمس الأزل ، ونُدرك منها فى كمال وجودنا كما يدرك الخفّاش من باهر الشمس .

---

(١) وزاد فى التيمورية بعد قوله الكائنات (المصرف الموجودات وبقدر مواجهة العبد بقدر انصرافه عن الرؤية المعنوية فى هذه الدار) وكذلك فى نسخة الدار .

حدّ العقول الإثبات والتنزيه ، ثم التغلّب[1] في التنزيه على موقف العجز هو محل ظهور كمال العزّ ، ولذلك قال الصدّيق رضى الله عنه : «سبحان من لم يجعل للخلق سبيلاً إلى معرفته إلاَّ بالعجز عن معرفته» .

والخارج من هذا كلّه : أن الحقّ سبحانه ظاهر بجلاله وكماله ظهوراً أوجب قصور الكلّ عن إدراك جلاله ، فتجلّيه عين الحجاب عنه ، وربّك الفتّاحُ العليم .

تنبيـه :

وإذا كان هو الظاهر ، ومُظهر الظاهر ، فما عنده لا يُنال بطلب ولا يُدفع بسبب .

وإنما أمَرنا بالأسباب والطلب لمحض العبودية .

وهذا ما نبّه عليه وبيّنه في:

---

(١) وفى نسخة التيمورية : « ثم اتصلت فى التنزيه إلى موقف العجز وهو محل ظهور . . . الخ ، وفى نسخة الدار : ثم القلب فى التنزيه على موقف العجز هو محل ظهور ... الخ) .

الباب الثامن عشر

إذ قال :

وقال رضي الله عنه :

لا يكن طلبك تسببا الى العطاء منه فيقل فهمك عنه

قلت : الطلب على وجـــه التسبب ، هو : أن ترى وقوع ما تريده ملزوما به ، أو لازما له ، بحكم سنَّة الله تعالى على وجه لا ينْفك" ، لأن السبب ما يلزم من عدمه العدمُ ومن وجوده الوجودُ ، وذلك، وإن كان يقتضيه ظاهر النصوص فباطن الحقيقة يدفعه ، وهي الأصل . فوجب مراعاتها وتأويل النصوص . بان ذلك على وجه المقارنة والتوقيف بأن تعتقد بان الدعاء عبودية اقترنت بسبب الحاجة كاقتران الصلاة بوقتها ، ورتبت الإجابة كما رتِّب ثواب الأعمال عليها؛ فالعطاء من وجه الفضل والعمل لمحض العبودية واقترانها لإظهار الحكمة . ولذلك قال بعضهم : « فائدة الدعاء إظهار الفاقة بين يديه ، وإلاَّ فالربّ يفعل ما يشاء » .

ووجه انتفاء الفهم باعتقاد السببية أنه إن أعطى لم يشكر ، وإن شكر كان شكره ضعيفا لملاحظته سببا في التحصيل ، لأن الفرح بالمنَّة دون استشعار سبب أقوى منه مع استشعاره وإن مَنَع لم يرض وإن رضي فلا من حيث رؤية اختيار الحق تعالى، بل من حيث رؤية تقصيره، وهو نقص ، والمطوب في ذلك ما ذكره بأن قال :

وليكن طلبك لاظهار العبودية وقياما بحق الربوبية

قلت : وهما متلازمان ، بل كل واحد منهما عين الآخر ؛ فالصدق في العبودية عين القيام بحق الربوبية، وبالعكس ، لكن يختلف البساط .

وعلامة الصدق[1] على هذا الوجه ثلاث :

التفويض في القصد ، والتوكُّل في التوجُّه ، والرضا بالواقع من عطاء أو منع ؛ فيقوم بشكر العطاء ، ويقابل المنع بالقبول دون اعترض ولا تَردد، وينبني على ذلك التحقق بخالص التوحيد، وعقد القلب بالامتثال في كل وجه .

وكل من كان قصده الظفر بمقصوده فهو بعيد .

ومن كان مقصوده بثَّ شكوى فقره لمولاه فهو في محلّ القرب :

فإن أضاف لذلك قصد المناجاة بدعائه فهو أحسن .

وقد قال الشيخ أبو الحسن رضى الله عنه : « لا يكن حظُّك من الدعاء الفرح بقضاء حاجتك دون الفرح بمناجاة مولاك ، فتكون من المحجوبين » اهـ .

ثم ذكر بُرهان ما ذكر وبيّنه بأن قال :

كيف يكون طلبك اللاحق سببا في عطائه السابق

قلت : كيف يكون طلبك اللاحق فيما لا يزال سببا في عطائه السابق

---

(١) وفى التيمورية (وعلامة الطلب على هذا الوجه) وكذلك فى نسخة الدار .

فى الأزل ؟ ذلك لا يصحّ أبداً ! ! لاستحالة تقديم المتأخر وتأخير المتقدّم .

وقد جفّ القَلم بما أنت لاقٍ ، وفرغَ ربّك من أربع : خَلقٌ ، وخُلق ، ورزق ، وأَجل .

قال الواسطى[1] رحمه الله : « أقسام سبقت ، ونعوتٌ أُجريت ، كيف تنال بأعمال أو تُكسب بسعايات » اهـ .

ثم زاد المؤلف قوّة فى البرهان وإيضاحاً لمعناه بأن قال :

جل حكم الأزل أن يضاف الى العمل .

قلت : وذلك ، لأن العلل محدثة مسبوقة ، وحكم الأزل سابق غير مسبوق . وقد سئل ذو النون المصرى، رضىالله عنه عن التوحيد، فقال: « أن تعلم أن قدرة الله فى الأشياء بلا مزاج ، وصُنعُه لها بلا علاج ، وعلّة كل شىء صنَعه . ولا غلّة لصنعه ، وليس فى السموات العلا ، ولا فى الأرضين السفلى مدبّرٌ غيرُ الله ، وكل ما خطر ببالك فالله بخلاف ذلك » انتهى .

ومن شواهد نفى العلّة ما جرى فى وجودك إيجاداً أو مراداً ؛ إذ لا يصحُّ أن يكون شىء من ذلك عن سبب منك وهذا ما توجّه ببيانه فافتتحه بأن قال :

---

(١) الواسطى : أبو بكر بن موسى الواسطى. خرسا فى الأصل من فرغانة. عالم كبير الشان . أقام بمرو ، ومات بها بعد العشرين والثلاثمائة من الهجرة .

عنايته لا لشيء منك

قلت : أراد بعنايته فيك : ما أظهر فيك من اعتنائه بشأنك ؛ إذ أوجدك من العدم ،وأمدّك بالنعم ، وحصّلك بالكرم ، وعرّفك بانفراده بالوحدانية ، واتّصافه بالصفات العليّة ، مع البقاء والقدم إلى غير ذلك مما أنت محتاج إليه ، وهو غنيّ عنك فيه وفى غيره ، وذلك كلّه جارٍ لك من غير استحقاق ولا وسيلة سابقة؛ إذْ كنت عدماً محضاً ، ونفياً صرفاً كما أشار إليه إذ قال :

وأين كنت حين واجهتك عنايته وقابلتك رعايته .

قلت : لم تكن شيئاً مذكوراً أولاً ولا آخراً (وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِنْ قَبْلُ وَ لَمْ تَكُ شَيْئًا)(١) (وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّى لَكُنْتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ)(٢) .

قابلتك عنايته بإيجادك وإيجاد ما أنت محتاج إليه ، بل ما هو أعم من ذلك. وواجهتك رعايته فى ذلك حتى حفظه عليك وحفظ وجودك مع ذلك إن قلت بالأعمال فلاجسم حتى يعمل ، وإن قلت بالأحوال فلاقلب حتى ينشأ عنه الحال ، وإن قلت لما عسى أن يكون من ذلك فأنت فقير إلى رحمته وهو غنى عنك . فلم يبق إلاّ فضله وكرمه ، كما بيّنه المؤلف إذ قال :

---

(١) سورة مريم : ٩
(٢) آية ٥٧ من سورة الصافات .

لم يكن فى أزله اخلاص اعمال، ولا وجود أحوال، بل لم يكن الا محض الافضال وعظيم النوال .

قلت يقول : الثواب يتعلّق بالأعمال والأحوال بساط الكرامات، وهما الوسائل عند الطلب ، ولم يكونا فى محل القسمة الأزلية ، ولا فى وقتها ولا وقت ، فلا يصحُ أن يكون علّة فى شىء ، بل علّة كل شىء إحسانه وكرمه ، ولا علّة ، وكيف يَدخل فى أفعاله العلل ، وهو الفاعل المختار الغنى عن الكل ، وإذا لم يكن أزلاً إلاَّ محض الإفضال ، وهو العطاء بلا علّة ، وعظيم النَّوَال وهو التفضل بلا سبب ، فلا يكون فى الأزل إلاَّ ذلك ، فيرحم الله القائل :

بلا عمل منى إليه اكتسبته
سوى محض فضل لا بِشىء يُعلل

وهذا يستوى فيه العباد ، لكن لهم وجوه من الإختصاص قد تتشوّف النفوس لوجهها فيقع الجواب بالنظر إلى المشيئة دون علّة . وهذا ما ذكره المؤلف بأن قال :

اعلم أن العباد يتشوفون الى ظهور سر العناية فقال يختص برحمته من يشاء

قلت : يعنى أنه لا حجر عليه فى أفعاله ، فالتخصيص بحكم منه غير مُعَلَّل وإن كان لحكمة فهو الموجد لها والمبدىء والمنشىء ، فلا علّة لصنعه ، وعلّة كل شىء صنعه ،

وإنما يتشوف لما ذكر ؛ لوجوه ثلاث :

معرفة الأشياء بأصولها ، وهى شيء جبلت النفوس على طلبه وتعرّف الأسباب الموّصلة ليتوجه بها من أراد ذلك ، وما فى النفوس من الدعاوى الداعية لفهم أن لها قوّة تتوصّل بها لما تريده ، فردّت لعامه تعالى ومشيئته حتى لا تبقى لها دعوى ولا تصح لها أسباب ، ولا يجرى لها نظر فى أفعال الحق تعالى ، لكن الربوبية كما اقتضت عموم التصرّف وجب لها عموم التصريف فالتصريف بحكم التعريف ، والتصريف بوجه التكليف ، وكلٌّ بحكمه وحكمته كما أشار إليه بأن قال :

وعلم أنه لو خلاهم وذلك لتركوا العمل اعتمادا على الأزل .

قلت . وذلك لا يصح لهم من حيث الحكمة ، وإن صحّ من طريق الحُكم ؛ لأن أفعال العباد مظاهرُ لمقتضيات الأسماء وآثار الصفات .

فقال : ان رحمة الله قريب من المحسنين(١).

قلت : فجعل الرحمه بساط الإحسان ، لأن الإحسان بسبب الرحمة، فمتى وجد الإحسان، علمنا أن الرحمة هى الموجبة له،فرحمة اللههى الوسيلة إلى رحمته(٢) لا غيرها ، وقد أشار نص الآية وخطُّها لذلك ؛ فإن كتبوها بالتاء : قيل إشارة لما دخل عليها من رائحة الفعل ، وهو المقدّر قبلها أعنى قولهم :

التقدير : إن وجود رحمة الله . والداعى لهذا التقدير وصفُ الرحمة

---

(١) آية ٥٦ من سورة الأعراف .

(٢) هكذا فى الأصل (ولعلها : إلى إحسانه)

بالتذكير فى قوله « قَرِيبٌ » ولم يقل قريبة . فافهم .

فالأعمال إذن علامات لا موجبات ، كما أشار إليه من قال فى قوله تعالى (وَهُمْ يُسْأَلُونَ) إذ قال يُسألون عن فعله فيهم . فتأمل ذلك .

والمراد كلّه على جمع الشريعة بالحقيقة ، وهو فيما ذكره المؤلف إذ قال :

الى المشيئة يستند كل شيء ، لأن وقوع ما لم يشأ محال وليست تستند هي الى شيء

قلت : يقول : الأمر ، والنهى ، والأحكام والأسباب والفوائد وغيرها لا يصدر شئ من ذلك إلاّ بالمشيئة ، وعلى ظهور أثرها تترتب الأحكام (فَمَنْ يُرِدِ اللهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإِسْلَامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا .. الآية)[1] .

فإذن قاعدة التحقيق ليس إلاّ سابقة التوفيق ، فكلّ شريعة حقيقة ، ولا ينعكس . الشريعة مُبيِّنة والحقيقة مُعيِّنة ، الشريعة من عين الحكمة ، والحقيقة من عين الحكم ، وهو تعالى متصف بالقدرة والحكمة فكلاهما وصف الربّ ، ولكلٍ منهما متعلَّق فى الوجود يتعين اعتباره ، ولا يصح نفيه بمقابله ، فإثبات أحدهما دون الآخر نقصٌ فى النظر وخطأ فى العرفان ، وزلّة فى الإدراك ، فلزم إثباتُ الجميع لثبوتهما ، وإلا

---

(١) سورة الانعام : ١٢٥ .

فهو ضلال أو قريب منه . (اعملوا فكل ميسَّر لما خلق له) فاعرف ذلك . وبالله التوفيق .

تنبيه :

لئن كان وجه التعبد مطلوبا[(١)] بالطلب في عين التقرّب فهل التبرى دون الطلب قد يكون أتمّ أو مساوى ، لا سيّما مع إضافته لوجه من الحقيقة ؟

وهذا ما توجه إليه المؤلف في :

---

(١) فى التيمورية : (لئن كان وجه التعبد مقصوداً بالطلب فى عين التبرى فمطلق التبرى دون التعبد قد يكون إثما . .)
وفى نسخة الدار (إذا كان وجه التعبد مطلوباً بالطلب فى عين التبرى فمطلق التبرى دون الطلب قد يكون أتم أومساوى . . .)

الباب التاسع عشر

إذ قال :

وقال رضى الله عنه: ربما دلهم الأدب على ترك الطلب

قلت : فى قوله « ربما » إثبات للشىء وقسيمه بطريق التجويز ، فكما قد يدلّهم الأدب على ترك الطلب قد يدلهم على وجوده ، وقد يدلُّهم على التعريض ، وهو بينهما ، فهى إذن ثلاثة :

طلب : وموقفه(١) عند جريان الفوائد ، وملاحظة الأسباب وظهور أثر الكسب والإكتساب .

وتعريض : وموقفهُ عند تعذُّر الأسباب ورجحان الحقيقة بإمعان نور المشاهدة الموجب لملاحظة العبودية فى عين تعظيم الربوبية .

وسكوتٌ : وهو عند غلبة الحقيقة ونفى شواهد الخليقة .

وقد وقعت هذه كلُّها من أنبيائه عليهم السلام فى أحوال مختلفة: هذا « إبراهيم » عليه السلام سأل لسان صدق فى الآخرين وغَيْره من مصالح الدنيا والدين وعرّض فى قوله (الَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ . . . وَالذِى أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِى خَطِيئَتِى يَوْمَ الدِّينِ) .

وقال عند ما زُجّ فى المنجنيق : « حسبى من سؤالى علمه بحالى » .

---

(١) وفى نسخة التيمورية : (وموافقه) وكذلك فى نسخة الدار ، ولعل الأصح وموقعه .

فلم يسأل ولم يُعَرِّض ، اكتفاءً بعلمه تعالى ، وذلك عند تعذّر الأسباب، وذهاب شواهد الاكتساب .

وإنما يكون السكوت أدباً بشرطٍ ذكره المؤلف إذ قال :

اعتمادا على قسمته واشتغالا بذكره عن مسألته

قلت : فالاعتماد على قسمته هو المؤثر لسكون النفس عند الطلب ، والاشتغالُ بذكره هى العبادات الواقعة بدلاً منه ، بل هى أقوى منه لنفس الحظ منها على كل حال . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : يقول : (من شغله ذكرى عن مسألتى أعطيته أفضل ما أُعطى السائلين(١)، وما يُسأل الله تعالى شيئاً أحبَّ إليه من أن يُسأل العفو والعافية .. الحديث) .

ومن أدلّة أن الدعاء غير مطلوب لذاته ، ولا مقصود فى ذاته ما ذكره المؤلف إذ قال :

انما يذكر من يجوز عليه الأغفال ، وانما ينبه من يمكن منه الأهمال

قلت : كما لا يصح أن يكون الطلب سبباً لا يصح أن يكون تذكيراً ولا

---

(١) روى البيهقى فى الشعب من حديث عمر بن الخطاب : قال الله عز وجل : من شغله ذكرى عن مسألتى أعطيته أفضل ما أعطى السائلين . وروى الترمذى ، وحسنه ، عن أبى سعيد رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : يقول الرب تبارك وتعالى من شغله القرآن عن مسألتى أعطيته أفضل ما أعطى السائلين ، وفضل كلام الله على سائر الكلام كفضل الله على خلقه ، وقراءة القرآن ذكر .

تنبيها ، لأنك إن قلت بالسببية جَلّ حكم الأزل أن ينضاف إلى العلل ، وإن قلت تذكيراً فالتذكير للإغفال ، ولا إغفال .

وإن قلت تنبيها ، فالتنبيه للإهمال ، ولا إهمال .

وكيف يصحُّ شيء من ذلك وهو غنى كريم رحيم عالم بما قلّ وجلّ من أحوالك لا تعتريه العوارض ولا تطرأ عليه الآفات ، إذ ذلك كلُّه عليه تعالى محال .

والقصد بالجميع إنما هو إظهار الفاقة ؛ لأنها محطُّ الفوائد والعوائد كما نبَّـه عليه المؤلف إذ قال :

ورود الفاقات أعيادالمريدين

قلت : الفاقة : شدّة الحاجة ، هي ذاتية للعبد ، وإنما يرِد عليه مُذكِّراتها ، فإذا وردت أثارت ذكرَها لحصل شهودها .

وخير أوقاتك وقت تشهد فيه فاقتك وتردُّ فيه إلى وجود ذلّتك ؛ لأن ذلك يقطعك عن غيره ، ويردُّك إليه ، وهو رأس الفوائد، وأعياد العمر عند أهل الله تعالى ؛ لأن العيد سمى عيداً لأنه يعود على الناس بالأفراح ، ويعودون فيه على أهاليهم بالإنفاق، ويتكرر عليهم وجوده وتظهر على كل واحد فيه حلية غناه وكماله بالزينة وغيرها ، وكذلك الفاقة هي زينة المريدين وفائدته[1] يُفْطِر فيها على تمر المشاهدة من صوم

(١) لعلها : زينة المريد وفائدته .

المجاهدة ، وينحر نفسه بسيف التبرّى والمخالفة ، وفى معنى ذلك :

قالوا غداً العيد ماذا أنت لابسه
فقلت خلعة ساق حُبّه جرعا
فقر وصبرٌ هما ثوباى تحتهما
قلبٌ يرى الفاقة الأعياد والجمعا
أحرى الملابس أن تلــقى الحبيب به
يوم التزاور فى الثوب الذى خلعا
الدهر لى مَأتمٌ إن غبت يا أملى
والعيد ما كنت لى مرأى ومستمعا

ثم أشار لوجوه من فوائد الفاقة وبيان كونها أعياد المريدين فقال :

ربما وجدت من المزيد فى الفاقات ما لاتجده فى الصوم والصلاة

قلت : قد يجد فى الفاقات من مزيد الإيمان والعلم والمعرفة الحقيقية ما لا يجده فى غيرها ؛ لأن العبودية فيها أظهر والدعوى فيها أبعد ، والنفس فيها أقرب إلى الحق ، وأبعد من التكبّر . والصوم والصلاة تعرض لهما عوارض الدعاوى ومناقضةَ الشوائب من الرياء وغيرها ، فهما يفتقران إلى التخليص والإخلاص ، بخلاف الفاقة فإنها تسلب العبد من هواه وتردّه لمولاه ، وتشغله عمّا لا يعنيه بما به تولاّه .

قال فى « التنوير » : « فى البلايا والفاقات من أسرار الألطاف مالا يفهمه إلاّ أولو البصائر ؛ ألم تر أن البلاء يخمد النفس ويُذبلها ويُخرجها

عن طلب حظوظها ، ويقع مع البلايا وجودُ الذلّة ؛ ومع الذلّة تكون النصرة ، (وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ » .

وفى الحديث ما يؤيده .

وبحسب هذا يتعيّن الفرح بالفاقات ، بل طلبها كما كان حال أهل الهمم العليّة ، وهو عكس ما نحن عليه لضعفنا ، وإلاّ فهو كما بيّنه المؤلف إذ قال :

الفاقات بسط المواهب

قلت : البسط بضم الموحدة والسين جمع بساط ، وهو : ما يجرى فيه الشيء ويظهر عنده .

والمراد بالمواهب هنا ماهو أعم من الفتوحات العرفانية ، ويظهر لما ذكر قوله تعالى (أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ . .) الآية .

وقد قال أبو يزيد رضى الله عنه : « خزائننا مملوءة بالخدمة فإن أردتنا فعليك بالذلّة والافتقار »

وقال الشيخ أبو محمد عبد القادر الكيلانى، رضى الله عنه :« أتيتُ جميعَ أبواب الحق فوجدت عليها الازدحام حتى إذا أتيتُ باب الذلّة والافتقار ، فوجدته خالياً ، فدخلت منه فالتفتُّ فإذا أنا قدسبقت القوم

وتركتُ الناس يزدحمون على الأبواب» انتهى بمعناه . وقد أنشدوا في معنى ذلك :

لا يبعدنك عَتبُنا عن بابنا فالعهد باقٍ والوداد مصان
وبحسبنا وبلطفنا وبجاهنا شاع الحديث وسارت الركبان
فإذا ذَللت لعزِّنا ولجاهنا ذلَّت لعزتك الملوك وهانوا

وقد تقدّم من نوع هذا الكلام عند قوله (إذا فتح لك وجهة من التعرّف فلا تبالى معها إن قلّ عملك) .

واعلم أن الفاقة لا تكون نافعة لصاحبها إلاّ بتحقيق العبودية ، وذلك فى أربعة أشياء :

الرضا بالواقع من غير تبرّم ولا اعتراض .

والقيام بالحقوق المطلوبة فى ذلك من عبادة وغيرها .

والفرار من النفس ودعاويها[١] ، بل من دعاوى الخلق[٢] كلهم فى ذلك بالانحياش إلى الله تعالى والإقبال على الله باللجوء إليه ، وإظهار ماأنت عليه من فاقة وافتقار ، لا من حيث ماتحتاح ، بل من حيث[٣]

(١) وفى نسخة التيمورية (ودواعيها) وكذا فى نسخة الدار .
(٢) وفى التيمورية (بل ومن الخلق كلهم) .
(٣) وفى التيمورية (وإظهار ما أنت عليه من فاقة وافتقار لا من حيث افتقارك واحتياجك كما أشار إليه الخ . .) وفى نسخة الدار (لا من حيث ما يحتاج) .

احتياجك وافتقارك ، كما أشار إليه قول موسى عليه السلام (رَبِّ إِنِّى لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَىَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٍ) فذكر فقره ، لا حاجته ، واحتياجه لا مطلبه(١)

وأصل ذلك كله تصحيح الفاقة ، لا وجودها ، كما نبّه عليه إذ قال:

اذا أردت ورود المواهب عليك صحح الفقر والفاقة لديك .

قلت : تصحيح الفاقة والفقر بمعنى تأكيدهما فى النفس حتى يكون ثبوتهما مستشعَراً فى عموم الأوقات والحالات ، وإلا فهما ثابتان لوجودك بنفس وجودك ؛ ذ فاقتك لك ذاتية ، ويتحقق لك ذلك بثلاث :

تقدير عدمك ، واستشعاره ، وتتبّع ذلك بالتفصيل فى شواهد أحوالك ؛ إذ ما من حركة ولا سكنة إلاّ وهى مشاهَدة(٢) بذلك ، فمن تتبَّعه وجَده فانتفع ، ومن أهملة غفَل فاندفع . وقد يبعد الإجمال فى محل التفصيل ، كما يثبت التفصيل فى محل الإجمال .

ثم استشهد لما ذكر بآية الصدقة فقال :

انما الصدقات للفقراء

قلت : فمن صحَّ فقره استحقَّ الصدقة .

---

(١) وفى التيمورية (فذكر فقره لا لحاجته واحتياجه ولا لمطلبه ولعل ذلك كله .. الخ) وفى نسخة الدار (فذكره فقره لاحتياجه . لا لمطلبه) .

(٢) وفى نسخة (شاهدة) .

هذا ظاهر الحكم شرعا وإشارته فى محل الحقيقة جارية كذلك .

قال بعضهم : إلهى قد صحّ إفلاسنا من طاعتك فمن أحقُّ منّا بصدقات عفوك» .

وقد قال الشيخ أبو الحسن الشاذلى رضى الله عنه : « وتصحيح العبودية ملازمة[1] الفقر والعجز والذل والضعف لله تعالى» وأضدادها أوصاف الربوبية فما لك ولها ، فلازمْ أوصافك، وتعلّق بأوصافه وقُل من بساط الضعف الحقيق : يا قوى مَن للعاجز سواك ، ومن بساط الفقر الحقيقى : يا غنى مَن للفقير سواك [ومن بساط العجز الحقيقى : يا قدير من للعاجز سواك] ومن بساط الذلّ الحقيقى : يا عزيز مَن للذليل سواك تجد الإجابةَ طوع يديك ، واستعينوا بالله واصبروا إن الله مع الصابرين » انتهى على تقديم وتأخير فى ألفاظه ، وهو معنى ما ذكره المؤلف إذ قال:

تحقق بأوصافك يمدك بأوصافه

قلت : وذلك أن إقرارك بالعجز والفقر والذل والضعف يُرجعُك إليه فتصير قادراً به ، غنياً به ، عزيزاً به ، فيعود فقرُك غِنى ، وعجزك قدرة ، وضعفك قوة ، وذُلُّك عِزًّا ، لأنك فى محل الإضطرار وهو

(١) وفى التيمورية (بملازمة) وكذا فى نسخة الدار .

يجيب المضطر إذا دعاه ، وفى مقام الرضا والصبر وهو مع الصابرين .
فافهم . ثم ذكر المؤلف التفصيل فقال :

تحقق بذلك يمدك بعزه

قلت : حتى لا يكون عزٌّ فى الوجود إلاّ بك وبمن تعتزُّ به(١)

تحقق بعجزك يمدك بقدرته

قلت : حتى تصير قدرةُ القادرين من الخلق عجزاً فى قدرتك .

تحقق بضعفك يمدك بحوله وقوته

قلت : حتى يكون كلُّ شىء ضعيفاً فى قوّتك بحيث لا يُعازُّك أحدٌ إلّا أذلَّه الله ، ولا يُغالبك أحدٌ إلا أعجزه الله ، ولا يقاويك أحد إلا أوهنه الله ، فالتحقيق بالأوصاف : بساط الكرامة عاجلاً بظهور التصرّف والخدمة والحرمة ، وآجلاً بثبوت الرحمة والنعمة ، وذلك لا يدل على كمال الإستقامة ، وإن دل على الاختصاص ، كما افتتح له الباب الموفى:

---

(١) وفى التيمورية (وبمن تعززت بعزته) .

الباب العشرون

إذ قال :

وقال رضى الله عنه : ربما رزق الكرامة من لم تكمل له الاستقامة

قلت : الكرمة أمر خارق للعادة غير مقرون بالتحدّى ، ولا خال عن الاستقامة ، ولا مستند للأسباب ، يُظهره الله تعالى على يد من أراد اختصاصَه من أهل طاعته فى البداية ، أو فى النهاية،أو بينهما.

فهى تدل على اختصاص صاحبها ، لا على استقامته ؛ فيتعيّن تعظيمه واحترامه ، لا تقديمه واتباعه ، إلا أن يظهر عليه كمال الاستقامة، وهى: الاستواء فى اتِّباع الحق ظاهراً وباطناً على منهج السداد بلا علِة .

فهى إذن توبة بلا إصرار ، وعمل بلا فتور ، وإخلاص بلا التفات، ويقين بلا تردد ، وتوكُّل بلا وَهَن(١) ، مُلازِمُهَا واصلٌ قطعاً ، فهى الكرامة الحقيقية لا غيرها ..

وقد قال الشيخ أبو الحسن الشاذلى رضى الله عنه : « إنما هما كرامتان جامعتان محيطتان : كرامة الإيمان بمزيد الإيقان وشهود العيان ، وكرامة العمل على الاقتداء والمتابعة ومجانبة الدعاوى والمخادعة ؛ فمن أُعطيهما ثم جعل يشتاق إلى غيرهما فهو عبدٌ مفْتر كذاب مُغْتر ذو خطأ فى العلم والعمل بالصواب ، كمن أكرم بشهود الملك على نعت الرضا فجعل

(١) وزاد فى التيمورية (وتعلق بلا تردد ، واستسلام بلا منازعة، وتفويض بلا تدمير) .

يشتاق إلى سياسة الدّواب وخِلَع الرضى » .

وقال : « وكل كرامة لا يصحبها الرضا عن الله فصاحبها مستدرج مغرور أو ناقص أو هالك مثبور » انتهى . وهو عجيب نافع إن شاء الله .

والحاصل أن ظهور الكرامة وإن دلّ على الاستقامة فلا يدل على كمالها ، فلا يغترر بها إلاّ مخدوع ، ولا يُهمل فضل الله فيها إلاّ مغرور ، فلزم التحقق والتحقيق كما أشار إليه المؤلف إذ قال :

من علامة اقامة الحق لك فى الشىء ادامته أياك فيه مع حصول النتائج

قلت : فعلامة إقامة العبد فى الكرامة إدامةُ جريانها عليه مع حصول نتائجها ، وهى ثلاثة :

وقوع الهداية بإنهاض النفس ، وعلوّ الهمة بالتعلّق بالمعانى[1] ، وكمال المعرفة بتحقق اليقين ، والرضا عن الله فى كل وقت وعلى كلّ حال ، فقد قال الشيخ أبو الحسن الشاذلى رضى الله عنه : « فائدة الكرامة تعريف اليقين من الله تعالى بالعلم والقدرة والإرادة والصفات الأزلية بجمع لا يفترق وأمر لا ينفك كأنها صفة واحدة قائمة بذات الواحد ، يستوى من تعرّف الله إليه بنوره ، ومن تعرّف إليه بفعله »[2] فهى

---

(١) وفى نسخة (بالمعاناه)

(٢) وفى التيمورية (كأنهما صيغة واحدة قائمة بذات الواحد ، هل يستوى من تعرف إلى الله بنوره ومن تعرف إليه بعقله) ؟

إذن تفتح لليقين سبباً ، وترى المريدَ عجباً ، وتورث العارفَ أدباً ؛ فإن لم يكن شيء من ذلك خيف على صاحبها السلب والحرمان ، لأنه يرى نفسه فيها ، وبها ، فيهلك .

ثم حكم إخفائها إظهار[1] على حسب بساطها ، وذلك ما بيّنه المؤلف إذ قال :

من عبر من بساط احسانه أصمتته الأساءة مع ربه ، ومن عبر من بساط احسان الله اليه لم يصمت اذا أساء .

قلت : فى بعض النسخ « عبّر » بالتشديد من التعبير ، وهو المناسب لقوله «أصمتته» . وفى بعضها بالتخفيف من العبور ، وهو الدخول ، وعليه فكأنه يقول : من دخل حضرة الحقّ ناظراً لنفسه إذا أراد أن يظهر ما جرى له من الكرامات وغيرها ناداه منادى الحقيقة : تذكر كرامتك ، ولا تذكر ذلّتك ! !

فيقف عند حدّه ، ويفرّ مما بدا له عوضاً من فرحه به ، فيكون حاله قبضاً فى قبض ، وكتماناً فى كتمان ، وستراً فى ستر ، وهذا حال الزهّاد والعبّاد وأهل الطاعة والأوراد ممن لم يحظ بالمعرفة ، ولا تبرّأ من نفسه .

فأمّا من دخل ناظراً لإحسان مولاه ، عاملاً على ما به يتولاّه ، راجعاً إليه فيما منّ به عليه وأولاه ، فذلك الذى ينطلق لسانه ، ويسترسل

---

(١) وفى التيمورية (ثم حكم إخفائها وإظهارها على حسب بساطها) .

بالإظهار بيانه ، فلا يحتشم عند التعبير ، ولا يبالى بما هو فيه من جليل وحقير ؛ إذ يرى نفسه منعدماً من البين ، ويشاهد تعريف الحقّ كرؤية العين ، وعلى هذا يجرى قولهم « من عرف الله انطلق لسانه »[١] وقد يكون لهما معنى غير ذلك .

فمن هاهنا اختلفت طرق الناس فى الإظهار والإخفاء والقبول والتبرى والفرار والفرح ، وقد يتعاقب ذلك على الشخص الواحد ، والله أعلم .

ثم التعبير تارة يكون على حقيقته[٢] بلا تحقق ، وهو حال العلماء وأهل البداية ، فهو يفيد العلم والفهم دون التأثير .

وتارة يكون عن تحقُّق وتمكُّن ، وهو حال أهل المعرفة والكمال ، فيفيد التأثير والانفعال ، وهذا الذى نبّه عليه المؤلف إذ قال :

تسبق أنوار الحكماء أقوالهم ، فحيث صار التنوير وصل التعبير

قلت : أنوار الحكماء هى الظلال الواقعة فى صدورهم من معانى ما فُتح لهم من الحكمة التى هى إصابة الحق فى القول والعمل ، فهى تسبق إلى قلوبهم ثم ينطقون بما يناسبها على حسب حالهم منها ، فتصل إلى قلوب السامعين على حسب ذلك ، فحيث صار التنوير من قلوبهم

---

(١) وفى التيمورية بعد قوله انطلق لسانه (وعلى الأول يجرى قولهم من عرف الله كل لسانه) .

(٢) وفى نسخة (عن حقيقة)

وصل التعبير من قلوب غيرهم ؛ فمن كان نطقه عن نور تام أفاد المخاطبَ نوراً تاماً .

ومن كان عن ناقص فعن ناقص ، ومن كان عن هوى فهو كذلك ؛ لأن ما خرج من القلب دخل القلب ، وما قصر على اللسان لم يجاوز الآذان ، ثم إذا وصل القلب وعرف لم يمنعه من التمكّن إلاّ جُحودٌ أو ضلال ، كحال الكفّار إذا أقرّوا بالحقيقة ولم يصدّقوا بها جُحوداً وعناداً حتى كانوا يجعلون أصابعهم فى آذانهم ويستغشون ثيابهم خوفاً من تمكّنها لاستجلابها ، وقد ذكر المؤلف سرّ ذلك بأن قال :

كل كلام يبرز وعليه كسوة القلب الذى منه برز

قلت : سواء كان ذلك الكلام عادياً أو شرعياً أو غيره ، لأن الألفاظ حلية المعانى ، والمعانى قلبية وما برز من بساط ظهر أثره فيه .

والناس ثلاثة :

متكلّم مجموع ، ومتكلّم مسموع ، ومتكلّم مدفوع .

فالمجموعُ : هو الذى تنفع إشارتُه ؛ وتُفيدُ عبارتُه .

والمسموع : هو الذى تُستَحلَى عبارَته وتُفهم إشارته .

والمدفوع : هو الذى تَمجّه الأسماع ، ولا يحصل به الانتفاع .

وقد أشار المؤلف إلى الأول والثانى بأن قال :

من أذن له فى التعبير فهمت فى مسامع الخلق عبارته وجليت اليهم اشارته ،

قلت : علامة كلام المأذون له أن يكون مفهوماً مقبولاً مُحلاً مُجلاً

محبباً ، إذ قد اختلفت النسخ ؛ ففى نسخة (وحلّيت) بالحاء واللام بعدها ياء من التحلية ، وفى نسخة بالجيم كذلك من « التجل » وهو الإظهار ، وفى نسخة بحاء وموحّدة من المحبة وكذلك كان كلام الأنبياء عليهم السلام ، إذ لم ينكره أحد من حيث ذاته ، بل أقروا بحسنه وصرّحوا بكماله ، وأنكروا حقيقته جحداً وعناداً إذ قالوا : أساطير الأولين ، وقالوا إنما يعلّمه بشر ، وهذا سحر مبين ، وسحر مستمر ، وسحر يؤثر . . . إلى غير ذلك .

والإذن عبارة عن إحدى ثلاثة أوجه : عادى ، وشرعى ، وذوقى ، فالعادى التيسير والفيضان ، والشرعى تعلّق الأمر الشرعى به وجوباً أو ندباً ، والذوقى ، ومرجعه لانطلاق اللسان دون احتشام ولا تتبّع .

قال أبو العباس المرسى رضى الله عنه : « الولى يكون مشحوناً بالعلم ، والحقائق لديه مشهودة ، حتى إذا أُعطى العبادة كان كالإذن من الله تعالى له فى الكلام » اهـ. ثم ذكر علامة تخلّف الإذن فى التعبير وأبان عنه بأن قال :

ربما برزت الحقائق مكسوفة الأنوار اذا لم يؤذن لك فيها الاظهار .

قلت : الحقائق ما يقع من نكت الإلهام بالأمور العرفانية بالقلب ويتمكن منها ، ولها صورة فى النفس وعبارة فى الخارج ، إذا تم نورها ظهر فى الباطن والظاهر . والعبارة من نورها ما يشهد لصاحبها بالتحقق . ثم إذا أذن له فى التعبير عنه برزت بكسوة الأنوار وهداية

الاستبصار ؛ وإلاَّ ظهرت بنعوت الظلمة كأنها شمس اعتراها كسوف لاتكاد تُقبل لثقلها ولاتفهم لبعدها ، ولاتسمع لامتجاجها .

قال الشيخ أبو العباس المرسى رضى الله عنه «كلام المأذون له يخرج وعليه حلاوة وطلاوة و كسوة، وكلام الذى لم يؤذن له يخرج مكسوفَ الأنوار ؛ حتى أن الرجلين ليتكلمان بالحقيقة الواحدة فتقبل من أحدهما وتردّ على الآخر » انتهى .

وربما قبلت من الشخص الواحد فى وقت وردّت عليه فى غيره ، بل ربما قَبلها شخص وردّها آخر فى وقت واحد وخطاب واحد ، وما ذلك إلاَّ لاختلاف الإذن بحسب الأوقات والحالات والأشخاص .

ثم ذكر الحامل على عبارة المأذون له دون غيره من وجدٍ صادق أو قصد هداية ، وبيّنه بأن قال :

عباراتهم اما لفيضان وجد أو لقصد هداية مريد

قلت : فيضان الوجد غلبته وإتْيانه بصفةٍ من القهر لا يمكن معها التمالك طرباً أو غيْرة .

والوجْد: وقع الحقيقة فى القلب على وجه يقع به استغراقه فيما وقع عليه ولا يصح معه التمالك فى كتمان الواقع غالباً .

وهداية المريد : إرشاده لما به صلاح حاله من أحد ثلاثة أمور : خروجٌ من حيْرة فى ذوقه، أو استراحته فى شوقه ، أو ترقٍ له فى همّته أو عمله أو حالته .

وفيضانُ الوجد إنما يكون من ضعيف ، كما أن الإرشاد لا يقع إلاّ من قوى ؛ لأن مقصد الكل الكتمانُ ، وهو لازم لوجوه ثلاثة :

فراراً من التلوين بالظهور ، وغيْرةً على أسرار الحق أن تكون مبتذلة ، وتحقيقاً للهداية بالفرار من منغصّات ومشوشات القلب ، كما يشير إليه بقوله بعد (لا ينبغى للسائك أن يُعبّر عن وارداته).

وليس هذا خاصاً بالتعبير ، بل إظهاراً لكرامات كذلك ،

ولكل طريق فريق بيّنهم المؤلف بأن قال :

فالاول حال السالكين ، والثانى حال أرباب المكنة والمتحققين

قلت : وذلك لأن السالك تغلبه أحواله ولا يتمالك ، وليس من أهل القدوة حتى يحتاج لأن يهدى غيره ، بل شُغله بنفسه وقلبه قد صرفه عن التوجيه لغيره فضلاً عن الاشتغال بهدايته .

والمتمكن قد غَلَب على حاله ، وحَكَم على حقائقه ، وفرغ من تهذيب نفسه ، فتفرّغ لهداية غيره فصار ذلك واجباً عليه أو مندوباً له، ثم هو لم يجب عليه إلّا بعد الأمر به .

واالمُكْنة : المتمكن فى المعرفة ، وحصول المكانة فيها بحيث لا تؤثر فيه عوارضُ التقلّب وإن عارضته ، وذلك لتحقق القلب والسرّ والروح بما هو فيه من حاله الذى يبديه .

ثم يتعين على المكنة عند قصد الهداية أن يراعى فى تعبيره حق

نفسه وحق المخاطب ، وحقوقَ عامّة أهل الطريق وغيرهم إن وسعه ذلك ؛ فأما حق نفسه بأن لا يعبرّ إلا عن ماهو متمكِّن فيه ومتحقق به، وأما حق المخاطب : بأن يأتيه بذلك على قدر حاله وذوقه وفهمه وعلمه دون اتساع ولا ضيق[1] ، لينتفع به ، وإلا تشتت فى التوسُّع وخرج فى الضيق .

وأما حق الغير : بأن يعبرّ عبارة تفيد العام فى عمومه ، ولا تدفع الخاص عن خصوصه ، وتكون سالمة من الإبهام والإيهام ؛ حتى لا يقع إنْكار ولا اعتراض .

فأما المريد فلا يتقيّد ؛ لأن حاله حاكم عليه .

ثم التفصيل من العباره على قدر الحالة ، وهذا ماذكره بأن قال :

العبارات قوت لعائلة المستمعين .

يقول المستمعون للحقائق وغيرها عِيالٌ على المتكلِّم فيها ، وهى أقواتهم منه ؛ لأنهم يطلبونها لقوام المعانى كما يطلبونها[2] لقوام الأبدان، وينتفعون بها فى نفوسهم كما ينتفعون بالقوت فى أبدانهم ، ويتفاوتون فى الانتفاع والتحصيل بها كما يتفاوتون فى أقواتهم انتفاعاً وتحصيلاً ؛ فينبغى أن يراعى حقُّهم فى ذلك بتهذيبه وترتيبه وتقريبه حتى تسوغه قلوبُهم وتدركه عقولهم ، ولا ينال لأحد منهم مايضرُّه فى حال ولا مآل .

---

(١) وفى نسخة (ولا تضييق) .
(٢) وفى نسخة (كما يطلبونه) .

ولذلك نهى عن « التفيهُق » فى الكلام ، وتكلُّف السجع وغيره فتأَمل ذلك . ثم قال :

ليس لك الا ما أنت له اكل

قلت : يحتمل أن يكون الخاطب فى كلامه المعبِّر ، ويحتمل أن يريد المعبَّر له . والخارجُ فى ذلك ثلاث تأْويلات:

أحدها : ليس لك إلاَّ ما انتفعت به فلا تشتغل بنفع أحد إلّا بعد انتفاعك .

الثانى : ليس لك إلاَّ ما يليق بك فاحرص على تحصيل[1] ما يليق بغيرك ، فلا تشغل نفسك بما هو عنك أجنبى .

الثالث : ليس لك إلا ما سمعته فأَثره[2] فيك ، لا ما تأثر به غيرك .

فإذا عرفت ذلك فى جهة فالزمها فإنَّ فَتْحك منها .

قال فى «لطائف المنن» «وإنما يكون الاقتداء بشيخ دلَّك اللهعليه، وأشهدك ما أودعه من الخصوصية لديه ، ثم ذكر أمره ... إلى أن قال : وليس شيخك من سمعت منه ، إنما شيخك من أخذت عنه » .

قلت: وليس شيخك من واجهتك عبارتُه إنما شيخك الذى سرت فيك

---

(١) وفى التيمورية فاحرص على تحصيله إلا ما يليق بغيرك فلا تشتغل بنفع أحد إلا بعد انتفاعك فلا تشتغل بما هو أجنبي عنك .

(٢) وفى التيمورية (فأثر) بتشديد حرف الثاء .

إشراقه[١] ليس شيخك من دعاك إلى الباب ، إنما شيخك من رفع بينك وبينه الحجاب ، ليس شيخك من واجهك مقاله، إنما شيخك الذى نهض بك حاله ، شيخك هو الذى خرج بك من سجن الهوى ودخل بك على المولى .

شيخك الذى ما زال يجلو مرآة قلبك حتى تجلّت فيها أنوار ربّك ونهض بك إلى الله فنهضت إليه ، وسار بك حتى وصلت إليه ، وما زال محاذياً لك حتى ألقاك بين يديه فزجّ بك فى نور الحضرة وقال : ها أنت وربّك » .

وقال الشيخ أبو مدين رضى الله عنه : « الشيخ من شهدتْ له ذاتك بالتقديم وسرى بالتعظيم[٢] ، الشيخ من هذّبك بأخلاقه وأدّبك بأطراقه ، الشيخ من جمعك فى حضوره وحفظك فى مغيبه » انتهى .

وكما يتعيَّن على السامع ما قلناه يتعين على المُلْقِى أن يختار لكل سامع ما يليق به ؛ فلأهل الغفلةِ الوعظ والتذكير ، ولأهل الإرادة الأحوالُ ، ولأهل المعرفة الحقائق ، وكلٌّ يعبّر عن بساط حاله من نقص أو كمال ذكره بأن قال :

---

(١) وفى نسخة الذى ظهر .. لك إشارته .

(٢) وفى التيمورية : الشيخ من شهدت له ذاته بالتقديم وسرك بالتعظيم » .

ربما عبر عن المقام من استشرف عليه ، وربما عبر عنه من وصل اليه .

قلت : مقصود هذا الكلام : أن التعبير عن المقام لا يفيد كون المعبّر محققاً به ولا واصلا إليه ، بل كونه مستشرفاً عليه ، فإما بزيادة وصوله إليه ، وإما مجرّداً عن ذلك . والفرق بين الحالين غامض إلاّ ببصيرة نافذة وتأييد ربّانى ينشأ عن تحقق وتحقيق كما قال :

وذلك ملتبس ألا على صاحب بصيرة

قلت : يعنى مُشتبه ومختلط لا يميّزه إلاّ صاحب بصيرة نافذة تنظر بنور إلهى فتدرك هذه من هذه ؛ لكن لكل شىء علامة يعرف بها؛ فعلامة المتمكّن من الحقيقة الواصل إليها ثلاث :

سريانُها فى كلّيّته فيحظى بها كلُّ شىء من ذاته ظاهراً وباطناً ، سراً وعلانية . وجريان أفعاله ومعاملاته على مقتضاها دون احتياج لأسباب ولا غيرها . وتأثُّر السامع بها على قدره فلا يمجُّها ولا يستثقلها وإن لم يظهر فيه قبولها والعمل بها .

وعلامة المعبّر عن إشراف ، ثلاث :

اهتزاز ذاته فرحا عن التعبير .

وقصورُه فى الإخبار عن المعنى الجامع المحيط .

والإحتياجُ للأسباب والمعونات فى تحصيلها فى ذاته ، وتوصيلها لغيره، كما تقدّم عند قوله [تسبق أنوارُ الحكماء أقوالَهم] فتأمّل ذلك .

وإذا كان الأمر ملتبساً والتعبير مضرّاً فالتماسك أولى .

وعلى كونه مضرّاً بالمبتدىء نبّه إذ قال :

لا ينبغي للسالك أن يعبر عن وارداته .

قلت : يعنى قبل تمكنه من الحقيقة ، واستيفائه موجبات الطريقة فإن شأن المريد شغله بنفسه ، ومتى عبّر فقد اشتغل بغيره وذلك يشوّش عليه حاله وقد يوجب نقصه كما قال :

فان ذلك مما يقل عملها فى قلبه ويمنعه وجود الصدق مع ربه .

قلت : أما قلّة عملها فى قلبه فإنها إذا بقيت فى باطنه تردد معناها فى نفسه تردداً يقتضى ارتسامها فى الخيال ، ثم لا يزال كذلك حتى يصير ملازماً لا يفارق، ثم لا يزال حتى ينطبع فيها وتنصبغ بها الحقيقة، وإذا خرجت من القلب صارت لها صورة فى الخارج فأوجبت حديث النفس بما ينشأ عنها وما يجرى بسببها فلا تؤثّر شيئاً .

وأما منعها وجود الصدق فلأنها تثير ثلاثة أشياء :

الفرح بها ، وهو حظّ نفسانى ، واستشعارَ المزيّة ، وهو أعظم ، وتعظيمَ الخلائق ، وهو بساط الرياء والتصنّع .

وقد ذكر الشيخ حكمتين : قلّة عملها ، ومنعها الصدق . وبقى ثالث ، وهو الحرمان من التحقق بها ؛ لأن المريد إذا تكلّم صاحبُ عِلم لا صاحب مال .

وقد قال الشيخ أبو العباس بن العريف ، رضى الله عنه : « إن

الحكمة إذا بطنت خصّت أهلها فدامت و نفعت ، وإذا ظهرت عموماً أنكرها من ليس من أهلها فانقطعت وارتفعت، وفيها ظهر من الحجة كفاية لتعريف المحجة » انتهى .

ثم من دعاوى التعبير طلب المنزلة فى قلوب الخلق ، وذلك من التشوّف لما عندهم. وقطعُ ذلك بالنظر إلى الحق سبحانه فيما يجريه على أيديهم كما قال :

لا تمدن يدك الى الاخذ من الخلائق حتى ترى أن المعطى فيهم مولاك ،

قلت : فأنت بمعزلٍ عنهم فى عين التوجّه إليهم ، وسواء كان الأخذ منهم بسبب و بلا سبب فلا بدّ من هذا الشرط ؛ فقد قال يحيى بن معاذ الرازى رضى الله عنه : « من استفتح باب المعاش بغير مفاتيح الأقدار وُكل إلى المخلوقين » انتهى .

وعلامةُ التحقق فى ذلك ثلاث :

عدم حصر الجهات بترك الإشراف والتشوّفات ، وسقوط الحرص فى عموم الأوقات والحالات حتى لا يصدّه الرزق عن مندوب ولا محبوب ، والتمسك بالحق فى كلّ وقت وحال بحيث لا يترخّص بوجه غير مستقيم ، ولا يقابل الخلق بقلب سليم فلا يذمُ مُعطيا ولا مانعا ، ولا يمدحهما إلاّ من حيث أمر الله فيهما مع اقتصاره فى ذلك عن المبالغة والميل فى الطريق(١) .

---

(١) وفى نسخة (والميل فى الطرفين).

فهذه الشروط الباطنة ، وقد جمعها مع الظاهرة بأن قال :

فان كنت كذلك فخذ ما وافق العلم .

قلت : فإن كنت معقود القلب بالحقيقة كما ذكرنا فلا تهمل الشريعة ، بل خذ من الله ما أجرى على أيديهم مما وافقك العلم على أخذه وهو الحلال الطيّب المصحوبُ بالورع أو المتفقُ عليه عند أئمة الفتوى ، أو الراجح عند إمامك أو غيره عند الضرورة .

ومرجع ذلك كلّه لفقه النفس فعادلَ العلمَ بالحكم الأصلى [1] .

وقد قال الشيخ أبو إسحق الجبنيانى رحمه الله : « اكتسب بالعلم وكُل بالورع » وهي رخصة عظيمة . وبالله التوفيق .

ثم ذكر المؤلف رحمه الله حال العارفين فى همّته ليكون أسوة لمن سلك طريقه فقال :

وربما استحيى العارف أن يرفع حاجته الى مولاه اكتفاء بمشيئته ، فكيف لا يستحى أن يرفع لخليفته .

قلت : كلّ هذا علوُّ همّة وتعظيم الربوبية ، ومن ثمّ جاء أن «علو الهمّة من الإيمان» .

وأحسن ما يُحكى فى ذلك قول بشر رحمه الله لعلى بن أبى طالب رضى الله عنه فى المنام: ما أحسن عطفَ الأغنياء على الفقراء طلباً للثواب.

فقال علىٌّ كرّم الله وجهه :

(١) وفى نسخة (فعاد) .

« وأحسن من ذلك تيهُ الفقراء على الأغنياء ثقةً بالله »

قال التسترى[1] رحمه الله :

« وأكبر من ذلك همّة العارفين تتلاشى فيها جميع المخلوقات فضلاً عن المقدورات » انتهى .

والنقل فى هذا الباب كثير . وقد أشبع منه فى التنبيه، فانظره

تنبيــه :

لما كان القبول والردّ محل الالتباس ، وكذا أعمال[2] الأسباب وعدمها افتتح الباب الحادى والعشرين .

---

(١) وفى نسخة التيمورية (القشيرى)
(٢) و « « « وكذا أسباب الأعمال).

الباب الحادى والعشرون

فقال : وقال رضى الله عنه : اذا التبس عليك أمران فانظر أثقلهما على النفس فاتبعه .

قلت : التبس : اشتبه واختلط .

والمراد بالأمرين : أمران واجبان أو مندوبان أو مباحان أو مكروهان لا مندوحة عنهما ولا أرجحية لأحدهما على الآخر ، ولا يمكن الجمع بينهما :

كبِرّ أحد الأبوين لمخالفة الآخر ، وحضور جنازتين لمتساويين فى الحق ، وأخذ هدية أو تركها لمن لا يتغيّر بالردّ ولا يُسرّ بالقبول ، والخمول بدلاً من وقوع الجاه المخوّف فى المآل .

وثقل الشيء على النفس على ثلاثة أوجه :

ثقل من جهة الحقيقة ، وثقل من جهة المعنى ، وثقل من جهة الطبع . وهو المعتَبر هنا ، وله علامات ثلاث :

العجلة ، والأمن ، وعمى العاقبة .

فإذا توجّهت لشيء لا تعرف له مادةً فى الأحكام ترجّح فيه الترك من الفعل ، فإن كان مع أمن لا مع خوف ، ومع عجلة لا مع تأنٍ ، ومع عمى العاقبة ، لا مع بصارة العاقبة فاعلم أن خفتّه على النفس من هواها ، وإن ثقل عليها مع كزازة وطيش وعمى عاقبته كذلك .

وعليه يتنزّل كلام المؤلف أولاً وآخراً بما ذكر فوقه . ثم قال :

فانه لا يثقل عليها الا ما كان حقا .

قلت : وذلك لأنها مجبولة على ضد الخير ، فإذا أدبرت بلا علّة أو أقبلت بلا دليل مع ذكر فهو دليل هواها ، وإن كان ذلك مع دليل وظهور حكمة الإيثار فهو من الحق، لأن الأنوار تتعاضد كما أن الظلمات تترا كم .

وهذا الميزان إنما يكون للنفوس اللوّامة(١) التى تخطىء تارة وتُصيب أُخرى ، وليس لها نور تهتدى به ، فأما من له نور يهتدى به فليعمل على حقيقه ما يلقيه إليه الكشفُ والإلهامُ عند تعذّر الدليل الشرعى ، وذلك بأن يبسط نور إيمانه على ما يتوّجه إليه بصدق وتحقيق، فإن ظهر له كالشمس أقبل بلا تردد، وإن بان له كالليل أدبر بلا توقف، وإن كان كالغَبَش توقّف فيه ، لاشتباه حاله ، وهو فى ذلك كلِّه تابع للشرع فى إثبات الظاهر وحسن الظن بالمسلمين .

وإنما يفيده هذا الأمرُ وجودَ الحذر ونحوه ، وأصله قوله عليه الصلاة والسلام : (استفت قلبك ، وإن أفتوك ، وإن أفتوك ، وإن أفتوك) .

فأما النفس الأمّارة فلا حديث عليها ولا عهد لها ، والحقُّ عليها

---

(١) وفى نسخة (للنفوس الامارة)

أثقل من ثقيل ؛ فهى أجرأ فى لزوم الفراغ[1] من مواطن مثلها ، ويُستعان عليها بقصد المخالفة أبداً . وبالله التوفيق .

وما ذكر فى «لطائف المنن» من ميزان الموت يليق فيه تحقيق ذلك على النفس حتى كأنه واقع ، ثم هذا يجرى فى موقف الأحكام لا غير ، والله أعلم .

ثم إذا ترجّح شىء بالشرع وجب ترجيحه وكان العدول عنه هوى، كما قال :

من علامات اتباع الهوى المسارعة الى نوافل الخيرات ، والتكاسل عن القيام بحقوق الواجبات

قلت : الهوى : الميل للأغراض النفسانية .

واتّباعه : العمل على مقتضاه ، فالإقبال والإدبار من غير مبالاة بالشرع . وإنما تسرع النفس للنوافل مع عدم القيام بحقوق الواجب لما تعتقده فى ذلك من استعجال الفتح ، وأنه لا يكون بالمألوف بل بالمستغربات وقد عدّ ذلك المشايخ من أعظم العيوب والآفات ، فقد قال بعضهم :

« من كانت النوافل أهمّ عليه من الفرائض فهو مخدوع » .

وقد قال محمد بن أبى الورد رضى الله عنه : هلاك الخلق فى حرفين: اشتغال بنافلة ، وتضييع فريضة ، وعمل الجوارح بلا مواطأة

(١) وفى التيمورية (فهى أحرى بلزوم الفرار من مواطن) .

القلب . وإنما حرموا الوصولَ ؛ لتضييعهم الأصول .

وقال إبراهيم الخواص[1] رضى الله عنه : « إن الله لا يقبل من عامل عملاً إلاّ بالصدق وإصابةِ الحقّ » انتهى .

فإذن الأهم على العبد إقامةُ الفرائض ، ثم القيام بالسنن ، ثم الإتيان بما تيسَّر من النوافل .

وإقامة الفرائض بثلاث :

وجود الصدق فيها ، والقيام بلوازمها وآدابها ، ورؤية المنَّة لله سبحانه فى وجودها ، إذ قد أعاننا مولانا على ذلك بتقليلها وتقصيرها وتقييدها بالأوقات ، وتوسيع أوقاتها وتلوينها .

وقد ذكر المؤلف هذه الخمسَ فى هذا الكتاب بنوع من بيان المنَّة ؛ فأما الأولين والآخرين فى آخر باب [لا يستحقر الوردَ إلاَّ جهول] فانظره هناك . وأما التوسيع والتقييد فقال فيه :

قيد الطاعات بأنواع الاوقات كى لا يمنعك عنها وجود التسويف ووسع الوقت عليك كى يبقى لك حصة فى الاختيار .

قلت : فذكر فى الوجهين نعمتين عظيمتين معينتين على اتّباع الحق

---

(١) هو أبو إسحق إبراهيم بن أحمد الخواص من أقران الجنيد له فى الرياضات حظ كبير . مات بالرى سنة ٢٩١ هـ .

ومراقبة الأوقات والطاعات التى بها يتوصل إلى عظيم الثواب وحسن المآب .

وفى نفى التسويف كرامات ثلاث :

مبادرةُ الأمر ، ومراقبةُ الذكرِ وعمارةُ السرِّ .

وفى بقاء جهة الإختيار ثلاث كرامات :

التوسعة بدلاً من الضيق ، وظهور النسبة باختيارك لنفسك ، وانشراح الصدر للعبادة ، وفيها لإمكان[١] التفرق بها ، وفى ذلك حجة على التارك والمجانب لاخفاء به على متأمل[٢] .

وقد قال الشيخ أبو الحسن الشاذلى رضى الله عنه : « لا تؤخِّر طاعةً وُقِّتَتْ بوقت[٣] فتعاقب بفوتها أو بفوت غيرها أو مثلها ، جزاء لما كفر من نعمة ذلك الوقت ؛ فإن لكل وقت سهماً من العبودية يقتضيه الحقُّ منك بحكم الربوبية » .

قال : فقلت فى نفسى : قد أخّر الصدّيق الوتر إلى آخر الليل ؛ فإذا عَلَيَّ بصوتٍ فى النوم : تلك عادة جارية ، وسنَّة ثابتة ألزمه الله إيَّاها مع المحافظه عليها ، فأنَّى لك بها مع الميل إلى الراحة والتمتع بالشهوات

(١) فى التيمورية (وفيها إمكان التفرغ بها) .
(٢) وفى نسخة (وذلك حجة على التارك فلا خفاء به على متأمل) .
(٣) وفى نسخة (لا تؤخر طاعة وقت لوقت فتعاقب بفواتها) .

والدخول فى أنواع المخالفات والغفلة عن المشاهدات .. هيهات .. هيهات ! ! » انتهى فتأمله .

ذكر حكمة الإيجاب فقال :

علم قلة نهوض العباد الى معاملته فأوجب عليهم وجود طاعته .

قلت : يقول : لما علم الحق سبحانه أن من نهض لمعاملته دون تنبيه ولا تأكيد من العباد قليل ، وأن أكثر الخلق إنما يتبعون الهوى أو يشتغلون بدنيا ونحوها عزم لهم بالإيجاب ليكون محجة للعاقل وحجة على الغافل ، فلزمهم ذلك طوق أعناقهم كالسلاسل ، وهذا مانبّه عليه إذ قال :

فساقهم اليها بسلاسل الأيجاب

قلت : استعار السلاسل للايجاب ؛ لمناسبته لها من وجوه ثلاث : عدم الانفكاك بكل حال ، وكونها قائدة أو سائقة لما يراد كرها لمن أباه طوعاً ، وتوصيلها لعين المراد ، لامن حيث تعلّقت به .

والناس ثلاثة :

رجل أنهضته للعبادة والخدمة محضُ العبودية وحقُّ الخدمة ، وهذا حرٌّ كامل .

ورجل أنهضته لها حُسنُها أو حُسن من نُسبت له وهو معامل بها وهذا مريد طالب أو عارف مستبشر .

ورجل أنهضه إليها وجودُ الثواب والعقاب ، وهذا من عوام المؤمنين وكافة أصحاب اليمين .

فأمّا من أخلد إلى الأرض واتّبع هواه وآثر دنياه وخالف مولاه فلا حديث عليه .

ثم الطاعه والمعاملة جُنَّةٌ فى الحال ، وموصِّلَةٌ إلى الجنّة فى المآل ، والحق تعالى غنىّ عن العباد . وهذا ما أشار إليه المؤلف إذ قال :

عجب ربك من قوم يساقون الى الجنة بسلاسل

قلت : يعنى أظهر العجب منهم ، وذلك أن الجنة محبوبة بالطبع جميلة الوصف ، موضع المنافع والفوائد ، والتراخى عن مثل ذلك من العجب العجاب .

وقد وقع هذا الحديث فى أسارى بدر حين نظر إليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وقيل : معنى « عجب » أى : أحبَّ :

وقيل : هو من الألفاظ الذى ينزَّه معناها وتمت كما جاءت .

ثم بيّن المؤلف ما أشار إليه إذ قال :

أوجب عليك وجود خدمته ، وما أوجب عليك فى الحقيقة الا دخول جنته

قلت : وذلك لأن الطاعه مضمنة بالجنّة ، لأنه ثوابها ، والله تعالى لا يُخلف وعده ، والآتى قطعاً كالموجود فى الحال .

ثم جنَّات المطيع ثلاثة :

جنَّة المعاملة بعظم المنّة ، وجنّة الفتوح بظهور الكرامة ، والجنَّة الحسيَّة فى الدار الآخرة . رزقنا الله الجميع بمنّه .

وقد ثبت أن الحق تعالى غنىّ عنك فطاعتك لك .

وإذا كان كذلك وجب ألاّ تقصر فى حقوقه ؛ فإن ساعدك القدر على ذلك ، وإلاَّ فلا تيأس من مولاك ؛ لأن ذلك قادحٌ فى يقينك ، كما قال :

من استغرب أن ينقذه الله من شهوته وأن يخرجه من وجود غفلته فقد استعجز القدرة الالهية

قلت : وذلك لأنه استثنى منها شيئاً هو صلاحُ حاله ، ولو كان فى غيره خلاف ذلك ، وهذا شىء ذكره باللزوم لا بالتحقيق والوقوع ؛ فلذلك كان قادحاً فى اليقين لا فى الإيمان ، فافهم .

ثم اعلم أن من قوى إيمانه بالقدرة لا يكون عنده شىء أغرب من شىء ، واستغراب الخوارق من ضعف اليقين بالقدرة ، ولذلك قال عليه الصلاة والسلام فى حديث البقرة والذئب : آمنتُ به أنا وأبو بكر وعمر حين قال الناس : سبحان الله بقرة تتكلَّم وذئب يتكلَّم !

ثم نزع المؤلف بآيةٍ حجةً على ما ذكره من عموم القدرة فقال :

وكان الله على كل شيء مقتدرا

قلت : ومن جملة الأشياء تبديل هذا العبد من النقص إلى الكمال ، ومن القبيح إلى الحسن ، وقد فعل ذلك بجماعة من الخلق كإبراهيم بن أدهم وفضيل بن عياض ، وبشر الحافي ، وعبد الله بن المبارك ، وأبي بكر الشبلي وذي النون المصري وغيرهم . فانظر حكاياتهم ، فإنها عون لك .

وأكثر اللجاء[1] إلى الله تعالى فيما عسُرَ عليك من قياد نفسك ومحاولة أمرك موقناً أنه المالك لصلاح شأنك وتوفيقه وتسديده ولا تُفارقْ ذلك على مافيك من حسن أو قبيح ، ولا تيأس من رحمة الله» انتهى وهو لُبابُ ماقصد المؤلف . والله أعلم .

ثم ذكر حكمة الابتلاء بالنقائص فقال :

ربما وردت الظلم عليك ليعرفك قدر مامن به عليك

قلت : الظُلَم : بضم الظاء المشالة وفتح اللام جمع ظلمة ، والمراد بها هاهنا : الشهوات والغفلات والمعاصي .

وابتلاء العبد بها تارة يكون طرداً ، وتارة يكون تأديباً ، وتارة يكون تقريباً فإذا أثمرت إنابته[2] كانت تقريباً ، وإذا أثمرت انكساراً

---

(١) وفي نسخة الدار (وأكثر اللجاء إلى الله فانها مفتاح ،قال في رسالة أبو زيد رحمه الله : وليلجأ إلى الله فيما عسر عليه من قياد نفسه ومحاولة أمره موقناً أنه المالك لصلاح شأنه وتوفيقه وتسديده لايفارق ذلك على مافيه من حسن أو قبح ولا تيأس . . الخ)

(٢) وفي نسخة الدار : فاذا أثمرت كانت إنابة وتقريبا .

وتذكيراً كانت تأديباً، وإذا أثمرت تعلّقاً بها كانت طرداً، فاعرف ذلك، وإنما يتذكّر العبدُ بها إذا بَعُدَ عن الفهم كما قال :

من لم يعرف قدر النعم بوجدانها عرفها بوجود فقدانها .

قلت : ولذلك قيل : « نِعم الله مجهولة وتُعرف إذا فُقدت » .

وقيل : الولد العاقّ المصرّ على تأنيبه إنما يعرف قدرَ الأب يوم وفاة أبيه » .

وقيل أيضاً : « إنما يعرف قدر الماء من أبتلى بعطش البادية ، لا مَن كان على شاطيء الأنهار والأودية الجارية » انتهى .

ثم تواتر المنّة واتساعها قد يوجب الدّهش المذموم ، فلذلك قال :

لا يدهشك واردات النعم عن القيام بحقوق شكرك فان ذلك مما يحط من وجود قدرك .

قلت: لاتدهش عن الشكر لما تراه من تواتر النعم وكثرتها وتسلسلها؛ فإن ذلك نقص وتقصير . وأصله ثلاثة عيوب .

أولها : إرادة مقابلة فضله وكرمه بأفعالنا ، وذلك من قلّة المعرفة بجلاله .

---

(١) وفى التيمورية (اعتقاد أن الشكر رسم عقلى فيريد مقابلة النعم على ما يقتضيه معقوله فلا يتهيأ . . . الخ) وفى نسخة الدار (اعتقاد أن الشكر رسم عقلى فيريد مقابلة ما يقتضيه معقوله بما يقتضيه معقوله فلا يتناهى له . . .).

الثانى : رؤية النفس ونسبتها فى الأفعال ، وهو من باب الإعتماد على الأعمال .

الثالث ، اعتماد[1] أن الشكر رسم عقلى فيريك مقابلة مايقتضيه معقوله بما يقتضيه معقوله ، فلا يتناهى له مايريد لعدم تناهى ما يترتب عليه فيدهش . ولو رآه رسماً شرعياً كما هو الحق لكفاه فى شكر النعمة ماوقع بإزائها من العبودية ، فقد قال داود عليه السلام : «إلهى ؛ ابن آدم ما فيه شعرة إلاَّ وفوقها نعمةٌ وتحتها منَّة ، فمن أين يكافئها ؟ فأوحى الله إليه : يا داود إنى أُعطى الكثير وأرضى باليسير ، وإن شكر ذلك أن تعلم أنَّ ما بك من نعمة فمنَّى » وقال عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه : «لم يُنعم الله على عبد نعمةً فيحمد الله عليها إلاَّ كان حمده أفضل من نعمته».

وقال سهل بن عبد الله ، رضى الله عنه : « ما من نعمة إلاَّ والحمد أفضل منها ، والنعمة التى أُلْهِم بها الحمد أفضلُ من الأولى ؛ لأن الشكر مستوجب المزيد » اهـ .

ثم هذا الدهش غالباً إنما يتولَّد من تمكُّن الهوى من القلب وإلفه بالبطالة حتى يتعلل بمثل تلك العلَّة فى مثل هذا المقصود وقد ذكر المؤلف بأن قال :

تمكن حلاوة الهوى من القلب هو الداء العضال .

قلت: حلاوة الهوى لذَّته المدركَة بالوجدان.

---

(١) وفى نسخة : إعتقاد الشكر رسم عقلى .

وتمكنها من القلب رسوخها فية . والداء العضال هو الذى لا تزيده المداواة إلاّ تمكنا وقوة . والهوى ثبات داعى النفس فى مقابلة داعى الحق ، وإن شئت قلت : ميل النفس لما تريده طبعاً ، وإنما تتمكن حلاوة الهوى من القلب بثلاثة أمور :

أحدها : أنه راقب[1] فى النفس لازم لها ملازمة الأوصاف لمواضعها ، فلا تسمح به إلا بَعْد جُهد جهيد ، ولذلك قيل « النفس كالنمر لا يردّها إلا القهر القوىّ ، والشيطان كالذئب إن أخرجته خرج ثم يأتى من موضع آخر » .

الثانى : أنه لا يكون غالباً إلا متلبّساً بحق[2] أو معنى يخفى به كونه مضرّاً ، إلا بعد نظر دقيق وجهد جهيد ، ولا يمكن استئصاله إلا بالأصل والفرع لاحتمال وقوع المنفعة به يوماً .

الثالث : أن الهوى إذا تمكن أثمر علماً على وفقه فكان فى موضع الحجة على صاحبه بفتح باب التأويل والجدل الذى هو مفتاح الضلال .

قال الله تعالى (أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِن

---

(١) وفى نسخة الدار (أحدها : أن ميل النفس لازم لها ملازمة الأوصاف لموصوفاتها) .

(٢) وفى نسخة الدار (أنه لا يكون غالبا إلا ملتبساً بحظ أو معنى يخفيه لكونه مضراً لا يظهر إلا بعد نظر . . .) .

بَعْدِ اللهِ) أى : أنه لا تفيد الأسباب فى هدايته ، ولذلك قال بعضهم «نحتُ الجبال بالأظافر أيسر من زوال الهوى إذا تمكن » انتهى .

وإذا كان الأمر كذلك فلا يزيله إلا قاهر ، هو : خوف مزعج أو شوق مقلق كما قال :

لا يخرج الشهوة من القلب الا خوف مزعج أو شوق مقلق .

قلت : وذلك لأنهما يأتيان من بساط قهر وجلال ، وإذا بدت أوصاف الحق لم يبق أثر لأوصاف الخلق ، فالخوف انزعاج السرّ لما علم من الوزر[1] عند مشاهده القهر .

والشوق اهتياج القلق عند تمكن الُحرَق . وقد يكون الخوف غير مزعج والشوق غير مقلق فلا يفيدان تركاً ولا توّجهاً ، وهذا من نوع قوله بَعْدُ [الوارد يأتى من حضرة قهّار لأجل ذلك لا يصادمه شىء إلا دمغه] وقد قال شيخنا أبو العباش الحضرمى رضى الله عنه ، : « واعلم أن الموعظة الحقيقية هى جذب الحق لك ولطف الحقّ بك ، وأن يخلق الله فى قلبك الخوف الشديد الملازم[2] لقلبك ، وتستحضر عظمة الله تعالى ، والخوفَ من الله تعالى ، والشوقَ إلى الله تعالى ، قال الله تعالى : (فَفِرُّوا إِلَى اللهِ) » انتهى .

---

(١) وفى التيمورية : لما علم من الوارد .
(٢) وفى التيمورية « الملائم » .

ومن ميراث الخوف المزعج : العلمُ بأن الله لا يحب الهوى ، ولا يُقبل على صاحبه ، فلذلك قال :

كما لا يحب العمل المشترك كذلك لا يحب القلب المشترك .

قلت : العمل المشترك هو الذى يداخله ثلاثة أحوال :

أحدها : الرياء : وهو العمل على رؤية الخلق .

والتصنُّع : وهو تحسين العمل والتكلُّف بالهيئات وغيرها لأجل الخلق .

والعُجب : وهو رؤية النفس فى العمل .

فالرياء قادح فى صحة العمل ، وما بعده قادح فى كماله ، والربّ سبحانه وتعالى إنما يرضى بعمل خالص لوجهه ، مخلص من شوائب الالتفاتات لغيره .

والقلب المشترك : هو الذى داخله الهوى والأُنس بالخلق ، والاستناد إليهم ، أو أحد هذه الثلاثة[1] ،

ومعنى المحبة منه تعالى ترجع للرضا والقبول ، فلذلك قال :

العمل المشترك لا يقبله والقلب المشترك لا يقبل عليه .

قلت : وما لا يقبله مردود على صاحبه ، وإذا ردّ عليه كان موكولاً إليه ؛ وإنما لا يَقبل هذا ولا يُقْبل على هذا لعزّته وجلاله .

قال الفقيه القاضى أبو عبد الله المقرّى رضى الله عنه : « القلب

---

(١) يقول الله تعالى (ألا لله الدين الخالص) ويقول سبحانه (فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملا صالحا ولا يشرك بعبادة ربه أحداً) ويقول سبحانه (فاعبد الله مخلصا له الدين) .

إيوان الملك ويسعنى[1] ، وعزّ الملك يأنف من ذل المشاركة ، أنا أغنى الشركاء عن الشرك أشار بالكلام الثانى لحديث : (يقول الله تعالى: أنا أغنى الشركاء عن الشرك ، من عمل عملاً أشرك فيه معى غيرى تركته وشريكه)[2] وبالكلام الأوّل لحديث (لا يسعنى أرضى ولا سمائى ولكن يسعنى قلب عبدى المؤمن) .

يعنى من حيث المعرفة والاعتقاد ، لا من حيث الحلول والإيجاد ، تعالى الله عما يقول الظالمون علواً كبيراً .

تنبيـه :

الخوف والشوق إنما يقعان من حقائق الأنوار ؛ لأنهما فرعا التأثير بأصليهما من الذكر الناشىء عن التذكير ، وذلك إذا دخلا باطن القلب لا إذا كانا على ظاهره .

وقد نبّه المؤلف على القسمين فى افتتاح الباب الثانى والعشرين .

---

(١) وفى التيمورية (ويستعنى) وفى نسخة الدار (القلب إيوان الملك وعلى الملك أن يأنف من ذل المشاركة).

(٢) روى ابن ماجه عن أبى هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : (قال الله عز وجل : أنا أغنى الشركاء عن الشرك فمن عمل لى عملا أشرك فيه غيرى فأنا منه برىء وهو للذى أشرك) .

الباب الثانى والعشرون

إذ قال :

وقال رضى الله عنه : أنوار اذن لها فى الوصول وأنوار أذن لها فى الدخول :

قلت : قد تقدّم غير مرّة أن الأنوار : جمع نور ، وهو الظل الواقع فى الصدر من معانى الأسماء والصفات ، وهو فى الأصل نوعان : نور مستودع فى القلوب، ونورٌ وارد من خزائن الغيوب. فالمودع فى القلوب بمثابة نور العيون ، والوارد من خزائن الغيوب بمثابة نور الشمس ، ثم هو على قسمين :

نور وصل لظاهر القلب ولم يدخل باطنه ، وهو الذى أثّر فيه ولم يوجب له إقداماً ولا إحجاماً ، كالمواعظ التى لم تبلغ الحقيقة ، والعلوم التى لم يقع لها صُنع[1] فى الباطن ، ونور دخل باطن القلب وخالط حشاشته فأوجب الإقدام والأحجام على حكمه . وهذا هو المعتبر المطلوب الذى قال فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم : (إن النور إذا دخل القلب انفسح وانشرح ، قيل : يا رسول الله : وهل لذلك من علامة يُعرّف بها ؟ قال : التجافى عن دار الغرور والإنابة إلى دار الخلود ، والاستعداد للموت قبل نزوله) .

---

(١) وفى نسخة الدار (لم يقع فيها صيغ فى الباطن) .

قال بعضهم : إذا كان الإيمان في ظاهر القلب أحبَّ العبدُ لقْمته[1] ودنياه ، وكان مرّة مع نفسه ومرّة مع قلبه ، فإذا دخل الإيمان إلى باطن القلب أبغض العبد دنياه وهجر هواه .

ثم مانع الأنوار من الدخـــول إنما هو الاشتغال بالنقائص والفُضول كما نبّـه عليه إذ قال :

ربما وردت عليك الانوار فوجدت القلب محشوا بصور الاثار فارتحلت من حيث نزلت .

قلت : ربّما تلمّح القلب شيئاً من المعارف ونحوها وطافت به ثم إنها لم تثبت فيه ولم تداخله فخرج من بساط الهوى ما صرفها عنه من معصية ، أو شهوة ، أو غفلة ، فذهب في هزّ الرءوس وتقطير العيون ، وما ذاك إلاّ لما انطبع من صور الآثار في مرآة القلب ، وعلامته ثلاث:

أحدها : أن يتأثّر بما سمع أو رأى أو ذكر أو تذكّر ولا يجد له في الخارج فائدة .

الثاني : أن تتسع دائرة فهمه ولا تنتهي به إلى التحقق بعلمه وإن أوصلته إلى التحقق فيه[2] .

الثالث : أن يميّز الحقّ ويجد في نفسه أين هو منه ، ويعرف الباطل

---

(١) وفي التيمورية (نعمته) وكذلك في نسخة الدار .

(٢) المتحقق بعلمه هو الذى يكون سلوكه صورة لعلمه ، أما المتحقق في علمه فهو الدارس للعلم الذى يختلف سلوكه عن علمه ولو جزئياً .

ويُميِّز أين هو منه ، ثم لا يعمل عليهما ، ولو دخل قلبه لما أمكنه التخلّف في شيء من ذلك .

وإن كان الأمر كما ذكر فآكدُ شيء عليك طهارةُ قلبك وفراغُه من الغير .

وهذا ما نبَّه عليه إذ قال :

فراغ قلبك من الاغيار تملاه بالمعارف والاسرار .

قلت : المطلوب تطهير القلب عمّا سواه ؛ لأنه لا يرضى معه بشريك .

وإذا فرَّغ العبدُ قلبَه له ملأه بأسراره وأنواره ، ففيما أوحى الله لعيسى عليه السلام : « أني إذا اطّلعت على قلب عبدي فلم أجد فيه حب الدنيا ولا الآخرة ملأته من حبي » .

وقال بعض الحكماء رضي الله عنه : « لا تطمع أن تصحو وبك غيب ، ولا تطمع أن تصفو وبك عيب ، ولا تطمع أن تنجو وعليك ذنب .

وأنشدوا في معنى ذلك ،

حَاشاهُ أن يرجوك وإنما
منَحوا الوصال من استقام أو اهتدى

وسرّ ذلك حكمة المناسبة ، فلا يوضع أرفع الأشياء ، وهي المعرفة ، في أقلّها وهو القلب الملوّث بالأغيار . والله أعلم .

وإذا كان الأمر كذلك فالأمر راجع منك وإليك كما قال :

لا تستبطىء منه النوال ولكن استبطىء من نفسك وجود الاقبال

قلت : وذلك ؛ لأن الإقبال هو بساط النوال ، ومن أتى باب الكريم،

بالأدب جدير بتحصيل المقصد والأَرَب ؛ لأنه قد أتى الأمرَ من بابه وتوسّل له بوجود أسبابه . ومن كان على العكس كان جديراً بالحرمان، فيرحم الله من قال :

وما رمت الدخولَ عليه حتى   حللت مَحِلّة العبد الذليل
وأغمضت الجفون على قذاها   وصنت النفس عن قال وقيل

وقال معروف الكرخى رضى الله عنه : « طلب الجنة بلا عمل ذنب من الذنوب ، وارتجاء الشفاعة بلا سبب نوع من الغرور ، وارتجاء رحمة من لا يطاع حمق وجهل » اه .

والإقبال : إنما هو بإقامه الحقوق ؛ وهو قسمان ، كما قال :

حقوق فى الأوقات يمكن قضاؤها وحقوق الأوقات لا يمكن قضاؤها .

قلت : فالحقوق التى فى الأوقات : هى أنواع العبادات ؛ كالصلاة والصوم ، وغيرهما مما يتسع زمانه فيمكن قضاؤه إن فات وقته لبقاء فسحة بينه وبين الحق الآخر .

وحق الأوقات: هى ما يلزم العبد فيها من العبودية المترتبة على حركاتها وسكناتها وهى متداركة(١) لا يمكن انفكاكها ، ولا الانفكاك عنها، فلذلك لا يمكن قضاؤها(٢) .

---

(١) متتابعة .

(٢) يقول ابن عباد : «والحقوق المضافة إلى الأوقات التى هى المعاملات الباطنة التى تقتضيها أحوال العبد وواردات قلبه ... ووقت كل عبد ما هو عليه من ذلك .. فإن فاته لم يجد مجالا لقضائه » .

قال أبو العباس المرسى رضى الله عنه: «أوقات العبد أربعة لاخامس لها : النعمة ، والبليّة ، والطاعة ، والمعصية ، ولله عليك فى كل وقت منها سهم من العبودية يقتضيه الحقُّ منك بحكم الربوبية ، فمن كان وقته الطاعة فسبيله شهود المنّة من الله عليه أن هداه لها ووفّقه للقيام بها، ومن كان وقته النعمة فسبيله الشكر ، وهو : فرح القلب بالله ، ومن كان وقته المعصية فسبيله التوبة والاستغفار ، ومن كان وقته البليّة فسبيله الرضا والصبر .

والرضا رضا النفس عن الله، والصبر مشتق من الإصبار وهو الغَرَض للسهام ، وكذلك الصابر ينصب نفسه غَرَضاً لسهام القضاء ، فإن ثبت لها فهو صابر ، والصبر ثبات القلب بين يدىّ الرب وفى الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، (من أُعطى فشكر ، وابتُلى فصبر ، وظلم فغفر ، وظَلَم فاستغفر .. قالوا ؛ ماذا له يا رسول الله ؟ قال : أؤلئك لهم الأمن وهم مهتدون. أى : لهم الأمن فى الآخرة، وهم المهتدون فى الدنيا) انتهى .

ومداره على مراقبة الأوقات بالعبودية اللائقة لها ، كما قال :

انه ما من وقت يرد الا ولله عليك فيه حق جديد وامر اكيد ، فكيف تقضى فيه حق غيره وأنت لم تقض حق الله فيه ؛ ؟ ؟

قلت : ما من وقت[1] وإن كان نفَساً واحداً لأن كل نفس يقتضى

(١) وفى نسخة الدار (ما من وقت إلا ولله عليك فيه حق وإن كان نفساً واحداً . . . الخ

تجليا ، وذلك التجلّي يقتضي عبودية ، وتلك العبودية تقتضي تجليا ، فأنت في كل نَفَس سالك طريقاً إلى الحقّ ، سبحانه ، بنوع من السلوك ، ولذلك قيل : الطرقُ الى الله بعدد أنفاس الخلائق[١] فالحق الجديد : ما يتجدّد من الأحكام بسبب الأحوال ، مثل ، شكر النعمة ، أو توبة الذنب ، أو صبر على البليّة ، أو حمد الله على طاعته .

والأمر الأكيد : ما يتوجّه من ذلك الحق ؛ كالصدقة شكراً لنعمة المال ، وردّ المظالم تحقيقاً للتوبة ، وعدم الشكوى عند البليّة ، وإعمال الأسباب في دفعها وتخفيفها إلى غير ذلك .

وإذا كان الأمر كذلك فالأوقات كلّها مستحقه لما وجد فيها ، فلا يصحّ لعاقل الاشتغال بغيرها من حقوق الغير من نفس أو خلق ؛ إذ لا حق لهم ، وإن كانت صورته لهم فحقيقة الأمر فيه لله تعالى ، فإذا قصد له كان معاملته معه ، وإلاّ فهو تضييع لحقّه تعالى مع القيام بصورته .

فأما المخالفة فلا حديث عليها ؛ إذ ليست بحق ، ولهذا اعتنى بحفظ الحواسّ وعدّ الأنفاس ، حتى قيل : إن حقيقة التصوّف[٢] : قضاء الله

---

(١) يقولون : التوحيد واحد والطرق إلى الله بعدد نفوس بني آدم ، ويعنون بذلك أن الغاية واحدة وهي « التوحيد » ، والتوحيد لا اختلاف فيه ، أما الطرق الموصلة إليه فإنها كثيرة ولكنها مهما تعددت فإنها تسير كلها نحو « التوحيد » ومن قبيل هذا قول الشاعر :

عباراتهم شتى وحسنك واحد ... وكل إلى ذاك الجمال يشير

(٢) وفي نسخه الدار : (حتى قيل إن حقيقة الصوفية : التصوف قضاء حق الله أحق) .

أحق وشرط الله أوثق ، وإنما الولاء لمن أعتق » .

ثم نبّه على ما يوجب الحقوق ويقتضى النهوض لها من غير فترة ولا تقصير ، فقال :

ما فات من عمرك لا عوض له ، وما حصل لك منه لا قيمة له .

قلت : يقول ما فات من عمرك خالياً عن الفوائد الدينية والدنيوية والقيام بالحقوق اللازمة لا عوض له يستدرك به فائته ، لأن الآتى له من الحق مثل الذى للماضى ففوات الأول فوات الثانى ، وما حصلت فيه فائدته وعائدته لا قيمة له ؛ لأن القيمة إنما تكون لماله مثل ، ولا مثل له فأعز شيء الوقت ؛ وأنشدوا فى ذلك :

السباقَ السباقَ قولاً وفعلا   حذّر النفس حسرة المسبوق

وقال الحسن رضى الله عنه : « أدركت أقواماً كانو على أوقاتهم أشدّ منكم حرصاً على دنانيركم » وقال على كرم الله وجهه : « بقية العمر مالها ثمن يُدرك بها ما فات ويحي بها ما مات » وأنشدوا فيه :

بقية العُمر عندى ما لها ثمن
وإنَّ غداً خيرُ محبوب من الزمن
يستدرك المرء فيها كلّ فائته
من الزمان ويمحو السوءَ بالحسن[1]

---

(١) رجعنا فى تصحيح أبيات الشعر إلى شرح ابن عباد وبعض النسخ أثبتت البيت الثانى كالآتى : يستدرك المرء فيها ماأفات : ويحي ماأمات ويمحو السوء بالحسن

ثم من بواعث القيام بالحقوق وجود(١) العبودية ، وهى ثمرة المحبة ، فمحبةّ الغير هى الحاملة على العبودية ، وتركُ حقوق الحق به ، وبالعكس العكس فلذلك قال :

ما احببت شيئا الا كنت له عبدا وهو لا يحب ان تكون لغيره عبدا .

قلت : أما كون المحبّة تملّك المحبّ للمحبوب فواضح من ثلاثة أوجه :

أحدها : أنه يَبذل ولا يُبذَل له.

الثانى أنه محكوم عليه ولا يَحكُم .

الثالث : أنه فى قبضة التصريف من غير تصرّف ، بل هو ميّت بين يدى محبوبه ، ولذلك قيل : المحبّة أن تهب كلك لمن أنت له مُحبّ حتى لا يبقى لك منك شيء وأمّا أنه تعالى لايحب أن تكون عبداً لغيره فإعزازاً لك وتكرمة، ولأن عزّ المُلك يأبى ذلّ المشاركة ،وإذا كان الأمر كذلك فاختر لنفسك على بصيرة وحسن نظر ، فيرحم الله ابن الفارض حيث يقول :

---

(١) وفى التيموريه (من بواعث القيام بالحقوق الحرمة والمحبة وبالعكس فلذلك قال . . . الخ) وفى نسخة الدار (ثم من بواعث القيام بالحقوق وجود العبودية وترك حقوق الحق به ، وبالعكس العكس ، فلذلك قال (ما أحببت شيئاً إلا كنت . . . الخ) .

أنت القتيل بأى من أحببته   فاختر لنفسك فى الهوى من تصطفى

وقد قال الجنيد رضى الله عنه : «إنك لن تكون له على الحقيقة عبداً وشيء مما سواه لك مُسْتَرق(١) » .

وسئل عمن خرج من الدنيا ولم يبق عليه إلاَّ قدر مصّ نواة ، فقال: المكاتَب عبدٌ ما بقى عليه درهم » انتهى .

ثم ذكر أن حبَّه لعبوديتك لا لحاجة منه لك ، بل لإظهار فضله عليك وإحسانه لديك فقال :

لا تنفعه طاعتك ولا تضره معصيتك ، وانما أمرك بهذه ونهاك عن هذه لما يعود عليك

قلت : أما أنه لا تنفعه طاعتك ولا تضرّه معصيتك ؛ فلأنه الغنىُّ على الإطلاق الذى لا يصحّ افتقاره ولا احتياجه لشيء ولا توقُّفه عليه، وأما أنه أمرك بهذه التى هى الطاعة ، ونهاك عن هذه التى هى المعصية؛ لما يعود عليك ، فلأنك مفتقر إليه والعبودية له أعظم فوائدك ، فجعل فيها ما تحتاج إليه ديناً ودنيا ، لتقوم بها لدينك ودنياك فتكون قد حصَّلت فائدة العبودية التى هى أعظم الفوائد ، وتعرّضت لنفحات الرحمة فى تحصيل فوائد الدنيا والآخرة ، وإلاَّ كان يعطيك ما وعدك بلا شيء ، كما هو فى نفس الأمر . فافهم ذلك واعرفه حق معرفته ؛

---

(١) وتكملة كلمة الجنيد رضى الله عنه : « وإنك لن تصل إلى صريح الحرية وعليك من حقوق عبوديتك بقية» .

فإنه عجيب ، ثم قال :

لايزيد فى عزه اقبال من اقبل عليه ، ولاينقص من عزه ادبار من أدبر عنه

قلت : لأنه العزيز لذاته ، الذى لايحتاج لزيادة فى عزّه ولا يلحقه نقص فى ذلك لكمال وصفه .

وقد ذكر صريح ذلك فى المناجاة حيث يقول : [أنت الغنىُّ بذاتك عن أن يصل إليك النفع منك ، فكيف لاتكون غنياً عنّى] .

وفى الحديث الصحيح (١)، يقول الله ياعبادى كلّكم ضالٌ إلاَّ من هديته فاستهدونى أهدكم ، يا عبادى كلكم جائع إلاّ من أطعمته فاستطعمونى أطعمكم ، ياعبادى كلكم عارٍ إلا من كسوته فاستكسونى

(١) فى صحيح مسلم روى عن أبى ذر رضى‌الله‌عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم فيما يروى الله عز وجل : « ياعبادى إنى حرمت الظلم على نفسى وجعلته بينكم محرماً فلا تظالموا ، ياعبادى كلكم ضال إلا من هديته فاستهدونى أهدكم ، ياعبادى كلكم جائع إلا من أطعمته فاستطعمونى أطعمكم ، ياعبادى كلكم عار إلا من كسوته فاستكسونى أكسكم ، ياعبادى إنكم تخطئون بالليل والنهار وأنا أغفر الذنوب جميعا فاستغفرونى أغفر لكم ، ياعبادى انكم لن تبلغوا ضرى فتضرونى ولن تبلغوا نفعى فتنفعونى ، ياعبادى لو أن أولكم وآخركم وانسكم وجنكم كانوا على أتقى قلب رجل واحد منكم مازاد ذلك فى ملكى شيئا ، ياعبادى لو أن أولكم وآخركم وجنكم وأنسكم كانوا على قلب أفجر رجل واحد منكم مانقص ذلك من ملكى شيئا ، ياعبادى ، لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم قاموا فى صعيد واحد فسألونى فأعطيت كل واحد مسألته مانقص ذلك مما عندى الا كما ينقص المخيط اذا دخل البحر ، ياعبادى ، انما هى أعمالكم أحصيها عليكم ثم أوفيكم اياها فمن وجد خيراً فليحمد الله ومن وجد غير ذلك فلا يلومن الا نفسه »

أكسكم ، ياعبادى لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم اجتمعوا على أفجر قلب رجل واحد ما نقص ذلك من ملكى ، ياعبادى إنى حرّمت الظلم على نفسى وجعلته بينكم محرّما ، فلا تظالموا ، ياعبادى إنما هى أعمالكم أُوَفّيها لكم فمن وجد خيراً فليحمد الله ومن وجد غير ذلك فلا يلومَنَّ إلاَّ نفسه ، ياعبادى لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم اجتمعوا فى صعيد واحد فيسألنى كل واحدٍ منهم مسألته ثم سألنى كل واحد منهم مثلَ ماسألنى الجميع ما نقص ذلك من ملكى إلا كما ينقص المِخْيَط إذا غُمس فى البحر » .

انتهى على تقديم وتأخير فى بعض ألفاظه ، وهو ينبوع المعارف والمعاملاتِ التى على بساط الحقيقة ، وبالله تعالى التوفيق .

تنبيـــــه :

إذا تمَّ النور حصل الإقبال فصفت المحبّـة فى بساط العبودية ، وتمَّ الأمر بالطاعة والغِنى به عنها، علماً بأنها لاتجلب ولا تدفع لكمال غنى الحق ومجده ، وذلك وجه من الوصول ؛ فلذلك افتتح به البـاب الذى يليه وهو :

الباب الثالث والعشرون

فقال :

وقال رضى الله عنه : وصولك الى الله وصولك الى العلم به

قلت : الوصول مما يجرى فى كلام القوم ، وحقيقتُه : وصولُ القلب للعلم بجلال الله وعظمته على وجه يباشر (١) حقيقة القلب ويجرى معناه فى الجوارح حتى تجرى على حُكمه من غير توقُف ولا اختيار .

والناس فيه متفاوتون مختلفون اختلافاً متبايناً ، وإن اتفقوا فى أصل الحقيقة : قال فى « عوارف المعارف » : « وكل من وصل إلى صفو اليقين بطريق الذوق والوجدان فهى رتبة فى الوصول ، ثم يتفاوتون ؛ فمنهم من يجد الله بطريق الأفعال ، وهى رتبة فى التجلّى فيفنى فعله وفعل غيره لوقوفه مع فعل الله تعالى ، ويخرج فى هذه الحالة عن التدبير والاختيار . وهذه رتبة فى الوصول .

ومنهم من هو يُقام فى مقام الهيبة والأُنس لما يكاشف به من مطالعة الجلال والجمال ، وهذا التجلى بطريق الصفات ، وهي رتبة فى الوصول .

ومنهم من يَرقى إلى مقام الفناء مشتملا على باطنه أنوار اليقين والمشاهدة فَعَمى فى شهوده من وجوده (٢) . وهذا ضرب من تجلى

---

(١) فى نسخة الدار : (على وجه يتباشر القلب به)

(٢) وفى نسخة (فعمى فى شهوده من وجوده)

الذات لخواصّ المقَرَّبين ، وهذه رتبة فى الوصول . وفوق هذه رتبة « حقّ اليقين » .

ويكون من ذلك فى الدنيا لُمح وهو سريان نور المشاهدة فى كلّية العبد حتى يحظى بها روحه وقلبه حتى قالبه . وهذا من أعلا رتب الوصول .

فإذا تحققت الحقائق يعلم العبد من هــذه الأحوال الشريفة أنه فى أول المنزل فأين الوصول ؟ هيهات !! منازل الوصول لا تنقطع أبداً فى عمر الآخرة الأبدى ، فـكيف بالعمر القصير الدنيوى ؟ ! » انتهى .

وهى الغاية فى بابه ، وكل ذلك لا يوصّـل إلى الله إلّا بالله ؛ فقوله متضمّن أن حصول العلم بالله إذا كان بالله فهو الوصول ، وإلاّ فلا .

ثم ما ذكر هو الجارى على مذهب أهل الحق ولا يصح سواه ، كما نبّه عليه إذ قال :

والا فجل ربنا أن يتصل بشىء أو يتصل به شىء

قلت : يعنى وإن لم يكن الوصول ما ذكر فليس إلاّ النسب والمسافة والعلل والإضافة ، وهى من صفات الخلق التى لا يصح إجراؤها على الحق تعالى ؛ لتنَزّهه عن سمات المحدثات ، فلذلك قال الجنيد رحمه الله : « متى يتصل من لا شبيه له ولا نظير بمن له شبيه ونظير ؟ هيهات ! ! هذا ظن عجيب إلاّ بما لطف اللطيف من حيث لا درك ولا وهم ولا إحاطة إلاّ إشارة اليقين وتحقيق الإيمان » انتهى .

وقد أعرب به غاية الإعراب، وأبان به عن وجه الحق والصواب .

ولما كان القرب من نسبة الوصول ومن حقائقه (حقائق نعوته) أتبعه به فقال :

قربك منه أن تكون شاهدا لقربه منك .

قلت : مشاهدةً تقتضى لك وجود المراقبة له حتى لا يراك حيث نهاك ، ولا يفتقدك حيث أمرك .

ثم القرب على وجوه ثلاثة :

أولها : قرب الكرامة ، وهو من الحق إلينا وأتمّة[1] مشاهدة قرب الحق منا وإحاطته بنا .

الثانى : قرب الإحاطة بالعلم والقدرة والإرادة ، وهو قرب الحق من كل موجود حيث يقول : (وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ)[2] (وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْكُمْ)[3] (وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ)[4] .

الثالث : قرب المسافات والنسب والمداناة ، وهو قرب الأجسام

---

(١) وفى نسخة (وآيته).
(٢) آية ١٦ من سورة ق .
(٣) من آية ٨٥ من سورة الواقعة .
(٤) من آية ٤ من سورة الحديد .

وسائر المحدثات ، فلا يليق بالحق سبحانه ولا يجوز عليه ، وإليه أشار المؤلف إذ قال :

والا فمن أين أنت ووجود قربه ؟

قلت : يقول إن لم القرب ما ذكرنا فلا وجه للقرب إلّا المداناة والمناسبة وهو محال فى حقه تعالى ؛ فقد سئل الجنيد رضى الله عنه عن معنى « مع » فقال : « مع » على معنيين: مع الأنبياء بالنصر والكلأة قال تعالى (إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى)(١) ومع العامة بالعلم والإحاطة قال تعالى (مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ)(٢).

وقال جعفر بن محمد الصادق رضى الله عنه فى قوله تعالى (ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى) من ظن أنه بنفسه دنا جعل ثمّ مسافة ؛ إنّما التدانى أنه كلما قرب منه بعد عن أنواع المعارف ، إذ لا دنوّ ولا بُعد » انتهى .

وتقرير كلام المؤلف : قربك منه على سبيل الكرامة أن تكون مُشاهداً لقربه منك على وجه الإحاطة، وإن لم يكن هذا فلا وجه للقرب فى حقه . فافهم .

ثم القرب والوصول محل جرى الحقائق على الواصل والمقرّب، ولتلقيها وجهٌ ذكره المؤلف بأن قال :

---

(١) من سورة طه آية ٤٦ .
(٢) من آية ٧ من سورة المجادلة .

الحقائق ترد فى حال التجلى مجملة .

قلت : الحقائق ما يجرى على لسان أهل الحقيقة والتحقق والتحقيق من الفوائد الجامعة والنكت الحكمة وهى لا ترد باستعمال ولا تتوقف على أسباب ، وإذا وردت على القلب ظهرت فيه نكتة مجموعة جامعة لما وقعت عليه ، فتكون مجملة لا تفصيل فيها ولا تأصيل من حيث صورتها ، وإن كانت محتوية على ذلك من حيث حقيقتها إذ يبدو منها ذلك بعد حصولها وتحققها وتمكنها كما نبه عليه المؤلف إذ قال :

وبعد الوعى يكون البيان .

قلت : وبعد حصولها واستقرارها يتبين معناها ويظهر مغزاها فتلوحُ منها المبانى وتلمح منها المعانى ؛ فيؤخذ من الكلمة الواحدة ألفُ معنى ومن المعنى الواحد ألفُ كلمة ، فيعرفُ كونُها حقيقة بثلاثة أمور :

أولها : كونها جارية بحكم التصريف من غير اختيار ولا رؤية ولا أسباب تفيدها وإن جرت معها .

الثانى : كونها فى جريها مجملة مجموعة ناكتة فى القلب خارجة عنه خروج السهم من القوس لمحل الرمى .

الثالث : ظهور معناها وبيان وجهها وتفصيلها بعد وَعْيها .

قال الأستاذ أبو القاسم القشيرى رضى الله عنه : « فأرباب الحقائق يجرى بحكم التصريف عليهم شىء لا علم لهم به على التفصيل ، وعند

فراغهم من النطق به يظهر لقلوبهـــم برهان ما قالوا بشواهد العلم أو تحقيق ذلك بجريان الحال فى ثانى الوقت » انتهى .

ثم أشار إلى أن الأدب فى تلقّ ذلك مستفاد من الأدب فى تلـق الوحى فذكر الآية الواقعة فيه فقال :

فاذا قرأناه فاتبع قرانه ثم ان علينا بيانه

قلت : يقول فإذا قرأ جبريل .

قال ابن عباس « فاستمع له وانصت ، ثم إن علينا أن تقرأه » .

فالمراد هنا : إذا جرت الحقائق فأنصت لها ولا تتلقّاها بمعتادك من التأويل والدليل والنظر فى الوجه والتفصيل . ثم على الله بيانها ؛ لأن الذى تفضّل بالأول مَنَّ بالثانى بفضله وكرمه . وإنما كان هذا كتلقّ الوحى فى آدابه لأن الكل منْ عين المنّة فى بساط الكرامة . وإن كان الوحى أعلى وأجل فلالا قتداء [1] أوجه وبالله التوفيق .

ثم الخارج بما قاله آداب ثلاثة :

الإنصات للقبـــول ، والتفهّم [2] بعد الحصول : والامتحـــان بالوصول [3] فقد قال الدارانى رضى الله : « إنها لتقع النكتة من كلام

---

(١) وفى التيمورية (وان كان الوحى أعلى وأجل فلا مندوحة)
(٢) وفى التيمورية (والتفهيم)
(٣) وفى التيمورية (بالاصول)

القوم فى قلبى أياماً فأقول لها : لا أقبلك إلاّ بشاهدىْ عدل : الكتاب والسنة » ! هـ

ثم ذكر المؤلف الحكمة فى كونها تأتى جملةً فى حالة المتجلى [١] فقـــال :

متى وردت الواردات الالهية اليك هدمت العوائد عليك

الواردات الإلهية ، هى : ما يتجلّى للقلوب من المعارف التى تبرز عندها الحقائق ؛ فإذا وردت هذه الواردات على القلب لم يبق فيه متسع لغيرها ، فتأخذ بمجامعه وتستوى فى كُلّية العبد فينفث [٢] بها طوعاً أو كرهاً لخلوّه عما سواها . كما أشار إليه بالآية الكريمة :

ان الملوك اذا دخلوا قرية أفسدوها

قلت : يعنى غلبوا [٣] عوائدها بدليل قوله تعالى (وجعلوا أعزّة أهلها أذلّة وكذلك يفعلون) .

فإذا دخل الربّ القلبَ خرب مما سواه ، فلا يتأتى له جرىٌ مع المعتاد، ولا تصرّف بالأسباب ، ولذلك قيل : « إذا عَظُم الرّب فى القلب صَغُر الخلقُ فى العين »

وقيل لبعضهم : « بِمَ يستعين العبد على حفظ بَصره ؟

---

(١) وفى التيمورية (التجلى) (٢) وفى ت : (فينبعث) .
(٣) وفى التيمورية (قلبوا) وكذلك فى نسخة الدار.

قال : بعلمه أن نظر الله سابق نظره لما يريد أن ينظر إليه » انتهى.
وإنما كان الوارد كذلك لعلة ذكرها بأن قال :

الوارد يأتى من حضرة قهار لاجل ذلك لا يصادمه شيء الادمغة

قلت : يأتى من رب قاهر على بساط القهر فكل شيء يصادمه ، أى : يقابله لا يمكنه ثبات معه ؛ إذ كل ما صدر من حضرة إنما يكون على حكمها ، فلا بقاء لآثار الخلق عند ظهور آثار الحق ، إذا قُورن الحادث بالقديم تلاشى الحادث وبقى القديم .

وقد قيل لبعضهم : مِنْ أين تأكل ؟

قال : من عند الله .

قال : أينزّله عليك من السماء ؟

قال : أو لم تكن الأرض له ! ؛

قالوا : أنتم قوم الحق لا يقوم لكم أحد بحجة .

قال : الحق لا يقوم له شيء » انتهى

ثم نزع بالآية الكريمة للاستدلال على ماذكر فقال :

نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فاذا هو زاهق

قلت : يقول : ندفع الحق على الباطل فى محلّه فيصيبه في دماغه فيتلفه[1] فإذا هو زاهق أى ذاهب مضمحل .

---

(١) وفى نسخة (فيبلغه)

وعلى معناه يجرى قولهم : « للحق جولة وللباطل صولة » فإذا جاء الحقُّ من جولته [١] ذهب الباطل بصولته ، وذلك لثلاثة أوجه :

أولها : أن الحقَّ من بساط القوة والظهور ، وهما وصفان لا يقوم لهما شيء.

الثاني : أن الحق مؤيدٌ بالحقيقة الإيمانية معضدة بالحجج البرهانية [فأعطى ماللأصل للفرع] [٢] والباطل عكسه .

الثالث : أن الحق برهانه فى نفسه وسلطانه فى ذاته فصاحبه غير محجوج ولا مغلوب ، قال (فإن الله يأتى بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب فبهت الذى كفر) فتامل ذلك وبالله التوفيق

ثم من أعظم الباطل فهم الحجاب فى وجوده تعالى وما نبّه عليه المؤلف إذ قال :

كيف يحتجب الحق بشيء والذى يحتجب به هو فيه ظاهر وموجود حاضر

قلت : يقول : لا يصح احتجابه بشيء ، لأن كلَّ شيء شاهد بوجوده وقربه ، ولو قيل بذلك لكانت الحجة فى عين ما يدّعى أنه حجاب ، ويرحم الله أبالحسن الششترى حيث يقول :

ماللحجاب وجود فى وجـــــودكم

إلاّ بسرّ حروف انظر إلى الجبل

---

(١) وفى نسخة بجولته .

(٢) ما بين القوسين ساقط فى النسخة التيمورية .

يعنى : لاحجاب إلا أن يصرف الحق وجه عبده لغيره ، فإذا صرف الوجه عنه كان العبد محجوباً ، لا الربُّ سبحانه .

ولما قال ذلك المريد لشيخه : هذا ابن الخطيب يستدل على وحدانية الله بألف دليل .

قال : يابنى ، لو عرف الله ما استدلّ عليه .

فبلغ ذلك ابن الخطيب ، فقال : صدق ؛ هم ينظرون على المعاينة ونحن ننْظر من وراء السُّتُرُ » .

وإذا كان الحق تعالى حاضراً معك وقريباً منك وجب أن تكون حاضراً معه على أىّ وجه أمكنك ولو بالرجاء فى رحمته ، كما قال :

لاتيأس من قبول عمل لم [illegible] د فيه وجود الحضور

قلت : لأن يأسك من قبوله سوء ظن بربّك واعتمادٍ على عملك ، وذلك غيبة عن مولاك بذكر نفسك فى عدم حضورك ، بل إن لم يكن حضورك بالتعبّد والعرفان فليكن حضورك بالطمع فى الإحسان ؛ لأن طمعك فى الله بلا عمل أفضل من طمعك فيه مع وجود العمل [(١)] ، وان كان العمل لابدّ منه فَللعبودية ، لا للاستحقاق ، ومن العبودية الإستسلامُ عند جريان القضاء ، فاعمل وطالب نفسك بالكمال ولاتيأس من الله بوجهٍ ولا بحال ، فإن الأمر كما ذكره المؤلف إذ قال:

---

(١) الطمع فى الله مع وجود العمل معناه : مطالبة ببدل فى مقابلة العمل ، وهذا لايليق بالعبودية الصادقة .

فربما قبل من العمل ما لم تدرك ثمرته عاجلا

قلت : وربّما رُدَّ ما عُجلت ثمرتُه ، وإن كان الغالب على خلاف ذلك .

فالعوائد لا تقتضى[١] على حكم الربّ سبحانه .

ومراده بالثمرة هنا : الحضور فيه، وقد يريد:الحضور به، وهو أولى؛ لما تقدّم عند قوله (من وجد ثمرة عمله عاجلاً فهو دليل على وجود القبول) ثم شأن النفس أبداً[٢] التألم بفقد الحضور وذلك من ثلاثة أمور :

أحدها : اعتماد الأسباب فى الردّ والقبول ، وهى علّة واضحة .

الثانى : استشعارها الكمال فيما هى به بدلاً من النقص اللاحق[٣] بضدّه وهى علّة أيضاً ،

الثالث : الأنس بالحلاوة والتألّم بفراق اللذّة ، وهى أعظم العلل ؛ فلذلك قال الواسطى : « استحلاء الطاعات سموم قاتلة » .

قال فى « لطائف المنن » : « وصدق الواسطى رحمه الله ؛ فأقلّ مافى ذلك إذا فتح لك باب حلاوة الطاعة أن تصير قائماً فيها متطلباً للحلاوة فيفوتك صدق الإخلاص فى نهوضك لها ، وتحبُّ دوامها لا قياماً

---

(١) وفى نسخة التيمورية (لا تقضى) . (٢) وفى ت : (إبداء) .
(٣) وفى التيمورية (فى بصرة) .

بالوفاء ، ولـكن لما وجدته من الحلاوة والمتعة ، فتكون فى الظاهر قائماً لله وفى الباطن إنما قمت لحظّ نفسك ، ويخشى عليك أن تكون حلاوة الطاعة جزاءً تعجّلته فى الدنيا فتأتى يوم القيامة ولا جزاء لعملك» انتهى .

فالعمل مقصود لذاته ، وثمرته كماله ، وذلك بخلاف شأن الواردات إنما هى بُسط لثمرتها ؛ فلذلك عكس فقال :

ولا تزكين واردا لا تعلم ثمرته فليس المراد من السحابة وجود الامطار انما المراد منها وجود الاثمار .

قلت : يقول : لا تعظِّم الوارد ولا ترى أنه كرامةٌ من الله حتى تعلم ثمرَته فى ذلك من العمل بموجبه والوقوف على حدّه من علوّ الهمّة وحسن الخدمة وحفظ الحرمة وشكر النعمة ؛ فإن كلّ معرفة لا تفيد عملاً لا عبرةَ بها .

وكل عمل لا يصحبه إخلاص لا كمال له ، وقد قالوا : مَنْ أدركته حالة فى السماع لم يجد بركتها غداً فى عمله فإن سماعه لا حقيقة له » أو كلاماً هذا معناه .

ثم أشار لتمثيل الوارد بما ينشأ عنه ، فقال : (فليس المراد ... لخ) .

قلت : فجعل الوارد كالسحاب، والتأثّر به كالمطر النازل من السحاب،

والعمل بما يقتضيه هو الثمرة فوارد بلا تأثير كالسحاب بلا مطر ، وتأثير بلا عمل كمطر بلا إثمار ، فالمراد وجود الثمرة فما قبلها لو تجرّد عنها لكان مضراً بلا منفعة(1).

وكذلك الحالة إن أثارت عملاً ، وإلا فهى ضرر على صاحبها بعجب أو كبْر ، أو دعاوى ، أو اغترار ، أو غير ذلك . فافهم .

ثم الوارد إن عُرفت بركته وظهرت ثمرته فلا ينبغى التعلّق به والوقوف معه بإرادة بقائه ؛ لأن ذلك حظ النفس كما أشار إليه المؤلف إذ قال :

لا تطلبن بقاء الواردات بعد أن بسطت أنوارها ، واودعت أسرارها .

قلت : شأن المريدين فى بداياتهم ، بل عامة المتوجهين ، الأنسُ بالواردات ولا سيما إن بسطت أنوارها فى عوالم القلوب ، وأَوْدَعَت أسرارها بكل أمر محبوب ؛ وذلك جهل ونقص ظاهر ؛ أما الجهل فأوقات الصفاء لا تدوم ، ومن ظنّ دوامها فهو أحمق ومغرور ، وإنما تدوم أوقات الوفاء وعليه عمل الأكابر دون الأحوال والحركات .

وأما النقص فالأنس بالواردات بُعدٌ عن الحق ، وذلك مرجوح بكل حال .

ثم علامة بسط أنوارها ثلاثة :

وجودُ الحلاوة ، وظهور الحقيقة ، وبسط الحقائق .

(1) وفى التيمورية : لكان مطراً بلا ثمر .

وعلامة إيداع أسرارها تمكُّن الحقيقة من النفس وسريان معناها في كل شيء من العبد ، والغِنا بالله ، وهو الأصل الذى يدور عليه الفقدان والوجدان ، كما نبّه عليه المؤلف إذ قال :

فلك فى الله غنا عن كل شيء وليس يغنيك عنه شيء .

قلت : فإن اكتفيتَ به أغناك ! وإن تعلَّقت بغيره وكلك إليه وخَلاَّك ؛ ففى الإشارة عن الله تعالى «لا تركنَنَّ إلى شيء دوننا ، فإنه وبال عليك ، وقاتل لك ؛ فإن ركنت إلى العلم تتبعناه عليك ، وإن ركنت إلى العمل رددناه إليك، وإن وثقت بالحال أوقفناك معه ، وإن أنست بالوجد استدرجناك فيه ، وإن لحظتَ إلى الخلق وكلناك إليهم ، وإن اعتززت(١) بالمعرفة تركناها عليك ، فأيّ حيلة لك ، وأى قوة لك معنا فارضَنا لك رباً حتى نرضاك لنا عبداً » انتهى

ثم علامات الاكتفاء بالله ثلاث :

الرضا عن الله ، والإهتمام بأمره ، وعدم الالتفات لغيره ؛ لأن العكس من الفقد والبعد ، وهذا ما نبّه عليه المؤلف إذ قال .

تطلعك الى بقاء غيره دليل على عدم وجدانك له واستيحاشك لفقدان ما سواه . دليل على عدم وصلتك به .

قلت : لأنك لو وجدته هان عليك كل شيء سواه ، ولو وصلت إليه كان يكفيك الأُنس به عن استيحاش غيره ، بل يكون ذكر الغير عندك

(١) وفى نسخة (اعتززت) .

مصيبة ونقصاً ، ولذلك قيل « لا وحشة مع الله ، ولا راحة مع غيرِ الله » .

وأنشدوا فى معناه :

كانت لقلبى أهواءٌ موزّعة
فاستجمعت مذْ رأتك العين أهوائى
تركتُ للناس دنياهم ودينهم
شغلاً بحبّك يا دينى ودنيائى
فصار يحسدنى من كنتُ أحسده
وصرتُ مولى الورى مذ صرتَ مولائى

قال فى « التنوير » : واعلم أن البارىء سبحانه إنما يدخلك فى الحالة لتنال منها ، لا لتأخذ منك ، وإنما جاءت لتحمل هدية التعريف من الله إليك فتوجّه لها باسمه المبدىء فأبداها وأبقاها حتى وصَّلَت إليك ما كان فيها ، فلما أدّت الأمانة توجّهَ إليها باسمه المعيد فأرجعها وتولّاها ، فلا تطلبنَّ بقاء رسول بعد أن بلّغ رسالته ، ولا أمين بعد أداء أمانته .

وإنما يفتضح المدَّعون بزوال الأحوال وبُعدهم[1] عن مراتب الأنزال

---

(١) وفى التيمورية (وبعزلهم) .

هناك يبدو العوار وتنهتك الأستار ، فكم من مُدع الغنى بالله وإنما غناه بطاعته ونوره وفتحه !،

وكم من مدّع العزّ بالله وإنما اعتزازه بمنزلته وصولته على الخلق معتمداً على ما تمت[1] عندهم معرفته !!

فكن عبد الله ، لا عبد الملل ، وكما كان لك ربّا ولا علّة؛لتكون له كما كان لك » اهـ .

وعليه مدار كلام المؤلف :

تنبيـه :

حلاوة الأحوال وغيرها نعيم لا يتمّ إلاّ بشهود الحقّ ، وفقدان ذلك عذاب لا يتحقق إلاَّ بالحجب عنه فاعتبر به لا بغيره ، وهذا ما افتتح به الباب الرابع والعشرين .

---

(١) وفى التيمورية :(على ما ثبت) .

الباب الرابع والعشرون

إذ قال :

وقال رضى الله عنه :

النعيم وان تنوعت مظاهره انما هو بشهوده واقترابه .

قلت : النعيم : التذاذٌ يصحبه فرح وسرور بالمتلذّ به .

ومظاهرهُ بما يتجلّى فيه وبه من الفوائد والعوائد وغيرهما مما تشتهيه الأنفس وتلذّ الأعين فى هذه الدار وفى تلك الدار، ولا كمال له ، بل ولا صحة إلاّ بوجود الهناء ، ولا هناء إلاّ بشهود منّته تعالى وشكره على نعمته . والنظر إلى وجهه الكريم فى هذه الدار بالبصائر وفى تلك الدار بالأبصار ؛ لأن كل نعمة لا تُشهد فيها المنَّة يكون صاحبها مفتونا بها من حيث وصلت له ، ومن حيث خوف زوالها ، ومن حيث الاشتغال بأسباب غيرها .

وكل نعمة لا يصحبها الشكر فهى إلى الزوال أقرب ، والعقوبة فيها وبها ومعها أظهر .

وكل نعيم غاب معه الحبيب فأيُّ عِبْرَةٍ به ؟ ! أم أى فائدة فيه . ثم لولا تجليه تعالى بإحسانه ما صحّ نعيم لمنعم أبداً . فافهم .

ثم ذكر المؤلف ظهور الضدِّ فى النقيض وهذا العذاب فى الحجاب فقال :

والعذاب وان تنوعت مظاهره انما هو لوجود حجابه .

قلت : لأن مشاهده المعذِّب مع العلم بجلاله وكماله تُنسى ما هو فيه من التعذيب ؛ فقد روى أن رجلاً ضُرب تسعةً وتسعين سوطاً ، فما صاح ولا تأوّه ، ولا استغاث ، فلما ضُرب الواحدةَ التى بها تمامُ المائة صاح واستغاث ، فقيل له فى ذلك ، فقال : العينُ التى ضربتُ من أجلها كانت تنظر إلىَّ فى التسعة والتسعين ، وفى الواحدة حُجِبت عنّى » وشاهد ذلك قوله تعالى (فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ ...) الآية .

قال فى « التنوير » : « ولو أن الحق سبحانه تجلّى لأهل النار بجماله وكماله لغيَّبهم ذلك عن إدراك العذاب ، كما أنه لو احتجب عن أهل الجنة ما طاب لهم النعيم ، فالعذاب إنما هو وجود الحجاب » .

وأنواع العذاب مظاهره ، والنعيم إنما هو بظهور التجلّى .

وأنواع النعيم مظاهرة ، وهو عين ما ذكر هنا وتممه بأن قال :

فسبب العذاب وجود الحجاب وتمام النعيم بالنظر الى وجه الكريم .

قلت : يقول : لولا الحجاب ما صحَّ العذاب ، ولا يتم النعيم إلاّ برؤية المنعم . وظاهر كلامه أن الحجاب شرط فى حصول العذاب ، وأن رؤية المنعم شرط فى تمام[1] حصول النعيم لا فى وجوده ؛ ولذلك فى بعض النسخ « لشهوده » باللام و بوجوده » بالباء .

---

(١) وفى التيمورية (فى كمال النعيم) .

ثم فى رؤية المنعم فى النعمة كرامات ثلاث :

أولها : الراحة من كلفة مقابلة الخلق ، والإلتفات إليهم ، والعتق من مِنّتهم والنظر إليها .

الثانى : سرور القلب وفرحه بالله ؛ وذلك مفتاح المعرفة ودرك الإنابة.

الثالث : الخروج من عهدة التقصير بالقيام بواجب الشكر ولو بمعرفة مِنّته[1] تعالى وفضله ، وفى عدم رؤيته ضد ذلك . كما أشار إليه المؤلف إذ قال :

ما تجده القلوب من الهموم والاحزان فلاجل ما منعت من وجود العيان .

قلت : الهموم ما يلحق القلب من الكُرب لِما يُتوقّع .

والأحزان : ما يلحقه لأجل ما وقع ، فبساطهما توقُّع مكروه ، أو فوت محبوب ، وذلك لا يكون إلّا مع فقدان الحقيقة ، وعدم النظر للأقدار ؛ لأن من عاين التوحيد حصل على التسليم والرضا ؛ فلا يبقى له هم ولا غمّ أبداً ، قال تعالى « مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللهِ يَسِيرٌ لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ . . . »[2] .

---

(١) وفى التيمورية (ولو لم يكن إلا بمعرفة منته سبحانه) .
(٢) آية ٢٢ من سورة الحديد .

ولذلك قال الشبلى رضى الله عنه : « من عرَف الله لا يكون عليه غمّ أبداً »

وقال سرى السقطى رضى الله عنه : « من عَرفَ الله عاش ، ومن مال إلى الدنيا طاش ، والأحمق يغدو ويروح فى لاش[1] ، والعاقل عن عيوبه فتّاش » انتهى وهو عجيب .

وإنما الهموم والأحزان غالباً لفقد الدنيا ووجودها . فكثيرها كيسيرها . وهذا ما نبّه عليه المؤلف إذ قال :

من تمام النعمة عليك أن يرزقك ما يكفيك ويمنعك ما يطغيك

قلت : يرزقك الكفاية فلا يشوشك بالفقد ، ويمنعك الزيادة لئلا يشغلك بالوُجد ، بل تكون سالماً من إقبالها وسالماً من إدبارها . ففى الكفاف كرامات ثلاث :

الراحة من التعب جلباً ودفعاً ، والتفرّغ للخدمة قالباً وقلباً ، وتحصيلُ الشكر والصبر فى حالة واحدة ، ولذا قيل : « إنه أفضل من الغنى مع الشكر ومن الفقر مع الصبر حتى سأله رسول الله صلى الله عليه وسلم لنفسه ولعياله وآله ، وكذا إبراهيم عليه الصلاة والسلام حيث قال (رَبَّنَا إِنِّى اسْكَنْتُ مِنْ ذُرِيَّتِى بِوادٍ غَيْرِذِى زَرعٍ عِنْد

(١) لا شىء .

بيتك المحرّم . . . الآية)[1] اختارلهم محل قلّة الدنيا ليقيموا الصلاة ، وطلب لهم الأنس والثمرات لتحصيل الشكر على الكفاية .

ومن مصائب اتساع الدنيا كثرةُ الأحزان كما نبهّ عليه المؤلف إذ قال :

ليقل ماتفرح به يقل ما تحزن عليه

قلت : وليَكْثر ماتفرح به يكثر ما تحزن عليه ، لأن الحزن بالفقدان على قدر الفرح بالوُجدان .

وقد حُكى أن بعض الملوك أُهدى إليه قدحٌ من فيروزج مُرصَّع بالدرّ والياقوت ، فقال لبعض الحكماء عنده : ماترى هذا ؟

قال : أراه مصيبة وفقراً ! !

قال : وكيف ؟

قال : إن انكسر القدح كان مصيبة لاجبْرلها ، وإن سُرق صرتَ فقيراً إليه ولم تجد مثله ، وقد كنت قبل أن يُحمل إليك فى أمنٍ من المصيبة والفقر .

فاتّفق أن انكسر القدح فى بعض الأيام فعظُمت مصيبة الملك وقال : صَدَق الحكيم ؛ ليته لم يُحمل إلينا » انتهى .

---

(١) وتمام الآية : ربنا ليقيموا الصلاة ، فاجعل أفئدة من الناس تهوى إليهم وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون

ومن أعظم ما يُفرح وجود الولاية وتحتها مصيبة العزل عنها أو عزلها عنك كما نبّه عليه المؤلف إذ قال :

ان اردت ان لاتعزل فلا تتول ولاية لا تدوم لك .

قلت : ولايات الدنيا كذلك ؛ لأنك منها بين إحدى ثلاث :

إمّا أن تعزل عنها بالحياة ، وهي أكبر المصائب ، أو تذهب عنها بالموت وهو أمر لابدّ منه ، أو تكون لك جارية على غير مرادك وهي مصيبة حاضرة . والعاقل لايعدل بالسلامة شيئاً .

فوجب أن تعزل نفسك قبل أن تُعزل بأن لا تدخلها بنفسك ولا لنفسك وتكون فيها غير متشبع بها . وعلامة ذلك ثلاث :

ألاّ تقبلها إلاّ لأمر تخشاه ديناً أو دنيا بعد الفرار الصادق ،

وأن تلازم فيها الحذر والإشفاق ،

وأن يكون الخروج منها أشهى إليك من الإقامة فيها .

وإنما يدعوك إليها ما ترغب فيه من فوائدها ، وهي آيلة لضدّ ما يوجد منها ، وهذا ما نبّه عليه المؤلف إذ قال :

ان رغبتك البدايات زهدتك النهايات .

قلت : يقول : إن رغّبتك البدايات بحصول الفوائد زهّدتك النهايات بوقوع النوائب ، إن رغّبتك البدايات بوجود المنافع زهّدتك

النهايات بوقوع الفجائع ، إن رغّبتك البدايات بتحصيل ما تريد زهّدتك النهايات بالوقوع فيما لا تريد ، ثم قال :

ان دعاك اليهـا ظاهر نهاك عنها باطن

قلت : إن دعاك إليها ظاهرٌ إغتراراً بصورته ، ينهاك عنها باطن أعتباراً بحقيقته ؛ لأن ظاهرها غِرَّةٌ ، وباطنها عِبْرة .

ولله درّ أبي موسى الثقفي رحمه الله حيث يقول : أُفٍ للاشتغال بالدنيا إذا أقبلت وأف لحسرتها إذا أدبرت ، والعاقل لا يركن لشيء إذا أدبر كان حسرةً ، وإذا أقبل كان شُغلاً .

وأنشدوا في ذلك:

وقائلةٍ مالى أراك مجانباً ... أموراً وفيها للتجارة مربح
فقلت لها : مالى بربحك حاجة ... فنحن أناس بالسلامة نفرح

ثم ذكر المؤلف وجهاً من حكمة الله تعالى في وسم الدنيا بالأغيار والأكدار فقال :

انما جعلها محلا للاغيار ، ومعدنا لوجود الاكدار تزهيدا لك فيهـا .

قلت : وذلك لما يبدو لك من نقصها وفسادها وعدم جدواها كما اتفق لبعضهم حسبما أخبر عن نفسه إذ قال « تركت الدنيا ؛ لكثرة عنائها ، وقلّة غنائها وخسّة شركائها وسرعة فنائها » اهـ

ومعرفة ذلك بالتجربة والذوق أتمُ من معرفته بالتعلم والفهم ، وهذا ما نبه عليه إذ قال :

علم أنك لاتقبل النصح المجرد فذوقك من ذواقها مايسهل به عليك وجود فراقها .

قلت : فهو سبحانه زهّدك فيها بما هي عليه ، وأكّد ذلك بما يلابسك منها ، ويكفى فى ذلك ماقيل :

إذا أدبرت كانت على المرء حسرة

وإن أقبلت كانت كثيراً همومها

ففائدة الزهد فيها ثلاث :

السلامة من نكدها ، والراحة من تعبها [1] ، وفراغ الوقت للعبودية [2] ونحوها .

واستفادته من تقلّباتها أتمُّ لثلاثة أوجه :

أحدها : أن النفس تتأثر بما يماسها أكثر من غيره فهو عون على تركها .

الثانى : أن كثرة الجفاء تقطع أصول المحبّة ، والدنيا محبوبة بالطبع ، فلا يزيل محبتها إلا كثرة جفاها .

الثالث : أن المماسه فى الجفاء أوجع للقلب وأقوى فى الحجة وأوضح فى المحجة ، وقد قال أبو هاشم الزاهد رضى الله عنه : « إن الله

(١) وفى التيمورية (كدها)
(٢) وفى التيمورية (للمعبود)

وسم الدنيا بالوحشة ؛ ليكون أنس المريد به دونها ، وليُقْبل المطيعون إليه بالإعراض عنها ، وأهل المعرفة بالله من الدنيا مستوحشون وإلى الآخرة مشتاقون » .

ثم سهولة فراقها بما ذكر إنما هو بحصول العلم المباشر للقلب فى شأنها ، وهو العلم النافع كما ذكر المؤلف إذ قال :

اعلم أن العلم النافع هو الذى ينبسط فى الصدر شعاعه ويكشف عن القلب قناعه .

قلت : ينبسط فى الصدر شعاعه فيتبين له كل شىء على حكمه ، ويكشف عن القلب قناعه فيباشر فيما علم [١] الحقيقة قلبهُ فيقع له الإقبال والإدبار على حكم ذلك [٢] .

قال الشيخ أبو عبد الله محمد بن على الترمذى : « إن النور إذا أشرق فى الصدر [٣] تصورت الأمور حسنها وسيئها ووقع بذلك ظلّ فى الصّدر ؛ فهو صورة الأمور فيأتى حَسَنَها ويتجنب سيئَها فذلك هو العلم النافع من نور القلب وخرجت تلك العلائم إلى الصدور ، وهى

---

(١) وفى التيمورية (فيباشر ماعلم لحقيقة علمه).

(٢) وفى نسخة (على حكمه فى ذلك)

(٣) وزاد فى التيمورية بعد قوله الترمذى (العلم النافع هو الذى قد تمكن فى الصدر ، وتصور ذلك أن النور إذا أشرق . . الخ)

علامات الهدى . والعلم الذى قد تعلمه فكذلك علم اللسان[1] إنما هو شىء قد استدعى الحفظ والشهوةُ غالبةٌ عليه قد أذهبت بظلمتها ضوءه » انتهى .

وقد جعل الله سبحانه غاية علم من آثر الدنيا إيثارَها إذ قال عزّ من قائل :

(فَأَعْرِضْ عَمَّنْ تَوَلَّى عَنْ ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ذَلِكَ مَبْلَغُهُمْ مِنَ الْعِلْمِ ..) [2] .

وجعل الخشية عنوانَ العلم ، كما أن العلم مفتاحَ الخشية وهو خير العلوم أعنى الذى يفيد الخشية كما بينه المؤلف إذ قال :

خير علم ما كانت الخشية معه .

قلت : لأنه مصحوب بمعرفة الله ، دالٌّ على العبودية لله ، فهو شريف الأصل والفرع ، والأشياء تشرف بشرف مقاصدها ، ولذلك قيل : « فضل العلم لفضل من عُلِم به ، والله تعالى أجلّ معلوم ؛ فالمعرفة به أفضل العلوم ، وإذا كان الله هو غاية الغايات فالمعرفة به أجلّ العبادات نعم ، وحقيقة الخشية مَهابةٌ يصحبها تعظيم ، وذلك يفضى لحسن الأدب والمراقبة » .

---

(١) وفى التيمورية : فذلك علم اللسان

(٢) وتكملة الآية (إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله هو اعلم بمن اهتدى) النجم : ٢٩ — ٣٠

قال فى « لطائف المنن » : « فشاهدُ العلم الذى هو مطلوب الله تعالى وجودُ الخشية لله،وشاهدُ الخشيةموافقةُ الأمر؛ أمّاعِلْمٌ تكون معه الرغبةُ فى الدنيا والتملّق لأربابها وصرفُ الهمة لاكتسابها والجمع والإدّخار والمباهاة والاستكثار فما أبعدَ مَنْ هذا العلم علمُه من أن يكون من ورثة الأنبياء ، وهل ينتقل الشىء الموروث إلى الوارث إلاّ بالصفة التى يكون بها عند الموروث عنه ، ثم قال :

ومثل مَنْ هَذه الأوصاف أوصافُهمن العلماء كمثل الشمعة التى تضىء على غيرها ، وهى تحرق نفسها ، جعل الله العالم(١) الذى علمُه هذه الصفة حجة عليه وسببا فى تكثير العقوبات لديه » انتهى .

ثم بيّن وجه خيريته وذكر ضدّه فقال :

العلم ان قارنته الخشية فلك والا فعليك .

قلت : فلك أجره وثوابه ، وإلاّ فعليك إثمه وعقابه ، وإن شئت قلت: فلك نفعُه وفائدته ، وإلاّ فعليك ضُرُّه وآفتُه ، وإن شئت قلت : فلك محجةٌ ، وإلاّ فعليك حجَّة . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (والقرآن حجة لك أو عليك ،كل الناس يغدو فبائع نفسه فمعتقها أو موبقها . . . الحديث)(٢) .

---

(١) وفى نسخة (جعل الله سبحانه علم من هذا وصفه حجة عليه)

(٢) روى الامام مسلم فى صحيحه عن أبى مالك الاشعرى قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : الطهور شطر الايمان والحمد لله تملأ الميزان وسبحان الله=

وإنما كان الأمرُ كذلك لثلاثة أوجه :

أحدها : أن الخشية تحجز عن المعصية والقبائح ، وتدعو للمحاسن والمصالح وفقدها ينفى ذلك ، لا سيما مع وجود العلم المؤيد بالتأويل ، ولذلك قيل : « من تفقه ولم يتصوف فقد تفسق » .

الثانى : أن الخشية توجب التحقيق فى التحصيل والنصح فى التوصيل والإنصاف فى المذاكرة ، وفقدها ينفى ذلك لا سيما مع غلبة الهوى والشهوة على العقل والعلم والبيان(١).

الثالث : أن الخشية تحمل على طلب الآخرة وإرادة وجه الله تعالى بالعلم فى جميع وجوهه ، وفقدها ينفى ذلك وهو رأس الآفات والملل .

وقد قال الفضيل رضى الله عنه : « العالم طبيب الدين ، والدنيا داء الدين، فإذا كان الطبيب ؛ يجر الداء إلى نفسه فمتى يُبرئ غيره » انتهى.

ومن علامة الخشية قلة المبالاة بالخلق فى إقبالهم وإدبارهم فلذلك قال :

= والحمد لله تملآن ما بين السموات والارض ، والصلاة نور والصدقة برهان والصبر ضياء والقرآن حجة لك أو عليك . كل الناس يغدو فبائع نفسه فمعتقها أو موبقها). وفى شرح الكلمة الاخيرة يقول الامام النووى : كل انسان يسعى بنفسه ، فمنهم من يبيعها لله تعالى بطاعته فيعتقها من العذاب ومنهم من يبيعها للشيطان والهوى باتباعهما ، فيوبقها أى يهلكها ، والله أعلم .

(١) وفى التيمورية (مع غلبة الشهوة فانها تغطى العقل والعلم والبيان)

متى آلمك عدم اقبال الناس عليك أو توجههم بالذم اليك فارجع الى علم الله فيك.

قلت : متى تألمتْ نفسُك بإدبار الخلق عنك وعدم إقبالهم فانظر لِما ذُممت به أو فَرّ عنك من أجله ، فإن الله تعالى يعلم منك وجوده فارجع إليه بالتوبة والإنابة واللجوء والإستغفار نظراً لأن ألسنةَ الخلق أقلامُ الحق ، وأقلامه مسلّطون عليك بما وقع من الذنب وتنبّه فى ذلك لستر الحق سبحانه وتعالى إذْ يُجرى عليك ما لا تعلمه من نفسك بسبب تلبسك بموازيه ، فلا تقف مع صورة ما رميت ، بل انظر إلى ما يدور عليه ؛ كما إذا رُميت مثلاً بالزنا وأنت برىء منه فانظر إلى الغيبة فإنها موازية له ، عقوبتها من نوعه ، فقد تكون عقوبتُها بذكره ، وإن كان ما وقع لك لا تجده من نفسك فارجع إلى مولاك بالكفاية عن علم غيره ، وقل بلسان حالك ومقالك: أنت تعلم براءتى وكفى بك وكيلاً كفيلاً ، وارجع إليه فى الدفع عنك عبوديةً وتضرّعا ، لأنه المقصود بابتلائك. بذلك قال أبو الحسن الشاذلى رضى الله عنه :لا تنشر [1]عملك ليصدّقك الناس. وانشر عملك ليصدقك الله . وإن كان الأمر لعلّة موجودة فعلّةٌ تكون بينك وبين الله من حيث أمرك خيرٌ من علّة تكون بينك وبين الناس من حيث نهاك، ولعلّة تردك إلى الله خيرٌ من علّة تقطعك

---

(١) وفى التيمورية (علمك)

عن الله » فلأجل ذلك علّقها(١) بالثواب والعقاب ؛ إذ لا يُخاف ولا يُرَجَّى إلاَّ من أجل الله ، وكفى بالله صادقاً ومصدِّقاً ، وكفى بالله عالماً ومعلِّماً ، وكفى بالله هادياً ونصيراً ، هادياً يهديك ويهدى بك ويهدى إليك ، ونصيراً ينصرك وينصر بك ولا ينصر عليك ، ووليّاً يواليك ويوالى بك ولا يوالى عليك » انتهى .

وهو عجيب . ومداره على الإكتفاء بعلم الله والقناعة بعلمه ، وهو رأس الفضائل ، وللعكس العكس كما قال :

ان كان لا يقنعك علمه فيك فمصيبتك بعدم قناعتك بعلمه أشد من مصيبتك بوجود الأذى منهم .

قلت : يقول : فإن لم تكتف بعلم الله وأردت أن يعلم الناس حقيقة ما أنت عليه أدركتك مصيبة الإلتفات إلى الخلق فوُكلت إليهم ، وذلك من أعظم المصائب وأكبر الآفات والنوائب .

ومن أعظم ما فيه رجوعك إلى الخلق بدلاً من الإكتفاء بالحق ويداخلك من ذلك ثلاثة : الرياء ، والتكلُّف ؛ وعدم الإحترام للجانب الكريم ، فينقلب عزُّك ذلاًّ ، وغناؤك فقراً ، ويظهر عليك من أسباب المقت ما لا مزيد عليه ، إذ أشرت إلى الحق وتعلّقت بالخلق ؛ فقد قال الجنيد رضى الله عنه : « من أشار إلى الحق وتوجَّه للخلق أحوجه الله إليهم ونزع الرحمة من قلوبهم عليه » انتهى .

(١) وفى نسخة (علقك)

وعلامة الاكتفاء بعلم الله ثلاثة : التحفُّظ من الوقيعة فيمن آذاك ، والقصدُ فى العمل بأسباب الدفع حيث توجَّهت ، والقيام لله بالعبودية افتقاراً فيما أنت به .

ثم ذكر حكمة الله فى تسليط الخلائق فقال : **أنما أجرى الأذى عليك منهم كيلا لا تسكون ساكنا اليهم .**

قلت : فإن تنبهت لذلك وعملت عليه فأنت مكروم ، وإن غفلت عنه وسكنت إليهم فأنت محروم ، وإن توجَّعت بوجوده مع عَدم الترك فأنت مرحوم .

ثم من فوائد ذلك ـ بعد ما ذكر من عدم السكون إليهم ـ ثلاث :

التحرر من رقّ إحسانهم ، والسلامةُ من مؤنة القيام بحقوقهم ، والعافيةُ من الفتنة بحبّهم ، فقد قيل : السوط[1] من العدو سوط الله يردّ به القلوبَ إذا شردت عنه ، وإلاّ رقد القلب فى ظل العزّ والجاه وهو حجاب عن الله عظيم » .

قال الشيخ أبو الحسن الشاذلى رضى الله عنه : « أوصانى أستاذى فقال : إهرب من خير الناس أكثر مما تهرب من شرّهم ، فإن شرّهم يصيبك فى بدنك ، وخيرهم يصيبك فى قلبك وَلَأَنْ تصاب فى بدنك

---

(١) وفى التيمورية (الصيحة)

خير لك من أن تصاب فى قلبك ، ولعدوّ ترجع به إلى الله خيرٌ لك من صديق يصدّك عن الله » .

قال فى « لطائف المنن » : « اعلم أن أولياء الله تعالى حكمهم فى بداياتهم أن سلَّط عليهم الخلق ليطهّروا من البقايا ، ولتكمل فيهم المزايا ، كيلا يساكنوا هذا الخلق باعتماد ، ولا يميلوا إليهم باستناد. قال: ومن آذاك فقد أعتقك من رقّ إحسانه، ومن أحسن إليك فقد استرقّك بإحسانه ، ولذلك قال صلى الله عليه وسلم (من أسدى إليكم معروفاً فكافئوه ، فإن لم تقدروا فادعوا له) كلُّ ذلك ليتخلّص القلب من رقِّ إحسان الخلق وليتعلق بالملك الحق » انتهى .

ثم ذكر حكمة ذلك بوجه آخر ، فقال :

أراد أن يزعجك عن كل شيء حتى لا يشغلك عنه بشيء .

قلت : يقول : أراد أن يزعجك من كل شيء بما يجره لك من ذاك الشيء فترجع إليه فى كل شيء ، تارة باللجوء إليه فى دفع بلواه ، وتارة بالفرار منه إلى الله تعالى كما قال الله تعالى : (وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ : فَفِرُّوا إِلَى ٱللهِ)[1] .

فجعل ازدواج الخلق من بساط الفرار إلى الخالق ،فافهم .

---

(١) من سورة الذاريات آية ٤٩ ، ٥٠ .

ثم وجه الإنزعاج عن الدنيا بثلاث :

ما فيها من الأكدار، ومافيها من الآثار ، وماتئول إليه من الزوال .

وعن الخلائق بثلاث :

الفتنة فى إقبالهم ، والأذى فى إدبارهم ، والكلفُ والأحوال فى ملابستهم .

وَعن النفس بثلاث :

اتباعُ الهوى فيما تُريده[1] ، والإعتراض فيما تطلبه ، والجهل فيما تختاره .

فمن علم ذلك ممن ذكر فرَّ منه ضرورة ، وكذا من الشيطان فإنه شرٌّ كلُّه ، لكن للفرار من الكل وجوهٌ أحسنها : الفرارُ بالعبودية فى بساط التوحيد ، وقد ذكرها المؤلف فيما ذكر .

وافتتح بذكر الخلق والدنيا ، كما تقدّم ، ثم ذكر الشيطان فقال :

اذا علمت أن الشيطان لا يغفل عنك فلا تغفل أنت عمن ناصيتك بيده .

قلت : وذلك بالدوام على ذكره، واتِّباع أمره ونهيه، والقيام بعبوديته وشكره ، ليكفيك أمره[2] ، وحتى لا تكون له حجة عليك ، بل لايجد إليك طريقاً ولا محجة كما قال تعالى (إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ

---

(١) وفى التيمورية (فيما تريده . . وتطلبه . . وتختاره . .) .
(٢) أمر الشيطان .

سلْطَانٌ ، وَكَفَى بِرَبِّكَ وَكِيلاً)[١] وقال عزّ وعلا (إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ)[٢] وقال سبحانه وتعالى (إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا)[٣] .

وقال الشيخ أبو العباس المرسىّ رضى الله عنه: « فقوم فهموا من هذا الخطاب[٤] الأمر بعداوة الشيطان فشغلهم ذلك عن محبة الحبيب فكفاهم من دونه[٥] ، قال مريد لأستاذه ، بمَ تطرد الشيطان إذا قصدك بالوسوسة ؟

قال . إنا لا نعرف الشيطان ؛ نحن قوم رفعنا هممنا إلى الله فكفانا الله من دونه . .

وقال أبو سعيد الخدرى رضى الله عنه : «سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : قال: ابليس لربه عزّ وجلّ : وعزّتك وجلالك لأزال ولا أبرح أغوى بنى آدم ما دامت الأرواح فيهم .

قال له ربّه : بعزّتى وجلالى لا أبرح أغفر لهم ما استغفرونى » انتهى . ثم ذكر وجهاً من حكمة خلق إبليس متعلقاً بمراده فقال :

(١) آية ٦٥ من سورة الاسراء.
(٢) آية ٩٩ من سورة النحل .
(٣) سورة فاطر : ٦
(٤) وفى نسخة (فهموا من الله عز وجل فى هذا الأمر . .) .
(٥) وفى التيمورية (. . فشغلهم ذلك عن محبة الحبيب ، وقوم فهموا وأنه لكم حبيب فاشتغلوا بمحبة الحبيب فكفاهم من دونه) .

جعله لك عدوا ليحوشك به اليه

قلت : معنى ليحوشك : ليردّك بالكلية إليه على وجه لا يمكنك الانفكاك عنه ، وهذا أحد الأوجه الثلاثة التى ذكرت فى خلق إبليس؛ فإن من كان له حبيب ولا يخشى من اغتيال عدوٍّ دونه ليس كمن يخشى عدوّه ويعلم قدر حبيبه .

الثانى : إنما جعل فى هذه الدار منديلاً للعار تمسح فيه أوساخ النسب (وَمَا أَنْسَانِيهِ إِلَّا الشَّيْطَانُ) من بعد أن نزغ الشيطان بينى وبين إخوتى ، و . . هذا من عمل الشيطان . . . . إلى غير ذلك .

الثالث : خلقه فى مقابلة الرسل : هم يدعون إلى هدى ، وهو يدعو إلى ضلال فيتميز الخبيث من الطيّب بالتابع والمتبوع ، جعلنا الله من خير الفريقين بفضله

وقد قال ذو النون المصرى رضى الله عنه : إذا كان هو يراك من حيث لا تراه فالله تعالى يراه من حيث لا يرى الله ، فاستعن بالله تعالى عليه » .

وقال أبو حامد الأعرج رضى الله عنه : « ومنْ الشيطان حتى يهاب ؟

فلقد أُطيع فما نفع ، وعُصى فما ضرّ » .

وقال بعضهم : إنّ عدواً يراك ولا تراه لشديد إلاّ من عصم الله »
انتهى .

ثم ذكر بيان النفس فى حركاتها وفائدة ذلك فقال :

وحرك عليك النفس ليدوم اقبالك عليه .

قلت : تحريك النفس بطاب هواها ، وإيثارها دنياها ، وكثرة تطلبها ، وعدم الوفاء بعزمها ، وجموحها فى جنوحها ، وإقبالك عليه فى ذلك بثلاثة أشياء :

الثقة فيما ترتجيه ، واللجوء إليه فيما تتقيه ، والإنابة له فيما ترتضيه ، تارةً على بساط المشاهدة ، وتارة بوجه من المجاهدة ، وتارة بالرياضة والمنابذة ، فهى التى لم تقدروا عليها قدأحاط الله بها . كما قال له الشيخ أبو الحسن رضى الله عنه .

وقال أيضاً رضى الله عنه : أعظم القربات عند الله مفارقة النفس بقطع إرادتها ، وطلب الخلاص منها بترك ما تهوى لما يُرجى من حياتها ، وإنَّ من أشقى الناس مَن أحب أن يعامله الناس بكل ما يريد وهو لا يجد من نفسه بعض ما يريد » انتهى .

وبانتهائه تمَّ هذا الباب والله الموفِّق للصواب .

تنبيــه :

ومن أعظم آفات النفوس وجود الكبر ،

وله وجوهٌ مِن أخفاها ما ذكره المؤلف فى الباب الخامس والعشرين .

الباب الخامس والعشرون

أولاً إذ قال :

وقال رضى عنه :

من أثبت لنفسه تواضعا فهو المتكبر حقا ، اذ ليس التواضع الا عن رفعة ، فمتى أثبتت لنفسك تواضعا فانت المتكبر .

قلت : لفظ التواضع يقتضى[1] منزلةً صَدَر التنازل عنها ،وحقيقته تأبى ذلك ، فمن أثبت لنفسه تواضعاً على ما يقتضيه اللفظ ، فقد أثبت لنفسه رفعةً ، وذلك مناف لحقيقته .

وقد ساق المؤلف بعضه معلَّلاً بعلة موصولاً بنتيجته ، ثم ذكر شأن المتواضع الحقيق ، فَيُعْرف منه حقيقة التواضع المقصود بالمعنى فقـــال :

ليس المتواضع الذي اذا تواضع رأى أنه فوق ما صنع ، ولـكن المتواضع الذى اذا تواضع رأى أنه دون ما صنع .

قلت : فالتواضع أن لا ترى لنفسك قدراً وأنّ كل ما وضعتها فيه من أنواع الذلّة هي مستحقة لما دونه لما هي موسومة به من النقائص تفصيلا وتأصيلاً ، وقد قال الشبلي رضى الله عنه : من رأى لنفسه قيمةً فليس له من التواضع نصيب » .

---

(١) وفى التيمورية (يقتضى ثبوت منزلة صدر التنازل عنها) .

وقال أبو سليمان الداراني رضي الله عنه : « لا يتواضع العبد حتى يعرف العبد نفسه » .

وقال أبو يزيد رضي الله عنه : « ما دام العبد ينظر أن في الخلق من هو شرٌّ منه فهو متكبر ، قيل : فمتى يكون متواضعاً ؟ فقال : إذا لم ير لنفسه حالاً ولا مقاماً »[١] انتهى .

فإذن التواضعُ من حيثُ اللفظُ موضوع لشعور النفس بصفتها[٢] بغير زائد على ذلك ،

ثم له سببان : نظر العبد لأوصاف نفسه ونقصها ، ونظره لأوصاف ربّه وكماله ، والناشيء عن الأخير أتَمُّ من الأول ، فلذلك رجّحه[٣] المؤلف فقال :

التواضع الحقيقي ما كان ناشئا عن شهود عظمته ، وتجلي صفته .

قلت : وذلك بأن يرى كمال الحقّ تعالى ، وأن كل شيء دونه ناقص محتقر ، فيفنى الكلّ في جلاله وكبريائه وعظمته ، وقد قال ذو النون المصري رضي الله عنه : « من أراد التواضع فليوجه قلبه إلى عظمة الله تعالى فإنه يذوب ويصغر ، ومن نظر إلى سلطان الله تعالى ذهب سلطان نفسه ، لأن النفوس كلّها حقيرةٌ عند هيبته ، ومن أشرف

(١) وفي نسخة (ولا مآلا) .
(٢) والاولى : بضعتها وفي بعض النسخ بضعفها .
(٣) وفي التيمورية (وجهه) .

التواضع أن لا ينظر إلى نفسه دون الله تعالى ؛ فقد قال فى « عوارف المعارف » : « اعلم أن العبد لا يبلغ حقيقة التواضع إلاَّ عن لمعان نور المشاهدة فى قلبه ، فعند ذلك تذوب النفس ، وفى ذوبانها صفاؤها عن غِشِّ الكبر والعجب فتلين وتنطبع للحق وللخلق بمحو آثارها وسكون وهجها وغليانها » انتهى .

فالناس ثلاث :

رجل رأى قُبح فعله ، فلم ير لنفسه قدراً ،

ورجل شاهد قبيح وصفه فلم يشهد لنفسه نسبة ،

ورجل شهد عظمة ربّه فنسى كل شىء به ، وهذا أتمُّ الوجوه وأحسنها ، كما أشار إليه المؤلف إذ قال :

لا يخرجك عن الوصف الا شهود الوصف

قلت : لا يخرجك عن الوصف الحقير النفسانى إلا شهود الوصف العظيم الربانىّ ، لا يخرجك عن الوصف المنسوب إليك إلّا شهود الوصف الحاكم عليك ، لا يخرجك عن وصف نفسك إلاَّ شهود وصفها بحقيقة ما هى عليه حتى لا يبقى لك خبر عنك ، فقد قال الشيخ أبو عبد الله القرشى رضى الله عنه : « من وجد ذوق ذُلِّه فى ذُلِّه[1] فهو متعزِّز وفيه بقية » .

وقال الجنيد رضى الله عنه : « التواضع عند أهل التوحيد تكبُّر»

(١) وفى نسخة : من وجد ذوق ذلة فى صلة . . الخ

قال الإمام الغزالى رحمه الله: «ولعل مراده: أن المتواضع يثبت نفسه رفعةً ثم يضعها، والموحّد لا يثبت نفسه ولا يراها شيئاً حتى يضعها أو يرفعها بالتواضع[١] برؤية النفس خروج عنها بها، ولها، وبرؤية الحق خروج عنها به، وهذا لا يمكن رجوعُه، بخلاف الأول، فإنه يسرع انقلابه.

ولما كان المؤمن الكامل مُشاهد جلال ربّه وجماله فى جميع أحواله وأوقاته لم يمكنه انفكاكٌ عن جنابه، وهذا ما ذكره المؤلف إذ قال:

المؤمن يشغله الثناء على الله عن ان يكون لنفسه شاكرا، وتشغله حقوق الله عن أن يكون لحظوظه ذاكرا.

قلت: أراد المؤمن الكامل المحقِّق بحقائق إيمانه يوجب له ما تحقق له من الإيمان أن يرى كلّ فضل منه من مولاه فيما أسدى إليه من نظره لما وصل إليه وكماله به فلا يشكر نفسَه، ولا ينظر إليها؛ فإذا أطلق الثناء أثنى على مولاه بما هو أهله فى الفقد والوجدان، وتشغله حقوقُ الله الواجبةُ، وغيرها من مقتضيات العبودية، عن أن يكون لحظوظه ذاكراً؛ فإن كان ملابساً للحظوظ فلا يتناولها إلّا لأمر الله إياه فيها، وذلك كلُّه من بساط حبِّه لمولاه، وإيثاره على هواه، إذْ يفعل لا لعلّة ولا لسبب، كما هو شأن كلّ محبٍّ، وهذا ما ذكره المؤلف ونبّه عليه بأن قال:

(١) وفى التيمورية (أو يرفعها، انتهى، فالتواضع برؤية ... الخ).

ليس المحب الذى يرجو من محبوبه عوضا ، او يطلب منه غرضا .

قلت : وذلك لأن حقيقة المحبة أخْذ جمال المحبوب بحبة القلب حتى لاتبقى فيه بقية لغير المحبوب ، وبحسب ذلك لا يبقى له غرض فى غير رضا محبوبه ، ويكون ذلك غاية مرغوبه ؛ بل يفنى عن نفسه وعن كل شىء حتى لا يكون له خبرٌ عن غير الحبيب ؛ هذه امرأة العزيز أرادت أن تقول : شدّ على قميصى إزاراً ، فقالت :

شدّ على قميص يوسف .

وأنشدوا فى معنى ذلك :

بُنى الحبُّ على الجوْر فلو
سمح المحبوب يوماً لسمج(١)

ليس يستحسن فى حكم الهوى
عاشق يطلب تأليف الحجج

ثم طلب الأعواض والأغراض شأن المحبوب لا شأن المحبِّ كما قال :

فان المحب من يبذل لك ، ليس المحب من تبذل له .

قلت : المحبّ : من يبذل الروح ويستقلُّها ، ليس المحبُّ من يطلب .

---

(١) وفى نسخة الدار : (أنصف المحبوب فيه لسمح) .

الأعواض ، وإن عمل عملاً استقلّه ، ولله درُ أبى حفص عمر بن الفارض حيث يقول :

مالى سوى روحى وباذلُ روحه
في حبّ من يهواه ليس بمسرف
فلئن رضيتَ بها فقد أسعفتنى
يا خيبة المسعى إذا لم يُسعف

وقال بعضهم : أول ما يقول الله تعالى للعبد : أطلب العافية والجنة والأعمال. فإن قال : ما أريد إلاّ أنت ، قال له : من دخل من هذا الباب معى فإنما يدخل بإسقاط الحظوظ ورفع الحدوث[1] وإثبات القِدم ، وذلك يوجب لك العدم[2] » وأنشدوا فى معنى ذلك :

اسمحْ بنفسك إن أردت لقاءنا
واحلف بنا أن لا تحبّ سوانا
فإذا قضيت حقوقَنا يا مُدّعى
عاينتنا بين الأنام عيانا

وقيل : المحبّة نار تحرق البقايا من العبد وتُصيّر حاله للرضا لا للخوف حتى لو كان رضا المحبوب فى صرف الوجه عنه لكان المحبّ مطلوباً بالرضا به .

(١) وفى نسخة (الحدث) .
(٢) وفى نسخة (يوجب لك ذلك) .

فإن قال :

وأتركُ ماأَهْوَى لمـا قد هويته   وأرضَى بما ترضى وإن سخطت نفسى

قيل له : أنت معلول بمروض[1] السخط لنفسك فيُجيب بقول القائل :

أريد وصـاله ويريد هجرى   فأترك ما أريد لمـا يريد

فيقال له : الترك معروض للرضا وعدمه ، ولا يَصحّ فى مقام المحبة إلاَّ حب ورضى ، كما قيل :

فـكل مايفعل المحبوب محبوب

فيقول : حقيقة المحبة تدعو لطلب الوفاء ، ورضا المحبوب فى غير ذلك .

فيقال : الوصل حظك ، والرضى حقهُ ، وهو أولى بك منك . فافهم . ومن أحكام الحب طلب الوصلة والقرب برفع الأستار والحجب وذلك بالسلوك والسير . ومداره على قطع عقبات النفس من غير زائد كما نبّه عليه المؤلف إذ قال :

لولا ميادين النفوس ما تحقق سير السائرين .

قلت : ميادين النفوس مجالاتها التى تتردَدُ فيها .

ومدارها على ثلاثة أمور :

---

(١) وفى نسخة الدار : بتعرض .

طلبُ الحظوظ بالغفلة ، واتباعُ الوهم من غير تحقيق ، وصريحُ الدعوى من غير حقيقة .

فنفى الغفلة بالتقوى ، ثم بالاستقامة .

ونفى الأوهام بالتصبر[1] والاتباع .

ونفى الدعاوى بالمعرفة والتحقق .

ولكل منها سير يخصُّه ، فالسير فى الغفلة[2] الأولى بالحذر والإشفاق ونتيجتها الورع والتحفظ ، والسير فى الثانية بالعلم والاستبصار ونتيجتها نفى الغلط بالتحقيق والتحفظ فى التوسيع والتضييق ، والسير فى الثالثة بالانحياش إلى الحق والفرار من الخلق ، ثم لا تُبالى فى أيِّها وقعت مالم تهمل الأخرى ، فإن كل واحدة منها تدعو لباقيها ، وإهمال واحدة خَلَلٌ فى التى تليها . والله أعلم .

وإنما كان الأمر على ماذكر ؛ لأن الحق سبحانه ليس ببعيد ولا محجوب كما نبه عليه بقوله :

لامسافة بينك وبينه حتى تطويها رحلتك ، ولا قطيعة بينك وبينه حتى تمحوها وصلتك .

قلت : لا مسافة حسيَّة ولا معنوية ؛ لأن الحسيّة تقضى بالجهة ، ولأن المعنوية تقضى بالمماثلة . والربّ تعالى مُنزّه عنهما بجلال قدسه .

(١) وفى نسخة الدار (ونفى الاوهام بالتبصر) .
(٢) وفى نسخة التيمورية (العقبة) وكذا فى نسخة الدار .

ولا قطيعة حسية ولا معنويه أيضاً ؛ لانتفاء النسب والمشابهة فى وصفه تعالى ، وقد تقدّم من كلام الجنيد رحمه الله : متى يتّصل من لاشبيه له ولا نظير بمن له شبيه ونظير !!

ولله درّ الشيخ أبى الحسن التسترى حيث يقول :

أىُّ وصول ثُم أىُّ وصال   كما ليس ثَمَّ انفصال

ولما تكلم الشيخ ابن عبَّاد رحمه الله على هذا الموضع لم يزد أن قال: هما محالان لعدم المثلية فى الأول وعدم الضدية فى الثانى ، ثم قال :

« وهذه الألفاظ التى عبّر بها المؤلف من السير والميادين ، والرحلة والوصلة ، وفى معناها : السير والسلوك والذهاب والرجوع ، هى عبارات استعملها الصوفية فى أمور معنوية تجوزوا بها عن أمور حسية. ومرجع ذلك إلى علوم ومعاملات يتصف بها العبد لاغير » انتهى .

وهو محتاج إليه فى بابه .

ثم أعلم أن الطريق منحصر فى اتباع الرسول صلى الله عليه وسلم بجمع الحقيقة للشريعة ، إلاَّ أن مسالكها مختلفة بحسب الوجوه والتوجّهات ، وأعلى المسالك السلوك بالهمة .

وقد ذكر شرف الروحانية ، فلتطلب أشرف متعلقاتها وهو فتح

أبواب الغيوب ؛ لأن مادونها راجع لأنواع المحسوسات ، كما ذكر المؤلف إذ قال :

جعلك فى العالم المتوسط بين ملكه وملكوته ليعلمك جلالة قدرك بين مخلوقاته وأنك جوهرة منطو عليها أصداف مكوناته(١) ، وسعك الكون من حيث جسمانيتك ولم يسعك من حيث روحانيتك .

الكائن فى الكون ولم تفتح له ميادين الغيوب مسجون بمحيطاته ، ومحصور فى هيكل ذاته .

قلت : ميادين الغيوب : مجالاتها ، ومدارها على أسرار العبودية . وأنواع المعارف والعلوم الإلهامية التى لم يفتح له بابها ولا ظهر له جنابها لم يزل فى الحضيض الأسفل وإن كان فى أرفع درجات العبادة والعلم ، وهى أمور لاتتناولها العبارة ولا تبين عنها الإشارة ، لكن

---

(١) وزاد فى النسخة التيمورية بعد قوله أصداف مكوناته : (أقول : وذلك يقضى لك برفع الهمة عن الدناءة والجنوح إلى معالى الأمور فى جميع الحالات لأن من كان من أرفع العوالم لا يصح له أن يبيع نفسه بأبخس منها ثمناً . فعلم العبد بجلالة قدره فى أصل النشأة ينهض قواه لطلب الأمور العلية ، وهو أول قدم للمريد الصادق . وبيان كونك فى العالم المتوسط فمن طريق المعنى : أنك لست ملكيا محضاً ، ولاملكوتيا صرفاً . وإذا كنت كذلك فلك فى كل نسبة ، وذلك هو الوسط حقيقة .

ومن طريق الحس فانك فى وسط العالم : السموات تظلك والأرض تقلك والجهات تكنفك ، والجمادات تدافع عنك ، وأنت جوهر فى صدف مكنون فافهم وقد قال الشيخ أبو العباس المرسى رحمه الله : قرأت ليلة والتين والزيتون فكشف لى عن اللوح المحفوظ فاذا فيه لقد خلقنا الإنسان فى أحسن تقويم روحاً وعقلا ثم رددناه أسفل سافلين نفساً وهوى) اهـ

=

تدرك من وراء الستارة ، مَن سُتِرتْ[1] فيه ظهر عليه سرّها وهو : سيماء العارفين ، أو بهجة المحبين ، ومن لم تحصل له فهو مسجون بمحيطاته الجسمانية من الأكل والشرب والجماع والإقبال والإدبار ،

= وكشف هذا المعنى تمثيل له، اذ قال رحمه الله : الأنبياء عليهم السلام يطالعون بحقائق الأشياء ، والأولياء بمثلها ، والملك : عالم الحس والشهادة ، والملكوت : عالم الغيب والمعانى . والله أعلم .

ثم إذا جنحت همة المريد للمعانى تعين له أن يتوجه لأعلاها فيطلب الجنة وما فى معنـــاها ، فيقال له : اطلب أعلا مافيها ، وهى الأمور الروحانية ، لا الشهوات الجسمانية ، لأن عالم الجسم ناقص بالنسبة إلى عالم الروح . وهذا ما نبه عليه فقـال **وسعك الـكون من حيث جسمانيتك ولم يسعك من حيث ثبوت روحانيتك** : أقول : وسعك من حيث الجسمانية حساً ، لأن هواء وما فى معناه ذلك محيط بك، وقوام الجسمانية متوقف عليه ، اذ لابد لها من قـــوام ، وهو خارج منه لا عنه . وغاية الذات الجسم مقصورة على الكون لاتتعداه ، ولم يسعك من حيث الروحانية ، لأنها محل العلوم والمعارف والاسرار ونحوها باتساع النظر وغيره ، وهو أوسع من الـكون ، اذ تتعلق العلوم والمعارف بالمـكون ، فتعرفه الروح وتعلم صفاته وأسماءه وغير ذلك . وإذا كان الامر كذلك فاطلب كمال ما وسعت به الـكون ، لانه أعلا ، لا ما وسعه الـكون منك فانه أدنى ، فأنت بالروح لا بالجسم إنسان .

ثم إذا عرفت شرف الروحانيه فلتطلب أشرف متعلقاتها ، وهو فتح أبواب الغيوب ، لأن كل ما دونها راجع لأنواع المحسوسات ، كما ذكره فقـال

(الـكائن فى الـكون ولم تفتح له ميادين الغيوب مسجون بمحيطاته ومحصور فى هيكل ذاته

أقول : ميادين الغيوب . . . إلخ

(١) وفى بعض النسخ (من سرت إليه) . وفى أخرى : من سرت فيه .

ومحصور فى هيكل ذاته النفسانية بطلب الأعواض ، وَاتّباع الحظوظ والأغراض ، وإذا فتحت لك ميادين الغيوب فلْترقَ بهمتك لأعلاها ، وهو معرفة الحق سبحانه ، والكونُ به وله ، لالشيء دونه ولا لشيء سواه ، فإن كلَّ شيء دون ذلك روحانياً كان أو غيرة نقصٌ وبخس ، إذ لم يصل بالحقائق ولم يتحرر من رقّ الخلائق ، كما أشار إليه المؤلف إذ قال :

أنت مع الأكوان مالم تشهد المكون ، فاذا شهدته كانت الأكوان معك .

قلت : فَرق بين كونك مع الأكوان وكون الأكوان معك هو أنك فى الأول تنظر إليها عند إحتياجك وغيره . وفى الثانى تُعرض عنها بالإقبال على مولاك ، فمن احتاج لشيء فشغل سِرَّه به وجوداً أو عدماً وتحصيلا أو غيره ، فهو مع ذلك الشيء ؛ لأنه له .

ومن احتاج لشيء فتوجه لمولاه فى تحصيله أو نفيه ، أو نظر لتصرفه فيه ونحوه ، كان ذلك الشيء معه ، يعنى: أنه معين له على ما يريده من التوجه والإقبال على مولاه . ومادعاه لذلك إلاّ ما حصل له من الشهود. بخلاف الأوَل ؛ فإنه فى ظلمة الأسباب بالفقد والوجود ، فقد قال الشبلى رضى الله عنه : « لايخطر الكونُ ببالِ من عَرفَ المكوِّن » .

وَسئل سهيل رضى الله عنه عن القوت ، فقال : هـو الحىُّ الذى لا يموت .

فقيل : إنما سألناك عن الغذاء .!!

قال : الغذاء الذكرُ .

فقيل له : إنما سألناك عن القُوام .

فقال : القُوام العلمُ .

فقيل له : إنما سألناك عن طعمة الجسد .

قال : دع من تولاه أولاً يتوله آخراً ؛ أما رأيت الصنعة إذا عيبت ردّت لصانعها فهو العالم بإصلاحها » انتهى .

ثم هذا آخر المجاهدة فى مراتب الوجود ، وهو أول مراتب الخصوصية التى هى المعرفة والمشاهده ، وهو موقف يتوهّم فيه نفى البشرية وليس بصحيح . فلذلك تكلم عليه بأن قال :

لايلزم من ثبوت الخصوصية عدم وصف البشرية .

قلت : وإن صح وجود سترها وتغطيتها ، لأن البشرية أمر ذاتى والذاتيات لا زوال لها . والخصوصية أمر عارض ؛ والعارض لا ينفى الذاتى وإن ستره ؛ فقدم تقدّم من كلامه : (سبحان من ستر سرّ الخصوصية فى عين البشرية) ومن تقريره[1] : أن ظهور الخصوصية فى عين البشرية وسترها بها ، فانظرها هناك .

ثم ذكر مثالاً واضحاً فى معنى الخصوصية والبشرية فقال :

---

(١) وفى نسخة الدار (ومر فى تقريره . .)

انما مثل الخصوصية كاشراق شمس النهار ظهرت فى الأفق وليست منه .

قلت : فالخصوصية ظهرت فى عوالم الإنسان وليست منه ، فظهر للجاهل أنها أذهبت وجود البشرية ، كما يظن الغبى أن شمس النهار أذهبت مافى الأفق من ظلمة الليل ونحوه ، لكنها سترته بضوئها كما سترت الخصوصيةُ البشريةَ بظهورها كما قال :

تارة تشرق شموس اوصافه على ليل وجودك وتارة يقبضها عنك فيردك الى حدودك .

قلت : فإذا طلعت شمس الأوصاف عليك ظهر فيك من الغنى والعز والقدرة والقوة ما يقتضى أن العالم كلّه فى قبضتك ، ولا قدرة لشيء على مقابلتك ، وإذا ردّك إلى حدودك ظهر عليك من الفقر والذل والعجز وَالضعف ما يوجب تلاشيك ؛ فإن كنت تام العبودية أعطيتَ كلّ محل حقه ، كما فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم ،وهو العارفُ الكامل إذ شدّ الحجر إلى بطنه افتقاراً إلى الله تعالى، وأطعم ألفاً من صاع إظهاراً للغنى بالله ، وإن كانت خصوصيته لا تُزايله فالأحكام مأخوذةٌ من حركاته صلى الله عليه وسلم .

وبالجملة ، فالمدار ماختم به إذ قال :

فالنهار ليس منك اليك ولكنه واردٌ وَرَدَ عليك .

قلت : فأعطى كُلاً حقه : النهارُ بالحركة وَضده بالسكون : كما فعل الخواص رضى الله عنه ، وذلك أنه قام ليلة يصلى فجاءه الأسد فلم يحتفل به ، فلما كان من الغد سقطت عليه « بقّة » فصاح منها،فقيل له فى

ذلك ، فقال : البارحة كنت مأخوذاً عنّى ، والليلةَ مردودٌ علىّ » .

وكان بعضهم يشير إلى الحقيقة ، ثم رئى عند باب لا يصلح وقوفه به لحاجة فأنشد :

إذا كنَّا به تِهنا دلالاً   على كلّ الحرائر والعبيد
وإن كنَّا بنا عدنا إلينا   فعطّل ذُلّنا ذلّ اليهود

ثم للخصوصية بعد ثبوتها معارج تترقّى فيها هى بحسب التجليات وقد ذكرها المؤلف على مراتب فقال :

دل بوجود اثاره على وجود اسمائه .

قلت : فمن نظر اختلاف الآثار وتنوّعها دلّته على معانى الأسماء فحصل له من العرفان بذلك على قدر اتساع نظره ونور باطنه ؛ إذ يرى لكل اسم نسبة[1] ولكل نسبةٍ وجوهاً ، ولكل وجهٍ متوجّهات لا نهاية لها . ثم قال :

وبوجود اسمائه على ثبوت اوصافه .

قلت : فإذا نظرت فى الأسماء من حيث المعنى الجامع والأثر الظاهر ظهر لك أنها راجعة لأوصاف الحياة والعلم والإرادة والقدرة والسمع

---

(١) وفى التيمورية (**إذ يرى لكل اسم نسبة وجودها ولكل وجه متوجهات لا نهاية لها**) .

والبصر والكلام ؛ إذ لا يخرج عن ذلك اسم بمعناه وقصده ، فافهم .

ثم قال :

وبثبوت اوصافه على وجود ذاته .

قلت : فإذا نظرت الأوصاف دلّتك على وجود الذات، لا لمعنى منها، بل من حيث لزومها لوجودها كما بيّنه إذ قال :

اذ محال ان يقوم الوصف بنفسه .

قلت : : يعني : أو بمثله ؛ لأن المعنى لا يقوم بالمعنى ولا بذاته ؛ فمعرفة الذات من وراء معرفة الصفات ، ومعرفة الصفات من وراء معرفة الأسماء ، ومعرفة الأسماء من وراء معرفة الآثار . . هذا على الترقّي ، وهو شأن النظّار وأهل الإرادة عكس حال العارفين وأهل الجذب كما قال :

فاهل الجذب يكشف لهم عن كمال ذاته .

قلت : وذلك يعني أنه يظهر لقلوبهم من جلاله وعظمته وكبريائه ما تذهل فيه العقول والألباب ، ولا يدرك بالتعلّم والاكتساب ، فيوجب لهم تعظيما وإجلالاً وهيبة وأُنساً يغيب وجودُهم به فيه بلا علّة ولا علم يستشعر[1] .

ثم يردهم الى شهود صفاته .

قلت : وذلك بأن يشعروا أن من لازم هذه العظمة الاتصاف بعليّ

---

(١) في النسخة التيمورية (يغيب وجودهم به فيه ، ولا علم يستشعر به) .

الصفات ، فلْتلْتفتْ[١] قلوبهم إليها التفاتاً لا يحسون به حتى يجرى معناه عليهم فيحصل فرق فى عين الجمع ، وهو موضع العلم والمعرفة التفصيلية .

ثم يرجعهم الى التعلق بأسمائه .

قلت : وذلك أن حقيقة المعرفة بالصفات تسرى بهم للتفصيل فى المعانى فيقولون مثلا : قادر على الانتقام والرحمة والنفع والضر مريدٌ ذلك ، عليم به عظيم فى ذلك ، وفى حياته ورحمته وأسمائه، ثم كذلك ، فيخرج بهم تعريف الأسماء من الصفات .

ثم يردهم الى شهود اثاره .

قلت : بأن يسرى لهم من كل اسم ظهور نسبته فى الوجود ، فينظرون آثار الرحمة متنوعة ، ووجوه الانتقام متعددة ، وكذا سائر الأسماء مع التداخل ، فينظرون الخلق بما أدى عليهم الحقُّ ، وحينئذ لا يهملون حكمه ، ولا يُفْردون حكماً ويدخلون الشريعة من عين الحقيقة .

هذا مع أنهم لم يفارقوها فى حالٍ ، لكن بساط التوجه مختلف

(١) وفى نسخة الدار (فتلتفت) .

يعرف ذلك من نازله ، ويفهمه من تحقق ، وربك الفتاح العليم ، ثم قال :

والسالكون على عكس هذا .

قلت : يبدو لهم اختلاف النسب[١] ، ثم يظهر استناد كل نسبة لاسم من الأسماء أو لمعنى من معانيه ،

ثم يبدو أن كل الأسماء راجعة للصفات ، ثم يظهر لهم من الصفات عظمة الذات الكريمة وهى غايتهم . كما قال :

فبداية المجذوبين نهاية السالكين ،

وبداية السالكين نهاية المجذوبين .

قلت : المجذوب : هو : المأخوذ من نفسه إلى حضرة الحق لا بترتيب ولا تدريج .

والسالك ، هو : الواصل لها بترتيب وتربية .

وكلٌ منهما له حظ مما لصاحبه . وإنما اختلف البساط فقط فى كل مجذوب سالك ، ولولا ذلك لكان زنديقاً ، وكل سالك مجذوب ؛ إذ لولا عناية الله له ما أخذ فى السلوك ، وقد قال تعالى (اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ)[٢]

---

(١) وفى نسخة الدار (قلت : يبدو لهم اختلاف الآثار فيعلون به اختلاف النسب) .

(٢) آية ١٣ من سورة الشورى .

ثم هما وإن اختلفا فى البداية والنهاية فقد اتّفقا فى معنى التحقيق .

وهذا ما نبّه عليه بأن قال :

لكن لا بمعنى واحد .

قلت : يقول : لكن المعنى الذى دخل به المجذوب إلى الآثار ليس هو المعنى الذى خرج عنه السالك لأجله ، بل خروج السالك عنه بربّه لربّه ودخول المجذوب فيها بربّه .

وبحسب هذا فهُما بين داخل وخارج أبداً .

وقد تقع لهما المواطأة فى موقفٍ ما كما قال :

فربما التقيا فى الطريق .

قلت : يعنى ، فى منزل من منازلها ، فيكون هذا مجذوباً فى مشاهدة الصفات نازلاً ، والسالك فى مشاهدتها صاعداً ، وكذلك فى مشاهدة الأسماء فيتفق علمهما ومنازلتُهما ، ويختلف بساطهما وتوجههما ولا يمكن فى محل التحقيق إلاَّ اختلافهما مع الاتفاق[1] فى المقصد وهو أمر يعرفه أرباب المنازلات ، فلا يدرك منه بالتعبير إلاّ طرف يسير ، والله أعلم . ثم قال :

هذا فى تدليه وهذا فى ترقيه .

قلت . يعنى : أن التقاءهما لا يخرج أحداً منهما عن حكم طريقه ،

---

(١) وفى نسخة الدار (ولا يمكن فى محل التحقيق إختلافهما مع الاتفاق فى المقصد : الخ . .) .

بل يكون هذا في تدلّيه من الحقيقة إلى الحكمة هذا فى ترقّيه من الأغيار إلى الحقيقة . وكلّ على كماله وبالله التوفيق .

وعلامه التحقق فى هذه المنازل إنما تظهر فى الإيمان باليوم الآخر؛ فلذلك قال :

لا يعلم قدر أنوار القلوب والأسرار الا فى غيب الملكوت كما لا تظهر أنوار السماء الا فى شهادة الملك

قلت : أنوار القلوب والأسرار : ما يظهر فيها من المعارف والعلوم ونحوها . . وغيب الملكوت : ما خفى أدراكه من حيث الأحكام العقلية ، كما أخبر به الشارع صلى الله عليه وسلم من أمر الدنيا والآخرة ، لأنه لا يعرف تحققّه إلاّ منه ، وبه تظهر قوة الإيمان ونور القلوب ونحوهما ، فمن كان إيمانه بالغيب أكمل وأحكم كان نوره وإيمانه أتمّ ، ومنَ لا فلا ، فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لحارثة حين قال « أصبحتُ مؤمنا حقاً » : لكل حقّ حقيقة ، فما حقيقة إيمانك ؟ : فقال : كأنى بعرش ربى قد نُصب ، وكأنى بأهل الجنة فى الجنة يتنعّمون ، وبأهل النار فى النار يتعاوون ، فقال عليه الصلاة السلام : عرفتَ فالزم ، عبد نوّر الله قلبه . . الحديث) فجعل إيمانه بالآخرة حقيقة إيمانه ، وشهد له بالمعرفة والتنوير . فافهم .

فأنوار السماء نجوم وأقمار وشموس . .

وأنوار القلوب علوم ومعارف ، فأُفُق هذه مواضع ظهورها ، وأُفق تلك مواضع وجودها .

ومما تظهر فيه أنوار القلوب وجودُ المعاملات وهي أيضاً أُفق يبدو فيها من الثمرات ، وثمراتها أفق لما يرجّى من قبولها فلذلك أتبع المسألة بأن قال :

وجدان ثمرات الطاعة عاجلا بشائر للعاملين بوجود الجزاء عليها اجلا .

قلت : وجدان ثمرات الطاعات : ما ينشأ عنها مما هو ملابس أو مفارق ، كالحياة الطيبة ، وسقوط الخوف والحزن بالسكون إلى الله تعالى ، وظهور الجلالة[1] بنفوذ الكلمة ، ونحو ذلك مما تقدّم ذكره ودليله عند قوله (من وجد ثمرة عمله عاجلاً فهو دليل على وجود القبول آجلاً) .

والبشارة : الخبر الصادق ، وأكثر استعماله فى الخير ، وفى الخبر : « بشّروا ولا تنفروا » وهى تدل عليه ولا توجبه .

وإنما كانت بشارة الجزاء لأنها كرامة من الحق سبحانه ، والكريم إذا أعطى كمّل ، وإذا خوّل نوّل .

ثم مع هذا كلّه فالجزاء وإن كان موعوداً لا ينبغى أن يكون بالعمل مقصوداً لذاته ؛ لأن الوعد من بساط الكرم ، والقصد من جود[2] مقابلة فضله وكرمه بأفعالنا ، وهو إساءة أدب . وهذا ماتوجّه له بأن قال :

---

(١) فى نسخة الدار : الخلافة .

(٢) وفى نسخة : من وجوه .

أم كيف تطلب العوض عن عمل هو متصدق به عليك .

قلت : ولو لم يتصدّق به عليك كنت محتاجاً إليه مع عجزك عن تحصيله ، فهو قد دخل عليك من بساط افتقارك فلا يصحّ لك أن تستغنى به عمن أعطاك إياه ، فضلاً عن أن تطلب العوض منه « بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلإِيمَانِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ »(1) .

ثم طلب العوض يفتقر لسلامة المعوَّض من الآفات والعلل ؛ وميزان أعمالك ما يليق بأفعالك ، فإن صدقت فى توجهك فصدقك هدية منه لك ، وذلك لا يصح معه طلب الجزاء كما قال :

ام كيف تطلب الجزاء على صدق هو مهديه اليك .

قلت : والفرق بين الهدية والصدقة ثلاثة أمور :

أحدها : أن الهدية لا تكون إلا بالشىء النفيس والصدقة تكون بكل شىء .

الثانى : أن الهدية للمحبوبين والصدقة للمحتاجين .

الثالث : أن الهدية كرامة ، والصدقة مرحمة ، وبهذا يظهر لك أن العمل آكَدُ من الصدق والصدق أنفس من العمل ، وقد قال عليه السلام (إنما أنا رحمة مهداه) فقد قال الشيخ أبو العباس المرسى رضى الله عنه : «الأنبياء لأممهم عطية ، ونبينا صلى الله عليه وسلم لنا هدية ،

---

(1) آية ١٧ من سورة الحجرات .

وفرق بين الهدية والعطية : الهدية للمحبوبين والعطية للمحتاجين ».

ثم الناس فى التوجّه بالذكر الذى هو روح العمل قسمان ذكرهما المؤلف بأن قال :

قوم تسبق اذكارهم انوارهم ، وقوم تسبق انوارهم اذكارهم ، وذاكراستنار قلبه فكان ذاكرا .

قلت : فالذى يسبق ذكرُه نورَه هو الذى ذكر ليستنير قلبه ، وهو السالك الطالب .

والذى يسبق نوره ذكره هو الذى صار ذاكراً اضطراراً لقوة الوارد عنده : وهو المجذوب الواصل . وقد ذكر هذا المعنى حيث قال (اهتدى الراحلون له بأنوار التوجُّه ، والواصلون لهم أنوار المواجهة ، فالأولون للأنوار ، وهؤلاء لا أنوار لهم ، لأنهم لله لا لشيء دونه) وقد قال الشيخ أبو العباس المرسى رضى الله عنه : « قوم وصلوا إلى كرامة الله ، وقوم وصلوا لطاعة الله بكرامة الله » .

وقال شيخنا أبو العباس الحضرمى رضى الله عنه : (التفرقة مع الجمع أقوى مقاماً من الجمع مع التفرقة) انتهى .

وفى هذا الكلام دلالة على أن المجذوب أفضل من السالك ، وللناس فيـه كلام ذكره فى « لطائف المنن » ورُجّح أنه أتمّ فانظره ، وبالله التوفيق .

ثم ذكر أن كل مجذوب سالك ، وكل سالك مجذوب ، فقال :

ما كان ظاهر ذكر الا عن باطن شهود وفكر .

قلت : فالذاكر يستنير قلبه ولا تجلّى الحقيقة لقلبه ما آثر الذكر لاستنارته ، ولولا فكرته التى حصلت له ما توجّه لذلك .

والذى قد استنار قلبه إنما هو من مشاهدة الحق به ، وما كان ذاكراً إلاّ لداعية الفكر الحاصلة له ، فلا بدّ لكلٍ من شهود وفكر ، إلاّ أن الأول فكره أصل ، وشهوده تابع ،وبالعكس الآخرُ ، والله أعلم .

ثم الذكر والفكر إنما هما جاريان عن الحقيقة المودعة فى أصل النشأة حيث الميثاق ، وهذا ما ذكره المؤلف بأن قال :

اشهدك من قبل ان استشهدك .

قلت : فشهودك[١] موجود من قبل أن استشهدك على أنه ربك ، وذلك يوم الميثاق[٢] « يوم ألست بربكم » لأن هذا خطاب مواجهة ومعاينة تقتضى الإشهاد والإستشهاد فوقعت الإجابة إذ ذاك بقوله « بَلَى » أى أنت ربُّنا ، كما نبّـه عليه المؤلف إذ قال :

---

(١) وفى نسخة التيمورية (قلت : أشهدك وجوده من قبل أن استشهدك على أنه ربك . .) .

(٢) هو الميثاق الربانى الذى أخذه الله على الناس جميعاً ، وهم فى ظهر الغيب ، وفى ظهور آبائهم فى اللحظات الاولى عند بدء الخليقة ، وعند ظهور البشرية لتؤمن البشرية بوجوده وتعترف بألوهيته ، عن ذلك يقول القرآن (وإذ أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى شهدنا) آية رقم ١٧٢ الاعراف .

فنطقت بالاهيته الظواهر .

حيث قالت « بلى » قال ابن عباس رضى الله عنه : ولو قالوا « نعم » لكفروا ؛ لأنه جواب النفى المقتضى لإثباته ثم قال :

و تحققت باحديته القلوب والسرائر .

قلت : لما عاينت من جلاله وعظمته وكبريائه عند إشهاده فتمّت حجته تعالى على الجميع فى الحال واستمرت بإثبات ذلك فى وجودها إلى مالايزال. وعليه وقع التقرير[1] بقوله الكريم : (ثم شهدنا أن تقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين ، ويقولوا إنما أشرك آباؤنا . . الآية).

ولذلك لم يمكن أحدٌ الشكّ فى بارئه ، ولم يُعْذَر كافرٌ بجحده[2] على معنى أن العلم بوجوده مذكور فى الجبلّة (وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللهُ) (وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللهُ) (أَفِى اللهِ شَكٌّ) (ما من مولود إلاّ يولد على الفطرة . . الحديث)[3] .

ثم فى حصول الإشهاد والإستشهاد والشهادة ظهر التكريم

---

(١) وفى نسخة (التقدير) .
(٢) وفى نسخة : بحجة .
(٣) يشعر سياق المؤلف أنه يفسر الفطرة بأنها الإعتراف بوجود الخالق .

بذكره على وجوه ثلاث ذكرها المؤلف بأن قال :

أكرمك بكرمات ثلاث : جعلك ذاكرا له ولولا فضله لم تكن أهلا لجريان ذكره عليك.

قلت : الكرامات الثلاث كلها في ذكره ؛

الأولى ذكرك إياه ، وهو لا يليق بك من حيث أنت ، ولا تقدر على تحصيله لنفسك ، فحصوله منّة منه وفضل ، ومَن أنت حتى تكون محلاً لذكره أو موضعاً لتوفيقه لولا فضله وإحسانه ؛ وقد قال تعالى (وَلَوْلا فَضْلُ اللهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مازَكَى مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَداً)(١) وقال عزّ وجل (وَلَوْلَا فَضْلُ اللهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَاتَّبَعْتُم الشَّيْطَانَ إلاَّ قَليلاً)(٢) وقال عزّ من قائل (وَلَوْلَا فَضْلُ اللهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وأَنَّ اللهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ)(٣) إلى غير ذلك .

ثم ذكر القسم الثانى فقال :

وجعلك مذكورا به اذ حقق نسبته لديك

قلت : وذلك أنك مذكورٌ به ومنسوب إليه في مواقف ثلاث :

موقف الخلق ، والإختراع ، والإيجاد والإبداع ، وبه يقال : أنت عبد وهو ربّ ، ومن أنت حتى يكون لك ذلك ، وموقف الستر والتجميل والإمداد ، وبه يقال هو معطى وأنت معُطىَ ، وهو منعِم وأنت منعَم عليك ، وموقف التوفيق والهداية وبه يقال أنت موفَّق وهو مُوفِّق

(١) آية ٢١ من سورة النور .
(٢) آية ٨٣ من سورة النساء .
(٣) آية ١٠ من سورة النور .

وهو هادٍ وأنت مهدى ، ومن أين لك ذلك لولا نسبة فعله بك فى المواقف الثلاث .فافهم ثم ذكر القسم الثالث . فقال :

وجعلك مذكورا عنده فتمم نعمته عليك :

قلت : مذكوراً عنده بالتوفيق أولاً ، ثم بالثناء آخراً ؛ إذ قال تعالى : (اذكرونى أذكركم) « ومن ذكرنى فى ملإٍ ذكرته فى ملإٍ خيرٍ منه » . .

وأىّ نعمة أعظم من ذكر الحق لعبده ، قال الله تعالى (ولذكر الله أكبر) .

قيل : ذِكر الله عبده أكبر من ذكر العبد ربّه .

وقيل : ذِكر الله فى الصلاة أكبر من ذكر الصلاة .

وقيل : ذِكر الله بالتوفيق لها أكبر منها .

وقد قال يحيى بن معاذ الرازى رضى الله عنه : ياجهول ، يا غفول ، لو سمعت صرير القلم يذكرك فى اللوح لطبتَ طرَبا » انتهى .

ثم ذكر وجها يترجّح به المجذوبُ على السالك ويظهر به أن البركة فى العمر خيرٌ من طوله ، ولا بركة إلا بذكر ومعاملة فقال :

رب عمر اتسعت اماده وقلت أمداده :

قلت :وذلك كأعمار بنى إسرائيل الطويلة ، تعبَّدوا أو لم يتعبدوا ؛

لأن هذه الأمة تفضُلهم المتعبد للمتعبد ، وغيره لغيره ، وكعمر السالك بالنسبة إلى عمر المجذوب إذا اتحد توجههما ، ثم قال :

ورب عمر قلية اماده كثيرة أمداده .

قلت : كأعمار هذه الأمَّة ، متعبِّدهم وخليهم فى مقابلة من مضى من الأمم ، وكذلك المجذوب فى مقابلة السالك إذا اتحـد بساطهما . وقد قال أحمد بن أبى الحوارى : دخلت على أبى سليمان الدارانى رضى الله عنهما فقال لى : ما جئت به يا أحمد ؟

قلت : غبطتُ بنى إسرائيل .

قال : بماذا ؟

قلت : بثمانمائة عام حتى يصيروا كالأوتار ، والحنايا ، وكالشنان[1] البالية من العباده .

فقال : ما ظننتك قد جئت بشىء ! ! والله ما يريد منا أن تيْبسَ جلودُنا على عظامنا ، ولا أن نصير كالأوتار وكالحنايا ، وكالشنان ، فلا يريد إلاّ صدق النيّة ؛ هذا إذا صدق فى عشرة أيام نال ما ناله ذاك فى عمره طويل » انتهى وهـو عجيب . فإذن العبرة ببركة العمر ، لا العمر ، وهذا ما نبّه عليه إذ قال :

---

(١) الشن : الجلد البالى والجمع شنان بكسر الشين .

من بورك له فى عمره أدرك فى يسير من الزمن من منن الله تعالى ما لا يدخل تحت دوائر العبارة ولا تلحقه الاشارة :

قلت : البركة : الخير المتدارك ، وبركة العمر بالأعمال والأحوال والعلوم والمعارف ، وذلك لا يحصل ألا عن جمع وتحقق ، وعلى نحو هذا قال شيخنا أبو العباس الحضرمى رضى الله عنه : «من كان[1] يستمد ماشيء ماشيء عدم عدم عدم وجود وجود وجود ، والله أعلم» انتهى.

وإنما لا تدخل تحت دوائر العبارة لرقته واتساعه ولا تلحقه الإشارة للطافته وخفائه .

وإذا كان ما عند الله بهذه المثابة فالقعودُ عنه من الخذلان لا سيما مع التمكن والإمكان . وهذا ماتوجّه له إذ قال :

الخذلان كل الخذلان أن تتفرغ من الشواغل ثم لا تتوجه اليه وتقل عوائقك ثم لا ترحل اليه .

قلت : الخذلان : صرف الإعانة فى مواقف الرشد . والفراغ من الشواغل والشواغب التى هى العوائق أصل كبير فى تحصيل الفوائد فإذا حصل السبب ولم يوجد المسبب فذلك دليل على الحرمان ؛ لذلك قال صلى الله عليه وسلم : « نعمتان مغبون فيهما كثير من الناس : الصحة والفراغ »[2] يعنى أن الصحيح ينبغى أن يكون مشغولاً بدين

(١) وفى التيمورية : (من كان يستمد من محبرة الجمع فهو يكتب ما يكون وما لا يكون : طويل طويل طويل ، قصير قصير قصير ، بشيء بشيء بشيء ما شيء ما شيء ما شيء عدم عدم عدم وجود وجود وجود والله أعلم) .

(٢) رواه البخارى والترمذى وغيرهما عن ابن عباس رضى الله عنهم .

أو دنيا لتهيء الأمر له ، فإذا كان فارغاً فهو مغبون فيما عنده من الصحة إذْ ذهبت به فى لاشىء . وهذا أحد التأويلين للحديث وقد قال الأستاذ أبو القاسم القشيرى رضى الله عنه : « فراغ الوقت من الأشغال نعمة عظيمة ؛ فإذا كفر العبد هذه النعمة بأن فتح على نفسه باب الهوى وانجر فى قياد الشهوات شَوّش الله عليه نعمة قلبه وسلبه ما كان يجده من صفاء قلبه » انتهى وعليه يدور التأويل الآخر فى الحديث .

وإن كثيراً من الناس قد فقد الصحة والفراغ فمن وجدهما فليشكر الله بالعمل الصالح ، فإن لم يشكر فهو مخذول والعياذ بالله .

ثم التوجّه والرحيل إنما هو بالفكرة فى أسباب الانزعاج ، ثم فى وجه التوجّه ، ثمَّ فى عظمة المتوجَّه إليه ، وذلك بالنظر فى المخلوقات بحسب ما تعطيه القوة المودعة والوارد ؛ فلذلك قال :

الفكرة سير القلب فى ميادين الأغيار .

قلت : الفكرة هنا : التَفكّر . والمقصود استعمال الفكر فى استخراج المعلومات ، فهى سيرْ القلب ، أى : مشيُه وانتقاله بالنظر فى ميدان : أى مواقف الأغيار : أى المخلوقات فالقلب يسير بفكره فى الخلائق على حسب مرائيه ، فتارة يفكّر فى وجودهم فيهديه لوجدهم ، وتارة يفكر فى موجدهم فيهديه لتركهم والإقبال عليه ، وتارة يفكِّر فى معاملتهم فينظر فيها على وجه يليق به وبهم ، وتارة

يفكّر فى موجدهم وما أجرى عليهم فيهديه ذلك لعظمته برؤية ماله فيهم .

وفى بعض النسخ « فى ميادين الاعتبار » بالتاء والموحدة ، وهو ظاهر ، وكذلك فى بعضها « سبر »[1] بالباء الموحدة ، ويصلح مع الأول والثانى فتأمله .

ومجارى الفكر أربعة ، قد تقدمت أول الكتاب ، وقد قال الحسن رضى الله عنه : « الفكرة مرآة حسنة تُريك حُسنك من سيئك » وقال الجنيد ، رحمه الله : « أشرف المجالس وأعلاها الجلوس مع الفكرة فى ميدان التوحيد » انتهى .

ولعل هذه الفكرة التى ساعة منها تعدل عبادةَ سبعين سنة ، كما فى الحديث ، ثم قال :

الفكرة سراج القلب .

قلت : مصباحُه الذى يمشى به فى ظلمة الأغيار فيرى المنافع والمضار ، ويبصر الحق والحقيقه أتمّ إبصار ، بها يصل إلى الإيمان ، وبها ينتهى إلى العرفان ، وبها يترقى فى درجات الإسلام والإيمان والإحسان ؛ ولذلك قال كعب الأحبار ، رضى الله عنه : « من أراد شرف الدنيا والآخرة فليكثر التفكّر » .

---

(١) أى : الفحص والاختبار .

وقد قال الشيخ أبو الحسن الشاذلى رضى الله عنه : « الطريق القصد إلى الله تعالى فى أربعة أشياء مَن حازهنَّ فهو من الصِّدِّيقين ، المحقّقين ، ومن حاز ثلاثاً منهن فهو من أولياء الله تعالى المقرّبين ، ومن حاز اثنتين فهو من الشهداء الموقنين ، ومن حاز واحدة منهن فهو من عباد الله الصالحين :

أولها : الذكر ، وبساطه : العمل الصالح ، وثمرته النور .

الثاني : الفكر ، وبساطه : الصبر ، وثمرته : العمل .

الثالث : الفقر ، وبساطه : الشكر ، وثمرته : المزيد منه(١) .

الرابع : الحب ، وبساطه : بُغْضُ الدنيا ، وأهلها ، وثمرته الوصلة بالمحبوب » انتهى ، وهو جامع لأصول الخير وغاية التحقيق .

ثم ذكر ما يوجب فقد الفكرة ، فقال :

فاذا ذهبت فلا اضاءة له :

قلت : وإذا لم تكن له إضاءة صار شبه الأعمى : تارة يخطىء وتارة يُصيب فيفوته السيْر وينتفى عنه الخير فلا يهتدى سبيلاً ولا يقيم دليلاً ، « وَمَنْ لَمْ يَجْعلِ اللهُ لَهُ نُوراً فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ »(٢) .

---

(١) يريد الافتقار إلى الله ، وهو الشعور الإيمانى بأن الله سبحانه هو وحده الناصر والمعين والموجد والرحيم والرازق . . . وهكذا يصبح الشعور بالأسماء الآلهية حقيقة واقعة ، وتلك منزلة من أسمى المنازل الإيمانية .

(٢) آية ٤٠ من سورة النور .

وإنما كانت كذلك لوجوه ثلاثة :

أحدها : أنها تبيّن عن الحق من وجهه ، وعن الباطل من وجهه ، فتدعو للاقبال على الحق والإدبار عن الباطل .

الثانى : أنها تريك الحقيقة تبيانًا حتى كأنك ترى الحق عيانًا ، وفقدها لا يصح معه ذلك .

الثالث : أنها تريك كمالك من نقصك ، وحبيبك من عدوّك بشواهد ما يجرى عليك وعلى غيرك ، وإذا فقدتها كنت خليًا عن ذلك ، هذا مع أنه لا سلوك ولا سير ولا حقية ولا طريقة ولا علم ولا عمل ولا معرفة إلا بها .

ثم هى على قسمين ذكرهما المؤلف بأن قال :

الفكرة فكرتان : فكرة تصديق وإيمان ، وفكرة شهود وعيان .

قلت : وكل من الفكرتين ينقسم إلى قسمين ؛ لأن إضافة كل منهما لما أضيف له إمّا باعتبار أنه بساطه ، أو باعتبار أنه نتيجتُه ، أو باعتبارهما معاً . وهذا أو فى وإن كان كلٌّ صحيح ، فهى إذن أربعة :

أولاها : فكرة تفيد التصديق والإيمان وتجرى فى دلائل الصنع طلباً لبرهان الحق وبيان الوجه فيه .

الثانية : فكرة تفيد التصديق والإيمان ، وهى الفكرة فيما دلّ عليه من لوازمه بعد تحققه ؛ كالفكرة فى عظمة الله وشرف نبيّه ، وما جاء من أمر الدنيا والآخرة مما كان ويكون .

الثالثة : فكرة تُفضى إلى الشهود والعيان ، وهى الفكرة فيما يهدى لذلك من عظمة الله سبحانه ، ووجوه التصريف الجارى فى خلقه بحكمه وحكمته .

الرابعة : فكرة ناشئة عن شهود الحقيقة ومعانيها ، ومرجعها لجولان القلب فى بساط التعظيم والإجلال ، ثم الشهود من إشهاد المشهود وكشف الوجود حتى يرى كلاً بحكمته على وجه لا تقدير فيه ولا قياس .

والعيان رتبةٌ وراء الطمأنينة والبيان . مدارها على تحقق الأمر حتى كأنه رأى العين ، فلا يحتاج إلى دليل ولا برهان ، حتى لقد قال قائلهم مخبراً عن نفسه :

كَبر العيان علىّ حتى أنه ... صار اليقين من العِيان توهّما

ثم لكل فريق طريقٌ . ومدارهم فى ذلك على صادق أو صديق ، كما بينّه المؤلف إذ قال :

فا لأولى لأرباب الاعتبار :

قلت : من السالكين ، والمريدين ، والعاملين من المتوجّهين ، والنظّار العاملين على قوله تعالى ﴿ قُلِ انْظرُوا مَاذَا فِى السَّمَوٰاتِ والأرضِ ﴾[1] ﴿ أوَلَمْ يَنْظرُوا فِى مَلَكُوتِ السَّمَوات وَالأرضِ[2] ﴾

(١) آية ١٠١ من سورة يونس .
(٢) آية ١٨٥ من سورة الأعراف .

﴿أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَت﴾[1] فيعتبرون بوجودها من حيث هى، ثم يعتبرون بوجدها من حيث حسن فعله فيهديهم ذلك لجمال وصفه، ثم لم يزالوا كذلك حتى يهتدوا لمعرفته بما أعطاهم من قوة النظر فى ملكه، ثم قال :

والثانية لأرباب الشهود والاستبصار :

قلت : يعنى الذين شاهدوا الحق فعرفوه ، واستبصروا عن التحقيق فأبصروه ، فكانوا يمشون فى الخلق تارة بنور الحق وتارة بنور الحقيقة .

قال شيخنا أبو العباس الحضرمى ، رضى الله عنه : « وهؤلاء هم أهل هذه المرتبة ، هم القائمون بالله فى كل شىء ، وهم معدن أسرار الله فى الخليقة ، وعلومهم ومعاملتهم قد ارتفعت عن حجب التقصير والأوراد ، هممهم قد خرقت حجب أنوار التوحيد ونفذت بصائرهم بالنظر فى حقائق تجريد التجريد[2] ، فأنوارهم قد غلبت[3] أنوار الوجود ، وسرهم قد ظهر منه شعاع لبعض خواص أهل الشهود ؛ فهم شاهدون مشهدون » وهو الغاية فى بابه وبالله التوفيق .

---

(١) آية ١٧ من سورة الغاشية

(٢) وفى التيمورية (فى حقائق بحر التفريد) .

(٣) وفى التيمورية (قد علت) .

تنبيـه :

هذا آخر أبواب الكتاب : ولم يبق بعده إلاّ أبواب «المكاتبات» تجرى مجرى الجامع للكتاب ، وآخرها « مناجاة » فتمَّ الكتاب بأبوابه .

وما يُذكر بعدُ واحداً وثلاثين باباً ، وربّما زاد بعض الناس أبواباً ، وبعضهم تراجم ، ولا يصح شيء من ذلك .

والله أعلم .

وقال رضى الله عنه ، مما كتب به لبعض أخوانه :

قلت : وهذا كتاب متضمّنه السّير والسلوك إلى حضرة ملك الملوك فذكر فيه بداية البدايات ونهاية النهايات ، بعبارة فصيحة ، وإشارة أبدع فيها غاية الإبداع ، وأتى فيها بما يثلج الصدور ، ويبهج به الأسماع .

وافتتحها بإن قال :

اما بعد ، فان البدايات مجلات النهايات .

قلت : المجْلات : بفتح الميم وسكون الجيم ما يتجلّى فيه الشيء : أى يظهر فيه ظهور الصور فى المرآة .

وقد مرّ من كلام المؤلف [من علامات النجح فى النهايات الرجوع إلى الله فى البدايات ؟ ومن أشرقت بدايته أشرقت نهايته] وهو معنى ما هنا .

والمقصود : من كانت بدايته أجمل كانت نهايته أكمل ..

من كانت بدايته أصح كانت نهايته أوضح . .

وعلى قدر أهل العزم تأتى العزائم . . . ثم قال :

وان من كانت بالله بدايته كانت اليه نهايته .

قلت : وهذا إفصاح بعين المقصود ، وهو أن من دخل الأشياء بالله كانت نهايته فيها إلى الله تعالى ، فمن كانت بدايته بالتفويض إلى الله كانت نهايته بالرضا عن الله . .

ومن كانت بدايته بالتوكل على الله ، كانت نهايته بالرجوع إلى الله . .

ومن كانت بدايته بالاستعانة بالله كانت نهايته بحسن الظن بالله . .

ومن كان لله كان الله له . .

ومن كان فى الله تلفه كان على الله خلفه . .

ومن كان لغير الله كان ذلك الغير حظه من الله ، كما فى الصحيح من قوله عليه السلام (. . فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله ..[1] الحديث) .

---

(١) هذه فقرة من الحديث الصحيح الذى رواه البخارى وغيره عن عمر رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرىء ما نوى . فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله، =

ثم التّوجهّ للشيء على قدر شغل القلب به ، وهذا ما بينه بأن قال :

والمشتغل به هو الذى أجبته وسارعت اليه .

قلت : يقول : إن القلب والجوارح لا يشتغلان بشيء ألاّ بعد حبهّ ، وعلامة ذلك المسارعة إليه بغير توقّف ، فما قصّر جسم عن همتّه(١) فأوّل السلوك تمكنّ محبَة المولى من القلب حتى لا يلتفت إلى غيره ، فيكون العبد به وله ، لا باختيار من نفسه ؛ ولذلك قال الشيخ أبو محمد عبد السلام للشيخ أبي الحسن رضى الله عنهما : عليك بوردٍ واحد : إسقاط الهوى ، ومحبة المولى ، أبتِ المحبة أن تستعمل محباً لغير محبوبه » انتهى .

ثم الإنصراف عن الشيء على قدر الاشتغال عنه بمقابله . وهذا ما نبهّ بذكره بأن قال :

والمشتغل عنه هو المؤثر عليه .

قلت : المؤثَر عليه : بفتح الثاء هو الذى أثر عليه غيره ، وليس إلاّ ضدّه أو نقيضيه ، فإذا أردت اشتغال عوالمك عن شيء فآثر عليه مقابله ، لكي يكون لك خلف منه ، فتنساه ، فمن آثر الآخرة ترك الدنيا ، ومن آثر الله على حظوظه تركها . ومن آثر العبودية لله نسى حظوظ نفسه ، فالمؤمن يشغله الثناء على الله عن أن يكون لنفسه شاكراً ،

=ومن كانت هجرته لدنيا يصيبها أو امرأة ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه .

(١) وفى نسخة (عن همه) وفى نسخة الدار : (فما قصم جسم عن همته) .

وتشغله حقوق الله عن أن يكون لحظوظه ذاكراً . وفيما أوحى الله إلى بعض أنبيائه عليهم السلام : « إن كنت تحبنى فأخرج حبّ الدنيا من قلبك ، فإنهما لا يجتمعان فى قلب أبداً » انتهى .

وأولى ما شغل به القلبُ جناب الحق ، وبساط ذلك : العلمُ بأنه طالب تعبّده ، كما قال :

ومن ايقن أن الله يطلبه صدق الطلب اليه .

قلت : على حسب ما أيقن به من طلبه ، فمن أيقن أن الله يطلبه لعبوديته صدق الطلب إليه فى عبوديته .

ومن أيقن أن الله يطلبه لقربه صدق الطلب إليه فى وجود قُربه ،

ومن أيقن أن الله يطلبه لجنته صدق الطلب إليه بالعمل فى تصديق كلمته ،

ومن أيقن أن الله يطلبه لحقوقه صدق الطلب إليه لتحصيل سلامته ،

ومن أيقن أن الله يطلبه لكرامته صدق الطلب إليه فى تحقيق كرامته .

وصِدق الطلب يكون بثلاث :

حسن العمل ، ودوام اللجوء ، وصدق التوكّل وهو أصلها .

وأصله العلم باتساع علمه وقدره تعالى ، كما نبّه عليه المؤلف إذ قال :

ومن علم ان الأمور بيد الله انجمع عليه بالتوكل .

قلت : ورجع بالتفويض إليه ، فالتفويض أصل التوكل، والتوحيد أصل التفويض ، وهو العلم المتمكّن من الصدر بأن الأمور كلّها دقيقها وجليلها بيده تعالى يعطى من يشاء ما يشاء ، ويمنع من يريد مما يشاء، لا معقّب لحكمه ، ولا رادَّ لأمره ، ما شاء كان ، وما لم يشأْ لم يكن ، فهو المقصود بكل حال والمشار إليه بكل معنى . قال أبو الحسن رضى الله عنه : « قف بباب واحد ـ لا لتفتح لك الأبواب ـ تُفتحْ لك الأبواب ، واخضع لملك واحد ـ لا لتخضَعَ لك الرقاب ـ تَخضعْ لك الرّقاب ، قال تعالى(وَإنْ مِنْ شَيْءٍ إلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ) اهـ .

فإذا اشتغلت عوالمك بالصدق والتوكل فاشغلها عن الدنيا وأهلها بذكر فناء[1] ذلك وزواله ، وهذا ما نبّه عليه المؤلف إذ قال :

وانه لا بد لبناء هذا الوجود ان تنهدم دعائمه وان تسلب كرائمه.

قلت : وهذا أمر محقَّق لا بدّ منه ، والآتى قطعاً كالموجود فى الحال، ولا سيما وأسبابه متصلة وآثاره ظاهرة ، فما من مخلوق إلاّ وقد ظهرت فيه مخايل الفناء ، وما من جديد إلاّ وقد حلّ به البلى، وما من قوىٍّ إلاّ

---

(١) وفى نسخه الدار (تدرفناء ذلك)

وَيَعْتَرِيه الضعف ، ثم كذلك ، ويكفى فى وجود[1] الإنسان قول الله تعالى (اللهُ الَّذِى خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفاً وَشَيْبَةً)[2] فلا بدَّ لكل دعامة من انحلال ، ولا بد لكل كريمة من زوال ، وكل شىء هالك إلاَّ وجهه له الحكم وإليه ترجعون :

وإن كان كذلك فحقٌّ على كل عاقل احتقارُ أمره ، وتعظيم بارئه ، وفرحه بما عنده، بدلاً مما بيده ، كما نبه عليه إذ قال:

والعاقل من كان هو بما هو أبقى افرح منه بما هو يفنى .

قلت : العاقل: من قام به العقل ، وهو القوة المستعدة لإدارك الأشياء على ما هى عليه ، ومن ذلك أن الباقى خير من الفانى ، وأن الأبقى خير من الباقى ، وإذا أدرك ذلك فرح به ضرورة ، وفرحه يستدعى إيثاره بترك ماهو ضدٌّ له ، فالدنيا فانية حقيرة ، وما عند الله خير وأبقى للذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون ، فلذلك قال سهل بن عبد الله رضى الله عنه: « للعقل ألف اسم ، وأوَّل كل اسم منه تركُ الدنيا » اهـ .

ثم هذه الثلاث ، التى هى : الصدق والتوكل وترك الدنيا دليل على تنوير الباطن كما قال :

---

(١) وفى نسخة الدار (وما من قوى إلا ويعتريه الضعف ويكفى فى وجوده فى الانسان قوله تعالى. . . الخ) .

(٢) آية ٥٤ من سورة الروم .

فقد أشرقت نوره وظهرت تباشيره

قلت : أشرق نوره : إذْ رأى كلَّ شيء على حقيقة من الآخرة والدنيا، وأن الأمر بيد الله ، وأنه يطلبه فظهرت تباشيره بأحكام البدايات ؛ إذ صَدق الطلب لمولاه ، وانجمع بالتوكل عليه ، فلم يعرف إلاّ إياه ، وترك الدنيا لأهلها من غير التفات لها ، ولا تعريج عليها ، كما ذكره المؤلف إذ قال :

فصدف عن هذه الدار مغضيا واعرض عنها موليا .

قلت ، صدف : أعرض عن هذه الدار ، يعنى الدنيا وما فيها من أهل ومال وغيره . مغضياً : أى : غاضاً طرفه ، أى : مغمضاً له تأكيداً فى الإعراض مع هروبه وتوليّه عنها ، لما رأى من قبحها ، فإنما هى كما قيل فى وصف الفتنة .

شَمْطاء حلقت شعراً(١) لها
وتنكرت مكروهة للشمّ والتقبيل

ولقد رأيتَ فى عالم الخيال امرأة طويلة عليها ثياب حافلة ووجهها لناحية أخرى ، فقلت : مَن هذه ؟ قيل : الدنيا .

قلت : لو أرتنى وجهها . قيل : إنها لا ترِى وجهها لأحد ، فما يراه أحد إلاّ أبغضها .

---

(١) وفى التيمورية .
شمطاء قد جعلت لها وتنكرت مكروهة للشم والتقبيل

وقد ذكر الناس فى وصفها شيئاً لا يحصى ، فانظره ـ إن شئت ـ ومداره على إثارة الإعراض عنها . وأن العاقل من أدبر عنها إدباراً كليًا من حيث الحقيقة لا من حيث الصورة ، كما نبّه عليه المؤلف إذ قال :

فلم يتخذها وطنا ولا جعلها سكنا .

قلت : يعنى أنه رفع همّته عنها فلم يطمئن لها ، ولا سكن إليها ، وإن كانت بيده فهو بمعزل عنها ، ولا يعتدُّ بموجودها ، ولا يأسف على مفْقودها ، ولا يحرص على محبوبها ، ولا يتشبّع[١] بمطلوبها ، بل يراها سجنا ، ويرى نفسه فيها غريباً ، لقوله عليه الصلاة والسلام (الدنيا سجن المؤمن) وقال عليه الصلاة والسلام (كن فى الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل)[٢] والغريب لا يتشبّع[٣] بشىء ، ولا يعتدّ به ، بل هو فيما هو به من غربته وذلّته كما قيل :

ما للغريب وللتصابى[٤] والهوى
فكفاه ذُلاّ أن يقال غريب

---

(١) وفى نسخه الدار (ولا يتشعب بمطلوبها) ولعلها فى الأصح: ولا يتشبث .
(٢) حديث صحيح رواه الإمام البخارى عن ابن عمر رضى الله عنهم ، ورواه الترمذى وزاد فيه : وعد نفسك من أهل القبور .
(٣) وفى نسخة (والغريب لا ينشرح لشىء) .
(٤) وفى نسخة (ما للغريب وللتشوق والهوى) .

ومن شأن الغريب أن يدور مع السلامة ، ويُعاملَ بالإنصاف ، ولا يُنازع أحداً فى داره ، هذا وغربته فى السجن ، والمسجون لا يرى فى السجن ما يسرُّه وينتظر أسباب الهلاك وإن كان يترقّب الفرج ، ثم لا عزّ للغريب إلاّ بربّ الموضع ، ولا راحة للمسجون إلاّ بخروجه. ولا راحة للمؤمن دون لقاء ربه (من كان يريد العزّة فلله العزّةُ جميعاً) فافهم .

وإذ كان غريباً فحقّه العمل لدار قراره ، والأخذ فى مرضاة رب المنزل وذلك شأن هذا المريد وكما نبه بقوله :

بل انهض الهمة فيها الى الله تعالى.

قلت : أى بالعمل بما أمره امتثالاً ، والرجوع إليه فيما يريده تفويضاً واتكالاً ، لأن حق الضيف ألاّ يَعُول همّا مع رب المنزل(١) ويكون له حيث أنزله . ويقوم معه بمراده ، لا بمراد نفسه ، وذلك هنا بامتثال أمره والاستسلام لقهره ، وملازمة ذكره وشكره ، وعدم الالتفات إلى غيره .

فأُصول الخير ثلاث : حفظُ الحرمة ، وحسن الخدمة ، وشكْر النعمة .

وأصول الشرّ ثلاثة : خوف الخلق ، وهمّ الرزق والرضى عن النفس

---

(١) وفى نسخة (ألا يعارض رب المنزل) وكذا فى التيمورية .

فالفرار من هذه أصل كلِّ طهارة ، والتحلّى بتلك أساس كل كمال ، ثم إنهاض الهمّة مستصحبة[1] للإستعانة ، وهى من صدق التوكل .

وقد نبَّه عليه بقول :

وسار فيها مستعينا به فى القدوم عليه .

قلت : أى فى هذا الدار بالهمة والبصيرة والأفعال ، وفى تلك الدار بالمواجهة والعيان ، فهو مستعين به تعالى فى أسباب كماله ونجاته فى الدارين ؛ لعلمه أن الأمور بيده ، ومصدرها عن قضائه ، ولا عاصم من أمره إلاّ من رحم ، ولا سبب لذلك إلاّ الإعتصام به تعالى (وَمَنْ يَعْتَصِمْ بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ)[2]

فمعاملة العبد فى مطالبه ثلاث :

التفـويض فى التوجُّه أولاً .

والإستعانة فى العمل بالأسباب ثانياً .

والتوكل فى تحصيل المقصد آخراً .

فإذا تمت له هذه كان بربِّه لا بنفسه ، وإذا كان بربِّه لم يفته شىء من أمر ربِّه[3] ولم يتوقف له شىء من طلبه ، كما أشار إليه هنا بأن قال :

---

(١) وفى نسخة (إنهاض الهمة ومستنتجة الإستعانة) وفى أخرى (ثم إنهاض الهمة والاستعانة بالله من صدق التوكل) .

(٢) آية ١٠١ من سورة آل عمران .

(٣) وفى نسخة « من أربه »

فما زالت مطية عزمه لا يقر قرارها ؛ دائما تسيارها .

قلت : العزم نتيجة الهمة ، فحيث توجهت كان تبعاً لها ، وهى هنا قد توجهت لمولاها بترك ما سواه فأمن عثارها بالدنيا وغيرها، ودوام تسيارها لحصول الأمن فى طريقها بربها .

قيل لبعضهم : « بم تطرد الشيطان إذا قصدك بالوسوسة ؟ فقال : إنا لا نعرف الشيطان ، نحن قوم رفعناهممنا إلى الله فكفانا من دونه » .

وذلك بمعنى أن الشيطان يصير له ملهماً (إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا)[1] فهو لا يعرف إلاَّ مولاه فى كل حركة وسكون ، كلما نابه شىء رجع إليه بالضراعة والتوجه ، وإذا كان كذلك فلا تزال همته فى ترقٍّ وترحال حتى يصل لموقف التنزيه المطلق كما قال:

الى أن اناخت بحضرة القدس وبساط الانس .

قلت : أى أناخت ركاب النفس ومطايا القلوب والأبدان فى دائرة التقديس المطلق تقديس العبد لمولاه حتى لا يعصيه، ثم حتى لا يلتفت لغيره، ثم حتى لا يكون سواه ، ثم حتى لا يرى سواه ، ثم حتى يفنى عنه ، ثم حتى يفنى فى فنائه وعن فناء فنائه ، فيعود عليه ذلك بتقديسه عن العبودية للغير والتنزيه عن مخالفة النهى والأمر ، وذلك هو بساط

---

(١) من آية ١٠٢ من سورة الأعراف .

الأُنس بالحق ، سبحانه ، وبما من جنابه حتى لا يكاد يَصْبِرِ عن مولاه في نَفَس من الأنفاس ، ويصـــير لحدٍ لا يرى سوى بقاء معروفه، لا لشيء من وجوده كما قيل :

لوقيل لى : ماتتمنى ؟والعبدُ يُعطى مناه
لقلت مُنيةُ قلبي في أن يطول لقاه

ولا يزال به التعظيم والتقديس إلى موقف العجز الذى لا نهاية له ، وفى ذلك مراتب لا تُحصى ، وإن عرفت مواقفهافلكل موقف أسرار لا تتناهى .

وقد ذكر المؤلف هذه المواقف فقال:

محل المفاتحة والمواجهة والمجالسة والمحادثة والمشاهدة والمطالعة .

قلت : ذكر ستة ألفاظ لستة معان متقاربة ، لا تُدرك حقائقها والفرق بينها إلّا بالذوق[1] ، ولـكنا نذكر منها ما تتناوله العبارة ؛ لنستأنس به وينتفى الغلط فيها فنقول وبالله التوفيق :

أما المفاتحة : فمعناها : المبادأة . مبادأة العبد بما هو فيه على بساط الضراعة وبثّ الشكوى والمناجاة فيباديه مولاه بمعانى أسمائه وصفاته وعظمة ذاته ليرتاح لذلك وينسى كل شيء به.

---

(١) وفى نسخة الدار (والفرق بينها بالذوق) .

وأما المواجهة : فمعناها : المقابلة : مقابلة القلب بملاحظة الربّ دون التفات لغيره ، ولا غفلة عن ذكره ؛ فيواجهه مولاه بأنواره ويقابله بأسراره حتى لا يمكنه أن يرى سواه ولا يشهد إلاّ إيّاه .

وأما المجالسة : فمعناها : الملازمة : ملازمة القلب للذكر بلا غفلة، والخضوع بلا وَهلة ، والأدب بلا مهلة ، فيكرم إكرام الجليس بالمودّة والتأنيس ، وإليه الإشارة بحديث : « أنا جليس من ذكرنى » أى : أكرمه إكرام الجليس .

وأما المحادثة : فمنازلة الأسرار بذكره ، وإقباله عليها بما يلقيه ويبديه من سرّ وغيره ، فيُبسط فيه أنواره ، ويلقى إليه أسراره، وإليه الإشارة بحديث «كان فى الأمم السالفة محدّثون فإن يكن فى أُمّتى فعُمرُ منهم » .

وأما المشاهدة : فصورة الحقيقة لحدّ العيان بحيث لا تحتاج لبرهان ولا بيان ، ومرجعها الكشف، لا يصحبها وَهْمٌ، ولا يداخلها شك .

وقد قيل : « الشهود من إشهاد المشهود وكشف الوجود » .

وأما المطالعة : فمرافقة التوحيد فى كل ورد وصدر ، والرجوع إلى الحقيقة المرّة بعد المرّة ، بلا تأويل ولا نظر ، فيكون العالم على حكم حكمه فلا يبدو شىء إلاّ طُولعَ به سرّه لكمال سرّه . والله أعلم .

هذا ما فهمته من معانى هذه الألفاظ ، والدرّ من وراء

الصدف[1]، وليس التصوّف بحديث يكتفى فيه الأخبار ، ولا يُغْتَنى بالعلم والعمل فيه عن الأنوار ، ولا بدّ من مثل[2] هذا للمنتسبين فى المحبِّين وأهل البدايات ، وبالله التوفيق .

وإذا كانت هذه المواقف للقوم ، فهم بين يدى مولاهم أبداً ، كما بيّنه المؤلف إذ قال :

فصارت الحضرة معشش قلوبهم ، اليها يأوون ؛ وفيها يسكنون .

قلت : الحضرة : دائرة التقديس المتقدمة ، فالألف واللام هنا للعهد والعشش : محل التعشيش أى التوطين الذى[3] يرجع إليه ، فهم إليها يأوون فى ليل المحن والفتن ، وفيها يسكنون فى نهار العافية ، إليها يأوون فى نهار الحضور وفيها يسكنون فى ليل الغيبة ، إليها يأوون بامتثال أمره وفيها يسكنون استسلاماً لقهره ، إليها يأوون شكراً لنعمته وفيها يسكنون لجوءً لمنّته وهذا ما نبّه عليه المؤلف إذ قال :

فاذا نزلوا الى سماء الحقوق وأرض الحظوظ فبالاذن والتمكين ، والرسوخ فى اليقين .

قلت : استعار السماء للحقوق لجلالتها ، والأرض للحظوظ لدناءتها،

---

(١) (والدر من وراء هذه صدف ، وليس التصرف بحديث يكتفى فيه بالأخبار ولا يغتنى بالعلم والعمل فيه عن الأنوار ولا بد من مثل هذا للمنتسبين والمحبين وأهل البدايات) كما فى نسخة الدار .

(٢) وفى نسخة (ولا بد من مثل للمقتبسين والمحبين) .

(٣) وفى نسخة الدار (أى التوكيد) .

والنزول إليهما إنما هو من عرش الحقيقة . فالعارف مسكنه عرش الحقيقة ، ولا بدّ له من سماء الحقوق لحق العبودية وأرض الحظوظ بحق[1] البشرية ، فإذا نزل لم ينزل على حكم منزلته منه إلاَّ بإذن ، لأنه بساط الكرامة. والإذن:قوة يجدها الوليّ من نفسه لا يُشك في حقيقتها، ولا شبهة في الوجود تتْبعها حالية ولا شرعية .

والتمكين : شرعيّ بمعنى الإباحة ، وعادى : بمعنى التيسير .

وقد يريد أن نزوله لا يقدح في كماله لكونه متمكنا فيه غير متلوّن. والله أعلم .

والرسوخ في اليقين الثبوتُ فيه ، بحيث لا تؤثّر فيه العوارض ولا تعتريهم الفوادح[2] كما قيل :

لا تهتدى نُوبُ الزمان إليهمُ
ولهمْ على الخطْب الشديد لجام

فلم ينزلوا الى الحقوق بسوء الأدب والغفلة ولا الى الحظوظ بالشهوة والمتعة .

قلت : بل نزلوا للحقوق بالذكر والأدب ، وللحظوظ بالشكر والإفتقار ، امتثالاً لما واجههم به مولاهم من الأمر في الأول ولما حكم عليهم به من القهر في الثاني ، مستشعرين بقهره وبرّه فيهما ومعتبرين

(١) وفى التيمورية (وأرض الحظوظ للقيام بأحكام الربوبية) .

(٢) وفى النسخة التيمورية (ولا تغيرهم القوادح) وفى نسخة الدار (ولا تفتريه القوادح) .

بحكمته وحكمها الجارية[1] عليهما ، فالحقوق تزيدهم فائدة ، والحظوظ أكبر منفعة وعائدة ، ولو لم يكن فيها إلّا رجوع العبد لافتقاره وشعوره باضطراره . واعتبر هذا بقول موسى عليه السلام : «ربِّ إنّي لِمَا أنزلتَ اليَّ مِن خيرٍ فقيرٌ» فطلبهُ الخيرَ من بساط الافتقار ، لامن بساط الاحتياج. وإنَّ فَهْم هذا من حيث حقائق[2] المنازلة فى أهل العصر لبعيدٌ .

وربّك الفتاح العليم ، ثم ذكر المؤلف شأنهم فى ذلك كلّه فقال :

بل دخلوا فى ذلك كله بالله ، ولله ، ومن الله ، والى الله .

قلت : الإشارة بذلك للحقوق والحظوظ ، وقوله بالله : يعنى مستعينين وقائمين بالله ولله عاملين ومتوجهين ، فالأول حقيقة ، والثانى شريعة.

ومن الله رأوا دخولهم لا من نفوسهم ، وإلى الله توجّهوا بذلك وراحوا به ومنه[3] فهم به لا بهم ولا لهم ولا منهم ولا إليهم ، قد شهدوه فى الكون وعنده ، وقبله ، وبعده على اختلاف مراتبهم .

نفعنا الله بهم ، ثم قال :

وقل رب ادخلنى مدخل صدق واخرجنى مخرج صدق .

قلت : وبذلك تحقق كونه بالله ولله ، ومن الله وإلى الله ، لأنه طلب ماهو المطلوب منه كما أمره مولاه بطلبه ، فهو داخل فيه بالله طالب

---

(١) وفى نسخة الدار (ومعتبرون بحكمته وحكمها الجارى عليهم) .

(٢) وفى نسخة (من حيث الحقائق النازلة فى أهل العصر) .

(٣) وفى نسخة (ورجعوا به ومنه فهم به لا بهم)

الصدق لله والإدخال والإخراج من الله والتوجّه فى ذلك كله لله .

قال فى « التنوير » فالمدخل الصدق: أن تدخل لا بنفسك . والمخرج الصدق أيضاً كذلك . ثم قال هنا .

ليكون نظرى الى حولك وقوتك اذا ادخلتنى واستسلامى وانقيادى اليك اذا اخرجتنى .

قلت : فأشهد منّتك وبرّك فى دخولى ، وأشهد حكمك وقهرك فى خروجى :

إذ متى أعطاك أشهدك برّه ، ومتى منعك أشهدك قهره، فهو فى كل ذلك مُتعرِّف إليك ، ومُقْبل بوجود لطفه عليك ، وأن إلى ربك المنتهى .

وقد جاء فى الحديث « لا حول عن معصية الله إلا بعصمة الله ، ولا قوة على طاعة الله إلاّ بإرادة الله » ثم قال :

واجعل لى من لدنك سلطانا نصيرا .

قلت: معنى من لدنك: من عندك، أى بلا سبب منِّى، وإلاّ فالكل منه تعالى . سلطاناً : حجة . نصيراً : معيناً ، مقوّيا ، ولهذا يشير قول الشيخ أبى الحسن الشاذلى رضى الله عنه : « اللهم اغننا بلا سبب ، واجعلنا سبب الغنى لأوليائك ، وبرزخا بينهم وبين أعدائك » اهـ .

ومن تتمة معناه فى كلامه هنا قوله هنا :

ينصرنى ، وينصر بى ، ولا ينصر عل

قلت : ينصرنى فى نفسى على كل عدوّ متصل أو منفصل من نفس وخلق وشيطان وغيرهم لأنى محتاج إلى ذلك ، وينصرنى(١) من أراد نصرة من مريد أو طالب أو محب أو متسبب أو صديق أو صادق ؛ لأن ضيف الكرام يُضيف ، وليس الرجل من نُصر فى نفسه ، إنما الرجل من نُصر به غيرُه ومن سأل الكريم فلا يفتقر دون ما يحتاجه وإن لم يكن مضطراً إليه ، ولا يُعظم المسألة لأن الله لا يتعاظمه شىء ، ولا ينصر علىّ أحداً من عوالمى ولا غيرها ، بل أكون فى حماه المنيع من المحن الدنيوية ، والفتن الدينية أبداً ، وهو أكرم الأكرمين.

ثم طلب المؤلف نصراً خاصاً(١) وهو أعظم أبواب النصر فقال :

ينصرنى عن شهود نفسى .

قلت : حتى أراها على حقيقة الأمر من كمالها ، فأرفع همتى عن المخلوقات وعلى حقيقة الأمر من نقصها فلا أدّعى شيئاً ولا أرى لها نسبة ولا قدراً ، فبذلك تزكو وترتفع ، وبالله التوفيق . ثم قال :

ويفنينى عن دائرة حسى

قلت : حتى لا أعرف وجودها فضلا عن موجودها، وعند ذلك يتم

---

(١) وفى نسخة الدار (. . إلى ذلك ، وقوله : وينصر بى . أى من أراد نصره من مريد أو طالب أو محب أو منتدب أو صديق أو صادق لأن ضيف الكرام لا يضيف .

(٢) وفى نسخة الدار (خالصاً) .

الأمر ويحصل الكمال والله الموفق للصواب .

تنبيـه :

إنما تظهر الفوائد وغيرها فى معاملة الخلق والنظر للحق عن توجّه المنن والمحن . وهذا ما توجّه له فى الكتاب بعد إذ قال :

وقال رضى الله عنه ، فيما كتب به لبعض اخوانه :

قلت : هذا كتاب ضمّنه اختلافَ النظر فى المنّة ، وأصل ذلك ، وفرعه ، ومادته الحالية ، والشرعية ، فأصل الأصل الذى هو المرجع فى الجميع أولاً وذكره بأن قال :

ان كانت عين القلب تنظر الى أن الله واحد فى مننه ، فالشريعة تقتضى أنه لا بد من شكر خليقته .

قلت : عيْن القلب هى البصيرة ، ونظرها فى هذا الأمر بالحقيقة المعقولة وهى من بساط الحكم[1] والشريعةُ من بساط الحكمة، وكلاهما من ربّ واحد ، فوجب ألا يتعدى واحداً منهما ، فينظر إلى أن الله واحد فى مننه ، فلا تنسب لغيره ، وهو الذى أجراها على يدى الخلائق، وجعل شكرهم[2] عليها عين عبوديته (فيشكرونى بشكره كما يذكرونى بذكره ، لا لأمرٍ منهم ، ولا لهم) فافهم .

ثم ذكر أقسام الناس فى ذلك فقال :

---

(١) وفى التيمورية (ونظيرها فى هذا الأمر بالحقيقة والمعمولية وهى . .) .
(٢) وفى نسخة الدار (وجعل شكره شكرهم عليها عين عبوديته فيشكرون بشكره كما يذكرون بذكره) .

وان الناس فى ذلك على أقسام ثلاثة :

قلت : يعنى : ناقص ، وكامل ، وواقف بين النقص والـكمال .

فذكر الـكامل آخراً والمتوسط وسطاً والناقص أولاً فقال فيه :

غافل منهمك فى غفلته قويت دائرة حسه وانطمست حضرة قدسه فنظر الاحسان من المخلوقين ولم يشهده من رب العالمين .

قلت : معنى منهمك فى غفلته : مسترسل فيها ، قائم معها بلا توقف.

ودائرة حسّه : عوالم جسمه ، فلم يعرف غير مايدور عليها من الأكل والشرب ونحوه من حيث هو لا من حيث المنّة به ، وإن شهد شيئاً لم يتعدّ لغير من واجهه به . وانطمست: ذهبت وارتفعت دائرة تقديسه فـكان فى الحضيض الأسفل ، لبعده وجهله ، ودلّ على ذلك وجود فعله فى حاله[1] إذ نظر الإحسان ممن وصل على يديه لا ممن أرسله إليه ؛ إذ ذاك من بُعد فهمه وقوّة وهمه ، فهو بعيد عن الحق بنظره للخلق ، وذلك على وجهين كما قال ؛

اما اعتقادا فشرك جلى ؛ واما استنادا فشركه خفى .

قلت : فشرك الإعتقاد قادح فى الإيمان ، وشرك الاستناد قادح فى اليقين .

والفرق بينهما اعتقاد التأثير فى الأول وهو كفر، واعتقاد الارتباط الثانى بحكم سنّة الله مع اعتقاد أن الـكل منه وإليه تعالى . وهذا حال أكثر العوام . نسأل الله العافية .

---

(١) وفى التيمورية (ودل على وجود حاله فى فعله أن نظر . .)

والناس ثلاثة أقسام :

قسم يعتقد التأثير لغير الله ، وهذا كافر .

وقسم يعتقد ألا مؤثر[١] فى شىء سوى الله، ولكنه يرى ارتباط الأسباب .

وهذا ناقص .

وقسم يعتقد ألا تؤثر إلا الله ولا سبب سواه فيرى الأسباب عدميه واعتبارها بحكمة الإلهية ، فلا هو يحيل الأسباب ولا يعتدها ، ولكنه يختلف حاله فى ذلك ، فتارة تغلب عليه مشاهدة الحقيقة ، وتارة مُشاهَدة الشريعة ، وتارة بمجموعهما . وعلى ذلك مدار القسمين المذكورين بَعْدُ ،

وافتتح أولهما بأن قال :

وصاحب حقيقة ، غاب عن الخلق بشهود الملك الحق وفنى عن الاسباب بشهود مسبب الاسباب .

قلت : يعنى : والقسم الثانى من الأقسام الثلاثة : رجل غابت عليه الحقيقة فنظر إلى جانب الحق وأهمل جانب الخلق ، لرؤيته انفراد الحق فى منّته ، وأنه لا شريك له فى تصرّفه ، فلم ير فى التقدير غير المقدِّر ، ولا فى التدبير غير المدبِّر ، قد أعرض عن الكل بالواحد ، ولم ير فى

(١) وفى نسخة الدار (وقسم يعتقد أن المؤثر فى الشىء سوى الله) :

الإقبال والإدبار إلا الواحد ، إذا قيل له : من أين هذا ؟ قال : من عند الله . وإذا قيل له : أشكر الوسائط ، قال : لا أشكر إلاَّ الله ، ليس له عما سوى الحق إخبار ، ولا مع أحد من الكون قرار ، ولولا أن الله أمره ما تعبّد ولا قام لنفسه بشيء ، وَحاله كما بيّنه المؤلف إذ قال :

فهذا عبد مواجه بالحقيقة ظاهر عليه سناها، سالك للطريقة قد استولى على مداها.

قلت : يعني أن الحقيقة قد واجهت قلبه فلم يمكنه انفكاك ولا خروج عنها بوجه ولا بحال . وذلك ظاهر من حاله ، فسنا الحقيقه أي ضياؤها بادٍ عليه ، وسلوك الطريقة والنفوذ فيها شهود لديه ، لأن مقتضى الحقيقة نفي الأسباب ، وغاية الطريقة رفض السوىّ ، وكلاهما من حاله غيرُ خفيّ ولا غائب .

ومداها : غايتُها ، فَقَمُ ، وهذا الذي وصفه وإن كان كاملا فليس بأكمل أو كان جميلا فليس بأجمل كما بينه المؤلف بأن قال :

غير أنه غريق الأنوار مطموس الآثار ، قد غلب سكره على صحوه ، وجمعه على فرقه وفناؤه على بقائه وغيبه على حضوره .

قلت : يعني أنه غريق في بحر الأنوار ، الذي هو معاني الأسماء والصفات ولم يقف بساحل الآثار الذي هو موقف النجاة كما أشار إليه أبو يزيد بقوله : « خضنا بحراً وقف الأنبياء بساحله » وهذا منه اعتراف بالنقص والتقصير ، لأن خوض البحر من الجهل بهوْله ،

والوقوف بساحله من المعرفة بقـدره ، فالخائض يلقى بنفسه للهلكة ، والواقف قائم مع النجاة ويمكنه من استخراج حلبته وطعامه مالا يمكن الخائض فافهم .

والسكْر : غلبة تمنع من التصرّف بالاختيار .

والصحو : حالة تقتضى التصرّف بالاختيار والجمع : شهود الخلق (١) بالحق . والغيبة : عدم الشعور بالخلق . والحضور : الشعور بوجودهم مع الحق . والمعبّر جريان ذلك فى التصرّف ، فمن لم يقدر على ضبط حركاته مع وعيه فهو السكران . ومن تصرّف باختياره على وفق حاله فهو الصّاحى . ومن شهد أفعال الخلق جارية عليهم بتصريف الحق فهو المجموع ومن شهد لهم نسبة فى شىء ممّا هم به فهو المفرّق . ومن لم ير لهم نسبةً فهو الفانى . ومن رأى وجودهم راجعاً إليه فهو الباقى فى عيْن فنائه ، ومن لم يكن له شعور بشىء الاّ بمولاه فهو الغائب ، ومن مشى فى كل شىء بالتوحيد فهو الحاضر . ولـكل من هذا تأويل وتنزيل وتقرير وتحقيق وتحرير لا تُعينها الأقوال ، ولا تقيسها العقول ، يعرفها أهل الأذواق ويشنها أهل الأشواق . وبالله التوفيق .

ثم أخذ فى ذكر القسم الثالث . فقال :

---

(١) زاد فى التيمورية بعد قوله بالحق (والفرق : شهود الحق والخلق ، والفناء : شهود الحق بلا خلق ، والبقاء : رؤية الخلق للحق) وفى نسخة الدار (الفرق : شهود الحق والخلق أو يقال : شهود حق بلا خلق . والبقاء : رؤية الخلق للحق .) .

وأكمل منه : عبد شرب فازداد صحوا ، وغاب فازداد حضوراً :

قلت : شرب من خمر الحقيقة فازداد صحواً بماء الشريعة ، وغاب عن الخلق فازداد حضوراً معهم بالحق .

فالحقيقة خمرٌ من شربها خالية[1] فسكر كان حــده قتلهَ ، ومن تجوهر منها أو مزجها بمـاء الشريعة كان مزجُه حافظاً له عن حدّه ، كما قيل :

وَمَن فهم الإشارة فليصفها　　وإلا فسوف يُقتل بالسنان

كحلاج المحبّة إذْ تبـدَّتْ　　له شمس الحقيقة بالتدانى

فقال : أَنا هو الحق الذى لا　　يُغـيرّ ذاتهَ مرَّ الزمان

والذى بالوصف المذكور يعطى كلَّ شىء حقّه من غير إقلال[2] شىء ولا نقص منه ، كما قيل :

فلا جمعه يحجبه عن فرقه　　ولا فرقه يحجبه عن جمعه ،
ولا فناؤه يصده عن بقائه　　ولا بقاؤه يصرفه عن فنائه ،
يعطى كل ذى حق حقه　　ويوفى كل ذى قسط قسطه ،

قلت : يعنى أنه يعطى الحقيقةَ حقَّها برؤية كل شىءٍ منه تعالى وإليه ، فينظر إلى أنه تعالى واحد فى منته ، ويُعطى الحكمة حقها بالقيام بشكر خليقته . وذلك لأنهم مظاهر المنة ومحل توصيل النعمة ، فلهم مجاز

---

(١) وفى نسخة خلية بتشديد اللام .

(٢) وفى نسخ أخرى (من غير إخلال بشىء منه) .

الشكر كما أن لهم مجاز الإنعام، وله تعالى حقيقة الشكر؛ لأن له حقيقة الإنعام ثم شكرهم في الحقيقة شكر لله تعالى، لأنه رسم مأمور به، ولولا الأمرُ به ما صح لأحدٍ عمل فيه، فالكل إذن من عيْنٍ واحدة ولكن الفهم يختلف. والله أعلم.

ثم أخذ المؤلف يستدل لما ذكر من أرجحية المقام الأخير وكماله فقال:

وقد قال ابو بكر الصديق رضى الله تعالى عنه لعائشة رضى الله عنها لما نزلت براءتها من الافك على لسان رسول الله صلى الله عليه وسلم: يا عائشة، اشكري رسول الله صلى الله عليه وسلم. فقالت لا والله، لا اشكر الا الله.

قلت: الذى فى الصحيح أن أمَّها هى التى قالت لها حين شهدّ رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال: ياعائشة اشكرى الله: فإن الله قد برّأك.. ثم تلا آية البراءة من الإفك. قومى إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم. وأبو بكر حاضر.

فيحتمل أن يكون نقل ذلك بالمعنى ونسب لأبى بكر؛ لحضوره وموافقته عليه، وهو بعيد. وحديث الإفك مشهود ذكره أهل الصحيح وغيرهم، فانظره إن شئت — ثم عيّن موقع الدلالة وبيّنه بأن قال:

دلها أبو بكر على المقام الأكمل مقام البقاء المقتضى لاثبات الآثار.

قلت: وإنما كان أكمل، لأنه قيام بحق الحقيقة، وقيام بحق الشريعة، وعمل فى عمارة الدارين. وقد قال فى «التنوير» بعد ذكره

الأسباب والكلام فيها ما نصّه : « والقول الفصل فى ذلك أنه لا بدّ من الأسباب وجوداً ، ومن الغيْبة عنها شهوداً فأثْبتها من حيث أثبتها بحكمته ولا تستند إليها لعلمك بأحديته » . انتهى وهو كما قال .

ومن أدلته آية « البرور » التى ذكرها بأن قال :

وقد قال تعالى: أن أشكر لى ولوالديك:

قلت : فجعل شكرهما تابعاً لشكره بلا واسطة بينهما ، وذلك أنه سبحانه هو الموجد والممدُّ حقيقةً ، وللوالدين مجاز ذلك[1] الإيجاد والإمداد ، على أيديهم . والله أعلم .

ثم أتى بدليل آخر من السنة ؛ فقال :

وقال صلوات الله وسلامه عليه : لا يشكر الله من لا يشكر الناس .

قلت : يُروى الحديث على الخبرية : أى من لا يشكر الناس لا يشكره الله ، وعلى هذا فـ « هاء » الجلالة مرفوع .

ويُروى عل الشرطية ، أى : لا يصح شكر الله ممن لا يشكر الناس . وقد روى النعمان بن بشير رضى الله عنه ، عنه عليه الصلاة والسلام « من لم يشكر القليل لم يشكر الكثير ، ومن لم يشكر الناس لم يشكر الله » وهذه الرواية صريحة فى الشرطية . والله أعلم .

---

(١) وفى نسخة الدار (إنه هو الموجد والممد حقيقة إذ ذاك يجرى مجرى الايجاد والإمداد على أيديهم).

ثم اعتذر عن جواب عائشة لأبى بكر ، وبيّن أنه ليس من نقصها، وأنه كمال الوقت لها ، فقال :

وكانت هى فى ذلك الوقت مصطلمة عن شاهدها ، غائبة عن الآثار فلم تشهد الا الواحد القهار .

قلت : الإصطلام : الغيبة عن الشاهد بالمشهود لما يواجه القلبَ من عظمة المشهود حتى لا يبقى فيه متّسع لغيره . وهذا التأويل وإن كان صحيحاً فى نفسه فإنه يؤدى للنقص بوجهٍ ما .

فأحسن منـــه قول ابن أبى حمزة : رجعتْ لأمره حيث قال : اشكرى الله . وهو أولى بها من شكره ، ولم يرجع غيرها لذلك ، استصحاباً للأصل إذْ لم يُعلم منه صلى الله عليه وسلم ماتعلمه هى ، لكن قوة الكلام فى ردّهم باليمين وسياقه يدل لوجود الاصطلام ، وهو كمالها فى ذلك الوقت لا فى عموم الأوقات . والله أعلم .

تنبيـــه :

من مواقف الجمع بين الحقيقة والشريعة ماوقع من قوله عليه الصلاة والسلام : (وجعلت قرة عينى فى الصلاة) .

وفى اختصاصه بالنبى عليـــه السلام وجريانه فى العموم تكلمّ المؤلف بعد هذا الكتاب بنصّ سؤال وجواب وقع له فى الحديث الكريم فقال :

وقال رضى الله عنه ، لما سئل عن قوله صلوات الله عليه وسلامه (وجعلت قرة عينى فى الصلاة) هل ذلك خاص بالنبى صلى الله عليه وسلم أم لغيره منه شرب ونصيب ؟

قلت : هو سؤال متّجه محتاج إليه . وقرّة عين : أعظمُ مفْروح به ؛ لأنه إما من القَرّ بالفتح الذى هو الثبات ؛ فإن عين المحزون والخائف تدور وتتقلب ، وعين الفارح ثابتة ، أو من القُرّ بالضم الذى هو البرد فإن دمعة الفرح باردة ودمعة الحزن حارّة . وغاية الفرح هو الذى تجرى معه الدمعة الباردة ؛ فمعنى أقرَّ الله عينك : ثبتها أو برّدها . والله أعلم والشرب بالكسر ، والنصيب ، بمعنى واحد .

وأصل الحديث أنه عليه الصلاة والسلام قال : (حبُب إلىّ من الدنيا ثلاث : النساء ، والطّيب ، وجُعلت قرّة عينى فى الصلاة . . . الحديث)(١) والذى تقدّم هو غاية السؤال ، ثم ذكر الجواب مجملاً مجموعاً فقال :

فأجاب أن قرة العين بالشهود على قدر المعرفة بالمشهود ، والنبى صلى الله عليه وسلم ليست معرفة كمعرفته ، وليست قرة عين كقرته .

قلت : وهذا الجواب كاف عما بعده من التفصيل ، لكن شرط العالم أن يأتى فى جوابه بالتفصيل بعد الإجمال ، أو بالإجمال بعد التفصيل ؛ فالإجمال للتحصيل ، والتفصيل للبيان .

قال الشيخ أبو العباس بن العريف رحمه الله : « الطالب يسأل ليعلم

(١) رواه الامام النسائى والحاكم وغيرهم عن أنس رضى الله عنه ، ويرى السيوطى أنه حديث «حسن» .

فحقه أن يسأل عن المسألة بمسألة أخرى ، والعامىّ يسأل ليعمل ، فحقه أن يذكر النازلة ، وعلى العالم أن يبين بياناً يمنع السائل من التأويل » اهـ

ثم فى هذا الجواب ثلاث دعاوى :

الأولى : أن قرّة العين فى الصلاة بالتجلى الحاصل فيها .

الثانية : أن ذلك على قدر المعرفة .

الثالثة : أن الرسول صلى الله عليه وسلم ليست معرفة كمعرفته . فليست قرّة عين كقرّته .

وقد أجاب عن كل دعوى بما تحتاج إليه من وجهٍ وَإيراد ، فقال فى جوابه الأول :

وانما قلنا ان قرة عينه فى الصلاة بشهوده جلال مشهوده ؛ لانه عليه السلام اشار الى ذلك بقوله « فى الصلاة » ولم يقل بالصلاة .

قلت : وذلك أنه أتى بـ « فى » الظرفية ، فاقتضت أن الصلاة ظرف لقرة العين ، لا أنها عينها . ولو قال « بالصلاة » لا قتضى أنها عينها .

لكن قد يقال إن « الباء » تقع بمعنى « فى » و « فى » تكون بمعنى «الباء» . وإذا قلنا بالظرفية فيتعين كون المظروف مشاهدة الجلال وهى دعوى تحتاج لبرهان ذكره بأن قال :

اذ هو صلوات الله وسلامه عليه لاتقر عينه بغير ربه :

قلت : وهذه أيضاً دعوى تحتاج إلى دليل على إثباتها .

فيجاب بأنه معلوم من حال أقلّ العارفين فكيف بسيّد المرسلين

الذى يقول : (أنا أعلمكم بالله ، وأتقاكم لله أنا) ومن ذلك ما ذكره المؤلف إذ قال :

وكيف ، وهو يدل على هذا المقام ويأمر به من سواه بقوله « اعبدالله كأنك تراه »

قلت : يقول : وكيف لا يكون ذلك ، بل وكيف يصح أن يغفل عن مولاه مع كماله الذى لا أكمل منه وهو يأمر بذلك غيره مع أنه لم يكن يأمر بخير إلا كان أول عامل به ، ولا ينهى عن شرّ إلا كان أول تارك له . وقوله « اعبد الله . . إلخ » لم يَرِد بهذا اللفظ ، بل جواباً لقول جبريل عليه السلام : أخبرنى عن الإحسان ؟ فقال : أن تعبد الله كأنك تراه ، فإن لم (١) تكن تراه فإنه يراك . . . الحديث) .

ثم ماذكره إثبات لكونه يعبدالله على المعاينة ، لا نفياً لغير ذلك . والمقصود نفى رؤية الغير فاحتاج إلى دليل آخر هو الذى ذكره بأن قال :

---

(١) روى البخارى قال : حدثنا اسماعيل بن إبراهيم ، أخبرنا أبو حيان التيمى عن أبى زرعه عن أبى هريرة قال : كان النبى صلى الله عليه وسلم بارزاً يوماً للناس فأتاه جبريل ، فقال : ماالإيمان . قال : الايمان أن تؤمن بالله وملائكته وبلقائه ورسله ، وتؤمن بالبعث . قال : ماالإسلام ؟ قال : الإسلام أن تعبد الله ولاتشرك به وتقيم الصلاة وتؤدى الزكاة المفروضة وتصوم رمضان. قال: ماالاحسان؟ . قال أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك.قال : متى الساعة قال: ماالمسئول عنها بأعلم من السائل وسأخبرك عن أشراطها : إذا ولدت الأمة ربها وإذا تطاول رعاة الإبل فى البنيان وفى خمس لايعلمهن إلا الله ، ثم تلا النبى صلى الله عليه وسلم . (إن الله عنده علم الساعة . . . . الآية) ثم أدبر فقال : ردوه . فلم يروا شيئا . فقال : هذا جبريل جاء يعلم الناس دينهم . قال أبو عبدالله جعل ذلك كله من الإيمان .

ومحال أن يراه ويشهد معه سواه .

قلت : وذلك لأنه إذا ظهرت صفاته اضمحلت مكوّناته ، ولا نسبة للخلق عند ظهور آثار الحق ، وإذا دخل الربُّ القلبَ خرب مما سواه.

ولذلك قال بعضهم : أبى العارفون أن يشهدوا شيئاً مع الحق لما حققهم به من معانى القيّومية ، وإحاطة الديمومية ، وأنشدوا فى ذلك :

مذ عرفتُ الإله لم أر غيره   وَكذا الغيرُ عندنا ممنوع
مذ تجمّعت ماخشيت افتراقاً   فأنا اليوم واصلٌ مجموع

ثم ذكر المؤلف ما أُورد عليه فقال :

قال له القائل قد تكون قرة العين بالصلاة لأنها فضل من الله ، وبارزة من عين منة الله فكيف لا يفرح بها ، وكيف لا تكون قرة العين بها وقد قال تعالى (قل بفضل الله وبرحمته ، فبذلك فليفرحوا) .

قلت : وهذا سؤال متَّجه واضح واردٌ بيّنٌ ، لـكنه لا ينتظم إلاّ بتأويل « فى » بمعنى « الباء » ويعضِّده حديث (أَرِحْنا بها يا بلال) .

ولـكن يجاب : بأن الحقيقة أولى من التأويل بالحرف المذكور ، وأن الإراحة بها للاستراحة عما فيها ، لا بعينها ، وعند تطرّق الإحتمال يسقط الاستدلال فيحتاج إلى زيادة دليل ، أو جواب آخر وهو الذى توّجه إليه المؤلف واستخرجه من الآية المستدل بها على الفرح بالمنّة إذ قال :

فاعلم أن الآية قد أومأت الى الجواب لمن تدبر سرهذا الخطاب اذ قال : فبذلك فليفرحوا ، وما قال بذلك فافرح .

قلت : أومأت : أشارت . وسرّ الخطاب : هو صرفه للغير، لكن قد يقال : إن مراده به أو فيه ، فيحتاج إلى تحقيق انصرافه عنه بعد بيان ما يقدَّر فيه .

وهذا الذى بيّنه بأن قال :

قل لهم يا محمد ليفرحوا بالاحسان،والتفضل ! وليكن فرحك انت بالمتفضل .

قلت : هذا تقرير ما احتوى عليه الخطاب ، ولكنه غير مسلَّم يفتقر إلى دليل يثبته ؛ إذ لا ينتفى به التوهّم ، ولا يزال الإيراد ، فعضَّده بالآية الأخرى فقال :

كما قال الله فى الآية الاخرى (قل الله ، ثم ذرهم فى خوضهم يلعبون[1]) .

قلت : والاستدلال بهذه الآية على المعنى المقصود لا يتمّ إلاّ باقتطاعها عمّا قبلها ، فأما إن فهمت جوابا لقوله تعالى (قُلْ مَنْ أَنْزَلَ الْكِتَـٰبَ الَّذِى جَاءَ بِهِ مُوسَىٰ) فلا يتم الدليل ،

والخارج من هذا كلِّه أنَّ لكل عارف شِرب و نصيب على قدره ، وسيدنا صلى الله عليه وسلم هو سيّد العارفين ، فهو أوفرهم نصيباً ، وأن قرّة العين لهما فى الصلاة لا بالصلاة ، وفى طى كلامه أن قرّة العين

---

(١) آية ٩١ من سورة الأنعام .

لاتـكون لصاحب بداية ولا مجاهدة(١) كما قال الشيخ محمدعبدالعزيز المهدوى — رضى الله عنه — والله أعلم .

تنبيـــه :

لما جرى ذكر الفرح بمنة الله فى هذا الجواب اتبعه بكتاب يتضمن مراتب الناس فى الفرح بالمنن ؛ ليـكون أتمَّ في البيان والإعلام ؛ فقال :

وقال رضى الله عنه (مما كتب به لبعض اخوانه . .)
الناس فى ورد المنن عليهم على ثلاثة أقسام .

قلت : يعنى باعتبار تلقيها ، وقبولها ، والفرح بها .

والأقسام على مراتبها : ناقص غافل ، ومتيقظ عاقل ، وعارف كامل ، ولـكل حقيقة ، ومادةوغاية ، ذكرها المؤلف بالإشارة والبيان فقال فى أولها :

فرح بالمنن لامن حيث مهديهاومنشئها ولـكن بوجود متعته فيها فهذا من الغافلين

قلت : يعنى الذين غفلوا عن المنعم بالنعمة ونسوا الله تعالى بوجود المنة ، فـكانت هممهم مقصورة على ما يستلذونه من الأكل والشرب والجماع وغيره .

وربما أثار لهم ذلك خصالاً مذمومة كالحرص والطمع والتسويف والاسترسال فى العوائد، وقلة المبالاة فى الأخذ والتصرف ، وشدة الفرح

(١) وفى التيمورية (لا تـكون بصاحب براه ولا محب) .

بالموجود، والحزن على المفقود، وبه يقع الخسران والهلاك كما نبّه عليه المؤلف بالآية الكريمة إذ قال :

يصدق عليه قوله تعالى (حتى اذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتة) .

قلت : يعنى أنه مستدرج ، والاستدراج كمون النِّقمة فى عين النعمة. وقد قال سهل بن عبد الله رضى الله عنه فى قوله تعالى (سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لا يَعْلَمُونَ)(١) : «كلما جدّدوا معصية جدّدنا لهم نعمة ، وأنسيناهم الاستغفار من تلك المعصية، حتى إذا ركنوا إلى النعمة وغفلوا عن المنعم أُخذوا» انتهى. ثم ذكر القسم الثانى فقال :

وفرح بالمنن من حيث انه شهدها منة ممن أرسلها ونعمة ممن أوصلها .

قلت : فهذا من الموقنين القائمين بالشريعة فى عين ملاحظة الحقيقة ؛ إذ رأى المنّة ، التى هى العطاء الأصلى الذى لا علّة له ولا سبب ، لله سبحانه ، وشاهد نسبة الخلق فى ذلك من جريانه على أيديهم فكان شاكراً لنعمة مولاه من غير إهمال للخلق ولا تعويل عليهم ، فهو فى ذلك مكرَّم بنظره إلى مولاه، وقيامه بالحق فيما أولاه ، وبذلك استحق ما ذكره المؤلف بأن قال :

يصدق علية قوله تعالى (قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا) .

قلت : يعنى أنه ممن يوجّه على هذه الآية إذْ كان فَرِحا بذكر مولاه

---

(١) من آية ١٨٢ سورة الأعراف

أيده[1] بنعمته، وتوجهه له بمنّته، وهو لا يستحق شيئاً من ذلك من حيث ذاته، بل بفضل الله ورحمته، ولما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لأُبيّ: أُمرت أن أقرأ عليك. قال: وكيف وقد أُنزل عليك؟ قال: بذلك أُمرت. قال أُبيٌّ رضي الله عنه: أو ذُكرتُ هناك. وبكى خشية وإجلالاً ... الحديث[2]).

ثم ذكر تمام الآية فقال:

هو خير مما يجمعون.

قلت: يعني من كل شيء، حتى من عباداتهم وأعمالهم، كما قال الشيخ أبو العباس رضي الله عنه، وقد قال الشيخ أبو الحسن الشاذلي رضي الله عنه: «العاقل من غرّقَ شديد الزمان في الألطاف الجارية

---

(١) في نسخة الدار (يعني أنه من عثر على هذه الآية إذ كان فرحاً بذكر مولاه آتاه بنعمته وبوجهه له بمنته)

(٢) هو أبي بن كعب الذي يقول فيه الذهبي في كتابه «سير أعلام النبلاء» «سيد القراء ... شهد العقبة وبدراً وجمع القرآن في حياة النبي صلى الله عليه وسلم وعرضه على النبي صلى الله عليه وسلم، وحفظ عنه علما مباركاً، وكان رأساً في العلم والعمل رضي الله عنه» وروى الذهبي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: يا أبا المنذر (كنية أبي): إني أمرت أن أعرض عليك القرآن، فقلت: بالله آمنت، وعلى يدك أسلمت، ومنك تعلمت. فرد القول، فقلت: يارسول الله أوذكرت هناك؟ قال: نعم باسمك ونسبك في الملأ الأعلى. قلت: أقرأ إذن يارسول الله» وقد روى الذهبي في الموضوع روايات أخرى منها ما يتفق مع رواية المؤلف تماماً في ألفاظها.

ـايه ، وفرّق إساءته فى بحر إحسان الله إليه ، فاذكروا آلاء الله لعلكم تفلحون » انتهى .

ثم ذكر القسم الثالث ، وهو أرفعها فقال :

وفرح بالله

من حيث كمال ذاته وجلال صفاته وتقدّس أسمائه وجمال أفعاله ، إنْ رأى نعمةً ذكر مّنته ، وإن رأى بليّةً ذكر رحمته ، وإن جرى عليه شىء نظر إليه بلا علة فهو مشغول به لا بغيره ، كما قال :

ما شغله من النعم ظاهر متعتها ولا باطن منتها.

قلت : يقول ليس من الغافلين الذين شغلهم التمتع عن الإنعام ، ولا من الذاكرين الذين شغلهم الإنعام عن المنعم ، وقد ضرب الناس للأقسام الثلاثة مثالاً مداره على أن ملكا أعطى ثلاثة أفراس لثلاثة رجال .

أما أحدهم : فطار قلبه فرحاً بانتفاعه بالفرس وحصوله عليه لما يرجو به ، وهذا وِزان الغافل .

وأما الثانى : فاستشعر ذكر الملك له بهذا الفرس فأخذ فى الثناء علية وشكر نعمته ، ورأى المنة له فى ذكره إياه بما وجّه له . وهذا وِزان الشاكر .

وأما الثالث : فاستشعر عظمة الملك وجلاله ، وأنه موصوف

بالكرم والكمال الكامل من جميع جهاته . وهذا وزان الفرح بالله الذى لم يشغله عنه شاغل كما قال :

بل شغله النظر الى الله عما سواه وانجمع عليه فلا يشهد الا اياه .

قلت : ولو كلف غير ذلك ما أطاق ؛ لا ستجماع سرّه على مولاه ، واستغراقه فى مشاهدة عظمته التى لا يبقى مع شهودها أثر لشىء : إن شكر الحق (١) فشكره لمولاه ، وإن أعرض عنهم فلا معوّل له إلا إياه ، قد كان فى الله تلفه فكان منه خلفه ، فهو كما قال :

يصدق عليه قوله تعالى (قل الله ثم ذرهم فى خوضهم يلعبون).

قلت : وصادقيةُ ذلك بحسب ما تقدّم قبل من التقرير فى الآية . ووجه الاستدلال بها ، وهو راجع لمعنى بيت «لبيد» الذى كان يتمثل به رسول الله صلى الله عليه وسلم حيث يقول :

أَلا كلّ شىء ما خلا الله باطل (٢) .

وقد مرّ الكلام فى هذا المعنى كثيراً ، ثم عضّده المؤلف بما ذكر إذ قال :

---

(١) ولعلها الخلق .

(٢) وتكملة البيت : وكل نعيم لا محالة زائل

ولبيد ، هو : لبيد بن ربيعة بن مالك أبو عقيل العامرى : أحد الشعراء الفرسان الأشراف فى الجاهلية أدرك الإسلام وترك الشعر وسكن الكوفة وعاش عمراً طويلا . وهو أحد أصحاب المعلقات السبع المشهورة . جمع بعض شعره فى ديوان صغير ترجم إلى الألمانية . توفى سنة ٤١ هـ ٦٦١ م .

وقد أوحى الله الى داود عليه السلام : يا داود قل للصديقين : بى فليفرحوا وبذكرى فليتمتعوا .

قلت : الصدّيق : من صدّق الله بكل شىء منـــه علماً وعملاً ، وحالاً ، وقولاً ، وفعلاً ، وبالغ فى ذلك حتى لا يبقى منه جزء إلا داخله الصدق .

ومعنى «بى فليفرحوا» ليكن فرحهم بوجودى وكمالى ، لا بشىء يرجع إليهم كما قال تعالى (وقل الحمد لله الذى لم يتخذ ولداً ولم يكن له شريك فى الملك ولم يكن له ولىّ من الذل وكبرّه تكبيراً)[1] .

وقد قال علىّ بن أبى طالب فى بعض مناجاته : كفانى عزّاً أن تكون لى ربّاً ، وكفانى شرفاً أن أكون لك عبداً ، وأنت لى كما أحبُ فاجعلنى لك كما تحب » انتهى . وبقوله (وبذكرى) يحتمل بذكرهم إياى ، ويحتمل بذكرى إياهم ، وهـــو أولى ، ويحتمل بالذكرين . والكل صحيح ، لأن الكل منه وإليه سبحانه وتعالى .

ثم ذكر المؤلف دعاء مناسباً لما ذكر فى الكتاب فقال :

والله يجعل فرحنا وإياك به وبالرضا منه ويجعلنا من أهل الفهم عنه .

قلت : يعنى فإن الفرح بذلك هو الفرح الكامل ؛ إذ الفرح به تعالى حال أهل الكمال ، والفرح بالرضى منه فرحُ أهل المقامات

---

(١) آية ١١١ من سورة الإسراء

والأحوال ، وهو المأمور به ، كما تقدّم أول الكتاب (لا تفرح للطاعة لأنها برزت منك وافرح بها لأنها برزت من الله إليك) ثم قال :

وأن لا يجعلنا من الغافلين .

قلت : يعني الذين وقفوا مع المتعة في النعمة ، وتوجهوا للطاعة بالتقصير وسوء الأدب فكانوا مطرودين بما أُوتوا ، مبعدين بما آثروا ، خاسرين بما تركوا حتى إذا أوتوا : أخذناهم بغتة وهم لا يشعرون . ثم قال :

وأن يسلك بنا مسلك المتقين .

قلت : يعني الذين اتقوا الالتفاتَ لغيره ، فقاموا بتوحيده وتمجيده وشكره على بساط معرفته وذكره وامتثال أمره والاستسلام لقهره ثم قال :

بمنه وكرمه :

قلت: يعني أنه طلب ذلك لا بسبب علّة من نفسه ؛ لأن ما عند الله لا ينال بالعلل والأسباب . كما قيل :

بلا عمل مني إليه اكتسبته   سوى محض فضل لا بشيء يُعَلَّلُ

بل كما قال بعضهم رحمة الله عليه : «ماهناك إلاّ فضلهُ ، ولا نعيش إلا في ستره ولو كشف الغطاء لكشف عن أمر عظيم » انتهى .

وبانتهائه تم الكتاب .

ولم يبق إلا «المناجاة» في بابين، وهما مفاتيح الخير وخاتمته؛ لأن الأول تعرّض لنفحات الرحمة وتعريض بالمقاصد ، والثاني تصريح بتأديب وتوحيد ، وقد أثنى عليها سيدي أبو عبد الله بن عبَّاد رحمه الله في آخر الرجز فقال:

لم تبق إلا ما به المناجاة سياقه حقت له المراعاة
لكونه يهذّب الأسرارا ويجلب الأضواء والأنوارَا
ونظمه نطيل هذا المقصدَا الدالّ على أسلوبه فليوردَا
والله يا أُخىَّ ، ويا صفيِّ إن انتهجتَ منهج ذا الولىّ
وسقته مساقه الجميلا منكسراً وخاضعاً ذليلا
رأيتَ فى باطنك الزياده والخيرواستبشرت بالسعادة

وإذا كان الأمر كما ذكر فلنأت بها ممزوجة بما يتعلّق بها من الكلام ؛ ليكون أدعى للتحصيل ، وأوقع فى النفس ، وآثر للثبات. فنقول وبالله التوفيق :

المنـــاجاة

الفصل الأول

وقال رضى الله عنه :

فى مناجاة مولاه وتضرّعه بين يديه بما أولاه : **الهى أنا الفقير فى غناى** إذ ليس وجوده منى، ولا دوامه لى، ولا بقاؤه بى، ولا تحققه من عندى مع توقّفه على الأسباب فى وجوده واستمداده وبقائه ، والكلُّ منك واليك ، فاغننى بك عنى وعن كل شىء يا كريم. **فكيف لا أكون فقيرا فى فقرى** الذى يشهد حالة عدمى ، وعليه مبنى وجودى ، وهو أصلى وفصلى ، وعليه جرى نعتى ووصفى ؛ إذ لم أكن شيئاً مذكوراً ، ولولا نعمة ربى لكنت من المحضرين **الهى أنا الجهول فى علمى** إذ لا علم لى إلاّ بتعلُّم فهو متوقّف على التعلُّم ، ووجود المعلومات مع عدم الإحاطة وإمكان التفلُّت والانقلاب والتلبّس[1] **فكيف لا أكون جهولا فى جهلى** الذى هو نفىٌ محض، وعدم صِرْف ، وملازم لى فى جميع أحوالى، حتى لقد أحبُّ الشىء وهو شرٌ لى. وأكره الشىء وهو خيرٌ لى ، فاجعل لى نوراً يستمد منه علمى ، وينتفى به جهلى بفضلك إنّك على كل شىء قدير **الهى ان اختلاف تدبيرك فى** الكائنات حتى جرت على ما تريد كما تريد من غير حجر ولا توقف ولا تقييد **وسرعة حلول مقاديرك فى** المخلوقات حتى جرى ما قدّرت على ما أردت

(١) وفى نسخة (التلفت ، والانفلات ، والتلبيس) .

وعامت بلا مهلة ولا أسباب موجبه ، هما اللذان **منعا عبادك العارفين بك** من حيث جلالك وعظمتك وكمال أوصافك وتأثيرها على عبادك **عن السكون الى عطاء** ؛ أذ ليس لهم تصرّف فى بقائه ، ولا أحواله، ولالهم حكم فى إمداده وإبقائه ، وفى علمك ما لا يقضى عليه شىء من خلقك **واليأس منك فى بلاء** لأنك الذى ترمى بالشدّة ، وتدارك بالعافية[1] فلا ييأس منك إلاَّ مخذول، ولا يأمن مكرك إلاَّ جهول **الهى منى ما يليق بلؤمى** من الإساءة والإجرام **ومنك ما يليق بكرمك** من الإحسان والإنعام فاجعلنى مشاهداً للؤمى حتى أذكرك ، وذاكراً لكرمك حتى أشكرك ،متبرئاً من نفسى ومستنداً اليك يا كريم **الهى وصفت نفسك باللطف والرأفة بى قبل وجود ضعفى** إذ سميت نفسك لطيفاً رءوفاً فى أزلك واتّصفت بذلك وأنت القديم ، **أفتمنعنى منهما بعد وجود ضعفى** وأنت الحليم الكريم ، حاشا فضلك وكرمك يا عظيم **الهى ان ظهرت المحاسن منى فبفضلك الذي** لا علة له ؛ لأنى محل تقصير وآفة ، وعصيان وإساءة ، من حيث وجودى

ولك المنة على فيما أظهرت علىّ من ذلك لأنى محتاج له ومفتقر اليه مع عدم قدرتى على تحصيله، فلك الحمد فيما أسديت، ولك الشكر فيما أوليت **وان ظهرت المساوىء منى فبعدلك** . الذى لا يلحقه نقص ولا يجوز عليه ظلم؛ لأنك أنت الملك المالك الذى لا يُملَك ، ولا مُلك لغيره ، لك الحجة

---

(١) وفى نسخة : (لأنك الذى تنزل الشدة وتزال بالعافية) .

على خلقك (قلْ فللهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ) **ولك الحجة على** فيما ظهر علىَّ من المساوىء، أو حقوق عبوديتك لازمة والإساءة منى ظاهرة قائمة، فإنْ تردْنى بخير فمن إفضالك، وإن تجزنى عما أنا عليه فمن عدلك بعد إمهالك **الهى كيف تكلنى وقد توكلت بى** إذ سمَّيتَ نفسك وكيلاً فى أزلك، وأظهرت ذلك بإيصال المنافع ودفع المضارِّ عنى حيث لاقدرة لى عليه، ولا كانت، وأبديت ذلك فى عوالمى بكل حالٍ يا كريم **وكيف اضام** أى أُنْقَصُ من حقِّى الذى جعلت لى بكرمك **وانت النصير لى** على كل عدوّ وغيره من أمرى؛ إذ سمَّيت نفسك «نصيراً» قبل كونى **ام كيف اخيب** فيما آمله وأطلبه من أمر الدنيا والآخرة **وانت الحفى بى** أى الرفيق اللطيف الرفيق لى على علم بخفىِّ الخَفِىّ من أمرى، القادر على توصيل ذلك بألطف وجه وأرفقه علىَّ فاجعلنى ممن شهد وكالتك فاكتفى بك عن كل شىء، ولم يدبّر أمراً معك، وممن نظر لنصرتك فلم يعرّج على طلب النصرة من غيرك، وممن عاين سابق لطفك فعلَّق أمله فى كل أمرٍ بك، فإن المكرومَ مَنْ رجع إليك بكل حال، والمحروم من رجع لغيرك بحال من الأحوال.

ها أنا أتوسل اليك بفقرى اليك.

توسّل من يعلم أنه لا غنى له عنك أبداً، ولا يغنى عن فقره منك شيئاً[1]، وإنما أتوسّل به بأنه داله عليك وموصّله لما لديك.

---

(١) وفى التيمورية (توسل من يعلم أنه لا غنى عند فقره منك شيئاً. وإنما أتوسل به لأنه دلالة عليك ووصلة لما لديك). وفى نسخة الدار (لاغنى له عنك—

وكيف أتوسل اليك بما هو محال أن يصل اليك .

لا يصحّ ذلك ولا يمكن ، لكنْ رجوع العبد إلى حدِّه ، ونفقة الفقير مما يخرج من عنده ، كما قيل :

مالى سوى فقرى اليك وسيلة
فبالافتقار إليك ربّى أضْرَع

ورجوع العبد لأوصافه من تحققه[1] بأوصافه تعالى :

أم كيف أشكو اليك حالى وهى لا تخفى عليك .

وكيف تخفى عليك وأنت مبدئها ومنشئها والمقَدِّر لها والمدبِّر ، وسعت كلَّ شىء رحمة وعلماً فاجعلنا ممن شهد بذلك أبداً فاكتفى بعلمك ورحمتك عن شكواه إليك .

أم كيف أترجم لك بمقالى وهو منك برز اليك .

لأنك المبدىء له والمعيد ، ومن كان مبدأُ كلِّ شىء منه ومرجعُه إليه كيف يحتاج إلى ترجمةٍ عنه « أَلاَ يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ » .

أم كيف تخيب امالى وهى قد وفدت اليك .

فيما آمله من أمر الدنيا والدين، وأنت الكريم الذى تكرم الوافدين،

=أبدا ولا يغنى عنك فقره منك شيئاً وإنما توسل به لأنه دال عليك وموصل لما لديك) .

(١) وفى نسخة الدار (من تحققه باتصافه).

ولا تُخيِّب القاصدين، كلاَّ وعزَّتك لا يكون ذلك أبداً.

أم كيف لا تحسن أحوالى وبك قامت واليك .

قامت بك لما أشهدتها من الحقيقة وإليها قياماً[1] بحق الشريعة، وإن كان فى قيامها ضعف ونقص فبساط الكرم ممـــدود للفقراء والمساكين، وهدية العبد على قدره، فالفضل أن يقبلها السيد.

قيل أرْجى آية، فى كتاب الله (قُلْ كلٌّ يَعْمَلُ عَلَى شَاكِلَتِهِ)[2] فالربّ يليق به الفضل والكرم، والعبد يليق به الفقر والعدم.

الٰهى ما ألطفك بى مع عظيم جهلى .

إذْ جهلتُ قدرى وجهلت أمرى ولم أعلم خيرَه فى سرِّى ولا جهرى فأنت ترشدنى لما فيه صلاح دينى ودنياى، ولا تتركنى فى جهلى ولا بلواى،

وما أرحمك بى مع قبيح فعلى .

أعصيك فترحمنى وتحْلُمُ عنى، وأُقصِّر فى حقوقك فتكرمنى وترحمنى فلا تعاجلنى بالعقوبة، ولا تقطع عنى مداد التوبة[3]، بل تعد بالمغفرة والفضل وتعامل بالجميل فى كل حال، فلك الحمدُ ولك النعمة ولك الفضل ولك الثناء الحسن الجميل.

---

(١) وفى نسخة (إليك مهداة قياما بحق الشريعة).
(٢) آية ٨٤ من سورة الإسراء.
(٣) وفى نسخة (مدد المثوبة).

الهى ما أقربك منى بعلمك وقدرتك وإرادتك وإحاطتك التى لا تكيّف ولا تُوصف بالتمثيل والجهة والحد والحين ، إذ أنت المتصرف فى كل شىء من المصرّف أبداً أقرب إلى المصرّف من وجود التصريف ونحن أقرب إليه من من حبل الوريد ، فما أقربك منى يا مولاى ، **وما أبعدنى عنك** إذ لا نسبةَ بين عبد وربّ ، لا من سبب ولا من غيره ، بل كما قال الشيخ أبو العباس المرسى رضى الله عنه : يا قريب أنت القريب وأنا البعيد ، قربك منى أيأسنى من غيرك ، وبعدى عنك ردّنى للطلب منك[1] ؛ فكن لى بفضلك حتى تمحو طلبى بطلبك يا عزيز يا قريب .

ماأرأفك بى فما الذى يحجبنى عنك ، وكلّ مظاهر رأفتك دليل عليك وليس فى الكون إلاّ مظاهر رأفتك ورحمتك يارءوف يارحيم **الهى قد علمت باختلاف الآثار وتنقلات الأطوار أن مرادك منى أن تتعرف الى فى كل شىء** برأفتك ورحمتك الظاهرة فى آثار كلٍ على اختلافه الواضحة فى تنقلات أطواره ، حتى كان ساجداً ومُسبِّحاً بلسان حاله ، أو فعله أو مقاله . **حتى لا أجهلك فى شىء** لارتباط تعريفك لى بكلّ شىء فى حركاته وسكناته وسائر وجوده فى تقلّباته وفى سائر أحواله وأطواره **الهى كلما آخرسنى لؤمى أنطقنى كرمك** فإذا نظرتُ لأوصافى صَمَتُّ فلم أُعبّرْ ولم أُخبر عن كرمك ، وإن نظرتُ لإحسانك تكلمت فعبرّت وأخبرت ؛

---

(١) وفى التيمورية (من غيرك) .

لأن الكرم لا يفتقر إلى شرط ولا يتوقف على سبب، وأفعال العباد تحتاج إلى التخليص والإخلاص كما قال قبل هذا (من عبَّر من بساط إحسانه أَصْمَتَتْهُ الإساءة مع ربه ، ومن عبّر من بساط إحسان الله إليه لم يصمت إذا أساء) **وكلما آيستني أوصافي أطمعتني مننك** الجارية لى فى عموم الحالات والأوقات ، لأن أوصافي لا تقضى على أوصافك ، وأفعالى لا ترد شيئاً من أفعالك ، فإذا نظرت إليك فلا خوف ولا رجاء ، وإذا نظرت إلى أفعالى فالكل مردود ومُوجب لطردى لما فيه من العلل والآفات **الهى من كانت محاسنه مساوىء** لما يدخلها من الآفات والعلل **فكيف لا تكون مساوئه مساوىء** التى هى عين النقص والعيوب والزلل . **ومن كانت حقائقه دعاوى** لكونها ليست منه ولا له ولا بارزة عنه ، لثبوت افتقاره **فكيف لا تكون دعاويه دعاوى** ومن كان كذلك فهو فى غاية الفقر سواء كان له شىء ، أو لا شىء له ؛ إذ لا شىء له فى الفرع ولا فى الأصل ، المعدوم معدوم والموجود معلول[1] والمتشبع بما لم يُعْطَ كلابس ثوبى زورٍ ، وأنا ذلك الرجل ، فارحمنى بفضلك وقابلنى بإحسانك يا كريم.

الهى حكمك النافذ ومشيئتك القاهرة لم يتركا لذى مقال مقالا فترجم به عن محاسنه ومساوئه **ولا لذى حال حالا** فيدّعى به ما يريده من حقائق وغيرها **الهى كم من طاعة بنيتها** حتى قام فى نظرى وجودُها وظهر لى تحصيلها

(١) وفى نسخة (معدوم).

وحالة شيدتها حتى ظهر لى أنى أحكمتها وحصنتها هدم اعتمادى عليها عدلك حين نظرت إليها فيه فرأيت أنك إن قابلتنى به فيها لم يبق لى حالا ولا عملا بل اقالنى منها فضلك حين نظرت إليه فيها وفى غيرها فلم يبق بيدى سواه ، لأنك أنت الذى مننت بالكل وتفضلت بالجميع ياأكرم الأكرمين .

الهى انك تعلم وان لم تدم الطاعة منى فعلا جزما فى عموم الأوقات والحالات بأن تعتريني الفترات والتقصير والغفلات فقد دامت محبة وعزما فى سائر الأزمان والأوقات ؛ لأن ذلك من مقتضيات الإيمان كما قال تعالى : (وَلَكِنَّ اللهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالفُسُوقَ وَالْعِصيَانَ[1]) .

الهى كيف اعزم وانت القاهر الذى لا يتم مع قهره أمر إذا أراد نقضه حتى عرفه العباد بنقض العزائم وتبديل الأوقات والحالات وكيف لا اعزم وانت الآمر الذى لا بد من امتثال أمره والعزم على طاعته وبره الهى ترددى اليك فى الآثار بالرد والقبول والنظر والاستدلال وغير ذلك من الأحوال يوجب بعد المزار عن حضرتك ودائرة ولايتك ،لما فيها من الشغل بغيرك وإن كان ذلك لا لغيرك فاجمعنى عليك بخدمة توصلنى اليك لأن أولى مارجع إلى الله ماجاءنا عن الله ، وخير ما استعمل فى

---

(١) من سورة الحجرات .

طلب رضاه ماعُرف قطعاً أنه يرضاه (وإن تشكروا يرضه لكم) **الهى كيف يستدل عليك بما هو فى وجوده مفتقر اليك** من الأسباب العدمية والآثار الوهمية والخلائق الملْهية التى لو لا الله ما وجدت ولولا فضله مااستُمِد لها وجود ، وهو محل الافتقار أبداً **ايكون لغيرك من الظهور ماليس لك حتى يكون هو المظهر لك** بل أنت الظاهر ومظهر المظاهر الذى لا يفتقر فى ظهوره إلى دليل يدل عايه ، ولا فى قربه إلى شىء يوصل إليه ؛ فالمستدل بالغير محجوب به ، والمتوسلّ به مصروف عنك **متى غبت حتى تحتاج الى دليل يدل عليك ، ومتى بعدت حتى تكون ألآثار هى التى توصل اليك** فإنك ولّيتها رُتبة الدلالةِفدلّت. وأعطيتها مكان التوصيل فوصّلت ، فما دَلّ عليك سوى ربوبيتك ، وما وصَّل إليك سوى آلهيتك ،مع أنك غير محتاج إلى شىء من ذلك كما قيل :

عجبت لمن يبغى عليك شهادة
وأنت الذى أشهدتَه كلَّ شاهد

الهى عميت عين لاتراك عليها قريبا رقيبا وحقّ لها العمى ؛ إذ لم تراقب من هو أقرب إليها من وجودها ولم تشاهد تصرّفه فيها ، وقيامَهُ عليها .

وخسرت صفقة عبد لم تجعل له من حبك نصيبا .

إذ لا ينفعه شىء ، ولا يتوصل لخير أبداً ، سواء قلنا من حبّك إياه، أو من حبه إياك ؛ لأن من لم يُحبَّه مولاه وكله لنفسه فهلك ، ومن

أحبه كفاه كلّ شيء فملك ، ومن لم يحبّ مولاه لم يتوجّه له ، ومن لم يتوجّه له كان مطروداً عنه .

ثم يحتمل قوله « عجبت وخسرت » أن يكون خبراً أودعاء ،وكل صحيح ، فتأمله . **الهى أمرت بالرجوع الى الآثار** عبودية وتأدباً ، وقياماً بحقّ الحكمة وإقراراً بعجز البشرية وَرجوعاً لشهود النقص وَالافتقار **فارجعنى اليها بكسوة الأنوار** الإيمانية وَالعرفانية التى لا يخفى معها شيء **وهداية الاستبصار** العلمية حتى أكون على نور وَبصيرة أبقَى وَأَرِدُ[1] فيها ؛ فأدعو إليك على بصيرة أنا ومن اتّبعنى ،كما أمرت به نبيك صلى الله عليه وسلم فى كتابك العزيز بقولك الحق (قُل هٰذه سَبيلِى ادْعُو إِلى الله عَلَى بَصيرة أَنَا وَمَنْ اتَّبعَنِى[2]) يقول وإنما طلبى لكسوة الأنوار وهداية الاستبصار لأمرٍ هو **حتى ارجع اليك منها** بالتوجه بها، والغنى عنها ؛ لأن الكشف يقتضى ذلك من شأنها وهو الذى يفيده النور.والهداية تدعو إلى ذلك ، لأنها خروج عن الكلّ بالحق للحق من حيث يرضى **كما دخلت اليك منها** بالمعاملة فيها وبها والغنى عنها بالتحقيق بغيرها . وإذا رجعت إليك منها من لازم ذاك أن أكون : **مصون السر عن النظر اليها** فى إقبال ولا إدبار ولا نفع ولا إضرار ، أولاً

---

(١) وفى نسخة الدار (فيما أبقى وأذر) .
(٢) آية ١٠٨ سورة يوسف .

وآخراً **ومرفوع الهمة عن الاعتماد عليها** باعتمادى عليك ، وإستنادى إليك ظاهراً وباطناً ، كما فى تلك الحكاية « أحسن من ذلك تيه الفقراء على الأغنياء ثقة بالله » وأكبر من ذلك همة العارفين تتلاشى فيها جميع المقدورات فضلا عن المخلوقات . فامْنُنْ علينا بذلك وحققنا به يامن بيدك ملكوت كل شىء وهو يجير ولا يجار عليه . **انك على كل شىء قدير** وبالإجابة جدير ، يانعم المولى ، ويانعم النصير فأنت حسبنا ونعم الوكيل.

الفصل الثانى

وقال رضى الله عنه :

وهو مرتّب على الذى قبله بزيادات لمن تأمله . وهذا أوله :

الهى هذا ذلى ظاهر بين يديك ظاهراً وباطناً ؛ إذ ليس لى شئ اعتدّ به، لأنى فقير فى غناى فضلا عن فقرى ، وجاهل فى علمى فضلا عن جهلى .

وهذا حالى لا يخفى عليك . وإنّى لا أملك نفعاً ولا دفعاً ولا عطاءً ولا منعاً، ولا أثق بشىء من ذلك فى وجود ولا عدم ، مع أنّى متصف بما يليق بى من لؤمى مُتَعَرّض لكرمك **منك أطلب الوصول اليك** طلباً لفضلك اللاحق حسب ما أطمعنى فيك إحسانك السابق منك ما يليق بكرمك **وبك استدل عليك** إذ واجهتنى بأسباب ذلك من اللطف والرحمة المتوجهيْن لضعفى الذى لولاهما ما كنت ولا دمت . والأصل أبداً دليل على الأثر .

فاهدنى بنورك اليك :

حتى تظهر المحاسن منى بمنّتك التى أجرت علىّ نورك فأبصر به الخير فآتيه والشرّ فأتّقيه

وأقمنى بصدق العبودية بين يديك :

حتى تزيل عنىّ المساوى ، وتذهب عنى الدعاوى ، فيظهر علىّ من فضلك مالا يظهر معه فى أثر عدلك ، وإن كان الكل فى طىّ الكلّ فللنسب اختصاص واعتبار

الهى علمنى من علمك المخزون :

الذى علمته أولياءك حتى وثقوا بكفالتك ، واستندوا لوكالتك .

وصنى بسر اسمك المصون :

الذى صنته بجملة أسمائك ، وخصصت به خواصّ أوليائك ، فصانهم عن ضيم الأعداء والسكون إلى الأولياء فحصل لهم النصر المبين بوجود الفتح والتمكين .

الهى حققنى بحقائق اهل القرب

الذين شاهدوا أوصافك ، فاكتفوا بك ، فتوكلوا عليك ، فلم تكلهم إلى غيرك ، ولم يلحقهم ضيم بنصرك ، ولم يخب لهم أمل بفضلك .

واسلك بى مسالك اهل الجذب

الذين وقفوا بين يديك موقف الافتقار على بساط الاضطرار ، فتوسلوا بك إليك من بساط فقرهم لكمال معرفتهم .

الهى اغننى بتدبيرك عن تدبيرى

حتى لا أشكو بحال ولا أترجم بمقال . ولا أتعلق بمال ولا آمال ، اكتفاء بعلمك ورحمتك وتدبيرك الجارى على أتم وجه وأحسن حال ، اقتداء بخليك إبراهيم إذ قال (حسبى من سؤالى علمه بحالى) .

وباختيارك لى عن اختيارى.

حتى أرجع فى كل شىء لاختيارك ، ولا أنظر فى شىء باختيارى ، فأكون بك وإليك راجعاً لحسن اختيارك ، فبذلك تحسن أحوالى وتزكو علومى وأعمالى .

واوقفنى على مراكز اضطرارى

فاشهد لطفك مع عظيم جهلى ، ورحمتك مع قبيح فعلى ، لأنى فى كل أمرى وبكل حالى مفتقر إليك وأنت اللطيف الخبير .

الهى اخرجنى من ذل نفسى

بشهود قربك المقتضى لمراقبتك ، حتى تُطاع فلا تُعْصى وتُذكر فلا تُنسى . ويكون العبد بك وإليك قائماً بالعبودية والتذلّل الذى هو عين عزّه بين يديك .

وطهرنى من شكى وشركى.

المقتضيَين لبعدى وحجبى بشهود رأفتك التى لا تُبقى لى شكا ولا شِركا بظهورها فى عوالم القلب وغيره واجعل ذلك :

قبل حلول رمسى :

أى : تراب قبرى ؛ لأن ما بعد حلول رمسى غير نافع لى ؛ لانقطاع التكليف والاستفادة عنه ، إذ هو محل كشف الحقائق وثواب العمل.

بك استنصر :

على ما أخشاه من اختلاف الآثار وتنقلات الأطوار **فانصرنى** على كل شىء من ذلك بما علمته يصلح لنصرتى ، وإن كان استنصارى ناقصاً فأنت الرحيم .

وعليك أتوكل .

فيما آمله من الآثار والأطوار في تنقلها وتقلُّبها وغير ذلك .

فلا تكلني[1] :

لِشيء سواك من نفْس ولا خلق ولا دنيا ولا غيرها من الآثار والأطوار فأنت الوكيل .

ولجنابك انتسب .

لمعرفتي أن اختلاف الآثار وتنقلات الأطوار إنما تجرى بإجرائك ، فالمكروم من أكرمته ، والمحروم من أحرمته .

فلا تبعدني عنك .

بالاشتغال بالآثار والأطوار ، ردّاً وقبولاً ، وحبًّا وبغضاً وغير ذلك .

وببابك اقف .

وقوف مفتقر قد دفعته العوالم باختلاف آثارها وتنقلات أطوارها إليك ، فلم أجد ملجأ سواك .

فلا تطردني .

عن بابك وإن كنت مستحقاً للطرد باختلاف أعمالي وتقلبات أحوالي .

وإياك أسال .

في كل حال من اختلاف الآثار وتنقلات الأطوار قَلَّتْ وجَلَّتْ .

(١) في شروح الحكم يأتي بعد قوله « فلا تكلني » (وإياك أسأل فلا تخيبني وفي فضلك أرغب فلا تحرمني ولجنابك . . . الخ) .

فلا تخيبني .

لأنيّ إنما أسألك من بساط كرمك لا من بساط فعلي ؛ إذ كلما أخرسني لؤمي أنطقني كرمك ، وكلما أياستني أوصافي ، أطمعتني منّتك ، وجناب كرمك لا يفتقر إلى شرط يا أكرم الأكرمين .

(١) أنت الغني بذاتك عن أن يصل اليك النفع منك .

لأنك أنت الغنيُّ على الإطلاق ، القدير بلا قيد ، فلا يتوقف كرمك على شيء ، ولا يتقيدّ بسبب لجميع أفعالك .

فكيف لا تكون غنيا عني .

وأنا الفقير بكل حال ؛ إذْ محاسني مساوىء وحقائق دعاوى ، وأنا محل المساوىء والدعاوى ؛ لاتصافي بالنقص على كل حال وأنت الكامل ذاتاً ووصفاً ، واسماً ، وفعلاً يا كريم .

الهى : ان القضاء والقدر غلبني .

فلم يتركا لي مقالا أدعو به ولم يَدَعا لي حالا أنظر إليه .

وان الهوى بوثاق الشهوة اسرني .

فنقص أعمالي وأفسد أحوالي وذلك عدل في عينْ الحكمة .

فكن انت النصير لي .

في كل أمر أريده ويصدر منيّ من شهوة وغيرها ، بأن أشاهد عدلك في المنع ، وفضلك في العطاء وأجرِ لي ذلك على أكمل وجه .

---

(١) تذكر شروح الحكم قبل هذا قول ابن عطاء الله : (الهى تقدس رضاك أن تكون له علة منك ، فكيف تكون له علة مني) أنت الغني بذاتك ... الخ .

حتى تنصرني في نفسي .

باليقين ، واتِّباع الحق ، والفهم في كل شيء .

وتنصرني .

ممن انتمى إليَّ من صادق وصديق ، وحبيب ومنتسب بأن يكون لهم شربٌ مما تنيلني كما يليق بهم من فضلك .

وأغنني بجودك .

عن كل شيء ، حتى لا أعتمد على أعمالي ولا على شيء من دوام عزمي وغيره .

حتى استغني بك عن طلبي .

فيكون توجهي لك من بساط العبودية إنك انت القاهر والآمر الذي لا تدخل الأسباب فيما عنده ، ولا بدّ من مراعاة حكمته واتِّباع أمره ، فيكون العمل له لا لشيء ، والطلب منه لا لشيء ، بل لا طلب ؛ إذْ لا نسبة للخلق عند ظهور آثار الحق .

انت الذي اشرقت الأنوار في قلوب اوليائك .

حتى عَرفوك ووحّدوك فانجمعوا عليك بخدمةٍ موصِّلة إليك ، فلم يلتفتوا إلى الآثار ولا وقفوا مع التقلبات والأطوار .

وانت الذي ازلت الأغيار من قلوب احبابك .

حتى نظروا إليك ببصائر الإيمان والإيقان ، فأغناهم ذلك عن الدليل والبرهان ، وصاروا يستدلُّون بك على الحق فلم يشاهدوا شيئاً سوى الملك الحق .

انت المؤنس لهم .

بجميل أوصافك وعظيم جلالك إذ شهدوه .

حيث اوحشتهم العوالم .

بما هى عليه من فقرها وذلها وعجزها فشهدوا ظُلمَة المعالم ، وأنها لا تهدى إلى شىء ولا توصّل إليه ، بل هو مُظهر الظاهر ، لأنه واجب الوجود وما سواه جائز .

وأنت الذى هديتهم حيث استبانت لهم المعالم .

هداهم للتوفيق لمّا ظهرت لهم المعالم ، أى أدلّة التحقيق فرأوا كل شىء به ؛ إذ كل شىء له ، وأنه الحاضر بلا غيبة ، والقريب بلا بُعد .

ماذا وجد من فقدك .

وإن وجد خيرَ الدارين فهو فاقد ؛ لتلاشى ما أُوتيه فى جنب ما فاته ، وأيضاً فلا يتمّ إلاّ به بل لا يصح بغيره .

وما الذى فقد من وجدك .

وإن فقد كل شىء فى الوجود حتى نفسه فليس بفاقد ؛ إذ من كان فى الله تلفه كان على الله خلَفه ، وسواء وُجد بطريق الجلال وهو الذى يقتضى المراقبة ، أو بطريق الجمال ، وهو الذى يقتضى المحبّـة .

لقد خاب من رضى دونك بدلا .

وما ذلك إلاّ لأنه لا يراك عليه رقيباً ، ولم يشهدك منه قريباً ؛ إذ لو كان ذلك ما التفت لغيرك فضلا عن أن يرضى به .

ولقد خسر من بغى عنك متحولا .

وما ذلك إلاّ لأنه مطرود عن محبَّتك ، لأنك لو أحببته لم تصرف وجهه لغيرك ، ولو أحبَّك ما أمكنه أن ينظر غيرك .

الهي كيف يرجى سواك وانت الذى ماقطعت الاحسان .

بل جعلته متجدداً متعدداً مع الآثار والأطوار ، حتى أن من رجع إليها بنورك لم يشاهد فيها غيرك .

وكيف يطلب من غيرك وانت ما بدلت عادة الامتنان .

بل أجريتها مع الحالات والأوقات ، وكرّرتها على ممرّ الأنفاس والتَقَلّبات فلم يصح لذى بصيرة اعتماد على غيرك ولا رجوع لسواك .

يا من أذاق احبابه حلاوه مؤانسته فقاموا بين يديه متملقين .

قيام العبيد بين يدى الملك المجيد ، إذا وجدوا منه نفحة القرب ، وَنسمات الرحمة فناجوه فى بساط العبودية على وجه الإفتقار والتذلُّل ، فأعطاهم فى الحال ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ، وأعدَّ لهم مثل ذلك فى الدار الآخرة .

ويامن البس اولياءه ملابس هيبته فقاموا بعزته مستعزين .

رفعاً للهمة عن الخلائق ووقوفاً مع الحق بشهود الحقائق ، فهم تحت جلاله حامدون ، وبوجهه الكريم متعززون ، ولا تستعبدهم الأغيار ، ولا تطرقهم الأكدار ، لأنهم فى كنفه وعزّه .

انت الذاكر من قبل ذكر الذاكرين

إذْ لو تذكرهم بالتوفيق ما ذكروك بالفعل والقول والتصديق .

وانت البادىء بالاحسان من قبل توجه العابدين .

إذ لو لم تحسن إليهم ما عبدوك فبتوفيقك توجهوا للعبادة، وبعافيتك ورزقك استعانوا على طاعتك .

وانت الجواد بالعطايا من قبل طلب الطالبين .

إذ لو لم تَجُدْ عليهم قبل طلبهم بإيجاب ما طلبوه[1] وإيجاده ، وبتحريكهم ما طلبوك ، بل كما قيل :

لو لم تُرِد نيل ما أرجو وأطلبه
من فيض جودك ما علَّمتنى الطَّلبا

وأنت الوهاب .

لنا إذ كل شيء من عطائك بلا علَّة وَلا سبب سابق .

ثم انت لما وهبتنا من المستقرضين .

تكملة للمنة بظهور النسبة[2] إذ لست بمحتاج إليهم ، وَلاهم أغنياء ولا مستقلين بما لديهم .

الٰهى أطلبنى برحمتك حتى أصل اليك

إذ لا وصول إليك إلاّ بفضلك ورحمتك وكرمك .

واجذبنى بمنتك حتى أقبل عليك

إذ لا إقبال عليك إلاّ منك[3] ، ولا وصول إليك إلاّ بك ، وإن

---

(١) وفى نسخة الدار (بإيجاب ما يطلبون إيجاده وتحريكهم ما طلبوك) .
(٢) وفى نسخة الدار (بظهور السنة) .
(٣) وفى نسخة (إلا بمنك) .

كانت الأسباب معروضة فالحقائق ملحوظة ، كما أشار إليه الصحابة رضى الله عنهم حيث قالوا :

والله لولا الله ما اهتدينا ولا تصدّقنا ولا صلّينا

الهى ان رجائى لاينقطع عنك وان عصيتك

لعلمى بأنك أنت الغفور الرحيم الذى لا يتعاظمه ذنبٌ يغفره

كما ان خوفى لايزايلنى وان أطعتك

لعلمى بأنك أنت الفعّال لما تريد بلا حجر ولا توقف لاسيما وقد ورد فيما يُوحَى(١) « ياداود : قل لعبادى الصدّيقين لا يغترّوا ؛ فإنى إن أُقم عليهم عدلى وقسطى أعذبّهم غير ظالم لهم ، وقل لعبادى المذنبين لا ييأسوا فإنى لا يتعاظمنى ذنب أغفره لهم » .

الهى قد دفعتنى العوالم اليك

إذ لم أجد فيها نصرةً ولا إعانة ؛ لفقرها وذلّها وعجزها وضعفها .

وأوقفنى علمى بكرمك عليك

فلم يمكنّى غير ملازمتى بابك ، والإستناد إلى جنابك ، إذ أنت الغنى العزيز القدير الكريم ، بدأت بالنوال قبل السؤال ، ولم تزل تجرى علينا الإحسان والأفضال .

---

(١) وفى نسخة الدار (فيما أوحى الله : ياداود ..)

كيف اخيب وانت امل

فيما أريده جلباً ودفعاً وخفضاً ورفعاً ، وضُراً ونفعاً ، والله لايكون ذالك وأنت الكريم المحسن أولا وآخراً .

أم كيف اهان وعليك متكلى

فى جميع أمرى ومن توكل عليك كفيته ، ومن تعلق بك هديته (ومن يتوكل على الله فهو حسبه) فأسألك صدق التوكل عليك ، وحُسنَ الإنابة إليك حتى ألقاك يا أكرم الأكرمين .

الهى : كيف استعز وفى الذلة اركزتنى

إذ خلقتنى من تراب ، وغذيتنى من تراب، وتردنى للتراب. أوَّلى: نطفة مَذرة[1] ، وآخرتى جيفة قذرة ، وأنا فيما بين ذالك كما تعلم من النقص ظاهراً وباطناً، ولى ذل فوق هذا أو دونه .

ام كيف لااستعز واليك نسبتى

إذْ خلقتنى ورزقتنى ، وألهمتنى وعلمتنى ، وأرشدتنى وهديتنى ، فأقول مولاى ولا أُبالى ، وأيّ عزّ فوق هذا وأىّ شرف أكبر منه .

الهى كيف لا افتقر وانت الذى فى الفقر اقمتنك

إذ جعلتنى محتاجاً لكل شىءٍ من أمرى الدنيا والآخرة ، وأقمته على أيدى الخلائق ، وهذا غاية الفقر .

---

(١) أى : قذرة .

ام كيف افتقر وانت الذى بجودك اغنيتنى

إذ جعلت كل شيء بيدك ، ففتحت باب الغنى عن الكل بالتوجه اليك ، وبابَ الفقر بالاحتياج لما يتوقف عليه وجودى، فأسألك غناك[1] حتى لا ألتفت لغيرك ، وفقرى إليك حتى لا أحسّ باستغناء عنك مع العافية يا كريم.

انت الذى لا اله غيرك

فيُعبَد ، ولا معبود سواك فيُقْصد .

تعرفت لكل شيء

بما يجرى عليه وعلى غيره من اختلاف الآثار وتنقلات الأطوار

فما جهلك شيء

لارتباط العلم بك من ضرورياته بتقلباته وغير تقلباته .

وتعرفت الى فى كل شيء

بما يجرى على ذلك الشيء من اختلاف الآثار وتنقلات الأطوار .

فرأيتك ظاهرا فى كل شيء .

بما تجرى عليه من وجوه التعريف ، لا من حيث الحلول والتكييف .

---

(١) وفى نسخة الدر (فأسألك غنى بك حتى لا ألتفت إلى غيرك ، وفقرا إليك حتى لا أحس باستغنائى عنك) .

فأنت الظاهر لكل شيء

ظهور دلالة وتعريف ، لا ظهور معاينة وتكييف ، تعالى ربّنا جلّ وعلا .

يامن استوى برحمانيته على عرشه :

بمعنى : أظهر فى العرش وما فيه وجودَ رحمته حتى لم يُوجد فيه سوى الرحمة ؛ لثبوت غنائه تعالى وافتقار الكلّ إليه ، كما أشار إليه القرآن المجيد بقوله (إلاّ من رحم ربك ، ولذلك خلقهم) قيل : للرحمة ، وقيل للاختلاف ، وقيل لهما ، مع أن الاختلاف هو عيْن الرحمة .

ثم الرحمانية مُتعلقها الإيجاد ، فلذلك لم تختص

والرحيمية متعلقها الإمداد وإمدادُ الكافر نقمة عليه بخلاف[1] وجوده ؛ إذ لايترتب عليه عقاب ؛ فلذلك اختصت الرحيمية بالمؤمنين .

فصار العرش غيبا فى رحمانيتك .

إذ لولا هى لكان عدماً محضاً ، ونفياً صرفاً ، فوجوده فيها غيب ، نعم ، هو فيها كذرّةٍ من الذرّات ، لولا تعظيم الربّ إياه واعتناؤه به .

كما صارت العوالم غيباً فى عرشه .

فكما أن العرش محتوى على جميع العوالم حسّاً فالرحمة محيطة به معنى ؛ فالعوالم غيب فيه ، وهو غيب فيها ، فسبحان ربى العظيم وبحمده .

---

(١) وفى نسخة (بلا خلاف) .

محقت الآثار بالآثار .

إذ غَيبَّتَ العوالم فى العرش ، حتى كأنها حلقة ملقاةٌ فى فلاة .

ومحوت الأغيار .

التى هى العرش وما فيه من العوالم .

بمحيطات أفلاك الأنوار .

التى هى آثار الأسماء والصفات من القدرة والإرادة ، والعلم ؛ لأنه لا نسبة للأغيار معها ، كما تقدّم .

لو ظهرت صفاته اضمحلّت مكوّناته.

يامن احتجب فى سرادقات عزه عن أن تدركه الأبصار .

فى هذه الدار ، وفى تلك الدار ، فى هذه الدار مطلقاً ، وفى تلك الدار إحاطة[1] ، إذ يراه المؤمنون كما صرّح به صادق الوعـــد ، والسرادقات : الحجب . استعارها للعزّ المانع من رؤية الله تعالى ولله المثل الأعلى .

يامن تجلى بكمال بهائه .

فى جلاله وجماله الذى لا يُكيَّفُ ولا يُدانى بشىء ولا يقاس به .

فتحققت عظمته الأسرار .

التى تجلى بأن أزال الحجاب عنها فتمكنت الحقيقة منها تمكنا سرى فى كل وجود صاحبها فأكسبه هيبة وإجلالاً وتعظيماً .

---

(١) إدراك إحاطة كما فى نسخة الدار .

كيف تخفى وأنت الظاهر .

الذى لا يصحّ خفاؤه ، ولا يتوقف ظهوره على سبب ولا أمر .

أم كيف تغيب وأنت الرقيب الحاضر :

الذى لا تصحّ غيبتهُ أبداً ، كما قال تعالى : (أو لم يكفِ بربّك أنه على كل شىء شهيدٌ ألا إنهم فى مرية من لقاء ربّهم ألاّ إنه بكل شىء محيط) .

وقد مضى من كلام المؤلف [كيف يحتجب الحق بشىء والذى يحجب به هو فيه ظاهر وموجود حاضر] .

والله سبحانه الموفق للعمل بهذا الكتاب ، والجرى على ما فيه من حقّ وصواب ، وبه أستعين على ذلك وغيره ، وهو حسبنا ونعم الوكيل ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم وصلى الله وسلم على سيدنا محمد سيد الأولين والآخرين ، وعلى آله وصحبه أجمعين والتابعين وتابعيهم بإحسان إلى يوم الدين والحمد لله رب العالمين .

من مؤلفات الدكتور عبد الحليم محمود

فى احياء المفاهيم الاسلامية

- القرآن والنبى صلى الله عليه وسلم .
- الإسلام والإيمان .
- العبادة .
- الإسلام والعقل .
- الجهاد والنصر .
- الرسول صلى الله عليه وسلم : لمحات من حياته ونفحات من هديه
- محمد رسول الله .
- التفكير الفلسفى فى الإسلام .

قضية التصوف

- المنقذ من الضلال : النظرية والتطبيق .
- المدرسة الشاذلية : شخصيات ومواجيد .
- كتاب الصدق لأبى سعيد الخراز : شخصيات ونصوص .

شخصيات صوفية

- أبو الحسن الشاذلى .
- أبو العباس المرسى .
- المحاسبى .

من التراث الصوفى

- الرسالة القشيرية .
- اللمع .
- الرعاية لحقوق الله .
- التعرف لمذهب أهل التصوف .

الفهـــرس



رقم الإيداع بدار الكتب المصرية ٣٦٩٩ / ١٩٦٩

دار النصر للطباعة
١٣ شارع سعد الله بالدرب الأحمر - القاهرة